سيد قطب

في ظلال القرآن

فی ظلال القرآن

الجزء الثامن عشر

بقلم

سید قطب

Marfat.com

من سورة المؤمنون والنور

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

سورة المؤمنون مدنية
واياتها ١١٨ نزلت بعد الانبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ .

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » ㉒

Marfat.com

هـذه سورة « المؤمنون » . . اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها . . فهى تبدأ بصفة المؤمنين ، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق . ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى محمد خاتم الرسل والنبيين ؛ وشبهات المكذبين حول هـذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ، ووقوفهم فى وجهها ، حتى يستنصر الرسل بربهم ، فيهلك المكذبين ، وينجى المؤمنين .. ثم يستطرد إلى اختلاف الناس ـ بعد الرسل ـ فى تلك الحقيقة الواحدة التى لا تتعدد .. ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستنكر هـذا الموقف الذى ليس له مبرر . . وتنتهى السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب ، يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ،

فهى سورة « المؤمنون » أو هى سورة الإيمان ، بكل قضاياه ودلائله وصفاته . وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

* * *

ويمضى سياق السورة فى أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين : « قد أفلح المؤمنون » . . ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح . . ويثنى بدلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها فى الحياة الدنيا متوسعا فى عرض أطوار الجنين ، مجملا فى عرض المراحل الأخرى . . ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة . . وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية : فى خلق السماء ، وفى إنزال الماء ، وفى إنبات الزرع والثمار . ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ؛ والفلك التى يحمل عليها وعلى الحيوان .

فأما الشوط الثانى فينتقل من دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان . حقيقته الواحدة التى توافق عليها الرسل دون استثناء : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . . قالها نوح ـ عليه السلام ـ وقالها كل من جاء بعده من الرسل ، حتى انتهت إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان اعتراض المكذبين دائما : « ماهذا إلا رجل منكم ! » ..

Marfat.com

« ولو شاء الله لأنزل ملائكته » . . وكان اعتراضهم كذلك : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟ » . . وكانت العاقبة دائما أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره ، وأن يستجيب الله لرسله ، فيهلك المكذبين . . وينتهى الشوط بنداء للرسل جميعا : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

والشوط الثالث يتحدث عن تفرق الناس – بعد الرسل – وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحـدة . التى جاءوا بها : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون » . وعن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة ، واغترارهم بما هم فيه من متاع . بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم ، يعبدونه ولا يشركون به ، وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر « وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » . . وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون ؛ فيأخذهم التوبيخ والتأنيب : « قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامرا تهجرون » . . ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ولا ينكرونه ؛ وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا . فماذا ينكرون منه ومن الحق الذى جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن فى السماوات والأرض ، وربوبيته للسماوات والأرض ، وسيطرته على كل شىء فى السماوات والأرض . وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث ، ويزعمون لله ولدا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى « فتعالى الله عما يشركون » .

والشوط الأخير يدعهم وشركهم وزعمهم ؛ ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يدفع السيئة بالتى هى أحسن[1] ، وأن يستعيذ بالله من الشياطين ، فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون . . وإلى جوار هـذا مشهد من مشاهد القيامة يصور ماينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . . وتختم السورة بتنزيه الله سبحانه : « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » . وبنفى الفلاح عن الكافرين فى مقابل تقرير الفلاح فى أول السورة للمؤمنين : «ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما

(١) السورة مكية . ولم يكن المسلمون حينئذ مأمورين بدفع العدوان بالعدوان .

Marfat.com

حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . وبالتوجه إلى الله طلبا للرحمة والغفران : « وقل : رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين » .

* * *

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادىء ، والمنطق الوجدانى ، واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذى يغلب عليها هو الظل الذى يلقيه موضوعها . . الإيمان . . ففى مطلعها مشهد الخشوع فى الصلاة : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . وفى صفات المؤمنين فى وسطها : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » . . وفى اللمسات الوجدانية : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » .

وكلها مظللة بذلك الظل الإيمانى اللطيف .

* * *

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين . وعد الله لا يخلف الله وعده ؛ وقرار الله لا يملك أحد رده . الفلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة . فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة . الفلاح الذى يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه فى واقع حياته ؛ والذى يشمل مايعرفه الناس من معانى الفلاح ، ومالا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين .

فمن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟

من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب فى الأرض ؟

Marfat.com

والمكتوب لهم الفوز والنجاة ، والثواب والرضوان فى الآخرة ؟ ثم ماشاء الله غير هذا وذلك فى الدارين مما لا يعلمه إلا الله ؟

من هم المؤمنون . الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح :

« الذين هم فى صلاتهم خاشعون .

« والذين هم عن اللغو معرضون . .

« والذين هم للزكاة فاعلون .

« والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم . . . الخ .

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

« والذين هم على صلواتهم يحافظون .

فما قيمة هذه الصفات ؟

قيمتها أنها ترسم شخصية المسلم فى أفقها الأعلى . أفق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول الله ، وخير خلق الله ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذى شهد له فى كتابه بعظمة خلقه : « وإنك لعلى خلق عظيم » . . فلقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : كان خلقه القرآن. ثم قرأت . « قد أفلح المؤمنون » حتى « والذين هم على صلواتهم يحافظون » . وقالت . هكذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] .

ومرة أخرى .. ماقيمة هذه الصفات فى ذاتها ؟ ماقيمتها فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة، وفى حياة النوع الإنسانى ؟

« الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . . تستشعر قلوبهم رهبة الموقف فى الصلاة بين يدى الله ، فتسكن وتخشع ، فيسرى الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات . ويغشى أرواحهم جلال الله فى حضرته ، فتختفى من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون فى الشعور به مشغولون بنجواه . ويتوارى عن حسهم فى تلك الحضرة القدسية كل ماحولهم وكل مابهم ، فلا يشهدون إلا الله ، ولا يحسون إلا إياه ، ولا يتذوقون إلا معناه .

(١) أخرجه النسائى .

Marfat.com

ويتطهر وجدانهم من كل دنس ، وينفضون عنهم كل شائبة ؛ فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله . . عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها ، وتجد الروح الحائرة طريقها ، ويعرف القلب الموحش مثواه . وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا مايتصل منها بالله .

« والذين هم عن اللغو معرضون » . . لغو القول ، ولغو الفعل ، ولغو الاهتمام والشعور . إن للقلب المؤمن مايشغله عن اللغو واللهو والهذر . . له مايشغله من ذكر الله ، وتصور جلاله وتدبر آياته فى الأنفس والآفاق . وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، ويحرك الوجـــدان . . وله مايشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها فى تطهير القلب ، وتزكية النفس وتنقية الضمير . وتكاليفها فى السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالى الذى يتطلبه الإيمان . وتكاليفها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف . وتكاليفها فى الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء . . وهى تكاليف لا تنتهى ، ولا يغفل عنها المؤمن ، ولا يعفى نفسه منها ، وهى مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشرى والعمر البشرى . والطاقة البشرية محدودة . وهى إما أن تنفق فى هـــذا الذى يصلح الحياة وينميها ويرقيها ؛ وإما أن تنفق فى الهذر واللغو واللهو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى انفاقها فى البناء والتعمير والإصلاح .

ولا ينفى هـــذا أن يروح المؤمن عن نفسه فى الحين بعـــد الحين. ولكن هذا شىء آخر غير الهذر واللغو والفراغ ...

« والذين هم للزكاة فاعلون » . . بعد إقبالهم على الله ، وانصرفهم عن اللغو فى الحياة . . والزكاة طهارة للقلب والمال : طهارة للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الذات ، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر ، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء . وطهارة للمـــال تجعل مابقى منه بعدها طيبا حلالا ، لا يتعلق به حق ـ إلا فى حالات الضرورة ـ ولا تحوم حوله شبهة . وهى صيانة للجماعة من الخلل الذى ينشئه العوز فى جانب والترف فى جانب، فهى تأمين اجتماعى للأفراد جميعا ، وهى ضمان اجتماعى للعاجزين ، وهى وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال .

Marfat.com

« والذين هم لفروجهم حافظون » . وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة . ووقاية النفس والأسرة والمجتمع . بحفظ الفروج من دنس المباشرة فى غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب .

والجماعة التى تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد . لأنه لا أمن فيها للبيت ، ولا حرمة فيه للأسرة . والبيت هو الوحدة الأولى فى بناء الجماعة ، إذ هو المحضن الذى تنشأ فيه الطفولة وتدرج ؛ ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضنا ومدرجا ، وليعيش فيه الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر ، وهما يرعيان ذلك المحضن . ومن فيه من فراخ !

والجماعة التى تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة فى سلم البشرية، فالمقياس الذى لا يخطىء للارتقاء البشرى هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها . وتنظيم الدوافع الفطرية فى صورة مثمرة نظيفة ، لا يخجل الأطفال معها من الطريقة التى جاءوا بها إلى هذا العالم ، لأنها طريقة نظيفة معروفة ، يعرف فيها كل طفل أباه . لا كالحيوان الهابط الذى تلتقى الأنثى فيه الذكر للقاح ، وبدافع اللقاح ، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من أين جاء !.

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التى يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » . . ومسألة الأزواج لا تثير شبهة ولا تستدعى جدلا . فهى النظام المشروع المعروف . أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعى شيئا من البيان .

ولقد فصلت القول فى مسألة الرق فى الجزء الثانى من الظلال [1] ، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمى . واسترقاق أسرى الحرب نظام دولى . فما كان يمكن والإسلام مشتبك فى حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية فى طريقه أن يلغى هذا النظام من جانب واحد ، فيصبح أسارى المسلمين رقيقا عند أعدائه ، بينما هو يحرر أسارى الأعداء . . فجفف الإسلام كل منابع الرق ــ عدا أسرى الحرب ــ إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولى للتعامل بالمثل فى مسألة الأسرى .

ومن هنا كان يجىء إلى المعسكر الإسلامى أسيرات ، تقضى قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن

---

(١) ص ٦٠ ــ ٦١ من الطبعة الثانية .

Marfat.com

ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح .فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسرى لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التى جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق .

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهم ، كى لايشبعنها عن طريق الفوضى القذرة فى المخالطة الجنسية كما يقع فى زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق ـ هذه الفوضى التى لايحبها الإسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية . والأمة تصل إلى مرتبة الحرة بوسائل كثيرة . . إذا ولدت لسيدها ثم مات عنها . وإذا أعتقها هو تطوعا أو فى كفارة . وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها . وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها . . الخ [1] .

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق فى الحرب ضرورة وقتية ، هى ضرورة المعاملة بالمثل فى عالم كله يسترق الأسرى ، ولم يكن جزءا من النظام الاجتماعى فى الإسلام .

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . . وراء الزوجات وملك اليمين ، ولا زيادة بطريقة من الطرق . فمن ابتغى وراء ذلك فقد عدا الدائرة المباحة ، ووقع فى الحرمات ، واعتدى على الأعراض التى لم يستحلها بنكاح ولا بجهاد . وهنا تفسد النفس لشعورها بأنها ترعى فى كلأ غير مباح ، ويفسد البيت لأنه لاضمان له ولا اطمئنان ؛ وتفسد الجماعة لأن ذئابها تنطلق فتنهش من هنا ومن هناك : وهذا كله هو الذى يتوقاه الإسلام .

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » راعون لأماناتهم وعهدهم أفرادا ؛ وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة . .

والأمانات كثيرة فى عنق الفرد وفى عنق الجماعة ؛ وفى أولها أمانة الفطرة ؛ وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذى هى منه وإليه شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته ، بحكم إحساسها الداخلى بوحدة الناموس الذى يحكمها ويحكم الوجود ، ووحدة الإرادة المختارة لهذا الناموس المدبرة لهذا الوجود .. والمؤمنون يرعون تلك الأمانة الكبرى

---

(١) يراجع فصل الرق فى كتاب « شبهات حول الإسلام » لمحمد قطب .

Marfat.com

فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها ، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته . ثم تأتى سائر الأمانات تبعا لتلك الأمانة الكبرى .

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك . هو العهد الذى قطعه الله على فطرة البشر بالإيمان بوجوده وبتوحيده . وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق . فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدا عليه فيه ، ويرجع فى الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته .

والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة ، مسؤولة عن عهدها مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات . والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد . ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون . فهى صفة دائمة لهم فى كل حين . وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات ؛ وترعى فيها العهود ؛ ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة ، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان .

« والذين هم على صلواتهم يحافظون » . . فلا يفوتونها كسلا ، ولا يضيعونها إهمالا ؛ ولا يقصرون فى إقامتها كما ينبغى أن تقام ؛ إنما يؤدونها فى أوقاتها كاملة الفرائض والسنن ، مستوفية الأركان والآداب ، حية يستغرق فيها القلب ، وينفعل بها الوجدان . والصلاة صلة ما بين القلب والرب ، فالذى لا يحافظ عليها لا ينتظر أن يحافظ على صلة ما بينه وبين الناس محافظة حقيقية مبعثها صدق الضمير . . ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة للدلالة على عظيم مكانتها فى بناء الإيمان ، بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله .

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح . وهى خصائص ذات أثر حاسم فى تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التى تحياها . الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله ؛ وأراد له التدرج فى مدارج الكمال . ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة فى هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبنى الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا فى الطريق ، إلى الغاية المقدرة لهم ، هنالك فى الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال :

Marfat.com

« أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . .

وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين . وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال . .

* * *

ومن صفات المؤمنين ينتقل إلى دلائل الإيمان فى حياة الإنسان ذاته ، وفى أطوار وجوده ونموه ، مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية ، منتهياً إلى البعث فى الآخرة مع الربط بين الحياتين فى السياق :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما . ثم أنشأناه خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . .

وفى أطوار هذه النشأة ، وتتابعها بهذا النظام ، وبهذا الاطراد ، ما يشهد بوجود المنشىء أولا ، وما يشهد بالقصد والتدبير فى تلك النشأة وفى اتجاهها أخيرا . فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير ؟ ثم تسير هذه السيرة التى لا تنحرف ، ولا تخطىء ، ولا تتخلف ؟ ولا تسير فى طريق آخر من شتى الطرق التى يمكن عقلا وتصورا أن تسير فيها . إنما تسير النشأة الإنسانية فى هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق للممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة فى هذا الوجود .

كما أن فى عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق المطرد ، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر ، والسير على نهج المؤمنين الذى بينه فى المقطع السابق . . هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة ؛ فى الحياتين : الدنيا والأخرى . وهذا هو المحور الذى يجمع بين المقطعين فى سياق السورة .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . . وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها . فيفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة ، من الطين إلى الإنسان .

Marfat.com

فالطين هو المصدر الأول ، أو الطور الأول . والإنسان هو الطور الأخير . وهى حقيقة نعرفها من القرآن ، ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التى تبحث عن نشأة الإنسان ، أو نشأة الأحياء .

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله ، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل فى نشأته من ذلك الطين . ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لايعنيه فى أهدافه الكبيرة . أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء ، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان . وهى تخطىء وتصيب فى هذه المحاولة ـ التى سكت القرآن عن تفصيلها ـ وليس لنا أن نخلط به الحقيقة الثابتة التى يقررها القرآن . . حقيقة التسلسل . . وبين المحاولات العلمية فى البحث عن حلقات هذا التسلسل وهى المحاولات التى تخطىء وتصيب ، وتثبت اليوم وتنقض غدا ، كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه فى يد الإنسان .

والقرآن يعبر أحيانا عن تلك الحقيقة باختصار فيقول : « . . . بدأ خلق الإنسان من طين » . . دون إشارة إلى الأطوار التى مر بها . والمرجع فى هذا الأمر إلى النص الأكثر تفصيلا ، وهو الذى يشير إلى أنه « من سلالة من طين » فالنص الآخر يختصر هذه الأطوار لمناسبة خاصة فى السياق هناك .

أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما قلنا لأنه غير داخل فى الأهداف القرآنية . وقد تكون حلقاته على النحو الذى تقول به النظريات العلمية وقد لاتكون ؛ وتكون الأطوار قد تمت بطريق آخر لم يعرف بعد ، وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان . . ولكن مفرق الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة تلك النظريات أن القرآن يكرم هذا الإنسان ؛ ويقرر أن فيه نفخة من روح الله هى التى جعلت من سلالة الطين إنسانا ، ومنحته تلك الخصائص التى بها صار إنسانا وافترقبها عن الحيوان . وهنا تفترق نظرة الإسلام افتراقا كليا عن نظرة الماديين . والله أصدق القائلين (١) .

---

(١) يراجع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب.

Marfat.com

ذلك أصل نشأة الجنس الإنسانى . . من سلالة من طين . . فأما نشأة الفرد الإنسانى بعد ذلك ، فتمضى فى طريق آخر معروف :

« ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » .. لقد نشأ الجنس الإنسانى من سلالة من طين. فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل ، فتستقر فى رحم امرأة . نقطة مائية واحدة . لابل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة فى تلك النقطة . تستقر : « فى قرار مكين » . . ثابتة فى الرحم الغائرة بين عظام الحوض ، المحمية بها من التأثر باهتزازات الجسم ، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ، ورجات وتأثرات !

والتعبير القرآنى يجعل النطفة طورا من أطوار النشأة الإنسانية ، تاليا فى وجوده لوجود الإنسان . . وهى حقيقة . ولكنها حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل، فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه فى تلك النطفة ، كما يعاد من جديد فى الجنين وكى يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب .

ومن النطفة إلى العلقة . حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى ، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة فى أول الأمر ، تتغذى بدم الأم . .

ومن العلقة إلى المضغة ، حينما تكبر تلك النقطة العالقة ، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط . .

وتمضى هذه الخليقة فى ذلك الخط الثابت الذى لاينحرف ولا يتحول ، ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة . وبتلك القوة الكامنة فى الخلية المستمدة من الناموس الماضى فى طريقه بين التدبير والتقدير . . حتى تجىء مرحلة العظام . . « فخلقنا المضغة عظاما » فمرحلة كسوة العظام باللحم : « فكسونا العظام لحما » . . وهنا يقف الإنسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحى . ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم . وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين . ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام ، وتمام الهيكل العظمى

Marfat.com

للجنين . وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى : « فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » . . فسبحان العليم الخبير !

« ثم أنشأناه خلقا آخر » . . هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة . فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان فى أطواره الجسدية . ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر ، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة ، المستعدة للارتقاء . ويبقى جنين الحيوان فى مرتبة الحيوان ، مجردا من خصائص الارتقاء والكمال ، التى يمتاز بها جنين الإنسان .

إن الجنين الإنسانى مزود بخصائص معينة هى التى تسلك به طريقه الإنسانى فيما بعد . وهو ينشأ «خلقاً آخر » فى آخر أطواره الجنينية ؛ بينما يقف الجنين الحيوانى عند التطور الحيوانى . لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية ، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً ـ كما تقول النظريات المادية ـ فهما نوعان مختلفان . اختلفا بتلك النفخة الإلهيـة التى بها صارت سلالة الطين إنسانا . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتى ينشأ بها الجنين الإنسانى « خلقا آخر » . إنما الإنسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى ؛ ثم يبقى الحيوان حيوانا فى مكانه لا يتعداه . ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال . بواسطة خصائص مميزة ، وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان[1] .

« فتبارك الله أحسن الخالقين » . . وليس هناك من يخلق سوى الله . فأحسن هنا ليست للتفضيل ، إنما هى للحسن المطلق فى خلق الله .

« فتبارك الله أحسن الخالقين » . . الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير فى

---

(١) تقوم نظرية النشوء والارتقاء على أساس مناقض . إذ تفترض أن الإنسان ليس إلا طورا من أطوار الترق الحيوانية . وتفترض أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة الإنسان . والواقع المشهود يكذب هذا الفرض لتغير الصلة بين الحيوان والإنسان . ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص . فيقف دائماً عند حدود جنسه الحيوانى لا يتعداه . وقد يثبت تطوره الحيوانى على نحو ما يقول دارون أو على أى نحو آخر . ولكن يبقى النوع الإنسانى متميزا بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنسانا ليست نتيجة تطور آلى . إنما هى هبة مقصودة من قوة خارجية .

Marfat.com

هذه الأطوار ، وفق السنة التى لا تتبدل ولا تنحرف ولاتتخلف ، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنسانى ، على أدق ما يكون النظام !

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه « معجزات العلم » حين يصنع الإنسان جهازا يتبع طريقا خاصا فى تحركه ، دون تدخل مباشر من الإنسان . . فأين هذا من سير الجنين فى مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة فى طبيعتها ، وتحولات كاملة فى ما هيتها ؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضى العيون ، مغلق القلوب ، لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب . . وإن مجرد التفكر فى أن الإنسان ـ هذا الكائن المعقد ـ كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته فى تلك النقطة الصغيرة التى لا تراها العين المجردة ؛ وان تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك فى مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر . فإذا هى ناطقة بارزة فى الطفل مرة أخرى . وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوراثات وتلك التى كانت كامنة فى تلك النقطة الصغيرة . . إن مجرد التفكر فى هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب . . .

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة ، وأطوار النشأة . فالحياة الإنسانية التى نشأت من الأرض لا تنتهى فى الأرض ، لأن عنصرا غير أرضى قد امتزج بها ، وتدخل فى خط سيرها ؛ ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيوانى ، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة ؛ وجعلت كمالها الحقيقى لا يتم فى هذه الأرض ، ولا فى هذه الحياة الدنيا ؛ إنما يتم هنالك فى مرحلة جديدة وفى الحياة الأخرى :

« ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . .

فهو الموت نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة . وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار .

ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة . وبعده تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان . ذلك لمن يسلك طريق الكمال .

Marfat.com

الطريق الذى رسمه المقطع الأول فى السورة . طريق المؤمنين فأما من ارتكس فى مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان ، فهو صائر فى الحياة الأخرى إلى غاية الارتكاس . حيث تهدر آدميته ، ويستحيل حصبا من حصب جهنم ، وقودا للنار ، التى وقودها الناس والحجارة . والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء !

* * *

ومن دلائل الإيمان فى الأنفس ينتقل إلى دلائل الإيمان فى الآفاق . مما يشهده الناس ويعرفونه ، ثم يمرون عليه غافلين :

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ؛ وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون » . .

إن السياق يمضى فى استعراض هذه الدلائل ، وهو يربط بينها جميعا . يربط بينها بوصفها من دلائل القدرة ؛ ويربط بينها كذلك بوصفها من دلائل التدبير ؛ فهى متناسقة فى تكوينها، متناسقة فى وظائفها ، متناسقة فى اتجاهها . كلها محكومة بناموس واحد ؛ وكلها تتعاون فى وظائفها ؛ وكلها محسوب فيها لهذا الإنسان الذى كرمه الله حساب .

ومن ثم يربط بين هذه المشاهد الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية فى سياق السورة .

* * *

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » . .

والطرائق هى الطبقات بعضها فوق بعض . أو وراء بعض . وقد يكون المقصود هنا سبع مدارات فلكية . أو سبع مجموعات نجمية كالمجموعة الشمسية . أو سبع كتل سديمية . والسدم - كما يقول الفلكيون - هى التى تكون منها المجموعات النجمية . . وعلى أية حال

Marfat.com

فهي سبع خلائق فلكية فوق البشر ـ أي إن مستواها أعلى من مستوى الأرض في هذا الفضاء ـ خلقها الله بتدبير وحكمة ، وحفظها بناموس ملحوظ : « وما كنا عن الخلق غافلين » . .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ؛ وإنا على ذهاب به لقادرون » . .

وهنا تتصل تلك الطرائق السبع بالأرض . فالماء نازل من السماء ؛ وله علاقة بتلك الأفلاك . فتكوين الكون على نظامه هذا ، هو الذي يسمح بنزول الماء من السماء ، ويسمح كذلك بإسكانه في الأرض .

ونظرية أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر ؛ وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتحفظ هناك . . نظرية حديثة . فقد كان المظنون إلى وقت قريب أنه لا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية . ولكن ها هو ذا القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة قبل ألف وثلاث مئة عام .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر » . . بحكمة وتدبير ، لا أكثر فيغرق ويفسد ؛ ولا أقل فيكون الجدب والمحل ؛ ولا في غير أوانه فيذهب بددا بلا فائدة . .

« فأسكناه في الأرض » . . وما أشبهه وهو مستكن في الأرض بماء النطفة وهو مستقر في الرحم .

« في قرار مكين » . . كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة . . وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن في التصوير . .

« وإنا على ذهاب به لقادرون » . . فيغور في طبقات الأرض البعيدة بكسر أو شق في الطبقات الصخرية التي استقر عليها فحفظته . أو بغير هذا من الأسباب . فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته . إنما هو فضل الله على الناس ونعمته .

ومن الماء تنشأ الحياة :

« فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون » . .

والنخيل والأعناب نموذجان من الحياة التي تنشأ بالماء في عالم النبات ـ كما ينشأ الناس من ماء النطفة في عالم الإنسان ـ نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن ، يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التي تحيا بالماء .

Marfat.com

ويخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون :

« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ[1] للآكلين » . .

وهى من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها . وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء . عند الوادى المقدس المذكور فى القرآن . لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص . وهى تنبت هناك من الماء الذى أسكن فى الأرض وعليه تعيش .

ويعرج من عالم النبات إلى عالم الحيوان :

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون » . .

فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتدبيره ، وتوزيعه للوظائف والخصائص فى هذا الكون الكبير . . فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير ؛ ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير ؛ ويرى أن اللبن السائغ اللطيف الذى يشربه الناس منها خارج من بطونها ؛ فهو مستخلص من الغذاء الذى تهضمه وتمثله ؛ فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائل السائغ اللطيف .

« ولكم فيها منافع كثيرة » . . يجملها أولا ، ثم يخصص منها منفعتين : « ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون » . . وقد أحل للإنسان أكل الأنعام ،وهى الإبل والبقر والضأن والمعز ولم يحل له تعذيبها ولا التمثيل بها ، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية فى نظام الحياة . فأما التعذيب والتمثيل فهما من قسوة القلب ، وفساد الفطرة . وليس وراءهما فائدة للأحياء .

وربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك . بوصفهما مسخرين بنظام الله الكونى ، الذى ينظم وظائف الخلائق جميعا ، كما ينسق بين وجودها جميعا . فهذا التكوين الخاص للماء ، والتكوين الخاص للسفن ، والتكوين الخاص لطبيعة الهواء فوق الماء والسفن . . هو الذى يسمح للفلك أن تطفو فوق سطح الماء . ولو اختل تركيب واحد من الثلاثة أو اختلف أدنى اختلاف ما أمكن أن تتم الملاحة التى عرفتها البشرية قديما ، وما تزال تعتمد عليها جل الاعتماد .

وكل هذا من دلائل الإيمان الكونية ، لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك . وكلها ذات صلة بالمقطع الأول فى السورة والمقطع الثانى ، متناسقة معهما فى السياق . .

---

(١) الصبغ : الإدام لأنه يصبغ اللقمة .

Marfat.com

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ : رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ـ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ـ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ : رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ .

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ! * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ : عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ، فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ ، مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ .

Marfat.com

« ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ .

« ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » (٥٢)

ينتقل فى هذا الدرس من دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، إلى حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا ؛ ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التى لاتتبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ، وتتابع الرسل ، من لدن نوح – عليه السلام – فإذا نحن نشهد موكب الرسل ، أوأمة الرسل ، وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة ، ذات المدلول الواحد ، والاتجاه الواحد ، حتى ليوحد ترجمتها فى العربية – وقد قيلت بشتى اللغات التى أرسل بها الرسل إلى أقوامهم – فإذا الكلمة التى قالها نوح – عليه السلام – هى ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين ، فتجيب البشرية جوابا واحدا ، تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون !

* * *

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين » ..

Marfat.com

« ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . . كلمة الحق التى لاتتبدل ، يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود « أفلا تتقون ؟ » وتخافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأولى التى تقوم عليها الحقائق جميعا ؟ وتستشعرون ما فى إنكارها من تجن على الحق الباهر ، وما يعقب التجنى من استحقاق للعذاب الأليم ؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لايناقشون هذه الكلمة ؛ ولا يتدبرون شواهدها ، ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص الرجل الذى يدعوهم ، ولا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذى ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والذوات . . فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى التى يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود ، ليتحدثوا عن شخص نوح :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » !

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم إلى تلك الدعوة الكبيرة ، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها ؛ وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها ، وتعمى عليهم عنصرها ، وتقف حائلا بين قلوبهم وبينها ؛ فإذا القضية كلها فى نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق فى شىء عنهم ، يريد أن يتفضل عليهم ، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم !

وهم فى اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التى يتوهمون أنه يعمل لها ، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة . . فى اندفاعهم هذا الصغير لايردون فضل نوح وحده ، بل يردون فضل الإنسانية التى هم منها ؛ ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس؛ ويستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، إن يكن لابد مرسلا :

« ولو شاء الله لأنزل ملائكة » . .

ذلك أنهم لا يجدون فى أرواحهم تلك النفحة العلوية التى تصل البشر بالملأ الأعلى ؛ وتجعل المختارين من البشرية يتلقون ذلك الفيض العلوى ويطيقونه ، ويحملونه إلى إخوانهم من البشر ، فيهدونهم إلى مصدره الوضىء .

وهم يحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر :

« ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » . .

Marfat.com

ومثل هـذا يقع دائما عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب . فلا يتدبر لناس ما هو بين أيديهم من القضايا ، ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها . إنما هم يبحثون فى ركام الماضى عن « سابقة » يستندون إليها ؛ فإن لم يجدوا هـذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها !

وعند هذه الجماعات الجاحدة الخامدة أن ما كان مرة يمكن أن يكون ثانية . فأما الذى لم يكن فإنه لا يمكن أن يكون ! وهكذا تجمد الحياة ، وتقف حركتها ، وتتسمر خطاها ، عند جيل معين من « آبائنا الأولين » !

ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون ، إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون . وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر ، والتخلية بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة فى الوجود . فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاتهام :

« إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين » . .

أى إلى أن يأخذه الموت ، ويريحكم منه ، ومن دعوته ، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد !

عندئذ لم يجد نوح ـ عليه السلام ـ منفذا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ؛ ولم يجد له موئلا من السخرية والأذى ، إلا أن يتوجه إلى ربه وحده ، يشكو إليه مالقيه من تكذيب ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب :

« قال : رب انصرنى بما كذبون » . .

وعندما يتجمد الأحياء على هذا النحو ، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام ، فى طريق الكمال المرسوم ، فتجدهم عقبة فى الطريق . . عندئذ إما إن تتحطم هذه المتحجرات ؛ وإما أن تدعها الحياة فى مكانها وتمضى . . والأمر الأول هو الذى حدث لقوم نوح . ذلك أنهم كانوا فى فجر البشرية وفى أول الطريق ؛ فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق :

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك ـ إلا من سبق عليه القول منهم ـ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا . إنهم مغرقون » . .

Marfat.com

وهكذا مضت سنة الله فى تطهير الطريق من العقبات المتحجرة لتمضى الحياة فى طريقها المرسوم . ولما كانت البشرية قد أسنت على عهد نوح ، وجمدت كالشجرة الناشئة تموقها الآفة عن النمو فتيبس وتعجز وهى رقيقة العود . كان العلاج هو الطوفان ، الذى يجتنب كل شىء ، ويجرف كل شىء . ويغسل التربة ، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد ، فتنشأ على نظافة ، فتمتد وتكبر حتى حين :

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . . والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان ، ولحفظ بذور الحياة السليمة كيما يعاد بذرها من جديد . وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده . لأنه لا بد للانسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل آخر ما فى طوقه ، ليستحق المدد من ربه . فالمدد لا يأتى للقاعدين المستريحين المسترخين ، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار ! ونوح قدر الله له أن يكون أبا البشر الثانى ؛ فدفع به إلى الأخذ بالأسباب ؛ مع رعاية الله له ، وتعليمه صناعة الفلك ، ليتم أمر الله ، وتتحقق مشيئته عن هذا الطريق .

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤوف : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور »[(١)] ، وانبجس منه الماء ، فتلك هى العلامة ليسارع نوح ، فيحمل فى السفينة بذور الحياة : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين » . . من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح فى ذلك الزمان ، الميسرة كذلك لبنى الإنسان « وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم » وهم الذين كفروا وكذبوا ، فاستحقوا كلمة الله السابقة ، وسنته النافذة ، وهى الهلاك للمكذبين بآيات الله .

وصدر الأمر الأخير لنوح ألا يجادل فى أمر أحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد ـ ولو كان أقرب الأقربين إليه ـ ممن سبق عليهم القول .

« ولا تجادلنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

فسنة الله لا تحابى ، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم ، من أجل خاطر ولى ولا قريب !

---

(١) التنور : الموقد أو الفرن .

Marfat.com

ولا يفصل هنا ماحدث للقوم بعد هذا الأمر . فقد قضى الأمر ، وتقرر : « إنهم مغرقون » ولكنه يمضى فى تعليم نوح ـ عليه السلام ـ كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله ، وكيف يستهديه طريقه :

« فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل : رب أنزلنى منزلا مباركا ، وأنت خير المنزلين » . .

فهكذا يحمد الله ، وهكذا يتوجه إليه ، وهكذا يوصف ـ سبحانه ـ بصفاته ، ويعترف له بآياته . وهكذا يتأدب فى حقه العباد ، وفى طليعتهم النبيون ، ليكونوا أسوة للآخرين .

ثم يعقب على القصة كلها ، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة :

« إن فى ذلك لآيات ، وإن كنا لمبتلين » . .

والابتلاء ألوان . ابتلاء للصبر . وابتلاء للشكر . وابتلاء للأجر . وابتلاء للتوجيه . وابتلاء للتأديب . وابتلاء للتمحيص . وابتلاء للتقويم . . وفى قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين . .

* * *

ويمضى السياق يعرض مشهدا آخر من مشاهد الرسالة الواحدة والتكذيب المكرور :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون ! إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين . قال : رب انصرنى بما كذبون . قال : عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء . فبعدا للقوم الظالمين » . .

إن استعراض قصص الرسل فى هذه السورة ليس للتقصى والتفصيل ؛ إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التى جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذى لقوه من الجميع . ومن ثم يبدأ بذكر نوح

Marfat.com

ـ عليه السلام ـ ليحدد نقطة البدء ؛ وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة . ولم يذكر الأسماء فى وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية . إنما ذكر الكلمة الواحدة فى كل حلقة والاستقبال الواحد ، لأن هذا هو المقصود .

« ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » . . لم يحدد من هم . وهم على الأرجح عاد قوم هود .

« فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ » . . ذات الكلمة الواحدة التى قالها من قبله نوح . يحكيها بالألفاظ ذاتها ، مع اختلاف اللغات التى كانت تتخاطب بها القرون !

فماذا كان الجواب ؟

إنه الجواب ذاته على وجه التقريب :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون » . .

فالاعتراض المكرور هو الاعتراض على بشرية الرسول . وهو الاعتراض الناشىء من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة العلوية التى تصل الإنسان بخالقه الكريم .

والترف يفسد الفطرة ، ويغلظ المشاعر ، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب . ومن هنا يحارب الإسلام الترف ؛ ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود فى الجماعة المسلمة ، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله ، حتى لينخر فيه السوس ، ويسبح فيه الدود !

ثم يزيد المترفون هنا إنكار البعث بعد الموت والبلى ؛ ويعجبون من هذا الرسول الذى ينبئهم بهذا الأمر الغريب .

« أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين » . .

Marfat.com

ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى؛ ودقة التدبير فى أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة. هذه الغاية التى لا تتحقق بكمالها فى هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل فى الحياة الدنيا. والشر كذلك. إنما يستكملان هذا الجزاء هنالك، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى، التى لا خوف فيها ولا نصب، ولا تحول فيها ولا زوال ـ إلا أن يشاء الله ـ ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التى تهدر فيها آدميتهم، ويرتدون فيها أحجارا، أو كالأحجار!

مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعانى؛ ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى ـ التى سبقت فى السورة ـ على أطوارها الأخيرة؛ ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون.. لذلك هم يستعجبون ويعجبون من ذلك الذى يعدهم أنهم مخرجون؛ ويستبعدون فى جهالة أن ذلك يكون؛ ويجزمون فى تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد. يموت جيل ويحيا بعده جيل. فأما الذين ماتوا، وصاروا ترابا وعظاما، فهيهات هيهات الحياة لهم، كما يقول ذلك الرجل الغريب! وهيهات هيهات البعث الذى يعدهم به، وقد صاروا عظاما ورفاتا!

ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة، والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التى تكشف عنها أطوارها الأولى.. لا يقفون عند هذه الجهالة، إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله. ولا يعرفون الله إلا فى هذه اللحظة، ولهذا الغرض من اتهام الرسول:

«إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا، وما نحن له بمؤمنين»..

عندئذ لم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصره من قبله نوح. وبالعبارة ذاتها التى توجه بها إلى ربه نوح:

«قال: رب انصرنى بما كذبون»..

وعندئذ وقعت الاستجابة، بعد أن استوفى القوم أجلهم؛ ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب:

«قال: عما قليل ليصبحن نادمين»..

ولكن حيث لا ينفع الندم، ولا يجدى المتاب:

Marfat.com

« فأخذتهم الصيحة بالحق ، فجعلناهم غثاء » . .

والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة ، لا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها . . وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا ، وقطعوا مابينهم وبين الملأ الأعلى . . لم يبق فيهم مايستحق التكريم ؛ فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام ! وذلك من فرائد التعبير القرآني الدقيق .

ويزيدهم على هذه المهانة ، الطرد من رحمة الله ، والبعد عن اهتمام الناس :

« فبعدا للقوم الظالمين » . .

بعدا في الحياة وفي الذكرى . في عالم الواقع وفي عالم الضمير . .

* * *

ويمضي السياق بعد ذلك في استعراض القرون :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى . كلما جاء أمة رسولها كذبوه . فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث . فبعدا لقوم لا يؤمنون » . .

هكذا في إجمال ، يلخص تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية ، في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة ، وموسى وعيسى في أواخرها . . كل قرن يستوفي أجله ويمضي : « ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون » . وكلهم يكذبون : « كلماجاء أمة رسولها كذبوه » . وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله : « فأتبعنا بعضهم بعضا » . وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون : « وجعلناهم أحاديث » تتناقلها القرون .

ويختم هذا الاستعراض الخاطف المجمل باللعنة والطرد والاستبعاد من العيون والقلوب :

« فبعدا لقوم لا يؤمنون » .

* * *

Marfat.com

ثم يجمل قصة موسى فى الرسالة والتكذيب لتتمشى مع نسق العرض وهدفه المقصود :

« ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ فكذبوهما فكانوا من المهلكين » .

ويبرز فى هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل : « فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا » . ويزيد عليه تلك الملابسة الخاصة بوضع بنى اسرائيل فى مصر : « وقومهما لنا عابدون » مسخرون خاضعون . وهى أدعى – فى اعتبار فرعون وملئه – إلى الاستهانة بموسى وهارون !

فأما آيات الله التى معهما ، وسلطانه الذى بأيديهما ، فكل هذا لا إيقاع له فى مثل تلك القلوب المطموسة ، المستغرقة فى ملابسات هذه الأرض ، وأوضاعها الباطلة ، وقيمها الرخيصة .

***

وإشارة مجملة إلى عيسى ابن مريم وأمه . والآية البارزة فى خلقه . وهى كآيات موسى كذب بها المكذبون .

« ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون . وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » . .

وتختلف الروايات فى تحديد الربوة المشار إليها فى هذا النص . . أين هى ؟ أكانت فى مصر ، أم فى دمشق ، أم فى بيت المقدس . . وهى الأماكن التى ذهبت إليها مريم بابنها فى طفولته وصباه – كما تذكر كتبهم – وليس المهم تحديد موضعهما ، إنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما فى مكان طيب ، ينضر فيه النبت ، ويسيل فيه الماء ، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

***

وعندما يصل إلى هذه الحلقة من سلسلة الرسالات ، يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ؛ وكأنما هم متجمعون فى صعيد واحد ، فى وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التى تربط بينهم جميعا :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . .

Marfat.com

إنه نداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون : « كلوا من الطيبات » . . فالأكل من مقتضيات البشرية عامة ، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذى يرفع هذه البشرية ويزكيها ويصلها بالملأ الأعلى .

ونداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض : « واعملوا صالحا » . . فالعمل هو من مقتضيات البشرية كذلك . أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين ؛ فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا ، وغاية موصولة بالملأ الأعلى .

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته . إنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه إلى أفقها الكريم الوضىء ، الذى أراده الله لها ، وجعل الأنبياء روادا لهذا الأفق ومثلا أعلى . والله هو الذى يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق : « إنى بما تعملون عليم » .

وتتلاشى آماد الزمان ، وأبعاد المكان ، أمام وحدة الحقيقة التى جاء بها الرسل . ووحدة الطبيعة التى تميزهم . ووحدة الخالق الذى أرسلهم . ووحدة الاتجاه الذى يتجهون نه أجمعين :

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . .

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ .

« وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا

Marfat.com

أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ .

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ؟ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ . بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ؟ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ، فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

« قُلْ : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ * قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ * قُلْ: مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ »

Marfat.com

« بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

« قُلْ : رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » ﴿٩٨﴾

هذا الدرس الثالث فى السورة يبدأ بتصوير حال الناس بعد أمة الرسل. تلك الحال التى جاء الرسول الأخير فوجدهم عليها. مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التى جاءهم بها الرسل من قبل جميعاً.

ويصور غفلتهم عن الحق الذى جاءهم به خاتم المرسلين — صلى الله عليه وسلم — والغمرة التى تذهلهم عن عاقبة ماهم فيه. بينما المؤمنون يعبدون الله، ويعملون الصالحات، وهم مع هذا خائفون من العاقبة، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.. فتتقابل صورة اليقظة والحذر فى النفس المؤمنة، وصورة الغمرة والغفلة فى النفس الكافرة.

ثم يجول معهم جولات شتى: يستنكر موقفهم مرة، ويستعرض شبهاتهم مرة، ويلمس وجدانهم بدلائل الإيمان فى أنفسهم وفى الآفاق مرة، ويأخذهم بمسلماتهم فيجعلها حجة عليهم مرة.

وينتهى بعد هذه الجولات بتركهم إلى مصيرهم المحتوم. ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمضى فى طريقه، لايغضب لعنادهم، وأن يدفع السيئة بالحسنى، وأن يستعيذ بالله من الشياطين التى تقودهم إلى الضلال المبين.

* * *

Marfat.com

« فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون » !

لقد مضى الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ أمة واحدة ، ذات كلمة واحدة ، وعبادة واحدة ، ووجهة واحدة ؛ فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لاتلتقى على منهج ولا طريق .

ويخرج التعبير القرآنى المبدع هذا التنازع فى صورة حسية عنيفة . لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقا ، وقطعوه فى أيديهم قطعا . ثم مضى كل حزب بالمزقة التى خرجت فى يده . مضى فرحاً لايفكر فى شئ ، ولا يلتفت إلى شئ ! مضى وأغلق على حسه جميع المنافذ التى تأتيه منها أية نسمة طليقة ، أو يدخل إليه منها أى شعاع مضئ ! وعاش الجميع فى هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه ، مغمورين لاتنفذ إليهم نسمة محيية ولا شعاع منير .

وحين يرسم لهم هذه الصورة يتوجه بالخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« فذرهم فى غمرتهم حتى حين » . .

ذرهم فى هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه ، حتى يفجأهم المصير حين يجئ موعده المحتوم .

ويأخذ فى التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم ، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت ، وإمدادهم بالأموال والبنين فى فترة الاختبار ، مقصود به المسارعة لهم فى الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء :

«أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ »

وإنما هى الفتنة ، وإنما هو الابتلاء :

« بل لايشعرون » . .

لايشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير !

* * *

وإلى جانب صورة الغفلة والغمرة فى القلوب الضالة يبرز صورة اليقظة والحذر فى القلوب المؤمنة:

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لايشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

Marfat.com

ومن هنا يبدو أثر الإيمان فى القلب ، من الحساسية والإرهاف والتحرج ، والتطلع إلى الكمال . وحساب العواقب . مهما ينهض بالواجبات والتكاليف .

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى ؛ وهم يؤمنون بآياته ، ولا يشركون به . وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم . وهم يأتون من الطاعات مااستطاعوا . . ولكنهم بعد هذا كله : « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » لإحساسهم بالتقصير فى جانب الله ، بعد أن بذلوا ما فى طوقهم ، وهو فى نظرهم قليل .

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت: يارسول الله . « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لا يابنت الصديق ! ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل[1] »

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه . ويحس آلاءه فى كل نفس وكل نبضة . . ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ؛ ويرقب بكل مشاعره يد الله فى كل شىء من حوله . . ومن ثم يشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر فى حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا .

وهؤلاء هم الذين يسارعون فى الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها فى الطليعة ، بهذه اليقظة ، وبهذا التطلع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة . لا أولئك الذين يعيشون فى غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة ، مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغرى . ومثل هذا الطير فى الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويطغيهم الغنى ، ويلهيهم الغرور ، حتى يلاقوا المصير !

* * *

تلك اليقظة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم . والتى يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره فى القلوب . . ليست أمرا فوق الطاقة ، وليست تكليفا فوق الاستطاعة . إنما هى الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ؛ ومراقبته فى السر والعلن ؛ وهى فى حدود الطاقة الإنسانية ، حين يشرق فيها ذلك النور الوضىء :

« ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » . .

---

(١) أخرجه الترمذى .

Marfat.com

ولقد شرع الله التكاليف وفق مايعلم من استعداد النفوس ؛ وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، لا يظلمون بتحميلهم مالا يطيقون ؛ ولا يبخسهم شيئاً مما يعملون ، وكل ما يعملونه محسوب في سجل « ينطق بالحق » ويبرزه ظاهراً غير منقوص . والله خير الحاسبين .

إنما يغفل الغافلون لأن قلوبهم في غمرة عن الحق ، لم يمسها نوره المحيي ، لانشغالها عنه، واندفاعها في التيه ؛ حتى تفيق على الهول ، لتلقى العذاب الأليم ، وتلقى معه التوبيخ والتحقير :

« بل قلوبهم في غمرة من هذا ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتي تتلى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامرا تهجرون » . .

فعلة اندفاعهم فيما هم فيه ليست هي تكليفهم بما هو فوق الطاقة ؛ إنما العلة أن قلوبهم في غمرة ، لاترى الحق الذى جاء به القرآن ، وأنهم مندفعون في طريق آخر غير النهج الذى جاء به : « ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » . .

ثم يرسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغتة المفاجئة : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون » .. والمترفون أشد الناس استغراقاً في المتاع والانحراف والذهول عن المصير . وها هم أولاء يفاجأون بالعذاب الذى يأخذهم أخذا ، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار ، مستغيثين مسترحمين (وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور) ثم ها هم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » . . وإذا المشهد حاضر ، وهم يتلقون الزجر والتأنيب ، والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير ، والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون : « قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون » فتراجعون على أعقابكم كأن ما يتلى عليكم خطر تحاذرونه ، أو مكروه تجانبونه ، مستكبرين عن الإذعان للحق . ثم تزيدون على هذا سوء القول وهجره في سمركم ، حيث تتناولون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به بكلمات السوء .

ولقد كانوا يطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في مجالسهم ؛ وهم يتحلقون حول الأصنام في سامرهم بالكعبة . فهاهو ذا القرآن يرسم لهم مشهد حسابهم على ما هم فيه ؛ وهم يجأرون طالبين الغوث ، فيذكرهم بسمرهم الفاحش ، وهجرهم القبيح . وكأنما هو واقع اللحظة ،

Marfat.com

وهم يشهدونه ويعيشون فيه ! وذلك على طريقة القرآن الكريم فى رسم مشاهد القيامة كأنها واقع مشهود[1] .

والمشركون فى تهجمهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى القرآن فى نواديهم وفى سمرهم يمثلون الكبرياء الجاهلة ، التى لاتدرك قيمة الحق لأنها مطموسة البصيرة عمياء ، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام . ومثل هؤلاء فى كل زمان . وليست جاهلية العرب إلا نموذجا لجاهليات كثيرة خلت فى الزمان ؛ وما تزال تظهر الآن بعد الآن !

* * *

وينتقل بهم من مشهد التأنيب فى الآخرة ، فيعود بهم إلى الدنيا من جديد ! يعود بهم ليسأل ويعجب من موقفهم ذاك الغريب . . ما الذى يصدهم عن الإيمان بما جاءهم به رسولهم الأمين ؟ ما الشبهات التى تحيك فى صدورهم فتصدهم عن الهدى ؟ ما حجتهم فى الإعراض عنه ، والسمر فى مجالسهم بمقالة السوء فيه ؟ وهو الحق الخالص والطريق المستقيم :

« أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ! ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا ؟ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » . .

إن مثل ما جاء به محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه ، ففيه من الجمال ، وفيه من الكمال ، وفيه من التناسق ، وفيه من الجاذبية ، وفيه من موافقة الفطرة ، وفيه من الإيحاءات الوجدانية ، وفيه من غذاء القلب ، وفيه من زاد الفكر ، وفيه من عظمة الاتجاهات ، وفيه من قويم المناهج ، وفيه من محكم التشريع . . وفيه من كل شىء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها « أفلم يدبروا القول إذن ؟ فهذا سر إعراضهم عنه لأنهم لم يتدبروه ؟

« أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ؟ » . . فكان بدعاً فى مألوفهم ومألوف آبائهم أن

---

(١) يراجع فصل التصوير الفنى فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

يجيئهم رسول! أو أن يجيئهم بكلمة التوحيد! وذلك تاريخ الرسالات كلها يثبت أن الرسل جاءوا قومهم تترى، وكلهم جاء بالكلمة الواحدة التي يدعوهم إليها هذا الرسول!

« أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ » .. ويكون هذا هو سر الإعراض والتكذيب! ولكنهم يعرفون رسولهم حق المعرفة. يعرفون شخصه ويعرفون نسبه، ويعرفون أكثر من أي أحد صفاته : يعرفون صدقه وأمانته حتى لقد لقبوه قبل الرسالة بالأمين!

« أم يقولون به جنة ؟ » كما كان بعض سفهائهم يقولون ؛ وهم على ثقة أنه العاقل الكامل، الذي لا يعرفون عنه زلة في تاريخه الطويل ؟

إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل. إنما هي كراهية أكثرهم للحق، لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، ويصدم أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزون :

« بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون » ..

والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى ؛ وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الناموس، وتجري السنن في هذا الكون وما فيه ومن فيه :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ..

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة. وبالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة. ولو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس ؛ وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول .. وسائر مايعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.. وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد، على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد.

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا. والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير ؛ فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد

Marfat.com

ويختل : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » إنما يخضع للحق الكلى ، ولتدبير صاحب التدبير .

وهذه الأمة التى جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذى يتمثل فيه . ففوق أنه الحق هو كذلك مجد لها وذكر . وما كان لها من ذكر لولاه فى العالمين :

« بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » . .

وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها فى تاريخ العالم حتى جاءها الإسلام . وقد ظل ذكرها يدوى فى آذان القرون طالما كانت به مستمسكة . وقد تضاءل ذكرها عند ما تخلت عنه ، فلم تعد فى العير ولا فى النفير .. ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى عنوانها الكبير ...!

وبعد هذا الاستطراد بمناسبة دعواهم على الحق الذى جاءهم فأعرضوا عنه واتهموه . . يعود السياق إلى استنكار موقفهم ، وإلى مناقشة الشبهات التى يمكن أن تصدهم عما جاءهم به الرسول الأمين :

« أم تسألهم خرجا ؟ » فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية والتعليم ؟ ! فإنك لا تطلب إليهم شيئاً ، فما عند ربك خير مما عندهم : « فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ».. وماذا يطمع نبى أن ينال من البشر الضعاف الفقراء المحاويج وهو متصل بالفيض اللدنى الذى لا ينضب ولا يغيض ؟ بل ماذا يطمع أتباع نبى أن ينالوا من عرض هذه الأرض وهم معلقو الأنظار والقلوب بما عند الله الذى يرزق بالكثير وبالقليل ؟ ألا إنه يوم يتصل القلب بالله يتضاءل هذا الكون كله ، بما فيه وكل من فيه !

ألا إنما تطلب هدايتهم إلى المنهج القويم : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » يصلهم بالناموس الذى يحكم فطرتهم ، ويصلهم بالوجود كله ، ويقودهم فى قافلة الوجود ، إلى خالق الوجود ، فى استقامة لا تحيد .

ألا وإنهم ـ كـكل من لا يؤمنون بالآخرة ـ حائدون عن النهج ضالون عن الطريق : « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » . . فلو كانوا مهتدين لتابعوا بقلوبهم وعقولهم أطوار النشأة التى تحتم الإيمان بالآخرة ، وبالعالم الذى يسمح ببلوغ الكمال

Marfat.com

الممكن ، وتحقيق العدل المرسوم . فليست الآخرة إلا حلقة من حلقات الناموس الشامل الذى ارتضاه الله لتدبير هذا الوجود .

* * *

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والذين تنكبوا الطريق ، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة . فإن أصابتهم النعمة حسبوا : « أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات » وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم ، ولم تستيقظ ضمائرهم ، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر ، ويظلون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة فإذا هم حائرون يائسون .

« ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون » . .

وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة ، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله ، والشعور بأنه الملجأ والملاذ . والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان ، واستيقظ وتذكر ، وكانت هذه الحساسية هى الحارس الواقى من الغفلة والزلل ، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء . فأما حين يسدر فى غيه ، ويعمه فى ضلاله ، فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح ، وهو متروك لعذاب الآخرة ، الذى يفاجئه ، فيسقط فى يده ، ويبلس ويحتار ، وييأس من الخلاص .

* * *

ثم يجول معهم جولة أخرى علها توقظ وجدانهم إلى دلائل الإيمان فى أنفسهم وفى الآفاق من حولهم :

« وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا ما تشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار . أفلا تعقلون ؟ » . .

Marfat.com

ولو تدبر الإنسان خلقه وهيئته ، وما زود به من الحواس والجوارح ، وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله ، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد . فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة فى الصغير منها وفى الكبير .

هذا السمع وحده وكيف يعمل ؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟ وهذا البصر وحده وكيف يبصر ؟ وكيف يلتقط الأضواء والأشكال ؟ وهذا الفؤاد ما هو ؟ وكيف يدرك ؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال ، والمعانى والقيم والمشاعر والمدركات ؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها ، يعد كشفاً معجزا فى عالم البشر . فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ؟ ذلك التناسق الملحوظ الذى لو اختلت نسبة واحدة من نسبه فى طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال ، فما استطاعت أذن أن تلتقط صوتاً ، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءا . ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذى يعيش فيه ، فتم هذا الاتصال . غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة : « قليلا ما تشكرون » . . والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، وتمجيده بصفاته ، ثم عبادته وحده ؛ وهو الواحد الذى تشهد بوحدانيته آثاره فى صنعته . ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات فى تذوق الحياة والمتاع بها ، بحس العابد لله فى كل نشاط وكل متاع .

« وهو الذى ذرأكم فى الأرض » . . فاستخلفكم فيها ، بعد ما زودكم بالسمع والأبصار والأفئدة ؛ وأمدكم بالاستعدادات والطاقات الضرورية لهذه الخلافة . . « وإليه تحشرون » . . فيحاسبكم على ما أحدثتم فى هذه الخلافة من خير وشر ، ومن صلاح وفساد ، ومن هدى وضلال . فلستم بمخلوقين عبثا ، ولا متروكين سدى ؛ إنما هى الحكمة والتدبير والتقدير .

« وهو الذى يحيي ويميت » . . والحياة والموت حادثان يقعان فى كل لحظة ، وليس إلا الله يملك الموت والحياة ؛ فالبشر ــ أرقى الخلائق ــ أعجز من بث الحياة فى خلية واحدة ،وأعجز كذلك من سلب الحياة سلبا حقيقياً عن حى من الأحياء . فالذى يهب الحياة هو الذى يعرف سرها ، ويملك أن يهبها ويستردها . والبشر قد يكونون سببا وأداة لإزهاق الحياة ، ولكنهم هم ليسوا الذين يجردون الحى من حياته على وجه الحقيقة . إنما الله هو الذى يحيي ويميت ، وحده دون سواه .

Marfat.com

« وله اختلاف الليل والنهار » .. فهو الذى يملكه ويصرفه ـ كاختلاف الموت والحياة ـ وهو سنة كونية كسنة الموت والحياة . هذه فى النفوس والأجساد ، وهذه فى الكون والأفلاك . وكما يسلب الحياة من الحى فيعتم جسده ويهمد ، كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن . ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا على ذاك ، بلا فتور ولا انقطاع إلا أن يشاء الله . . « أفلا تعقلون ؟ » وتدركون ما فى هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصريف الكون والحياة ؟

* * *

وهنا يعدل عن خطابهم وجدالهم ، ليحكى مقولاتهم عن البعث والحساب ، بعد كل هذه الدلائل والآيات :

« بل قالوا مثلما قال الأولون . قالوا : أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين » ..

وتبدو هذه القولة مستنكرة غريبة بعد تلك الآيات والدلائل الناطقة بتدبير الله ، وحكمته فى الخلق ، فقد وهب الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليكون مسؤولا عن نشاطه وعمله ، مجزياً على صلاحه وفساده ؛ والحساب والجزاء يكونان على حقيقتهما فى الآخرة ، فالمشهود فى هذه الأرض أن الجزاء قد لا يقع ، لأنه متروك إلى موعده هناك .

والله يحيى ويميت ؛ فليس شىء من أمر البعث بعسير . والحياة تدب فى كل لحظة ، وتنشأ من حيث لا يدرى إلا الله .

ولم يكف هؤلاء أن تقصر مداركهم عن إدراك حكمة الله ، وقدرته على البعث ، فإذا هم يسخرون مما يوعدون من البعث والجزاء . أن كان هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل ، ولم يقع بعد !

« لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين » . .

والبعث متروك لموعده الذى ضربه الله له ، وفق تدبيره وحكمته ، لا يستقدم ولا يستأخر ، تلبية لطلب جيل من أجيال الناس ، أو استهزاء جماعة من الغافلين المحجوبين !

* * *

Marfat.com

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ، لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ، مدبر السماوات والأرض ، المسيطر على السماوات والأرض . . ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، وينسبون له البنات . سبحانه وتعالى عما يصفون :

فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم ، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون :

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟ » . .

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل ؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام .

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ » . . فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها : « سيقولون : لله » . . ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله : « قل : أفلا تذكرون ؟ » .

« قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » . . فهو سؤال عن الربوبية المدبرة ، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم . والسماوات السبع قد تكون أفلاكا سبعة ، أو مجموعات نجمية سبعة ، أو سدما سبعة ، أو عوالم سبعة ، أو أية خلائق فلكية سبعة . والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود . . فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ « سيقولون : لله » ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش ، ولا يتقون رب السماوات السبع ، وهم يشركون معه أصناما مهينة ، ملقاة على الأرض لا تريم . . « قل : أفلا تتقون » . .

« قل : من بيده ملكوت كل شيء ؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ » . . فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان . سؤال عمن بيده ملكية كل شيء ملكية

Marfat.com

استعلاء وسيطرة . ومن هو الذى يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد ؟ ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده . . من ؟ « سيقولون : لله » فما لهم يصرفون عن عبادة الله ؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذى مسه السحر : « قل : فأنى تسحرون ؟ » .

ألا إنه الاضطراب والتخبط الذى يصاب به المسحورون !

* * *

وفى اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول – صلى الله عليه وسلم – من التوحيد ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك . . فى اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجىء هذا التقرير :

« بل أتيناهم بالحق وإنهم لـكاذبون . ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

يجىء هذا التقرير فى أساليب شتى . . بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكيد : « بل أتيناهم بالحق وإنهم لـكاذبون » . ثم يفصل فيم هم كاذبون : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله » . . ثم يأتى بالدليل الذى ينفى دعواهم ، ويصور ما فى عقيدة الشرك من سخف واستحالة : « إذن لذهب كل إله بما خلق » مستقلا بما خلقه ، يصرفه حسب ناموس خاص ؟ فيصبح لـكل جزء من الـكون ، أو لـكل فريق من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقى فيه بناموس عام يصرف الجميع . « ولعلا بعضهم على بعض » بغلبة سيطرته وتصريفه على الـكون الذى لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها فى الـكون ، الذى تشهد وحدة تـكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره . وكل جزء فيه وكل شىء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب .. « سبحان الله عما يصفون » . .

« عالم الغيب والشهادة » فليس لغيره من خلق يستقل به ، ويعلم من دون الله أمره . « فتعالى الله عما يشركون » .

* * *

Marfat.com

وعند هذا الحد يلتفت عن خطابهم وجدلهم وحكاية حالهم ، إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمره أن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله مع هؤلاء القوم ـ إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ما وعدهم به من العذاب . وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تثور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون :

« قل : رب إما تريني ما يوعدون . رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين . وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون . ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون » . .

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منجاة من أن يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ، ويتحقق ما يوعدون . ولكن هذا الدعاء زيادة فى التوقى ؛ وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلوا أبدا أيقاظا ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

والله قادر على أن يحقق ما وعد به الظالمين فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » . .

ولقد أراه بعض ما وعدهم فى غزوة بدر . ثم فى الفتح العظيم .

فأما حين نزول هذه السورة ـ وهى مكية ـ فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتى هى أحسن ؛ والصبر حتى يأتى أمر الله ؛ وتفويض الأمر لله :

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة . نحن أعلم بما يصفون » .

واستعاذة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من همزات الشياطين ودفعاتهم ـ وهو معصوم منها ـ زيادة كذلك فى التوقى ، وزيادة فى الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين فى كل حين . بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعاذة بالله من مجرد قرب الشياطين ، لا من همزاتهم ودفعاتهم :

« وأعوذ بك رب أن يحضرون » . .

ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم إياه ساعة الوفاة . ويرشح لهذا المعنى ما يتلوه فى السياق : « حتى إذا جاء أحدهم الموت . . . » على طريقة القرآن فى تناسق المعانى وتداعيها . .

Marfat.com

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ. كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا : رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ : اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ، وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ : إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُل : رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ، وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » ﴿١١٨﴾

فى هذا الدرس الأخير فى السورة يستطرد فى الحديث عن نهاية المشركين ؛ فيبرزها فى مشهد من مشاهد القيامة . يبدأ بمشهد الاحتضار فى الدنيا ، وينتهى هنالك بعد النفخ فى الصور . ثم تنتهى السورة بتقرير الألوهية الواحدة ، وتحذير من يدعون مع الله إلها آخر وتخويفهم من مثل تلك النهاية .

Marfat.com

وتختم السورة بتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ربه ليطلب غفرانه ورحمته ؛ والله خير الراحمين .

* * *

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت » ..

إنه مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال .. وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار ، مشهود كالعيان ! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد :

« كلا . إنها كلمة هو قائلها ... »

كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغى العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة الإخلاص المنيب . كلمة تقال فى لحظة الضيق ، ليس لها فى القلب من رصيد ! .

وبها ينتهى مشهد الاحتضار . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعا . فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدلت الأستار :

« ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ..

فلا هم من أهل الدنيا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم فى ذلك البرزخ بين بين ، إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك اليوم ، يصوره ويعرضه للأنظار .

« فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون » ..

إنما تقطعت الروابط ، وسقطت القيم التى كانوا يتعارفون عليها فى الدنيا « فلا أنساب بينهم يومئذ » . وشملهم الهول بالصمت ، فهم ساكنون لا يتحدثون « ولا يتساءلون » .

ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن فى سرعة واختصار .

« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » ..

Marfat.com

وعملية الوزن بالميزان تجرى على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير ، وتجسيم المعانى فى صور حسية ، ومشاهد ذات حركة [1] .

ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح ، وتشوه هيئتها ، ويكدر لونها .. مشهد مؤذ أليم .

وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم . وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذى يتبقى له . وقد خسر نفسه التى بين جنبيه ، وخسر ذاته التى تميزه ، فكأنما لم يكن له وجود .

وهنا يعدل عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسى - على فظاعته - أهون من التأنيب والخزى الذى يصاحبه . وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهده فى حوار ممض طويل :

« ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ! » . .

وكأنما يخيل إليهم - وقد سمعوا هذا السؤال - أنهم مأذونون فى الكلام ، مسموح لهم بالرجاء . وأن الاعتراف بالذنب قد يجدى فى قبول الرجاء :

« قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » . .

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة . . . ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم ، فلم يكن مأذونا لهم فى غير الإجابة على قدر السؤال . بل لعله كان سؤالا للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب . فهم يزجرون زجرا عنيفا قاسيا :

« قال : اخسأوا فيها ولا تكلمون » . .

اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين :

« إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون » . .

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا ، وراحوا يرجون غفران ربهم

(1) يراجع فصل التصوير الفنى فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

ورحمته؛ وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر فى دلائل الإيمان المبثوثة فى صفحات الوجود.. فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون:

« إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون »..

وبعد هذا الرد القاسى المهين، وبيان أسبابه، وما فى هذا البيان من ترذيل وتبكيت.. يبدأ استجواب جديد:

« قال: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ »..

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم. ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض، واستقصار أيامهم فيها. وقد باعوا بها حياة الخلود.. وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها. وإنهم ليائسون ضيقو الصدور، لايعنيهم حسابها وعدتها:

« قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. فاسأل العادين »..

وهى إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط!

والرد: إنكم لم تلبثوا إلا قليلا بالقياس إلى ماأنتم عليه مقبلون لوكنتم تحسنون التقدير:

« قال: إن لبثتم إلا قليلا لوأنكم كنتم تعلمون »..

ثم عودة إلى الترذيل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق:

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا؛ وأنكم إلينا لاترجعون؟ »..

فحكمة البعث من حكمة الخلق. محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها وما البعث إلا حلقة فى سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تمامها. ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون، الذين لايتدبرون حكمة الله الكبرى؛ وهى متجلية فى صفحات الكون، مبثوثة فى أطواء الوجود..

* * *

وتنتهى سورة الإيمان بتقرير القاعدة الأولى للإيمان .. التوحيد .. وإعلان الخسارة

Marfat.com

الكبرى لمن يشركون بالله ، فى مقابل الفلاح فى أول السورة للمؤمنين . وبالتوجه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين :

« فتعالى الله الملك الحق ، لاإله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لايفلح الكافرون . وقل : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » . .

هذا التعقيب يجئ بعد مشهد القيامة السابق ؛ وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبينات . . يجئ نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة . وهو يشهد بتنزيه الله ـ سبحانه ـ عما يقولون ويصفون . ويشهد بأنه الملك الحق ، والمسيطر الحق ، الذى لاإله إلاهو . صاحب السلطان والسيطرة والاستعلاء : « رب العرش العظيم » .

وكل دعوى بألوهية أحد مع الله ، فهى دعوى ليس معها برهان . لامن الدلائل الكونية ، ولا من منطق الفطرة ، ولا من حجة العقل . وحساب مدعيها عند ربه ، والعاقبة معروفة : « إنه لا يفلح الكافرون » . . سنة نافذة لا تتخلف ، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير .

وكل مايراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع ، وقوة وسلطان ، فى بعض الأحيان ، فليس فلاحا فى ميزان القيم الحقيقية . إنما هو فتنة واستدراج ، ينتهى بالوبال فى الدنيا . فإن ذهب بعضهم ناجين فى الدنيا ، فهناك فى الآخرة يتم الحساب . والآخرة هى الشوط الأخير فى مراحل النشأة ، وليست شيئاً منفصلا فى تقدير الله وتدبيره . ومن ثم هى ضرورة لابد منها فى النظرة البعيدة .

* * *

وآخر آية فى سورة « المؤمنون » هى اتجاه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران :

« وقل : رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » . .

وهنا يلتقى مطلع السورة وختامها فى تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين . وفى تقرير صفة الخشوع فى الصلاة فى مطلعها والتوجه إلى الله بالخشوع فى ختامها . . فيتناسق المطلع والختام فى ظلال الإيمان . . .

Marfat.com

سورة النور مدنية
وآياتها ٦٤ نزلت بعد الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ، وَفَرَضْنَاهَا ، وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ـ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ـ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

« الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ؛ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ، وَلَمْ يَكُن لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ .

Marfat.com

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ؛ وَٱلَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ، وَقَالُوا : هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ! فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ * وَلَوْ لَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؛ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا . سُبْحَانَكَ ! هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ ، وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْ لَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ . وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ . وَلَوْ لَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ؛ وَلَٰكِنَّ ٱللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ ؟ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ .

Marfat.com

« ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ㉖

هذه سورة النور . . يذكر فيها النور بلفظه متصلا بذات الله : « الله نور السموات والأرض » ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره فى القلوب والأرواح ؛ ممثلة هـذه الآثار فى الآداب والأخلاق التى يقوم عليها بناء هـذه السورة . وهى آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية ، تنير القلب ، وتنير الحياة ؛ وربطها بذلك النور الكونى الشامل أنها نور فى الأرواح ، وإشراق فى القلوب ، وشفافية فى الضمائر ، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .

وهى تبدأ بإعلان قوى حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب وأخلاق : « سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » . . فيدل هـذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقى فى الحياة ؛ ومدى عمق هذا العنصر وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية . .

والمحور الذى تدور عليه السورة كلها هو محور التربية . التربية التى تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة ، التى تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة فى تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد فى الشدة واللين . هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ؛ ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة ، حتى تشف وترف ، وتتصل بنور الله . . وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة فى الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله . وهى فى صميمها نور وشفافية ، وإشراق وطهارة . تربية عناصرها من مصدر النور الأول فى السماوات والأرض . نور الله الذى أشرقت به الظلمات . فى السماوات والأرض ، والقلوب والضمائر ، والنفوس والأرواح .

* * *

Marfat.com

ويجرى سياق السورة حول محورها الأصيل فى خمسة أشواط :

الأول يتضمن الإعلان الحاسم الذى تبدأ به ؛ ويليه بيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعلة ، وتقطيع ما بين الزناة والجماعة المسلمة ، فلا هى منهم ولا هم منها . ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه ؛ واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة . ثم حديث الإفك وقصته . . وينتهى هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات ، ومشاكلة الطيبين للطيبات . وبالعلاقة التى تربط بين هؤلاء وهؤلاء .

ويتناول الشوط الثانى وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية . فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر والنهى عن إبداء الزينة للمحارم . والحض على إنكاح الأيامى . والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء . . وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف فى عالم الضمير والشعور ، ودفع المؤثرات التى تهيج الميول الحيوانية ، وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين ، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية .

والشوط الثالث يتوسط مجموعة الآداب التى تتضمنها السورة ، فيربطها بنور الله . ويتحدث عن أطهر البيوت التى يعمرها وهى التى تعمر بيوت الله . . وفى الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب ؛ أو كظلمات بعضها فوق بعض . ثم يكشف عن فيوض من نور الله فى الآفاق : فى تسبيح الخلائق كلها لله . وفى إزجاء السحاب . وفى تقليب الليل والنهار . وفى خلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها ، مما هو معروض فى صفحة الكون للبصائر والأبصار . .

والشوط الرابع يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الطاعة والتحاكم . ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم . ويعدهم ، على هذا ، الاستخلاف فى الأرض والتمكين فى الدين ، والنصر على الكافرين .

ثم يعود الشوط الخامس إلى آداب الاستئذان والضيافة فى محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء . وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة ، مع رئيسها ومربيها – رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتتم السورة بإعلان ملكية الله لما فى السماوات والأرض ، وعلمه بواقع الناس ، وما

Marfat.com

تنطوى عليه حناياهم ، ورجعتهم إليه ، وحسابهم على ما يعلمه من أمرهم . وهو بكل شىء عليم .

والآن نأخذ فى التفصيل .

* * *

« سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » . .

مطلع فريد فىالقرآن كله . الجديد فيه كلمة « فرضناها » والمقصود بها ـ فيما نعلم ـ توكيد الأخذ بكل ما فى السورة على درجة سواء . ففرضية الآداب والأخلاق فيها كفرضية الحدود والعقوبات . هذه الآداب والأخلاق المركوزة فى الفطرة ، والتى ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات ، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات ، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين .

* * *

ويتبع هذا المطلع القوى الصريح الجازم ببيان حد الزنا ؛ وتفظيع هذه الفعلة ، التى تقطع ما بين فاعليها وبين الأمة المسلمة من وشائج وارتباطات :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ؛ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ـ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ـ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزانى لا ينكح إلا زانية أومشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ؛ وحرم ذلك المؤمنين » . .

كان حد الزانيين فى أول الإسلام ما جاء فى سورة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فأمسكوهن فىالبيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » . . فكان حد المرأة الحبس فى البيت والأذى بالتعيير . وكان حد الرجل الأذى بالتعيير .

ثم أنزل الله حد الزنا فى سورة النور . فكان هذا هو « السبيل » الذى أشارت إليه من قبل آية النساء .

والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء. وهو الذى لم يحصن بالزواج . ويوقع عليه متى كان مسلما بالغا عاقلا حرا . فأما المحصن وهو من سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ فحده الرجم .

Marfat.com

وقد ثبت الرجم بالسنة . وثبت الجلد بالقرآن . ولما كان النص القرآنى مجملا وعاما . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رجم الزانيين المحصنين ، فقد تبين من هـذا أن الجلد خاص بغير المحصن .

وهناك خلاف فقهى حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن . والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم . كما أن هناك خلافا فقهيا حول تغريب الزانى غير المحصن مع جلده . وحول حد الزانى غير الحر . . وهو خلاف طويل لا ندخل فى تفصيله هنا ، يطلب فى موضعه من كتب الفقه . . إنما نمضى نحن مع حكمة هذا التشريع . فنرى أن عقوبة البكر هى الجلد ، وعقوبة المحصن هى الرجم . ذلك أن الذى سبق له الوطء فى نـكاح صحيح ـ وهو مسلم حر بالغ ـ قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجربه ، فعدوله عنه إلى الزنا يشى بفساد فطرته وانحرافها ، فهو جدير بتشديد العقوبة ، بخلاف البكر الغفل الغر ، الذى قد يندفع تحت ضغط الميل وهو غرير . . وهناك فارق آخر فى طبيعة الفعل . فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر . فهو حرى بعقوبة كذلك أشد .

والقرآن يذكر هنا حد البـكر وحده ـ كما سلف ـ فيشدد فى الأخذ به ، دون تسامح ولا هوادة :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

فهى الصرامة فى إقامة الحد ؛ وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته ، تراخياً فى دين الله وحقه . وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين ، فيكون أوجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس الشاهدين .

ثم يزيد فى تفظيع الفعلة وتبشيعها ، فيقطع ما بين فاعليها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة :
« الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك . وحرم ذلك على المؤمنين » . .

وإذن فالذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون . إنما يكونون فى حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان . وبعد ارتـكابها لا ترتضى النفس المؤمنة أن ترتبط فى نـكاح مع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة ؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز .

Marfat.com

حتى لقد ذهب الإمام أحمد إلى تحريم مثل هذا الرباط بين زان وعفيفة ، وبين عفيف وزانية ؛ إلا أن تقع التوبة التي تطهر من ذلك الدنس المنفر. وعلى أية حال فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني ؛ واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد : « وحرم ذلك على المؤمنين » . . وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة .

ورد في سبب نزول هذه الآية أن رجلا يقال له : مرثد ابن أبي مرثد كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة(١) . وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها : عناق . وكانت صديقة له . وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة . قال : فجاءت عناق ، فأبصرت سواد ظل تحت الحائط . فلما انتهت إلى عرفتني . فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد ! فقالت : مرحبا وأهلا . هلم فبت عندنا الليلة : قال : فقلت : ياعناق حرم الله الزنا . فقالت : ياأهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال : فتبعني ثمانية ، ودخلت الحديقة . فانتهيت إلى غار أو كهف ، فدخلت ، فجاءوا حتى قاموا على رأسي ، فبالوا ، فظل بولهم على رأسي ، فأعماهم الله عني . قال : ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته ؛ وكان رجلا ثقيلا ؛ حتى انتهيت إلى الإذخر ؛ ففككت عنه أحبله ، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة ؛ فأتيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلت : يارسول الله أنكح عناقا ؟ ــ مرتين ــ فأمسك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يرد على شيئا حتى نزلت « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يامرثد . الزاني لاينكح إلا زانية أو مشركة . فلا تنكحها » (٢) .

فهذه الرواية تفيد تحريم نكاح المؤمن للزانية مالم تتب ، ونكاح المؤمنة للزاني كذلك . وهو ما أخذ به الإمام أحمد . ورأى غيره غير رأيه . والمسألة خلافية تطلب في كتب الفقه . وعلى أية حال فهي فعلة تعزل فاعلها عن الجماعة المسلمة ؛ وتقطع ما بينه وبينها من روابط . وهذه وحدها عقوبة اجتماعية أليمة كعقوبة الجلد أو أشد وقعا !

---

(١) ربما يكون المقصود بالأسارى هنا ضعاف المؤمنين الذين لم يقدروا على الهجرة ممن أمسك بهم المشركون في مكة .

(٢) رواه أبوداود والنسائي والترمذي .

Marfat.com

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها . فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول ، ولا خير لهم في كبتها أو قتلها . ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركبها الله في كيانهم ، وجعلها جزءا من ناموس الحياة الأكبر ، يؤدي إلى غايته من امتداد الحياة ، وعمارة الأرض ، التي استخلف فيها هذا الإنسان .

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة ! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني ، وتطيح بكل هذه الأهداف ؛ وترد الكائن الإنساني مسخا حيوانيا ، لا يفرق بين أنثى وأنثى ، ولا بين ذكر وذكر . مسخا كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة . فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة ، وليس وراءها عمارة في الأرض ، وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج ! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقيــة ، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار . وهــذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع ، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها ، وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان !

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ؛ إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيواني ، ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعيــة . فأما الزنا — وبخاصة البغاء — فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية ، والأشواق العلوية ؛ ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ؛ ويبديه عاريا غليظا قذرا كما هو في الحيوان ، بل أشد غلظا من الحيوان . ذلك أن كثيرا من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة ، في حياة زوجية منظمة ، بعيدة عن الفوضى الجنسية التي يشيعها الزنا — وبخاصة البغاء — في بعض بيئات الإنسان !

Marfat.com

دفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذى جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد فى عقوبة الزنا . . ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التى تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة ، من اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة . . . وكل واحد من هذه الأسباب يكفى لتشديد العقوبة . ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ، ووقاية الآداب الإنسانية التى تجمعت حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد . . . هذا السبب هو الأهم فى اعتقادى . وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى .

على أن الإسلام لا يشدد فى العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل ، ومن توقيع العقوبة إلا فى الحالات الثابتة التى لا شبهة فيها . فالإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ؛ إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة . ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ فى الوحل طائعا غير مضطر .

وفى هذه السورة نماذج من هذه الضمانات الوقائية الكثيرة ستأتى فى موضعها من السياق . .

فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج منه لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة[1] » لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفعل . أو اعترافا لا شبهة فى صحته .

وقد يظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحدا ، لأنها غير قابلة للتطبيق . ولكن الإسلام ـ كما ذكرنا ـ لا يقيم بناءه على العقوبة ، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ؛ وعلى تهذيب النفوس ، وتطهير الضمائر ؛ وعلى الحساسية التى يثيرها فى القلوب ، فتتحرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة . ولا يعاقب إلا المتبجحين بالجريمة ، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود . أو الذين يرغبون فى التطهر بإقامة الحد عليهم كما وقع لماعز وصاحبته الغامدية . وقد جاء كل منهما

(١) أخرجه الترمذى من حديث عائشة رضى الله عنها .

Marfat.com

يطلب من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يطهره بالحد ، ويلح فى ذلك ، على الرغم من إعراض النبي مرارا ؛ حتى بلغ الإقرار أربع مرات . ولم يعد بد من إقامة الحد ، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستيقنة لا شبهة فيها . والرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب » (١)

فإذا وقع اليقين ، وبلغ الأمر إلى الحاكم ، فقد وجب الحد ولا هوادة ، ولا رأفة فى دين الله . فالرأفة بالزناة الجناة حينئذ هى قسوة على الجماعة ، وعلى الآداب الإنسانية ، وعلى الضمير البشرى . وهى رأفة مصطنعة . فالله أرأف بعباده . وقد اختار لهم . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم . والله أعلم بمصالح العباد ، وأعرف بطبائعهم ، فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية ؛ فهى أرأف مما ينتظر الجماعة التى يشيع فيها الزنا ، وتفسد فيها الفطرة ، وترتكس فى الحمأة ، وتنتكس إلى درك البهيمية الأولى . .

والتشديد فى عقوبة الزنا لا يغنى وحده فى صيانة حياة الجماعة ، وتطهير الجو الذى تعيش فيه . والإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء الحياة النظيفة – كما قلنا – إنما يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة .

لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة . ثم يمضى فى الطريق خطوة أخرى فى استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة ؛ فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا . وأولئك هم الفاسقون » . .

إن ترك الألسنة تلقى التهم على المحصنات – وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكاراً – بدون دليل قاطع ، يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضى آمنا ! فتصبح الجماعة وتمسى ، وإذا أعراضها مجرحة ، وسمعتها ملوثة ؛ وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاك فى زوجه ، وكل رجل فيها شاك فى أصله ،

(١) أخرجه أبو داوود فى كتاب الحدود (باب العفو عن الحدود مالم تبلغ السلطان) .

Marfat.com

وكل بيت فيها مهدد بالانهيار . . وهى حالة من الشك والقلق والريبة لاتطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحى إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث ؛ وأن الفعلة فيها شائعة ؛ فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون فى حسه بشاعتها بكثرة ترددها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومن ثم لا تجدى عقوبة الزنا فى منع وقوعه ؛ والجماعة تمسى وتصبح وهى تتنفس فى ذلك الجو الملوث الموحى بارتكاب الفحشاء .

لهذا ، وصيانة للأعراض من التهجم ، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التى تصب عليهم .. شدد القرآن الكريم فى عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا .. ثمانين جلدة .. مع إسقاط الشهادة ، والوصم بالفسق .. والعقوبة الأولى جسدية . والثانية أدبية فى وسط الجماعة ؛ ويكفى أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشى بينهم متهما لا يوثق له بكلام ! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم .. ذلك إلا أن يأتى القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل ، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه . فيكون قوله إذن صحيحا . ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التى كانوا يستقذرونها ، ويظنونها ممنوعة فى الجماعة أو نادرة . وذلك فوق الآلام الفظيعة التى تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التى تترتب عليها فى حياة الناس وطمأنينة البيوت .

وتظل العقوبات التى توقع على القاذف ، بعد الحد ، مصلتة فوق رأسه ، إلا أن يتوب :

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » ..

وقد اختلف الفقهاء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم إن شهادته تقبل كذلك بالتوبة . . فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعى إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة .

Marfat.com

إليها » فأرسلوا إليها فجاءت ؛ فتلاها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عليها ، فذكرها ، وأخبرها أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله يارسول الله لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لاعنوا بينهما » . . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . فلما كانت الخامسة قيل له : ياهلال اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فقال : والله لايعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى عليها . فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . . ثم قيل للمرأة . اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . وقيل لها عند الخامسة : اتقى الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة . وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف . ثم قالت : والله لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . . ففرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينهما ؛ وقضى أن لايدعى ولدها لأب ؛ ولا يرمى ولدها ؛ ومن رمى ولدها فعليه الحد ؛ وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولاقوت لها ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به ، أصيهب (١) أريسح (٢) حمش الساقين (٣) فهو لهلال . . وإن جاءت به أورق(٤) جعدا (٥) جماليا (٦) خدلج الساقين (٧) سابغ الأليتين (٨) فهو الذى رميت به » .. فجاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الأليتين . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » . .

وهكذا جاء هذا التشريع لمواجهة حالة واقعة بالفعل ، وعلاج موقف صعب على صاحبه وعلى المسلمين ، قد اشتد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يجد منه مخرجا ، حتى طفق

---

(١) أصيهب تصغير أصهب وهو الذى فى شعره حمرة .
(٢) أريسح تصغير أرسح وهو خفيف لحم الإليتين .
(٣) حمش الساقين دقيقهما .
(٤) أورق : أسمر .
(٥) جعدا : شديد الأسر والخلق والذى شعره غير سبط وهما مدح . والقصير المتردد الخلق والبخيل وهما ذم .
(٦) الجمالى الضخم الأعضاء التام الأوصال .
(٧) خدلج الساقين : عظيمهما .
(٨) سابغ الإليتين : تامهما وعظيمهما .

Marfat.com

يقول لهلال ابن أمية ـ كما ورد فى رواية البخارى ـ « البينة أو حد فى ظهرك » وهلال يقول : يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟

ولقد يقول قائل : أليس الله ـ سبحانه ـ يعلم أن هذه الحالة قد تعترض التشريع العام للقذف ؛ فلماذا لم ينزل الله الاستثناء إلا بعد ذلك الموقف المحرج ؟

والجواب : بلى إنه سبحانه ليعلم . ولكن حكمته تقتضى أن ينزل التشريع عند الشعور بالحاجة إليه ، فتستقبله نفوس الناس باللهفة إليه ، وإدراك مافيه من حكمة ورحمة . ومن ثم عقب عليه بقوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » .

ونقف قليلا أمام هذه الواقعة ، لنرى كيف صنع الإسلام ، وكيف صنعت تربية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس بهذا القرآن . . كيف صنع هذا بالنفس العربية الغيور الشديدة الانفعال ، المتحمسة التى لاتفكر طويلا قبل الاندفاع . فهذا حكم ينزل بعقوبة القذف ، فيشق على هذه النفوس . يشق عليها حتى ليسأل سعد ابن عبادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهكذا أنزلت يارسول الله ؟ يسأل هذا السؤال وهو مستيقن أنها هكذا أنزلت . ولكنه يعبر بهذا السؤال عن المشقة التى يجدها فى نفسه من الخضوع لهذا الحكم فى حالة معينة فى فراشه . وهو يعبر عن مرارة هذا التصور بقوله : والله يارسول الله إنى لأعلم أنها لحق ، وأنها من الله ؛ ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ؟ فوالله إنى لا آتى بهم حتى يكون قد قضى حاجته !

وما يلبث هذا التصور المرير الذى لايطيقه سعد ابن عبادة فى خياله . . مايلبث أن يتحقق . . فهذا رجل يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ، ولكنه يجد نفسه محجوزا بحاجز القرآن ؛ فيغلب مشاعره ، ويغلب وراثاته ، ويغلب منطق البيئة العربية العنيف العميق ؛ ويكبح غليان دمه ، وفوران شعوره ، واندفاع أعصابه . . ويربط على هذا كله فى انتظار حكم الله وحكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جهد شاق مرهق ؛ ولكن التربية الإسلامية أعدت النفوس لاحتماله كى لايكون حكم إلا لله ، فى ذات الأنفس وفى شؤون الحياة .

كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ لقد حدث لأنهم كانوا يحسون أن الله معهم ، وأنهم فى كنف الله ، وأن الله يرعاهم ، ولا يكلفهم عنتا ولا رهقا ، ولا يتركهم عندما يتجاوز الأمر طاقتهم ، ولا يظلمهم أبدا . كانوا يعيشون دائما فى ظل الله ، يتنفسون من روح الله ، ويتطلعون إليه دائما كما يتطلع

Marfat.com

الأطفال إلى العائل الـكافل الرحيم .. فها هوذا هلال ابن أمية يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ، وهو وحده ؛ فيشكو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناصا من تنفيذ حد الله ، وهو يقول له : « البينة . أو حد فى ظهرك » ولـكن هلال ابن أمية لا يتصور أن الله تاركه للحد ، وهو صادق فى دعواه . فإذا الله ينزل ذلك الاستثناء فى حالة الأزواج ؛ فيبشر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلالا به ؛ فإذا هو يقول قولة الواثق المطمئن : قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل . . فهو الاطمئنان إلى رحمة الله ورعايته وعدله . والاطمئنان أكثر إلى أنه معهم ، وأنهم ليسوا متروكين لأنفسهم ؛ إنما هم فى حضرته ، وفى كفالته . . وهذا هو الإيمان الذى راضهم على الطاعة والتسليم والرضى بحكم الله .

* * *

وبعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف ، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ؛ وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الـكريم ، وعرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أكرم إنسان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرض رجل من الصحابة ـ صفوان ابن المعطل رضى الله عنه ـ يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه إلا خيرا .. وهو يشغل المسلمين فى المدينة شهراً من الزمان . .

ذلك هو حديث الإفك الذى تطاول إلى ذلك المرتقى السامى الرفيع :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لاتحسبوه شرا لـكم ، بل هو خير لـكم . لـكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم .لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا : هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الـكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ماليس لـكم به علم ؛ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم : مايكون لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك ! هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لـكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم

Marfat.com

عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ؛ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبدا ؛ ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم . ولايأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم . والله غفور رحيم . إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين،والطيبون للطيبات . أولئك مبرأون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » ..

هذا الحادث . حادث الإفك . قد كلف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاما لاتطاق ؛ وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها الطويل ؛ وعلق قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قلب زوجه عائشة التى يحبها ، وقلب أبى بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان ابن المعطل . . شهراً كاملا . علقها بحبال الشك والقلق والألم الذى لايطاق .

فلندع عائشة ـ رضى الله عنها ـ تروى قصة هذا الألم ، وتكشف عن سر هذه الآيات :

عن الزهرى عن عروة وغيره عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ؛ وإنه أقرع بيننا فى غزاة (١) فخرج سهمى ، فخرجت معه بعد ماأنزل الحجاب ، وأنا أحمل فى هودج ، وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ؛ فقمت حين آذنوا بالرحيل ، حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدرى ، فإذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ؛ وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى ، وهم يحسبون أنى فيه ؛ وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ؛ وإنما نأكل العلقة من الطعام ؛ فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فحملوه ؛ وكنت جارية حديثة السن ؛ فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى ،

(١) غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة الهجرية على الأرجح.

Marfat.com

بعدما استمر الجيش ، فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى ؛ فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت . وكان صفوان ابن المعطل السلمى . ثم الذكوانى . قد عرس وراء الجيش ، فأدلج ، فأصبح عند منزلى ؛ فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وكان يرانى قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ؛ والله مايكلمنى بكلمة ، ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه ؛ وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا معرسين قالت : فهلك فى شأنى من هلك . وكان الذى تولى كبر الإثم عبد الله ابن أبى ابن سلول ؛ فقدمنا المدينة ، فاشتكيت بها شهراً ؛ والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ولا أشعر . وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم؟ ثم ينصرف . فذلك الذى يريبنى منه ، ولاأشعر بالشرحتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط . فأقبلت أنا وأم مسطح ـ وهى ابنة أبى رهم ابن المطلب ابن عبد مناف وأمها بنت صخر ابن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مسطح ابن أثاثة ابن عباد ابن المطلب ـ حين فرغنا من شأننا نمشى . فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها: بئسما قلت . أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت : يا هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟ فقلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا إلى مرضى . فلما رجعت إلى بيتى دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لى أن آتى أبوى. وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . فأذن لى ، فأتيت أبوى ، فقلت لأمى : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت يا بنية هونى على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ابن أبى طالب وأسامة ابن زيد ـ رضى الله عنهما ـ حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه من الود لهم . فقال أسامة : هم أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيراً . وأما على ابن أبى طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها

Marfat.com

كثير ، وسل الجارية تخبرك . قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة[1] فقال لها : أى بريرة . هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت : لا والذى بعثك بالحق نبياً إن رأيت منها أمراً أغمصه[2] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن[3] فتأكله . قالت : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، واستعذر من عبد الله ابن أبى ابن سلول . فقال وهو على المنبر : من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى . قالت : فقام سعد ابن معاذ[4] ـ رضى الله عنه ـ فقال : يارسول الله أنا والله أعذرك منه . إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام سعد ابن عبادة ـ رضى الله عنه ـ وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحاً ولكن أخذته الحمية . فقال لسعد ابن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد ابن حضير رضى الله عنه وهو ابن عم سعد ابن معاذ فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل . وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم . ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . فأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوما ، حتى أظن أن البكاء فالق كبدى . فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى . فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس ، ولم يجلس عندى من يوم قيل فىّ ما قيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، فتشهد حين جلس ، ثم قال : « أما بعد فإنه بلغنى عنك

---

(١) حقق الإمام شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية أن الجارية التى سئلت لم تكن هى بريرة لأن بريرة إنما كاتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة . إنما قال الإمام على كرم الله وجهه : فسل الجارية تخبرك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها .

(٢) أغمصه : أعيبه (٣) الداجن : الشاة فى البيت .

(٤) فى رواية ابن اسحق أن الذى قال هذا وذلك هو أسيد ابن حضير . وحقق الإمام ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد أن سعد ابن معاذ كان قد توفى بعد غزوة بنى قريظة قبل حديث الإفك وأن الذى قال ماقيل هو أسيد ابن حضير وكذلك قال الإمام ابن حزم مستشهداً برواية عن عبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة عن عائشة وليس فيها ذكر سعد ابن معاذ .

Marfat.com

كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله تعالى عليه » . فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قال . قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال . قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . فقلت : إنى والله أعلم أنكم سمعتم حديثاً تحدث الناس به ، واستقر فى نفوسكم ، وصدقتم به . فلئن قلت لكم : إنى بريئة لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة ، لتصدقنى . فوالله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى . ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى فى شأنى وحياً يتلى ؛ ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فىّ بأمر يتلى ؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم رؤيا يبرئنى الله تعالى بها . فوالله ما رام مجلسه ، ولاخرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، فسرى عنه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة احمدى الله تعالى فإنه قد برأك . فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : والله لاأقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى ، هو الذى أنزل براءتى . فأنزل الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... العشر الآيات » فلما أنزل الله تعالى هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبدا بعد ماقال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ فأنزل الله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة .. » إلى قوله : « والله غفور رحيم » فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان يجرى عليه ، وقال : والله لاأنزعها منه أبدا . قالت عائشة رضى الله عنها : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال : « يازينب . ما علمت وما رأيت؟ » فقالت : يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت عليها إلا خيرا . وهى التى كانت تسامينى

Marfat.com

من أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعصمها الله تعالى بالورع . قالت : فطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[1] .

وهكذا عاش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته . وعاش أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأهل بيته . وعاش صفوان ابن المعطل . وعاش المسلمون جميعا هذا الشهر كله فى مثل هذا الجو الخانق ، وفى ظل تلك الآلام الهائلة ، بسبب حديث الإفك الذى نزلت فيه تلك الآيات .

وإن الإنسان ليقف متململا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجه المقربة . وهى فتاة صغيرة فى نحو السادسة عشرة . تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة .

فها هى ذى عائشة الطيبة الطاهرة . ها هى ذى فى براءتها ووضاءة ضميرها ، ونظافة تصوراتها ، ها هى ذى ترمى فى أعز ما تعتز به . ترمى فى شرفها . وهى ابنة الصديق الناشئة فى العش الطاهر الرفيع . وترمى فى أمانتها . وهى زوج محمد ابن عبد الله من ذروة بنى هاشم. وترمى فى وفائها . وهى الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير . . ثم ترمى فى إيمانها . وهى المسلمة الناشئة فى حجر الإسلام ، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة . وهى زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ها هى ذى ترمى ، وهى بريئة غارة غافلة ، لا تحتاط لشىء ، ولا تتوقع شيئا ؛ فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو فى جناب الله ، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا ، تبرئها مما رميت به . ولكن الوحى يتلبث ، لحكمة يريدها الله ، شهراً كاملا ؛ وهى فى مثل هذا العذاب .

ويا لله لها وهى تفاجأ بالنبأ من أم مسطح . وهى مهدودة من المرض ، فتعاودها الحمى ؛ وهى تقول لأمها فى أسى : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ وفى رواية أخرى تسأل : وقد علم به أبى ؟ فتجيب أمها : نعم ! فتقول : ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ـ فتجيبها أمها كذلك : نعم !

ويا لله لها ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيها الذى تؤمن به ورجلها الذى تحبه ،

---

(۱) قال ابن شهاب : فهذا ماانتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى وهكذا رواه ابن اسحاق عن الزهرى كذلك باختلاف يسير .

Marfat.com

يقول لها : « أما بعد فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » . . فتعلم أنه شاك فيها ، لا يستيقن من طهارتها ، ولا يقضى فى تهمتها . وربه لم يخبره بعد ، ولم يكشف له عن براءتها التى تعلمها ولكن لا تملك إثباتها ؛ فتمسى وتصبح وهى متهمة فى ذلك القلب الكبير الذى أحبها ، وأحلها فى سويدائه !

وها هو ذا أبو بكر الصديق – فى وقاره وحساسيته وطيب نفسه – يلذعه الألم ، وهو يرمى فى عرضه . فى ابنته زوج محمد – صاحبه الذى يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذى يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلا من خارجه . . وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوى على الألم ، فيقول : والله ما رمينا بهذا فى جاهلية . أفنرضى به فى الإسلام ؟ وهى كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال فى مرارة هامدة : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله – صلى الله عليه وسلم !

وأم رومان – زوج الصديق رضى الله عنهما – وهى تتماسك أمام ابنتها المفجوعة فى كل شىء . المريضة التى تبكى حتى تظن أن البكاء فالق كبدها . فتقول لها : يا بنية هونى على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . . ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها : أجيبى عنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتقول كما قال زوجها من قبل : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم !

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد فى سبيل الله صفوان ابن المعطل . وهو يرمى بخيانة نبيه فى زوجه . فيرمى بذلك فى إسلامه ، وفى أمانته ، وفى شرفه ، وفى حميته . وفى كل ما يعتز به صحابى ، وهو من ذلك كله برىء . وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه برىء من تصوره ، فيقول : سبحان الله ! والله ما كشفت كنف أنثى قط . ويعلم أن حسان ابن ثابت يروج لهذا الإفك عنه ، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودى به . ودافعه إلى رفع سيفه على امرىء مسلم ، وهو منهى عنه ، أن الألم قد تجاوز طاقته ، فلم يملك زمام نفسه الجريح !

Marfat.com

ثم ها هو ذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو رسول الله ، وهو فى الذروة من بنى هاشم . . ها هو ذا يرمى فى بيتــه . وفى من ؟ فى عائشة التى حلت من قلبه فى مكان الابنة والزوجة والحبيبة . وها هو ذا يرمى فى طهارة فراشه ، وهو الطاهر الذى تفيض منه الطهارة. وها هو ذا يرمى فى صيانة حرمته ، وهو القائم على الحرمات فى أمتــه . وها هو ذا يرمى فى حياطة ربه له ، وهو الرسول المعصوم من كل سوء .

ها هو ذا ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرمى فى كل شىء حين يرمى فى عائشة ــ رضى الله عنها ــ يرمى فى فراشه وعرضه ، وقلبه ورسالته . يرمى فى كل ما يعتز به عربى ، وكل ما يعتز به نبى . . ها هو ذا يرمى فى هذا كله ؛ ويتحدث الناس به فى المدينة شهراً كاملا ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدا . والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملا لا يبين فيه بياناً . ومحمد الإنسان يعانى ما يعانيه الإنسان فى هذا الموقف الأليم . يعانى من العار ، ويعانى فجيعة القلب ؛ ويعانى فوق ذلك الوحشة المؤرقة . الوحشة من نور الله الذى اعتاد أن ينير له الطريق . . والشك يعمل فى قلبه ــ مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله ، ولكنه لا يطمئن نهائيا إلى هذه القرائن ــ والفرية تفوح فى المدينة ، وقلبه الإنسانى المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك ؛ فلا يملك أن يطرد الشك. لأنه فى النهاية بشر، ينفعل فى هذا انفعالات البشر . وزوج لا يطيق أن يمس فراشه . ورجل تتضخم بذرة الشك فى قلبه متى استقرت ، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم .

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده ، فيبعث إلى أسامة ابن زيد . حبه القريب إلى قلبه . . ويبعث إلى على ابن أبى طالب . ابن عمه وسنده . يستشيرهما فى خاصة أمره . فأما على فهو من عصب محمد ، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب . ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد . ابن عمه وكافله . فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه . ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويستقر على قرار . وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الود لأهــله ، والتعب لخاطر الفراق ، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين ، وكذب المفترين الأفاكين .

ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى لهفة الإنسان ، وفى قلق الإنسان ، يستمد من حديث أسامة ، ومن شهادة الجارية مددا وقوة يواجه بهما القوم فى المسجد ، فيستعذر من

Marfat.com

نالوا عرضه ، ورموا أهله ، ورموا رجلا من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء . . فيقع بين الأوس والخزرج مايقع من تناور ـ وهم فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حضرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدل هذا على الجو الذى كان يظلل الجماعة المسلمة فى هذه الفترة الغريبة ، وقد خدشت قداسة القيادة ، ويحز هذا فى نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنور الذى اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق ! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس ؛ ويطلب منها هى البيان الشافى المريح !

وعند ما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ؛ وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم .

ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذى تنزل : « وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى . ولكنى والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى فى شأنى وحياً يتلى . ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم رؤيا يبرئنى الله تعالى بها » . .

ولكن الأمر ـ كما يبدو من ذلك الاستعراض ـ لم يكن أمر عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولا قاصراً على شخصها . فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووظيفته فى الجماعة يومها . بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها . وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة فى شخص نبيها وبانيها . . من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل فى القضية المبتدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ؛ ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله ؛ وما يعلمها إلا الله :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً ؛ إنما هم « عصبة » متجمعة ذات هدف واحد . ولم يكن عبد الله ابن أبى ابن سلول وحده هو الذى أطلق ذلك الإفك . إنما هو الذى تولى معظمه . وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين ، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ؛ فتواروا وراء ستار الإسلام

Marfat.com

ليكيدوا للإسلام خفية . وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة . ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض فى حديث الإفك كحمنة بنت جحش ؛ وحسان ابن ثابت ، ومسطح ابن أثاثة . أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة ، وعلى رأسها ابن سلول ، الحذر الماكر ، الذى لم يظهر بشخصه فى المعركة . ولم يقل علانية ما يؤخذ به ، فيقاد إلى الحد . إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم ، ولا يشهدون عليه . وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهرا كاملا ، وأن تتداوله الألسنة فى أطهر بيئة وأتقاها !

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث ، وعمق جذوره ، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم .

ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد :

« لا تحسبوه شراً لكم ؛ بل هو خير لكم » . .

خير . فهو يكشف عن الكائدين للإسلام فى شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته . وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله ؛ ويبين مدى الأخطار التى تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . فهى عندئذ لا تقف عند حد . إنما تمضى صعدا إلى أشرف المقامات ، وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء .

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

أما الآلام التى عاناها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته ، والجماعة المسلمة كلها ، فهى ثمن التجربة ، وضريبة الابتلاء ، الواجبة الأداء !

أما الذين خاضوا فى الإفك ، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة : « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » . . ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله . وبئس ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم .

والذى تولى كبره ، وقاد حملته ، واضطلع منه بالنصيب الأوفى ، كان هو عبد الله ابن أبى

Marfat.com

ابن سلول . راس النفاق ، وحامل لواء الكيد . ولقد عرف كيف يختار مقتلا ، لولا أن الله كان من ورائه محيطا ، وكان لدينه حافظا ، ولرسوله عاصما ، وللجماعة المسلمة راعياً .. ولقد روى أنه لما مر صفوان ابن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول فى ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة رضى الله عنها . . فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ؟ ثم جاء يقودها !

وهى قولة خبيثة راح يذيعها — عن طريق عصبة النفاق — بوسائل ملتوية . بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التى لاتصدق ، والتى تكذبها القرائن كلها . وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين . وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهراً كاملا . وهى الفرية الجديرة بأن تنفى وتستبعد للوهلة الأولى .

وإن الإنسان ليدهش — حتى اليوم — كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه فى جو الجماعة المسلمة حينذاك . وأن تحدث هذه الآثار الضخمة فى جسم الجماعة ، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق .

لقد كانت معركة خاضها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك . وخاضها الإسلام . معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التى خاضها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخرج منها منتصرا كاظما لآلامه الكبار ، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره . فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله . والآلام التى تناوشه لعلها أعظم الآلام التى مرت به فى حياته . والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التى تعرض لها فى تاريخه .

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ؛ ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه . والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج فى مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة فى الحكم عليها :

« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا : هذا إفك مبين » ..

نم كان هذا هو الأولى . . أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا . وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم فى مثل هذه الحمأة . . وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابى المجاهد هما من أنفسهم . فظن الخير بهما أولى . فإن مالايليق بهم لا يليق بزوج رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

Marfat.com

ولا يليق بصاحبه الذى لم يعلم عنه إلا خيرا . . كذلك فعل أبو أيوب خالد ابن زيد الأنصارى وامرأته ــ رضى الله عنهما ــ كما روى الإمام محمد ابن اسحاق : أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ــ رضى الله عنها ؟ ــ قال : نعم . وذلك الكذب . أ كنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . . ونقل الإمام محمود ابن عمر الزمخشرى فى تفسيره : « الكشاف » أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أ كنت تظن بحرمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ــ رضى الله عنها ــ ماخنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك . .

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه ، فاستبعد أن يقع مانسب إلى عائشة ، ومانسب إلى رجل من المسلمين : من معصية لله وخيانة لرسوله ، وارتكاس فى حمأة الفاحشة ، لمجرد شبهة لاتقف للمناقشة !

هذه هى الخطوة الأولى فى المنهج الذى يفرضه القرآن لمواجهة الأمور . خطوة الدليل الباطنى الوجدانى . فأما الخطوة الثانية فهى طلب الدليل الخارجى والبرهان الواقعى :

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » . . وهذه الفرية الضخمة التى تتناول أعلى المقامات ، وأطهر الأعراض ، ما كان ينبغى أن تمر هكذا سهلة هينة ؛ وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة ؛ وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل : « لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ! » وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن . كاذبون عند الله الذى لايبدل القول لديه ، والذى لايتغير حكمه ، ولا يتبدل قراره . فهى الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التى لابراءة لهم منها ، ولا نجاة لهم من عقباها .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير . وخطوة التثبت بالبينة والدليل . . غفل عنها المؤمنون فى حادث الإفك ؛ وتركوا الخائضين يخوضون فى عرض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدا بعد هذا الدرس الأليم :

Marfat.com

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » . .

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درسا قاسيا ، فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه . فهى فعلة تستحق العذاب العظيم . العذاب الذى يتناسب مع العذاب الذى سببوه للرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجه وصديقه وصاحبه الذى لا يعلم عليه إلا خيرا . والعذاب الذى يتناسب مع الشر الذى ذاع فى الجماعة المسلمة وشاع ؛ ومس كل المقدسات التى تقوم عليها حياة الجماعة . والعذاب الذى يناسب خبث الكيد الذى كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل ، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين ! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة ، ورحمته شملت المخطئين ، بعد الدرس الأليم .

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التى أفلت فيها الزمام ؛ واختلت فيها المقاييس ، واضطربت فيها القيم ، وضاعت فيها الأصول :

« إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم » . .

وهى صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج ، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام :

« إذ تلقونه بألسنتكم » .. لسان يتلقى عن لسان ، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر . حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ، ولا تتملاه الرؤوس ، ولا تتدبره القلوب ! « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » . . بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم . إنما هى كلمات تقذف بها الأفواه ، قبل أن تستقر فى المدارك ، وقبل أن تتلقاها العقول . .

« وتحسبونه هيناً » أن تقذفوا عرض رسول الله ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله ؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذى لم يرم فى الجاهلية ؛ وأن تتهموا صحابيا مجاهدا فى سبيل الله . وأن تمسوا عصمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلته بربه ، ورعاية الله له . . « وتحسبونه هينا » . . « وهو عند الله عظيم » . . وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذى تزلزل له الرواسى ، وتضج منه الأرض والسماء .

ولقد كان ينبغى أن تجفل القلوب من مجرد سماعه ، وأن تتحرج من مجرد النطق به ،

Marfat.com

وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث ؛ وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا ؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم :

« ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك ! هذا بهتان عظيم ».. وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزا ؛ وهى تطلعها على ضخامة ماجنت وبشاعة ما عملت .. عندئذ يجىء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم :

« يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين » . .

« يعظكم » . . فى أسلوب التربية المؤثر . فى أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار . مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا » . . ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة : « إن كنتم مؤمنين » . . فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف ، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير ، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون :

« ويبين الله لكم الآيات » . . على مثال ما بين فى حديث الإفك ، وكشف عما وراءه من كيد ؛ وما وقع فيه من خطايا وأخطاء : « والله عليم حكيم » يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ؛ ويعلم مداخل القلوب ، ومسارب النفوس . وهو حكيم فى علاجها ، وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التى تصلح بها . .

* * *

ثم يمضى فى التعقيب على حديث الإفك ؛ وما تخلف عنه من آثار ؛ مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، متوعداً من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بعذاب الله فى الآخرة . ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة ؛ وإطلاقها من ملابسات الأرض ، وإعادة الصفاء إليها والإشراق . . كما تتمثل فى موقف أبى بكر - رضى الله عنه - من قريبه مسطح ابن أثاثة الذى خاض فى حديث الإفك مع من خاض :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . .

Marfat.com

والذين يرمون المحصنات ـ وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمى بيت النبوة الكريم ـ إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ؛ وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها . . بذلك تشيع الفاحشة فى النفوس ، لتشيع بعد ذلك فى الواقع .

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة .

وذلك جانب من منهج التربية ، وإجراء من إجراءات الوقاية . يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها . . ومن ثم يعقب بقوله : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. ومن ذا الذى يعلم أمر هذه النفس إلا الذى خلقها ؟ ومن ذا الذى يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذى برأها ؟ ومن ذا الذى يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على عله شىء إلا العليم الخبير ؟

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » ..

إن الحدث لعظيم ، وإن الخطأ لجسيم ، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء . ولكن فضل الله ورحمته ، ورأفته ورعايته .. ذلك ما وقاهم السوء .. ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ؛ وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التى شملت حياة المسلمين.

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكا أن يصيبهم جميعا ، لولا فضل الله ورحمته ، صور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان . وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم . وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ؛ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ؛ ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم » . .

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم ! صورة مستنكرة ينفر منها

Marfat.com

طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية : « ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » . . وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذى قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه . وهو نموذج منفر شنيع .

وإن الإنسان لضعيف ، معرض للنزعات ، عرضة للتلوث . إلا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله ، ويسير على نهجه .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً . ولكن الله يزكى من يشاء » . .

فنور الله الذى يشرق فى القلب يطهره ويزكيه . ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر . والله يسمع ويعلم ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستمداد « والله سميع عليم » . .

وعلى ذكر التزكية والطهارة تجىء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض - كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب - :

« ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ؛ وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم » . .

نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة . وقد عرف أن مسطح ابن أثاثة كان ممن خاضوا فيه . وهو قريبه . وهو من فقراء المهاجرين . وكان أبو بكر - رضى الله عنه - ينفق عليه . فآلى على نفسه لا ينفع مسطحا بنافعة أبدا .

نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر ، وتذكر المؤمنين ، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم . فليأخذوا أنفسهم - بعضهم مع بعض - بهذا الذى يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه ، إن كانوا قد أخطأوا وأساءوا . .

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية ، التى تطهرت بنور الله . أفق يشرق فى نفس أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أبى بكر الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه . فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ؛ وما يكاد

Marfat.com

يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى: « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » حتى يرتفع على الآلام ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة . وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله . فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي . ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدا . ذلك في مقابل ماحلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدا نظيفا طاهرا زكيا مشرقا بالنور . .

* * *

ذلك الغفران الذي يذكر الله المؤمنين به . إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا . فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار ، كأمثال ابن أبي فلا سماحة ولا عفو . ولو أفلتوا من الحد في الدنيا ، لأن الشهود لم يشهدوا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة . ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود :

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين » . .

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ؛ وهو يصورها رميا للمحصنات المؤمنات وهن غافلات غارات ، غير آخذات حذرهن من الرمية . وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئا ، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرنه ! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة . ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة . لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة . ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم » . . فإذا بعضهم يتهم بعضا بالحق ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة ، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني .

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » . . ويجزيهم جزاءهم العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق . ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » . .

* * *

Marfat.com

ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة ، وحققه فى واقع الناس . وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة . وعلى هـذا تقوم العلاقات بين الأزواج . وما كان يمكن أن تكون عائشة ــ رضى الله عنها ــ كما رموها ، وهى مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض :

« الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات . أولئك مبرأون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » ..

ولقد أحبت نفس رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عائشة حبا عظيما . فما كان يمكن أن يحببها الله لنبيه المعصوم ، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم .

أولئك الطيبون والطيبات « مبرأون مما يقولون » بفطرتهم وطبيعتهم ، لا يلتبس بهم شىء مما قيل .

« لهم مغفرة ورزق كريم » .. مغفرة عما يقع منهم من أخطاء . ورزق كريم . دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم .

بذلك ينتهى حديث الإفك . ذلك الحادث الذى تعرضت فيه الجماعة المسلمة لأكبر محنة . إذ كانت محنة الثقة فى طهارة بيت الرسول ، وفى عصمة الله لنبيه أن يجعل فى بيته إلا العنصر الطاهر الكريم . وقد جعلها الله معرضا لتربية الجماعة المسلمة ، حتى تشف وترف ؛ وترتفع إلى آفاق النور .. فى سورة النور ..

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا . ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ : ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ،

Marfat.com

إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما يَصنَعُونَ * وَقُلْ لِلمُؤمِنَاتِ : يَغضُضنَ مِنْ أبصَارِهِنَّ ، وَيَحفَظنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلا يُبدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا ما ظَهَرَ مِنهَا ؛ وَلْيَضرِبنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ؛ وَلا يُبدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ، أوْ آبَائِهِنَّ ، أوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أوْ أبنائِهِنَّ ، أوْ أبناءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أوْ إخوانِهِنَّ ، أوْ بَني إخوانِهِنَّ ، أوْ بَني أخَوَاتِهِنَّ ، أوْ نِسَائِهِنَّ ، أوْ مَا مَلَكَتْ أيمَانُهُنَّ ، أوِ التَّابِعِينَ غَيرِ أُولِي الإربَةِ مِنَ الرِّجَالِ ، أوِ الطِّفلِ الَّذِينَ لَمْ يَظهَرُوا عَلَى عَورَاتِ النِّساءِ ؛ وَلا يَضرِبنَ بِأرجُلِهِنَّ لِيُعلَمَ مَا يُخفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ . وَتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أيُّهَا المُؤمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ .

« وَأنكِحُوا الأيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإمَائِكُمْ . إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَستَعفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضلِهِ . وَالَّذِينَ يَبتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أيمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ـ إنْ عَلِمتُمْ فِيهِمْ خَيراً ـ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ؛ وَلا تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ ـ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً ـ لِتَبتَغُوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنيا . وَمَنْ يُكرِههُنَّ فَإنَّ اللهَ مِنْ بَعدِ إكرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَلَقَدْ أنزَلنَا إلَيكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبلِكُمْ ، وَمَوعِظَةً لِلمُتَّقِينَ » ﴿٣٤﴾

إن الإسلام ـ كما أسلفنا ـ لايعتمد على العقوبة فى إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شىء على الوقاية . وهو لايحارب الدوافع الفطرية . ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالى من المثيرات المصطنعة .

والفكرة السائدة فى منهج التربية الإسلامية فى هذه الناحية ، هى تضييق فرص الغواية ، وإبعاد عوامل الفتنة ؛ وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة . مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعى بوسائله النظيفة المشروعة ..

Marfat.com

ومن هنا يجعل للبيوت حرمة لايجوز المساس بها ؛ فلا يفاجأ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، وعلى عورات أهلها وهم غافلون . . ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات .

ومن هنا كذلك ييسر الزواج للفقراء من الرجال والنساء . فالإحصان هو الضمان الحقيقى الاكتفاء . . وينهى عن تعريض الرقيق للبغاء كى لا تكون الفعلة سهلة ميسرة ، فتغرى بيسرها وسهولتها بالفحشاء .

فلننظر نظرة تفصيلية فى تلك الضمانات الواقية التى يأخذ بها الإسلام .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم : ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . .

لقد جعل الله البيوت سكنا ، يفىء إليها الناس ؛ فتسكن أرواحهم ؛ وتطمئن نفوسهم ؛ ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب !

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم . وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا عليها الناس .

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ؛ وتلتقى بمفاتن تثير الشهوات ؛ وتهيىء الفرصة للغواية ، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة ، التى قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة ، تحركها الميول التى أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار ؛ وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات .

ولقد كانوا فى الجاهلية يهجمون هجوما ، فيدخل الزائر البيت ، ثم يقول : لقد دخلت ! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله فى الحالة التى لا يجوز أن يراها عليها أحد .

Marfat.com

وكان يقع أن تـكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة ، هى أو الرجل . وكان ذلك يؤذى ويجرح ، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها ؛ كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة ، حين تقع العين على مايثير .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالى . أدب الاستئذان على البيوت ، والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم ، قبل الدخول :

« ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتـكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » ..

ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس ــ وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التى يجىء بها الطارق ، فتحدث فى نفوس أهل البيت أنساً به ، واستعدادا لاستقباله . وهى لفتة دقيقة لطيفة ، لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس فى بيوتهم ، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشق بها أهلها ويحرجوا أمام الطارقين فى ليل أو نهار .

وبعد الاستئذان إما أن يـكون فى البيوت أحد من أهلها أو لايكون . فإن لم يكن فيها أحد فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ، لأنه لادخول بغير إذن :

« فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لـكم » ..

وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ؛ فإنما هو طلب للإذن. فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك . ويجب الانصراف دون تلكؤ ولا انتظار :

« وإن قيل لـكم : ارجعوا فارجعوا هو أزكى لـكم » ..

ارجعوا دون أن تجدوا فى أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليـكم ، أو النفرة منـكم . فللناس أسرارهم وأعذارهم . ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم فى كل حين .

« والله بمـا تعملون عليم » . . فهو المطلع على خفايا القلوب ؛ وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافـة منفصلة عن السكن ، فلا حرج فى الدخول إليها بغير استئذان ، دفعاً للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية :

« ليس عليـكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لـكم » ..

Marfat.com

« والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . . فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ؛ ورقابته لكم فى سركم وعلانيتكم . وفى هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامتثالها لذلك الأدب العالى ، الذى يأخذها الله به فى كتابه ، الذى يرسم للبشرية نهجها الكامل فى كل اتجاه .

إن القرآن منهاج حياة . فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ، ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كلا وجزئيا ، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج . فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التى تجعل منها مثابة وسكنا . ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغتة ، والتأذى بانكشاف العورات . وهى عورات كثيرة ، تعنى غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة . . إنها ليست عورات البدن وحدها . إنما تضاف إليها عورات الطعام ، وعورات اللباس ، وعورات الأثاث ، التى قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد . وهى عورات المشاعر والحالات النفسية ، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو فى حالة ضعف يبكى لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير ، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء ؟!

وكل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآنى بهذا الأدب الرفيع ، أدب الاستئذان ؛ ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة والالتقاءات العابرة ، التى طالما أيقظت فى النفوس كامن الشهوات والرغبات ؛ وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات ، يدبرها الشيطان ، ويوجهها فى غفلة عن العيون الراعية ، والقلوب الناصحة ، هنا أو هناك !

ولقد وعاها الذين آمنوا يوم خوطبوا بها أول مرة عند نزول هذه الآيات . وبدأ بها رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام .

أخرج أبو داود والنسائى من حديث أبى عمر الأوزاعى ــ بأسناده ــ عن قيس ابن سعد هو ابن عبادة قال : زارنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى منزلنا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » فرد سعد ردا خفيا . قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؟ قال : دعه يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « السلام عليكم ورحمة الله » . فرد سعد ردا خفيا . ثم قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « السلام

Marfat.com

عليكم ورحمة الله » . ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأتبعه سعد فقال : يارسول الله إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام - قال : فانصرف معه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر له سعد بغسل فاغتسل ؛ ثم ناوله خميصة[1] مصبوغة بزعفران أو ورس ، فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه ، وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد ابن عبادة » ... الخ الحديث .

وأخرج أبو داود - بإسناده - عن عبد الله ابن بشر قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ؛ ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم . السلام عليكم » . ذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور .

وروى أبو داود كذلك - بإسناده - عن هزيل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبي - صلى الله عليه وسلم - يستأذن . فقام على الباب - قال عثمان : مستقبل الباب - فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر » .

وفى الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن ، فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » .

وروى أبو داود - بإسناده - عن ربعى قال : أتى رجل من بنى عامر استأذن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى بيته فقال : أألج ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم . أأدخل ؟ » فسمعها الرجل فقال : السلام عليكم . أأدخل ؟ فأذن له النبي - صلى الله عليه وسلم - فدخل .

وقال هشيم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ؛ فأتى فسطاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم . أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد . فأعادت . وهو يراوح بين قدميه . قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل . فدخل !

وروى عطاء ابن رباح عن ابن عباس - رضى الله عنهما ، قال : قلت أأستأذن على أخواتى

---

(١) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

Marfat.com

أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت عليه ليرخص لى فأبى ، فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضا . فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت : نعم . قال : فاستأذن .

وجاء فى الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا .. وفى رواية : ليلا يتخونهم .

وفى حديث آخر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة نهارا ، فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء ـ يعنى آخر النهار ـ حتى تمتشط الشعثة ، وتستحد(١) المغيبة » .

إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته ، بما علمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء ، المشرق بنور الله .

ونحن اليوم مسلمون ، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت . وإن الرجل ليهجم على أخيه فى بيته ، فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار ، يطرقه ويطرقه ويطرقه فلا ينصرف أبدا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له . وقد يكون فى البيت هاتف « تليفون » يملك أن يستأذن عن طريقه ، قبل أن يجيء ، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب ؛ ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم فى غير أوان ، وعلى غير موعد . ثم لا يقبل العرف أن يرد عن البيت ـ وقد جاء ـ مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار !

ونحن اليوم مسلمون ، ولكننا نطرق إخواننا فى أية لحظة فى موعد الطعام . فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا فى أنفسنا من ذلك شيئا ! ونطرقهم فى الليل المتأخر ، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا فى أنفسنا من ذلك شيئا ! دون أن نقدر أعذارهم فى هذا وذاك !

ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام ؛ ولا نجعل هوانا تبعاً لما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما نحن عبيد لعرف خاطىء ، ما أنزل الله به من سلطان !

ونرى غيرنا ممن لم يعتنقوا الإسلام ، يحافظون على تقاليد فى سلوكهم تشبه ما جاء

---

(١) تحليق من الشعر الداخلى .

Marfat.com

به ديننا ليكون أدبا لنا فى النفس ، وتقليداً من تقاليدنا فى السلوك . فيعجبنا ما نراهم عليه أحيانا ؛ ونتندر به أحيانا . ولا نحاول أن نعرف ديننا الأصيل ، فنفىء إليه مطمئنين .

* * *

وبعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت ـ وهو إجراء وقائى فى طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة ـ يأخذ على الفتنة الطريق كى لا تنطلق من عقالها ، بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة ، وبدافع الحركة المعبرة ، الداعية إلى الغواية :

« قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ؛ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعاً ـ أيها المؤمنون ـ لعلكم تفلحون » ..

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين . فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفىء ولا يرتوى . والنظرة الخائنة ، والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى . . . كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة . فإما الإفضاء الفوضوى الذى لا يتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهى تكاد أن تكون عملية تعذيب ! ! !

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين ، سليما ، وبقوته الطبيعية ، دون استثارة مصطنعة ، وتصريفه فى موضعه المأمون النظيف .

Marfat.com

ولقد شاع فى وقت من الأوقات أن النظرة المباحة ، والحديث الطليق ، والاختلاط الميسور ، والدعابة المرحة بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة .. شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت ، ومن العقد النفسية ، وتخفيف من حدة الضغط الجنسى ، وما وراءه من اندفاع غير مأمون ... الخ .

شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التى تفرقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة فى الطين ! ــ وبخاصة نظرية فرويد (١) ــ ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية ، رأيت بعينى فى أشد البلاد إباحية وتفلتا من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ، ما يكذبها وينقضها من الأساس .

نعم ، شاهدت فى البلاد التى ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدى ، والاختلاط الجنسى ، بكل صوره وأشكاله ، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها . إنما انتهى إلى سعار مجنون لايرتوى ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التى كان مفهوما أنها لاتنشأ إلا من الحرمان ، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسى بكل أنواعه .. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذى لايقيده قيد ولا يقف عند حد ؛ وللصداقات بين الجنسين تلك التى يباح معها كل شىء ! وللأجسام العارية فى الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة ، واللفتات الموقظة . وليس هنا مجال التفصيل وعرض الحوادث والشواهد (٢) . مما يدل بوضوح على ضرورة إعادة النظر فى تلك النظريات التى كذبها الواقع المشهود .

إن الميل الفطرى بين الرجل والمرأة ميل عميق فى التكوين الحيوى ؛ لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ؛ وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها . فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود . وإثارته فى كل حين تزيد من عرامته ؛ وتدفع به إلى الإفضاء المادى للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة . وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة ! والنظرة تثير . والحركة تثير . والضحكة تثير . والدعابة تثير . والنبرة المعبرة عن هذا الميل

---

(١) يراجع بتوسع فصل « المشكلة ــ الجنسية » فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب
(٢) كتاب « أمريكا التى رأيت » .. تحت الطبع ..

Marfat.com

تثير . والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل فى حدوده الطبيعية ، ثم يلبي تلبية طبيعية .. وهذا هو المنهج الذى يختاره الإسلام . مع تهذيب الطبع ، وشغل الطاقة البشرية بهموم أخرى فى الحياة ، غير تلبية دافع اللحم والدم ، فلا تكون هذه التلبية هى المنفذ الوحيد !

وفى الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين :

« قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون » ..

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة فى الاطلاع على المحاسن والمفاتن فى الوجوه والأجسام . كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية . ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم !

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر . أو هو الخطوة التالية لتحكم الإرادة ، ويقظة الرقابة ،والاستعلاء على الرغبة فى مراحلها الأولى . ومن ثم يجمع بينهما فى آية واحدة ؛ بوصفهما سببا ونتيجة ؛ أو باعتبارهما خطوتين متواليتين فى عالم الضمير وعالم الواقع . كلتاهما قريب من قريب .

« ذلك أزكى لهم » .. فهو أطهر لمشاعرهم ؛ وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية فى غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيوانى الهابط . وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها ، وجوها الذى تتنفس فيه .

والله هو الذى يأخذهم بهذه الوقاية ؛ وهو العليم بتركيبهم النفسى وتكوينهم الفطرى ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم : « إن الله خبير بما يصنعون » ..

« وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » ..

فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ،أوالهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة فى صدور الرجال . ولا يبحن فروجهن إلا فى حلال طيب ، يلبي داعى الفطرة فى جو نظيف ، لايخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة !

« ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » ..

Marfat.com

والزينــة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها . فـكل أنثى مولعة بأن تـكون جميلة ، وأن تبدو جميلة . والزينة تختلف من عصر إلى عصر ؛ ولـكن أساسها فى الفطرة واحد ، هو الرغبة فى تحصيل الجمال أو استـكماله ، وتجليته للرجال .

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ؛ ولـكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد — هو شريك الحياة — يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه . ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها ، المحارم والمذكورون فى الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع .

فأما ما ظهر من الزينة فى الوجه واليدين ، فيجوز كشفه . لأن كشف الوجه واليدين مباح لقوله — صلى الله عليه وسلم — لأسماء بنت أبى بكر : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا[1] — وأشار إلى وجهه وكفيه » .

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ..

والجيب فتحة الصدر فى الثوب . والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر . ليدارى مفاتنهن ، فلا يعرضها للعيون الجائعة ؛ ولا حتى لنظرة الفجاءة ، التى يتقى المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولـكنها قد تترك كميناً فى أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة !

إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء فى هذا النوع من البلاء !

والمؤمنات اللواتى تلقين هذا النهى . وقلوبهن مشرقة بنور الله ، لم يتلـكأن فى الطاعة ، على الرغم من رغبتهن الفطرية فى الظهور بالزينة والجمال . وقد كانت المرأة فى الجاهلية — كما هى اليوم فى الجاهلية الحديثة ! — تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شىء . وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها ، وأقرطة أذنيها . فلما أمر الله النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، كن كما قالت عائشة رضى الله عنها — : « يرحم الله نساء المهاجرات الأول . لما أنزل الله : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شققن مروطهن فاختمرن بها[2] » .. وعن صفية — بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة . قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة — رضى الله عنها — إن لنساء قريش لفضلا . وإنى والله ما رأيت أفضل من

(١) رواه أبو داود فى سننه وقال : إنه مرسل .   (٢) أخرجه البخارى .

Marfat.com

نساء الأنصار ، أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل . لما نزلت فى سورة النور : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ؛ ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابته . فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه . فأصبحن وراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[1] » .

لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامى ، وطهر إحساسه بالجمال ؛ فلم يعد الطابع الحيوانى للجمال هو المستحب ، بل الطابع الإنسانى المهذب . . وجمال الكشف الجسدى جمال حيوانى يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان ؛ مهما يكن من التناسق والاكتمال . فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف ، الذى يرفع الذوق الجمالى ، ويجعله لائقاً بالإنسان ، ويحيطه بالنظافة والطهارة فى الحس والخيال .

وكذلك يصنع الإسلام اليوم فى صفوف المؤمنات . على الرغم من هبوط الذوق العام ، وغلبة الطابع الحيوانى عليه ؛ والجنوح به إلى التكشف والعرى والتزى كما تتزى البهيمة ! فإذا هن يحجبن مفاتن أجسامهن طائعات ، فى مجتمع يتكشف ويتبرج ، وتهتف الأنثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان !

هذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة . . ومن ثم يبيح القرآن تركه عند ما يأمن الفتنة . فيستثنى المحارم الذين لا تتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم :

الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبناؤهم ، والإخوة وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات . . كما يستثنى النساء المؤمنات : « أو نسائهن » فأما غير المسلمات فلا . لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخوتهن ، وأبناء ملتهن مفاتن نساء المسلمين وعوراتهن لو اطلعن عليها . وفى الصحيحين : « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه يراها » . . أما المسلمات فهن أمينات ، يمنعهن دينهن أن يصفن لرجالهن جسم امرأة مسلمة وزينتها .. ويستثنى كذلك « ماملكت أيمانهن » قيل من الإناث فقط ، وقيل : ومن الذكور كذلك . لأن الرقيق لا تمتد شهوته إلى سيدته . والأول أولى ، لأن الرقيق إنسان تهيج فيه شهوة الإنسان ، مهما يكن له من وضع خاص ؛

---

(١) أخرجه أبو داود .

Marfat.com

فى فترة من الزمان . . ويستثنى « التابعين غير أولى الإربة من الرجال » . . وهم الذين لا يشتهون النساء لسبب من الأسباب كالجب والعنة والبلاهة والجنون . . وسائر ما يمنع الرجل أن تشتهى نفسه المرأة . لأنه لا فتنة هنا ولا إغراء . . ويستثنى « الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » . . وهم الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس . فإذا ميزوا ، وثار فيهم هذا الشعور ـ ولو كانوا دون البلوغ ـ فهم غير داخلين فى هذا الاستثناء .

وهؤلاء كلهم ـ عدا الأزواج ـ ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها ، إلا ما تحت السرة إلى تحت الركبة . لانتفاء الفتنة التى من أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية كل جسدها بلا استثناء .

ولما كانت الوقاية هى المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التى تعلن عن الزينة المستورة ، وتهيج الشهوات الكامنة ، وتوقظ المشاعر النائمة . ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة :

« لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » . .

وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها . فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى فى إثارة الشهوات منّ العيان . وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أو حليها ، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته . كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر فى خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم ـ وهى حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم ـ وسماع وسوسة الحلى أو شمام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ، ويهيج أعصابهم ، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها ردا . والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله . لأن منزله هو الذى خلق ، وهو الذى يعلم من خلق . وهو اللطيف الخبير .

وفى النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ؛ ويفتح لها باب التوبة مما ألمت به قبل نزول هذا القرآن :

« وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

Marfat.com

بذلك يثير الحساسية برقابة الله ، وعطفه ورعايته ، وعونه للبشر فى ضعفهم أمام ذلك الميل الفطرى العميق ، الذى لا يضبطه مثل الشعور بالله ، وبتقواه . .

* * *

وإلى هنا كان علاج المسأله علاجاً نفسياً وقائيا . ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة ، لابد من مواجهتها بحلول واقعية إيجابية .. هذه الحلول الواقعة هى تيسير الزواج ، والمعاونة عليه ؛ مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقها نهائيا :

« وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله . والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ـ إن علمتم فيهم خيراً ـ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ؛ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ـ إن أردن تحصنا ـ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » ..

إن الزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية . وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة . فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها . والعقبة المالية هى العقبة الأولى فى طريق بناء البيوت ، وتحصين النفوس . والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء . فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذى يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال :

« وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » . .

والأيامى هم الذين لاأزواج لهم من الجنسين .. والمقصود هنا الأحرار . وقد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : « والصالحين من عبادكم وإمائكم » .

وكلهم ينقصهم المال كما يفهم من قوله بعد ذلك : «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» .. وهذا أمر للجماعة بتزويجهم . والجمهور على أن الأمر هنا للندب . ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزوجوا . ولو كان الأمر للوجوب لزوجهم .

Marfat.com

ونحن نرى أن الأمر للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأيامى على الزواج ؛ ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم فى الزواج ، وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة . وهو واجب . ووسيلة الواجب واجبة.

وينبغى أن نضع فى حسابنا ــ مع هذا ــ أن الإسلام ــ بوصفه نظاما متكاملا ــ يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجاً أساسيا ؛ فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال . ولكنه فى الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات .. فالأصل فى النظام الاقتصادى الإسلامى أن يستغنى كل فرد بدخله . وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقاً على الدولة واجبا للأفراد . أما الإعانة من بيت المال فهى حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادى فى الإسلام .

فإذا وجد فى المجتمع الإسلامى ــ بعد ذلك ــ أيامى فقراء وفقيرات ، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوجهم . وكذلك العبيد والإماء . غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج ــ متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالا ونساء ــ فالرزق بيد الله . وقد تكفل الله بإغنائهم ، إن هم اختاروا طريق العفة النظيف : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف (١) ».

وفى انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » . . « والله واسع عليم » .. لا يضيق على من يبتغى العفة ، وهو يعلم نيته وصلاحه .

وهكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية ؛ فيهيء لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج؛ ولو كان عاجزاً من ناحية المال . والمال هو العقبة الكؤود غالبا فى طريق الإحصان .

ولما كان وجود الرقيق فى الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلق ، وأن يعين على الترخص والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية . وكان وجود الرقيق ضرورة إذ ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل مايعاملون به أسرى المسلمين . لما كان الأمر

(١) أخرجه الترمذى والنسائى .

Marfat.com

كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة . حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته . وذلك فى مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته :

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . إن علمتم فيهم خيرا » ..

وآراء الفقهاء مختلفة فى هذا الوجوب . ونحن نراه الأولى ؛ فهو يتمشى مع خط الإسلام الرئيسى فى الحرية وفى كرامة الإنسانية . ومنذ المكاتبة يصبح مال الرقيق له ، وأجر عمله له ، ليوفى منه ما كاتب عليه ؛ ويجب له نصيب فى الزكاة : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . ذلك على شرط أن يعلم المولى فى الرقيق خيرا . والخير هو الإسلام أولا . ثم هو القدرة على الكسب . ولا يتركه كلا على الناس بعد تحرره . وقد يلجأ إلى أحط الوسائل ليعيش ، ويكسب ما يقيم أوده . والإسلام نظام تكافل . وهو كذلك نظام واقع . فليس المهم أن يقال : إن الرقيق قد تحرر . وليست العنوانات هى التى تهمه . إنما تهمه الحقيقة الواقعة . ولن يتحرر الرقيق حقا إلا إذا قدر على الكسب بعد عتقه ؛ فلم يكن كلا على الناس ؛ ولم يلجأ إلى وسيلة قذرة يعيش منها ، ويبيع فيها ما هو أثمن من الحرية الشكلية وأغلى ، وهو أعتقه لتنظيف المجتمع لا لتلويثه من جديد ؛ بما هو أشد وأنكى[1] .

وأخطر من وجود الرقيق فى الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبغاء . وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى ؛ وجعل عليها ضريبة يأخذها منها ـ وهذا هو البغاء فى صورته التى ماتزال معروفة حتى اليوم ـ فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة؛ وخص هذه الحالة بنص خاص :

« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . إن أردن تحصنا . لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » .

فنعى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث . ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة ، بعد الإكراه الذى لا يد لهن فيه .

قال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله ابن أبى ابن سلول ، رأس المنافقين ،

---

(١) انتهى نظام الرق كله بمجرد وجود معاهدات عالمية تحرم استرقاق أسرى الحرب . فنظام الرق كان مؤقتا فى الإسلام مقيدا بمبدأ المعاملة بالمثل .

Marfat.com

وكانت له جارية تدعى معاذة . وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه ، والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فشكت إليه ذلك ؛ فذكره أبو بكر للنبي – صلى الله عليه وسلم – فأمره بقبضها . فصاح عبد الله ابن أبي : من يعذرنا من محمد ؟ يغلبنا على مملوكتنا ! فأنزل الله فيهم هذا .

هذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء – وهن يردن العفة – ابتغاء المال الرخيص كان جزءاً من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية ، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي . ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ؛ ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف .

ولا عبرة بما يقال من أن البغاء صمام أمن ، يحمي البيوت الشريفة ؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج . أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة ، إن لم تجد هذا الكلأ المباح !

إن في التفكير على هذا النحو قلبا للأسباب والنتائج . فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفا بريئا موجها إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة . وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج . فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجا خاصا . . وبذلك لا تحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقاذر إنسانية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات ، تحت سمع الجماعة وبصرها !

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج ، بحيث لا تخرج مثل هذا النتن . ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود المقاذر العامة ، في صور آدمية ذليلة .

وهذا ما يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف ، الذي يصل الأرض بالسماء ، ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله .

* * *

ويعقب على هذا الشوط بصفة القرآن التي تناسب موضوعه وجوه :

« ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين » . .

Marfat.com

فهو آيات مبينات ، لاتدع مجالا للغموض والتأويل ، والانحراف عن النهج القويم .

وهو عرض لمصائر الغابرين الذين انحرفوا عن نهج الله فكان مصيرهم النكال .

وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى وتستقيم .

والأحكام التى تضمنها هذا الشوط تتناسق مع هذا التعقيب ، الذى يربط القلوب بالله ، الذى نزل هذا القرآن ..

« اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ . الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ . يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ..

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

Marfat.com

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ، فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ؛ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ .

« يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ .

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ؛ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ﴿٤٥﴾

فى الدرسين الماضيين من السورة عالج السياق أغلظ ما فى الكيان البشرى . ليرققه ويطهره ويرتفع به إلى آفاق النور . عالج عرامة اللحم والدم ، وشهوة العين والفرج ، ورغبة التجريح والتشهير ، ودفعة الغضب والغيظ . وعالج الفاحشة أن تشيع فى النفس وأن تشيع فى الحياة ، وأن تشيع فى القول . عالجها بتشديد حد الزنا وحد القذف . وعالجها بعرض نموذج شنيع فظيع من رمى المحصنات الغافلات المؤمنات . وعالجها بالوسائل الواقية : بالاستئذان على البيوت وغض البصر وإخفاء الزينة ، والنهى عن مثيرات الفتنة ، وموقظات الشهوة . ثم بالإحصان ، ومنع البغاء ، وتحرير الرقيق . . كل أولئك ليأخذ الطريق على دفعات اللحم والدم ، ويهىء للنفوس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق . .

وفى أعقاب حديث الإفك عالج ما تخلف عنه من غضب وغيظ ، ومن اضطراب فى المقاييس ، وقلق فى النفوس . فإذا نفس محمد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مطمئنة هادئة. وإذا نفس عائشة ـ رضى الله عنها ـ قريرة راضية . وإذا نفس أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ سمحة صافية . وإذا نفس صفوان ابن المعطل ـ رضى الله عنه ـ قانعة بشهادة الله وتبرئته . وإذا نفوس المسلمين آيبة تائبة . وقد تكشف لها ما كانت تخبطفيه من التيه . فثابت إلى ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته . .

Marfat.com

بهذا التعليم . وهـذا التهذيب . وهـذا التوجيه . عالج الكيان البشرى ، حتى أشرق بالنور ؛ وتطلع إلى الأفق الوضىء ؛ واستشرف النور الكبير فى آفاق السماوات والأرض ، وهو على استعداد لتلقى الفيض الشامل الغامر فى عالم كله إشراق ، وكله نور :

« الله نور السماوات والأرض » ..

وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادئ الوضىء ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب فى الحنايا والجوانح ؛ وحتى يسبح الكون كله فى فيض النور الباهر ؛ وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر ؛ وحتى تنزاح الحجب ، وتشف القلوب ، وترف الأرواح . ويسبح كل شىء فى الفيض الغامر ، ويتطهر كل شىء فى بحر النور ، ويتجرد كل شىء من كثافتـه وثقله ، فإذا هو انطلاق ورفرفة ، ولقاء ومعرفة ، وامتزاج وألفة ، وفرح وحبور . وإذا الكون كله بمـا فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود ، تتصل فيـه السماوات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بالقريب ؛ وتلتقى فيـه الشعاب والدروب ، والطوايا والظواهر ، والحواس والقلوب . . .

« الله نور السماوات والأرض » . .

النور الذى منـه قوامها ومنـه نظامها . . فهو الذى يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها .. ولقد استطاع البشر أخيرا أن يدركوا بعلمهم طرفا من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال فى أيديهم ما كان يسمى بالمادة ــ بعد تحطيم الذرة ــ إلى إشعاعات منطلقـة لاقوام لهـا إلا النور ! ولا « مادة » لها إلا النور ! فذرة المادة مؤلفـة من كهارب وإلكترونات ، تنطلق ــ عند تحطيمها ــ فى هيئة إشعاع قوامه هو النور ! فأما القلب البشرى فـكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون . كان يدركهـا كلما شف ورف ، وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ففاض بهـا وهـو عائد من الطائف ، نافض كفيـه من الناس ، عائذ بوجه ربه يقول : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » . وفاض بهـا فى رحلة الإسراء والمعراج . فلما سألتـه عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال . « نور . أنى أراه . . »

ولـكن الكيان البشرى لا يقوى طويلا على تلقى ذلك الفيض الغامر دائما ، ولا يستشرف

Marfat.com

طويلا ذلك الأفق البعيد . فبعد أن جلا النص هذا الأفق المترامى ، عاد يقارب مداه ، ويقربه إلى الإدراك البشرى المحدود ، فى مثل قريب محسوس :

« مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور » ..

وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ؛ ويرسم النموذج المصغر الذى يتأمله الحس ، حين يقصر عن تملى الأصل . وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشرى الحسير .

ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة . وهى الكوة الصغيرة فى الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قوياً متألقا : « كمشكاة فيها مصباح » . . « المصباح فى زجاجة » . . تقيه الريح ، وتصفى نوره ، فيتألق ويزداد . . « الزجاجة كأنها كوكب درى » . . فهى بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة . . هنا يصل بين المثل والحقيقة . بين النموذج والأصل . حين يرتقى من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، كى لا ينحصر التأمل فى النموذج الصغير ، الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير . . وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج . إلى المصباح :

« يوقد من شجرة مباركة زيتونة » ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون. ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل . إنما هو كذلك الظلال المقدسة التى تلقيها الشجرة المباركة . ظلال الوادى المقدس فى الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب. وفى القرآن إشارة لها وظلال حولها : « وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » . وهى شجرة معمرة ، وكل مافيها مما ينفع الناس . زيتها وخشبها وورقها وثمرها .. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير . فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها ، وليست متحيزة إلى مكان أو جهة . إنما هى مثل مجرد للتقريب : « لا شرقية ولا غربية » . . وزيتها ليس زيتا من هذا المشهود المحدود ، إنما هو زيت آخر عجيب : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .. فهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى ليكاد يضىء بغير احتراق ؛ « ولو لم تمسسه نار » . . « نور على نور » . . وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق فى نهاية المطاف !

Marfat.com

إنه نور الله الذى أشرقت به الظلمات فى السماوات والأرض . النور الذى لا ندرك كنهه ولا مداه . إنما هى محاولة لوصل القلوب به ، والتطلع إلى رؤياه : « يهدى الله لنوره من يشاء » . . ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه . فهو شائع فى السماوات والأرض ، فائض فى السماوات والأرض. دائم فى السماوات والأرض . لاينقطع ، ولا يحتبس ، ولا يخبو . فحيثما توجه إليه القلب رآه . وحيثما تطلع إليه الحائر هداه . وحيثما اتصل به وجد الله .

إنما المثل الذى ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك ، وهو العليم بطاقة البشر :

« ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم » . .

ذلك النور الطليق ، الشائع فى السماوات والأرض ، الفائض فى السماوات والأرض ، يتجلى ويتبلور فى بيوت الله التى تتصل فيها القلوب بالله ، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه ، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة :

« فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

وهناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية فى عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب . وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور فى المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور فى بيوت الله .

تلك البيوت « أذن الله أن ترفع » ــ وإذن الله هو أمر للنفاذ ــ فهى مرفوعة قائمة ، وهى مطهرة رفيعة . يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق فى السماوات والأرض . وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنى الوضىء . وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله : « ويذكر فيها اسمه » . وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهبة . قلوب الرجال الذين « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . . والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء . ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله فى الصلاة ، وأداء حق العباد فى الزكاة . « يخافون يوما تتقلب فيه

Marfat.com

القلوب والأبصار » . . تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب . وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله :

« ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله » . .

ورجاؤهم لن يخيب في فضل الله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » من فضله الذى لا حدود له ولا قيود .

* * *

فى مقابل ذلك النور المتجلى فى السماوات والأرض ، المتبلور فى بيوت الله ، المشرق فى قلوب أهل الإيمان . . يعرض السياق مجالا آخر . مجالا مظلما لا نور فيه . مخيفاً لا أمن فيه . ضائعا لا خير فيه . ذلك هو مجال الكفر الذى يعيش فيه الكفار :

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . .

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة والحياة .

فى المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعا كاذبا ، فيتبعه صاحبه الظامىء ، وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك . . وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة . فهذا السائر وراء السراب ، الظامىء الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك . . يصل . فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له ببال ، المرعبة التى تقطع الأوصال ، وتورث الخبال : « ووجد الله عنده » ! الله الذى كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه . وجده هنالك ينتظره ! ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد . فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار ؟

« فوفاه حسابه » . . هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجاءة ، « والله سريع الحساب » . . تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع !

Marfat.com

وفى المشهد الثانى تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ؛ ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى . موج من فوقه موج . من فوقه سحاب . وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام !

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون . وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى . ومخافة لا أمن فيها ولا قرار . . « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » . . ونور الله هدى فى القلب ؛ وتفتح فى البصيرة ؛ واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السماوات والأرض ؛ والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض . فمن لم يتصل بهذا النور فهو فى ظلمة لا انكشاف لها ، وفى مخافة لا أمن فيها ، وفى ضلال لا رجعة منه . ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة ، ولا صلاح بغير إيمان . إن هدى الله هو الهدى . وإن نور الله هو النور .

* * *

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام فى عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح . مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه ، شاخصا يسبح لله : إنسه وجنه ، أملاكه وأفلاكه ، أحياؤه وجماده . . وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه ، فى مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه :

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » . .

إن الإنسان ليس مفردا فى هذا الكون الفسيح ؛ فإن من حوله ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ؛ وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال . . إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى ، وصور شتى ، وأشكال شتى . ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون فى الله ، ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده : « والله عليم بما يفعلون » . .

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله فى السماوات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ؛ ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد فى كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه . ذلك مشهد الطير صافات

Marfat.com

أرجلها وهى طائرة فى الفضاء تسبح بحمد الله : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » . . والإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ؛ وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو فى هذا المشهد الخاشع متجهاً كله إلى خالقه ، مسبحا بحمده ، قائما بصلاته ؛ وإنه لكذلك فى فطرته ، وفى طاعته لمشيئة خالقه الممثلة فى نواميسه . وإن الإنسان ليدرك ـ حين يشف ـ هذا المشهد ممثلا فى حسه كأنه يراه ؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله . وإنه ليشارك كل كائن فى هذا الوجود صلاته ونجواه . . كذلك كان محمد ابن عبد الله ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه . وكذلك كان داود ـ عليه السلام ـ يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير .

« ولله ملك السماوات والأرض ، وإلى الله المصير » . .

فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التى يمر عليها الناس غافلين ؛ وفيها متعة للنظر ، وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل فى صنع الله وآياته ، وفى دلائل النور والهدى والإيمان :

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنى برقه يذهب بالأبصار » . .

والمشهد يعرض على مهل وفى إطالة ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقى وتتجمع . كل أولئك لتؤدى الغرض من عرضها فى لمس القلب وإيقاظه ، وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله .

إن يد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان . ثم تؤلف بينه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض . فإذا ثقل خرج منه الماء ، والوبل الهاطل ، وهو فى هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة . . ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقا ،

Marfat.com

بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها . وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس ، إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذى يحكم الكون ؛ ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء . . وتكملة المشهد الضخم : « يكاد سنى برقه يذهب بالأبصار » ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير فى الكون العريض ، على طريقة التناسق فى التصوير .

* * *

ثم مشهد كونى ثالث : مشهد الليل والنهار :

« يقلب الله الليل والنهار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . .

والتأمل فى تقلب الليل والنهار بهذا النظام الذى لا يختل ولا يفتر يوقظ فى القلب الحساسية وتدبر الناموس الذى يصرف هذا الكون والتأمل فى صنع الله . والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التى ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائما بحس جديد ، وانفعال جديد . فعجيبة الليل والنهار كم شاقت القلب البشرى ، وهو يتأملها أول مرة . وهى هى لم تتغير ؛ ولم تفقد جمالها وروعتها . إنما القلب البشرى هو الذى صدىء وهمد ، فلم يعد يخفق لها . وكم ذا نفقد من حياتنا ، وكم ذا نخسر من جمال هذا الوجود ، حين نمر غافلين بهذه الظواهر التى شاقت حسنا وهى جديدة . أو وحسنا هو الجديد !

والقرآن يجدد حسنا الخامد ، ويوقظ حواسنا الملول . ويلمس قلبنا البارد . ويثير وجداننا الكليل ؛ لنرتاد هذا الكون دائما كما ارتدناه أول مرة . نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون . ونرقب يد الله تفعل فعلها فى كل شىء من حولنا ، ونتدبر حكمته فى صنعته ، ونعتبر بآياته المبثوثة فى تضاعيف الوجود .

إن الله ــ سبحانه ــ يريد أن يمن علينا ، بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ؛ فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة . فنظل نجد الكون مرات لا تحصى . وكأننا فى كل مرة نوهبه من جديد ؛ ونستمتع به من جديد .

وإن هذا الوجود لجميل وباهر ورائع . وإن فطرتنا لمتوافقة مع فطرته ، مستمدة من

Marfat.com

النبع الذى يستمد منه ، قائمة على ذات الناموس الذى يقوم عليه . فالاتصال بضمير هذا الوجود يهبنا أنسا وطمأنينة ، وصلة ومعرفة ، وفرحة كفرحة اللقاء بالقريب الغائب أو المحجوب !

وإننا لنجد نور الله هناك . فالله نور السماوات والأرض .. نجده فى الآفاق وفى أنفسنا فى ذات اللحظة التى نشهد فيها هذا الوجود بالحس البصير ، والقلب المتفتح ، والتأمل الواصل إلى حقيقة التدبير .

لهذا يوقظنا القرآن المرة بعد المرة ، ويوجه حسنا وروحنا إلى شتى مشاهد الوجود الباهرة ، كى لا نمر عليها غافلين مغمضى الأعين ، فنخرج من رحلة الحياة على ظهر هذه الأرض بغير رصيد . أو برصيد قليل هزيل . .

* * *

ويمضى السياق فى عرض مشاهد الكون ، واستثارة تطلعنا إليها ؛ فيعرض نشأة الحياة ، من أصل واحد ، وطبيعة واحدة ، ثم تنوعها ، مع وحدة النشأة والطبيعة :

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شىء قدير » . .

وهذه الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعنى وحدة العنصر الأساسى فى تركيب الأحياء جميعا ، وهو الماء ، وقد تعنى ما يحاول العلم الحديث أن يثبته من أن الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلا فى الماء . ثم تنوعت الأنواع ، وتفرعت الأجناس . .

ولكننا نحن على طريقتنا فى عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل .. لانزيد على هذه الإشارة شيئا . مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية . وهى أن الله خلق الأحياء كلها من الماء . فهى ذات أصل واحد . ثم هى ــ كما ترى العين ــ متنوعة الأشكال . منها الزواحف تمشى على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشى على قدمين . ومنها الحيوان يدب على أربع . كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته ، لا عن فلتة ولا مصادفة : « يخلق الله ما يشاء » غير مقيد بشكل ولا هيئة . فالنواميس والسنن التى تعمل فى الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها : « إن الله على كل شىء قدير » .

Marfat.com

« والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . والمشيئة مطلقة لا يقيدها قيد . غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقا ، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره ، فاتصل به ، وسار على الدرب ، حتى يصل ــ بمشيئة الله ــ ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادى ولج فى طريق الضلال . حسب مشيئة الله فى الهدى والضلال .

ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الفريق من الناس . فريق المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام :

« ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون » . .

إن الإيمان الصحيح متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك . والإسلام عقيدة متحركة ، لاتطيق السلبية . فهى بمجرد تحققها فى عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها فى الخارج ؛ ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل فى عالم الواقع . ومنهج الإسلام الواضح فى التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ؛ وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعورى الأول فى كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وهؤلاء كانوا يقولون : « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » . . يقولونها بأفواههم ، ولكن مدلولها لا يتحقق فى سلوكهم . فيتولون ناكصين ؛ يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم . والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ؛ ثم يدعها ويمضى . إنما هو تكيف فى النفس ، وانطباع فى القلب ، وعمل فى الواقع ، ثم لاتملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته فى الضمير . .

ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على شريعة الله التى جاء بها :

« وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » . .

فلقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لايحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن . وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولايطيق العدل . ومن ثم كانوا

Marfat.com

يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويأبون أن يجيئوا إليه. فأما إذا كانوا أصحاب حق فى قضية فهم يسارعون إلى تحكيم رسول الله، راضين خاضعين، لأنهم واثقون أنه سيقضى لهم بحقهم، وفق شريعة الله، التى لا تظلم ولا تبخس الحقوق.

هذا الفريق الذى كان يدعى الإيمان، ثم يسلك هذا السلوك الملتوى، إنما هو نموذج للمنافقين فى كل زمان ومكان. المنافقين الذى لا يجرأون على الجهر بكلمة الكفر، فيتظاهرون بالإسلام. ولكنهم لا يرضون أن تقضى بينهم شريعة الله، ولا أن يحكم فيهم قانونه. فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير «وما أولئك بالمؤمنين» فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله. إلا أن تكون لهم مصلحة فى أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه!

إن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق. وهو المظهر الذى ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب. وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله. وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيء الأدب معتم، لم يتأدب بأدب الإسلام، ولم يشرق قلبه بنور الإيمان.

ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم، وتتعجب من ريبتهم، وتستنكر تصرفهم الغريب:

«أفى قلوبهم مرض؟ أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟».

والسؤال الأول للإثبات. فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر. وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة. إنما هو المرض الذى تختل به فطرته عن استقامتها، فلا تتذوق حقيقة الإيمان، ولا تسير على نهجه القويم.

والسؤال الثانى للتعجب. فهل هم يشكون فى حكم الله وهم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكون فى مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكون فى صلاحيته لإقامة العدل؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين!

والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب. فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف فى نفس إنسان. فالله خالق الجميع ورب الجميع. فكيف يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه؟

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف. لأن الله هو العادل الذى لا يظلم أحدا. وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحدا منهم لمصلحة أحد. وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف. فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم. أفرادا كانوا أم طبقة أم دولة.

Marfat.com

وحين يشرع فرد ويحكم فلابد أن يلحظ فى التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة . أو كتلة من الدول لكتلة . . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . إنما هى العدالة المطلقة ، التى لا يطيقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه .

من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ؛ ولا يحبون للحق أن يسود . فهم لا يخشون فى حكم الله حيفا ، ولا يرتابون فى عدالته أصلا « بل أولئك هم الظالمون » . .

فأما المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله . ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ؛ هو القول الذى يليق بالمؤمنين ؛ وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور :

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون » . .

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة فى أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى ؛ النابعان من التسليم المطلق لله ، واهب الحياة ، المتصرف فيها كيف يشاء ؛ ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم . فالله الذى خلق أعلم بمن خلق . .

« وأولئك هم المفلحون » .. المفلحون لأن الله هو الذى يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ؛ فلا بد أن يكونوا خيرا ممن يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بشر مثلهم ، قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .. والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد ، لا عوج فيه ولا التواء ، مطمئنون إلى هذا المنهج ، ماضون فيه لا يتخبطون ، فلا تتوزع طاقاتهم ، ولا يمزقهم الهوى كل ممزق ، ولا تقودهم الشهوات والأهواء . والنهج الإلهى أمامهم واضح مستقيم .

« ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » . .

وقد كان الحديث فى الآية السابقة عن الطاعة والتسليم فى الأحكام . فالآن يتحدث عن الطاعة كافة فى كل أمر أو نهى ، مصحوبة هذه الطاعة بخشية الله وتقواه . والتقوى أعم من الخشية ، فهى مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة ؛ والتحرج من إتيان ما يكره توقيراً لذاته سبحانه ، وإجلالا له ، وحياء منه ، إلى جانب الخوف والخشية .

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ، الناجون فى دنياهم وأخراهم . وعد الله ولن يخلف الله وعده . وهم للفوز أهل ، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم . فالطاعة لله

Marfat.com

ورسوله تقتضى السير على النهج القويم الذى رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة ، وهو بطبيعته يؤدى إلى الفوز فى الدنيا والآخرة . وخشية الله وتقواه هى الحارس الذى يكفل الاستقامة على النهج ، وإغفال المغريات التى تهتف بهم على جانبيه ، فلا ينحرفون ولا يلتفتون .

وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه ، أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به ، وشعوره بهيبته . كما ينبىء عن عزة القلب المؤمن واستعلائه . فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هى ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ، ويستعلى عليها ضميره . فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار .

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين ، وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين ، بعد هذه المقابلة يعود إلى استكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن . قل: لا تقسموا . طاعة معروفة . إن الله خبير بما تعملون . قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . .

ولقد كان المنافقون يقسمون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن . والله يعلم إنهم لكاذبون . فهو يرد عليهم متهكما ، ساخرا من أيمانهم : « قل : لاتقسموا . طاعة معروفة » . . لا تحلفوا فإن طاعتكم معروف أمرها ، مفروغ منها ، لا تحتاج إلى حلف أو توكيد ! كما تقول لمن تعلم عليه الكذب وهو مشهور به : لاتحلف لى على صدقك . فهو مؤكد ثابت لا يحتاج إلى دليل !!!

ويعقب على التهكم الساخر بقوله : « إن الله خبير بما تعملون » . . فلا يحتاج إلى قسم ولا توكيد . وقد علم أنكم لا تطيعون ولا تخرجون !

لهذا يعود فيأمرهم بالطاعة . الطاعة الحقيقية . لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة !

« قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . .

« فإن تولوا » وتعرضوا ، أو تنافقوا ولا تنفذوا « فإن عليه ما حمل » من تبليغ الرسالة وقد قام به وأداه « وعليكم ما حملتم » وهو أن تطيعوا وتخلصوا . وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه : « وإن تطيعوه تهتدوا » إلى النهج القويم المؤدى إلى الفوز والفلاح . « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » فليس مسؤولا عن إيمانكم ، وليس مقصرا إذا أنتم توليتم . إنما أنتم المسؤولون المعاقبون بما توليتم وبما عصيتم ، وبما خالفتم عن أمر الله وأمر الرسول .

* * *

Marfat.com

وبعد استعراض أمر المنافقين ، والانتهاء منه على هذا النحو . . يدعهم السياق وشأنهم ، ويلتفت عنهم إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة، والإيمان العامل ، فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ؛ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ؛ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . .

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستخلفهم فى الأرض . وأن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا . . ذلك وعد الله . ووعد الله حق . ووعد الله واقع . ولن يخلف الله وعده . . فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله ؛ وتوجه النشاط الإنسانى كله . فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ؛ لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله ؛ وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى فى النفس ، ولا شهوة فى القلب ، ولا ميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله .

فهو الإيمان الذى يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه ، وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه فى أهله ومع الناس جميعا . . يتوجه بهذا كله إلى الله . . يتمثل هذا فى قول الله سبحانه فى الآية نفسها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن : « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله .

ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض . . أمانة الاستخلاف . .

فما حقيقة الاستخلاف فى الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . . إنما هى هذا كله على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء ؛ وتحقيق المنهج الذى رسمه الله للبشرية كى تسير عليه ؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله .

Marfat.com

إن الاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

وهذا الاستخلاف هو الذى وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . وعدهم الله أن يستخلفهم فى الأرض — كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم — ليحققوا النهج الذى أراده الله ؛ ويقرروا العدل الذى أراده الله ؛ ويسيروا بالبشرية خطوات فى طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله . . فأما الذين يملكون فيفسدون فى الأرض ، وينشرون فيها البغى والجور ، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان . . فهؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض . إنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى بهم غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله .

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده : « وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » . . وتمكين الدين يتم بتمكينه فى القلوب ، كما يتم بتمكينه فى تصريف الحياة وتدبيرها . فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم فى الأرض ، وأن يجعل دينهم الذى ارتضى لهم هو الذى يهيمن على الأرض . ودينهم يأمر بالإصلاح ، ويأمر بالعدل ، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض . ويأمر بعمارة هذه الأرض ، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ، ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله .

« وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » . . ولقد كانوا خائفين ، لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبدا حتى بعد هجرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة .

قال الربيع ابن أنس عن أبى العالية فى هذه الآية : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده بلا شريك له ، سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ؛ حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ؛ فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم ليست فيه حديدة » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله قبض نبيه — صلى الله عليه وسلم — فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان . حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل الله عليهم الخوف : فاتخذوا الحجزة والشرط ، وغيروا فغير بهم . .

Marfat.com

« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .. الخارجون على شرط الله . ووعد الله . وعهد الله ...

لقد تحقق وعد الله مرة . وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله : « يعبدونني لا يشركون بي شيئا » . . لا من الآلهة ولا من الشهوات . و يؤمنون ـ من الإيمان ـ ويعملون صالحا . ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة . إنما يبطىء النصر والاستخلاف والتمكين والأمن ، لتخلف شرط الله فى جانب من جوانبه الفسيحة؛ أوفى تكليف من تكاليفه الضخمة ؛ حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف .. كل ذلك بوسائله التى أرادها الله ، وبشروطه التى قررها الله .. تحقق وعد الله الذى لا يتخلف ، ولا تقف فى طريقه قوة من قوى الأرض جميعا .

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة ؛ وبألا يحسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذى ارتضى لهم:

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض . ومأواهم جهنم و بئس المصير » ..

فهذه هى العدة .. الاتصال بالله ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة . والاستعلاء على الشح ، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة . وطاعة الرسول والرضى بحكمه ، وتنفيذ شريعة الله فى الصغيرة والكبيرة ، وتحقيق النهج الذى أراده للحياة : « لعلكم ترحمون » فى الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال ، وفى الآخرة من الغضب والعذاب والنكال .

فإذا استقمتم على النهج ، فلا عليكم من قوة الكافرين . فما هم بمعجزين فى الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم فى طريق . وأنتم أقوياء بإيمانكم ، أقوياء بنظامكم ، أقوياء بعدتكم التى تستطيعون . وقد لا تكونون فى مثل عدتهم من الناحية المادية . ولكن القلوب المؤمنة التى تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب .

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله فى تلك الآيات . ولا بد أن يبحث عن مصداقها فى تاريخ الحياة البشرية ، وهو يدرك شروطها على حقيقتها ، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب ، أو يستبطىء وقوعها فى حالة من الحالات .

إنه مامن مرة سارت هذه الأمة على نهج الله ، وحكمت هذا النهج فى الحياة ، وارتضته فى كل أمورها .. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن . وما من مرة خالفت عن

Marfat.com

... ا النهج إلا تخلفت فى ذيل القافلة ، وذلت ، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية ؛ واستبد بها الخوف ؛ وتخطفها الأعداء .

ألا وإن وعد الله قائم . ألا وإن شرط الله معروف. فمن شاء الوعد فليقم بالشرط . ومن أوفى بعهده من الله ؟

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ . ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

« وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ . وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

« لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ؛ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ، أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا . فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ، تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ

Marfat.com

لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ، وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا . فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ، أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٦٤)

إن الإسلام منهاج حياة كامل ؛ فهو ينظم حياة الإنسان فى كل أطوارها ومراحلها ، وفى كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفى كل حركاتها وسكناتها ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ؛ وينسق بينها جميعا ، ويتجه بها إلى الله فى النهاية .

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق . لقد تضمنت بعض الحدود ، جانب الاستئذان على البيوت . وإلى جانبها جولة ضخمة فى مجالى الوجود . ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين فى التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين . إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين . وها هو ذا فى هذا الدرس يعود إلى آداب الاستئذان فى داخل البيوت ؛ إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء ؛ إلى جانب الأدب الواجب فى خطاب الرسول ودعائه ... فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنتظم بها علاقاتها . والقرآن يربيها فى مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ، ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم . ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن . طوافون عليكم بعضكم على بعض . كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم » ..

Marfat.com

لقد سبقت فى السورة أحكام الاستئذان على البيوت . وهنا يبين أحكام الاستئذان فى داخل البيوت .

فالخدم من الرقيق ، والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان . إلا فى ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها . هذه الأوقات هى : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج . ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم فى العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة . وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل . .

وسماها « عورات » لانكشاف العورات فيها . وفى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم . وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ! وأن الصغار قبل البلوغ لاينتبهون لهذه المناظر . بينما يقرر النفسيون اليوم — بعد تقدم العلوم النفسية — أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ؛ وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب ؛ وهو يريد أن يبنى أمة سليمة الأعصاب ، سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات .

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات . ولا يجعل استئذان الخدم والصغار فى كل حين منعاً للحرج . فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة : « طوافون عليكم بعضكم على بعض » .. وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار .

فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون فى حكم الأجانب ، الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت ، حسب النص العام ، الذى مضت به آية الاستئذان .

ويعقب على الآية بقوله : « والله عليم حكيم » لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ؛ ومقام حكمته كذلك فى علاج النفوس والقلوب .

* * *

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعا لإثارة الفتن والشهوات . فعاد هنا يستثنى

Marfat.com

من النساء القواعد اللواتى فرغت نفوسهن من الرغبة فى مباشرة الرجال ؛ وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات :

« والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا ؛ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ـ غير متبرجات بزينة ـ وأن يستعففن خير لهن ؛ والله سميع عليم » . .

فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية ، على ألا تتكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة . وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة . وسمى هذا استعفافا . أى طلباً للعفة وإيثاراً لها ، لما بين التبرج والفتنة من صلة ؛ وبين التحجب والعفة من صلة . . وذلك حسب نظرية الإسلام فى أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس .

« والله سميع عليم » . . يسمع ويعلم ، ويطلع على مايقوله اللسان ، وما يوسوس فى الجنان . والأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير .

* * *

ثم يمضى فى تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ؛ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ؛ أو ما ملكتم مفاتحه ، أو صديقكم . ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا . فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ، تحية من عند الله مباركة طيبة . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة ـ دون استئذان ـ ويستصحبون معهم العمى والعرج والمرضى ليطعموهم . . الفقراء منهم . . فتحرجوا أن يطعموا وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن . ذلك حين نزلت : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » فقد كانت حساسيتهم مرهفة . فكانوا يحذرون دائما أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد . فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج ، وعن القريب أن يأكل من بيت قريبه . وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج . وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به .

Marfat.com

استنادا إلى القواعد العامة فى أنه « لا ضرر ولا ضرار » وإلى أنه « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس[1] » .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظى والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالا للشك والغموض . كما نلمح فيها ترتيب القرابات . فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم . بل تقول الآية : « من بيوتكم » فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات . فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات . فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات . . ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه . ويلحق بها بيوت الأصدقاء ليلحق صلتهم بصلة القرابة . عند عدم التأذى والضرر . فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان .

فإذا انتهى من بيان البيوت التى يجوز الأكل منها ، بين الحالة التى يجوز عليها الأكل : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتا » فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ! فرفع الله هذا الحرج المتكلف، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفرادا أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التى يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التى يؤكل فيها : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » . . وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين فى الآية . فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه . والتحية التى يلقيها عليه هى تحية من عند الله . تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر . وتربط بينهم بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . .

وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم فى الصغيرة والكبيرة :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » . . وتدركون ما فى المنهج الإلهى من حكمة ومن تقدير . .

* * *

وينتقل من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة . أسرة المسلمين .. ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى آداب المسلمين فى مجلس الرسول :

---

(١) رواه الشافعى واستند إليه فى أحد قوليه عن مكاتبة الرقيق .

Marfat.com

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوا . فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب شديد . ألا إن لله ما فى السماوات والأرض . قد يعلم ما أنتم عليه ؛ ويوم يردون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم » . .

روى ابن اسحاق فى سبب نزول هذه الآيات أنه لما كان تجمع قريش والأحزاب فى غزوة الخندق . فلما سمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة . فعمل فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا إذنه ؛ وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويستأذنه فى اللحوق بحاجته ، فيأذن له . فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله تعالى فى أولئك المؤمنين : « إنما المؤمنون ... الآية » ثم قال تعالى : يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبى – صلى الله عليه وسلم – : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ... الآية » . .

وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهى تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها . هذه الآداب التى لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها . ثم تستقر فى حياتها فتصبح تقليدا متبعا وقانونا نافذا . وإلا فهى الفوضى التى لا حدود لها :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » . . لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ، ولا يطيعون الله ورسوله .

« وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » . . والأمر الجامع الأمر الهام الذى يقتضى اشتراك الجماعة فيه ، لرأى أو حرب أو عمل من الأعمال العامة . فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم . كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

Marfat.com

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ؛ فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له . . ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول – صلى الله عليه وسلم – رئيس الجماعة . بعد أن يبيح له حرية الإذن : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » . . (وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من قبل فقال : « عفا الله عنك ! لم أذنت لهم حتى يتبين لك الخبيث من الطيب ! ») . . يدع له الرأى فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة . ويستبقى حرية التقدير لقائد الجماعة ليوازن بين المصلحة فى البقاء والمصلحة فى الانصراف . ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة ، وعدم الانصراف هو الأولى ؛ وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى – صلى الله عليه وسلم – للمعتذرين : « واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم » . . وبذلك يقيد ضمير المؤمن . فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت إلى ضرورة توقير الرسول – صلى الله عليه وسلم – عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال . فلا يدعى باسمه : يا محمد . أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا . إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله . يارسول الله :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » . .

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه . وهى لفتة ضرورية . فلا بد للمربى من وقار ، ولا بد للقائد من هيبة . وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا ؛ وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض . . يجب أن تبقى للمربى منزلة فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض . . فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا » . . وهو تعبير يصور حركة التخلى والتسلل بحذر من المجلس ؛ ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس .

Marfat.com

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ..

وإنه لتحذير مرهوب ، وتهديد رعيب . . فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة . ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ؛ فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر . . وهى فترة شقاء للجميع : « أو يصيبهم عذاب شديد » فى الدنيا أو فى الآخرة . جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختم هذا التحذير ، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه .

« ألا إن لله ما فى السماوات والأرض . قد يعلم ما أنتم عليه . ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم » .

* * *

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ؛ وتذكيرها بخشيته وتقواه . فهذا هو الضمان الأخير . وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهى ، وهذه الأخلاق والآداب ، التى فرضها الله فى هذه السورة وجعلها كلها سواء ..

انتهى الجزء الثامن عشر ويليه الجزء التاسع عشر
مبدوءاً بسورة الفرقان(١)

(١) ينتهى هذا الجزء بالربع الأول من سورة الفرقان . ولكن لأن الفرقان وحدة ذات موضوع واحد آثرت الوقوف بالجزء الثامن عشر هنا ، لتعرض الفرقان كاملة فى الجزء التاسع عشر بإذن الله . .

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء التاسع عشر

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الفرقان والشعراء والنمل

Marfat.com

سورة الفرقان مكية
وآياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١ ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً .

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ : أَنْزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً .

« وَقَالُوا : مَالِهَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ، وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ؟ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ، فَضَلُّوا ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ ٱلَّذِى ـ إِنْ شَاءَ ـ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ ، جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا .

« بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ

Marfat.com

مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ: أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ؟

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ، فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا.

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا » (٢٠).

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى وصدهم عنه.

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله؛ وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا؛ ويهدهد قلبه، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة.

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله، وهي تجادل في عنف، وتشرد في جموح، وتتطاول في قحة، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين.

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم: « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه

Marfat.com

قوم آخرون » .. أو تقول : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » والتى تقول عن محمد رسول الله الكريم : « إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » .. أو تقول فى استهزاء : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » .. والتى لا تكتفى بهذا الضلال ، فإذا هى تتطاول فى فجور على ربها الكبير : « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا » . أو تتعنت فتقول : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟ » .

وهى هى من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح إلى موقفها هذا الأخير مع رسولها الأخير ...

لقد اعترض القوم على بشرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : « مالهذا الرسول يأ كل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! »

واعترضوا على حظه من المال ، فقالوا : « أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأ كل منها».

واعترضوا على طريقة تنزيل القران فقالوا : «لولا أنزل عليه جملة واحدة ! » .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء والقحة والافتراء الأثيم .

ووقف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواجه هذا كله ، وهو وحيد فريد مجرد من الجاه والمال ، ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئاً ، ولا يزيد على أن يتوجه إليه مبتغيا رضاه ، ولا يحفل بشىء سواه : « رب إلا يكن بك على غضب فلا أبالى . لك العتبى حتى ترضى » .. (١)

فهنا فى هذه السورة يؤويه ربه إلى كنفه ، ويمسح على آلامه ومتاعبه ، ويهدهده ويسرى عنه . ويهون عليه مشقة مايلقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه ، بأنهم يتطاولون على خالقهم ورازقهم ، وخالق هذا الكون كله ومقدره ومدبره .. فلا عليه أن ينالوه بشىء من ذاك ! « ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا » .. « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولاحياة ولا نشورا » .. « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ » . .

ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذى يتمرغون فيه : « أرأيت من

(١) من مناجاته لربه عقيب ما لقى فى الطائف من أذى .

Marfat.com

اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا ! » .

ويعده العون والمساعدة فى معركة الجدل والمحاجة : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . .

وفى نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل : قوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وما بين ذلك من قرون .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسة فى سلسلة من مشاهد القيامة : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » . . « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » . . « ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ! ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا .. »

ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » . . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا » . .

ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن ، واضح الحجة قوى البرهان عميق الأثر فى الوجدان : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » ..

ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا » . .

وهكذا تمضى السورة : فى لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله . وفى لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها ، فإذا ريح رخاء وروح وريحان ، وطمأنينة وسلام . . وإذا صورة « عباد الرحمان » . . « الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . . . » وكأنما تتمخض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ؛ وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن فى شجرة البشرية ذات الأشواك .

Marfat.com

وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التى تلتجىء إليه وتدعوه : « قل : ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم . فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ..

* * *

هذه هى ظلال السورة ؛ وذلك هو محورها الذى تدور عليه ، وموضوعها الذى تعالجه . وهى وحدة متصلة ، يصعب فصل بعضها عن بعض . ولكن يمكن تقسيمها إلى أربعة أشواط فى علاج هذا الموضوع .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا . وبتوحيد الله المالك لما فى السماوات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونفى الولد والشريك . ثم يذكر اتخاذ المشركين مع ذلك آلهة من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . . كل أولئك قبل أن يحكى مقولاتهم المؤذية عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبه فيما جاءهم به ، وادعائهم أنه إفك افتراه ، وأنه أساطير الأولين اكتتبها . وقبل أن يحكى اعتراضاتهم على بشرية الرسول وحاجته للطعام والمشى فى الأسواق ، واقتراحاتهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقحتهم فى وصفه — صلى الله عليه وسلم — بأنه رجل مسحور .. وكأنما يسبق بمقولاتهم الجاحدة لربهم كى يهون على نفس الرسول — صلى الله عليه وسلم — مقولاتهم عنه وعن رسالته . . ومن ثم يعلن ضلالهم وتكذيبهم بالساعة ، ويتوعدهم بما أعده الله لهم من سعير ، يلقون فيها مكانا ضيقا مقرنين . ويعرض فى الصفحة المقابلة صورة المؤمنين فى الجنة . « لهم فيها ما يشاءون خالدين » . . ويستمر فى عرض مشهدهم يوم الحشر ، ومواجهتهم بما كانوا يعبدون من دون الله ، وتكذيب هؤلاء لهم فيما كانوا يدعون على الله من شرك . . وينتهى هذا الشوط بتسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأن الرسل جميعا كانوا بشراً مثله ، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .

ويبدأ الشوط الثانى بتطاول المكذبين بلقاء الله على الله ، وقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » . ويعاجلهم بمشهد اليوم الذى يرون فيه الملائكة .. « وكان يوماً على الكافرين عسيرا » . . « ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » . . ليكون فى ذلك تأسية للرسول — صلى الله عليه وسلم — وهم يهجرون القرآن ، وهو يشكو لربه هذا الهجران . وهم يعترضون على طريقة تنزيله ؛ ويقولون : « لولا أنزل

Marfat.com

عليه القرآن جملة واحدة » . ويعقب على هذا الاعتراض بمشهدهم يوم القيامة يحشرون على وجوههم ، وهم المكذبون بيوم القيامة . وبتصوير عاقبة المكذبين قبلهم من قوم موسى وقوم نوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون . فهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقولهم : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » ثم يعقب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم فى صف الأنعام بل دون ذلك : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

والشوط الثالث جولة فى مشاهد الكون تبدأ بمشهد الظل ، وتستطرد إلى تعاقب الليل والنهار ، والرياح المبشرة بالماء المحيي ، وخلقة البشر من الماء . ومع هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم ، ويتطاولون فى قحة إذا دعوا إلى عبادة الله الحق .. « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان قالوا : وما الرحمان ؟ » .. « وهو الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .. ولكنهم هم لا يتذكرون ولا يشكرون . .

ثم يجيء الشوط الأخير يصور « عباد الرحمن » الذين يسجدون له ويعبدونه ، ويسجل مقوماتهم التى استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة . ويفتح باب التوبة لمن يرغب فى أن يسلك طريقة عباد الرحمان . ويصور جزاءهم على صبرهم على تكاليف الإيمان والعبادة : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما » .

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله لولا هذه القلوب الطائعة المستجيبة العارفة بالله فى هذا القطيع الشارد الضال من المكذبين والجاحدين . .

وفى هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو يتفق مع ظل السورة وجوها ، ويتفق مع موضوعها وأهدافها ، على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

● ● ●

والآن نبدأ الشوط الأول بالتفصيل :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السماوات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا .

Marfat.com

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ؛ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ؛ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » . .

إنه البدء الموحى بموضوع السورة الرئيسي : تنزيل القرآن من عند الله ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا . ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير . . وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون !

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . .

والتبارك تفاعل من البركة ، يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا . ولم يذكر لفظ الجلالة واكتفى بالاسم الموصول « الذى نزل الفرقان » لإبراز صلته وإظهارها فى هذا المقام ، لأن موضوع الجدل فى السورة هو صدق الرسالة وتنزيل القرآن .

وسماه الفرقان . بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد . فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها الممثلة فى الواقع . منهجا لا يختلط بأى منهج آخر مما عرفته البشرية قبله . ويمثل عهدا جديدا للبشرية فى مشاعرها وفى واقعها لايختلط كذلك بكل ما كان قبله . فهو فرقان بهذا المعنى الواسع الكبير . فرقان ينتهى به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد . وينتهى به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية . وينتهى به عهد الرسالات المحلية الموقوتة ، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة : « ليكون للعالمين نذيرا » .

وفى موضع التكريم لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفى مقام التعظيم يصفه بالعبودية: « على عبده » .. كذلك وصفه فى مقام الإسراء والمعراج فى سورة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . وكذلك وصفه فى مقام دعائه ومناجاته فى سورة الجن : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه . . . » . وكذلك يصفه هنا فى مقام تنزيل الفرقان عليه كما وصفه فى مثل هذا المقام فى مطلع سورة الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . . . » والوصف بالعبودية فى هذه المواضع له دلالته على رفعة هذا المقام ، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بنى الإنسان . كما أن فيه تذكيرا خفيا

Marfat.com

بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله . ويبقى مقام الألوهية متفردا بالجلالة ، متجردا من كل شبهة شرك أو مشابهة . ذلك أن مثل مقام الإسراء والمعراج، أو مقام الدعاء والمناجاة ، أو مقام الوحى والتلقى ، كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل ، منها نشأت أساطير البنوة لله ، أو الصلة القائمة على غير الألوهية والعبودية . ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية فى هذا المقام ، بوصفها أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من بنى الإنسان .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده .. « ليكون للعالمين نذيرا » .. وهذا النص مكى ، وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى . لا كما يدعى بعض « المؤرخين » غير المسلمين ، أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية ، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية . فهى منذ نشأتها رسالة للعالمين . طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ؛ وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج إلى نهج . عن طريق هذا الفرقان الذى نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، فهى عالمية للعالمين والرسول يواجه فى مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود ..

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده .. « الذى له ملك السماوات والأرض . ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ..

ومرة أخرى لا يذكر لفظ الجلالة ولكن يذكر الاسم الموصول لإبراز صلته الدالة على صفات يراد توكيدها فى هذا المقام :

« الذى له ملك السماوات والأرض » .. فله السيطرة المطلقة على السماوات والأرض . سيطرة الملكية والاستعلاء ، وسيطرة التصريف والتدبير ، وسيطرة التبديل والتغيير .

« ولم يتخذ ولدا » .. فالتناسل ناموس من النواميس التى خلقها الله لامتداد الحياة ؛ وهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج .

« ولم يكن له شريك فى الملك » .. وكل مافى السماوات والأرض شاهد على وحدة التصميم ، ووحدة الناموس ، ووحدة التصريف .

« وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . قدر حجمه وشكله . وقدر وظيفته وعمله . وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

Marfat.com

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ، لما يدعو إلى الدهشة حقا ، وينفي فكرة المصادفة نفياباتا . ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره ، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير . وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ..

يقول (ا. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان : « الإنسان لايقوم وحده[1] » .

ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغا هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسيجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

« ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره !

« إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم ، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور — ومعظمها سام — فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء — أي المحيط — الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيرا الإنسان نفسه . . . » .

ويقول في فصل آخر :

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان : « العلم يدعو إلى الإيمان »

Marfat.com

« لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ فى المئة مثلا أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١ فى المئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠ فى المئة أو أقل ، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها فى خلال الدهور . ولكن فى هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التى ألفها الإنسان ــ كالنار مثلا ــ تتوافر له »

ويقول فى فصل ثالث .

« ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذى منع أى حيوان ــ مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره ــ من السيطرة على العالم ، منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذى للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر . وسرعان مالقى جزاءه القاسى على ذلك ، ماثلا فى تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات .

« والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان . فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار فى أستراليا . كسياج وقائى . ولكن هذا الزرع مضى فى سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة . ولم يجد الأهالى وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا فى خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم فى سبيله دون عائق !

« وطاف علماء الحشرات بنواحى العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهى سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها فى أستراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار . ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفى لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد .

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائما مجدية .

« ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها ؟ ومثل ذلك أيضا يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التى تقدمت شمالا فى أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . كذلك البعوض كثير فى المنطقة المتجمدة . ولماذا لم

Marfat.com

تتطور ذبابة « تسى تسى » حتى تستطيع أن تعيش أيضا فى غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشرى من الوجود ؟ يكفى أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التى لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشرى رغم ذلك يدعو حقا إلى الدهشة ! ...

« إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ؛ ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها فى نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلا . وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن فى الإمكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم . ولولا وجود هذا الضابط الطبيعى لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض . وتصور إنسانا فطريا يلاقى دبورا يضاهى الأسد فى ضخامته ، أو عنكبوتا فى مثل هذا الحجم !

« ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة فى فيزيولوجيا الحيوانات ، والتى بدونها ما كان أى حيوان - بل كذلك أى نبات - يمكن أن يبقى فى الوجود ... الخ »

وهكذا ينكشف للعلم البشرى يوما بعد يوم ، شىء من تقدير الله العجيب فى الخلق ، وتدبيره الدقيق فى الكون ، ويدرك البشر شيئا من مدلولات قوله فى الفرقان الذى نزله على عبده : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . .

ومع هذا فإن أولئك المشركين لم يدركوا شيئا من هذا كله .

« واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ؛ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ؛ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » . .

وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية فهم « لا يخلقون شيئا » والله خلق كل شىء . « وهم يخلقون » . . يخلقهم عبادهم - بمعنى يصنعونهم - إن كانوا أصناما وأوثانا - ويخلقهم الله - بمعنى يوجدهم - إن كانوا ملائكة أو جنا أو بشرا أو شجرا أو حجرا . . « ولا يملكون لأنفسهم » فضلا عن أن يملكوا لعبادهم « ضرا ولا نفعا » والذى لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر . ولكن حتى هذا لا يملكونه . ومن ثم يقدمه فى التعبير بوصفه أيسر شىء كان يملكه أحد لنفسه ! ثم يرتقى إلى الخصائص التى لا يقدر عليها إلا الله :

Marfat.com

« ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » فلا إماتة حى ، ولا إنشاء حياة ، ولا إعادتها داخل فى مقدورهم . فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين فى اتخاذهم آلهة ؟ !

ألا إنه الانحراف المطلق ، الذى لا يستغرب معه أن يدعوا على الرسول بعد ذلك مايدعون ، فدعواهم على الله أضخم وأقبح من كل مايدعون على رسوله . وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شىء ، ومدبر أمره ومقدر كل شىء . هل أقبح من ادعاء إنسان أن لله شريكا ؟ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك ... »(1)

* * *

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرد عليه عقب عرضه بما يظهر سخفه وكذبه :

« وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل : أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما » ...

وأكذب شىء أن يقول كفار قريش هذه المقالة ، وهم يوقنون فى أنفسهم أنها الفرية التى لا تقوم على أساس . فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شىء آخر غير كلام البشر ؛ وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم فى الكلام ؛ وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن . ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يخون . فكيف به يكذب على الله ، وينسب إليه قولا لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية ، كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها فى وسط جمهور العرب ، الذين قد لا يميزون بين الكلام ، ولا يعرفون درجته : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » . قيل : إنهم عبيد أعاجم ثلاثة أو أكثر ، هم الذين كانوا يعنونهم بهذه المقالة . وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل .

---

(1) أخرجه البخارى ومسلم .

Marfat.com

فإن كان بشر يملك أن يفترى مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم هم عن الإتيان بمثله ، مستعينين بأقوام منهم ، ليبطلوا حجة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يتحداهم به وهم عاجزون ؟ !

ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم فى هذا القول المتهافت ؛ إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت :

« فقد جاءوا ظلماً وزوراً » . . ظلماً للحق ، ولمحمد ، ولأنفسهم . وزوراً واضح الكذب ظاهر البطلان .

ثم يمضى فى استعراض مقولاتهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن :

« وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . .

ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التى يسوقها للعبرة والعظة ، وللتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : « أساطير الأولين » وزعموا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - طلب أن تكتب له ، لتقرأ عليه فى الصباح والمساء - إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب - ثم يقولها هو بدوره ، وينسبها إلى الله ! وهذا استطراد فى دعواهم التى لا تقوم على أساس ، ولا تثبت للمناقشة . وإن سياقة القصص فى القرآن بهذا التنسيق فى عرضه ؛ وبهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذى يساق فيه ، ويستشهد بالقصص عليه ؛ وبهذا التناسب بين أهداف القصص وأهداف السياق فى السورة الواحدة . . إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذى لا يلحظ فى الأساطير المبعثرة التى لا تجمعها فكرة ، ولا يوجهها قصد ، إنما تساق للتسلية وتزجية الفراغ[1] !

وفى قولهم : إنها أساطير الأولين إشارة إلى بعدها فى الزمان ، فلا يعلمها محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير ، الذين ينقلونها جيلا عن جيل . لذلك يرد عليهم بأن الذى يعلمها لمحمد أعلم من كل عليم . فهو الذى يعلم الأسرار جميعا ، ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين : « قل : أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض » . . فأين علم

---

(١) يراجع بتوسع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر فى السماوات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذى لا ساحل له ولا قرار ؟

ألا إنهم ليرتكبون الخطيئة الكبيرة ، وهم يدعون على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلك الدعوى المتهافتة ؛ ومن قبل يصرون على الشرك بالله وهو خلقهم . . ولكن باب التوبة مع ذلك مفتوح ، والرجوع عن الإثم ممكن ، والله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض . ويعلم ما يفترون وما يكيدون ، غفور رحيم : « إنه كان غفورا رحيما » .

* * *

ثم يستطرد فى عرض مقولاتهم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واعتراضاتهم الجاهلة على بشريته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته :

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ! أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » . .

ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ ما له بشرا يتصرف تصرفات البشر ؟ إنه الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول ! كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان ، المعروف لهم ، المألوف فى حياتهم ، الذى يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون . . كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم . وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحى لواحد منهم ، لا يتميز فى شىء عنهم !

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة . ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة . . لقد نفخ الله من روحه فى هذا الإنسان ؛ وبهذه النفخة الإلهية تميز وصار إنسانا ، واستخلف فى الأرض . وهو قاصر العلم ، محدود التجربة ، ضعيف الوسيلة ، وما كان الله ليدعه فى هذه الخلافة دون عون منه ، ودون هدى ينير له طريقه . وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التى ميزته . فلا عجب أن يختار الله واحدا من هذا

Marfat.com

الجنس ، صاحب استعداد روحى للتلق ؛ فيوحى إليه ما يهدى به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق ، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا فى حاجة إلى العون .

إنه التكريم الإلهى للإنسان يبدو فى هذه الصورة العجيبة من بعض جوانبها ، الطبيعية من البعض الآخر . ولكن الذين لا يدركون قيمة هذا المخلوق ، ولاحقيقة التكريم الذى أراده الله له ، ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحى ؛ وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولا من عند الله . يرون الملائكة أولى بهذا وأقرب : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » . والله قد أسجد الملائكة للإنسان بما أودعه من الخصائص الفائقة ، الناشئة من النفخة العلوية الكريمة .

وإنها الحكمة الإلهية كذلك تبدو فى رسالة واحد من البشر إلى البشر . واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعانى تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم .. ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو فى قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنه فى النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحى من الله وعون منه على وعثاء الطريق !

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد ، لأنه بشر منهم ، يتسامى بهم رويدا رويدا ؛ ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التى يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ؛ فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التى يحملها إليهم . وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطرا سطرا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة فى إنسان ؛ ولو كان ملكا ما فكروا فى عمله ولا حاولوا أن يقلدوه ؛ لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم ، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل فى محاكاته ، ولا شوق إلى تحقيق صورته !

فهى حكمة الله الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا . هى حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشرا ليؤدى دوره على قيادة البشر . والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة . فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان !

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشى فى الأسواق ليكسب رزقه .

Marfat.com

فهلا كفاه الله ذلك ، وحباه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل : « أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها » !

والله لم يرد لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة . لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ؛ ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته . فلا يقولن أحد من أمته يكد لعيشه : لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكفي الحاجة ، لا يعاني صراع العيش ، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته وتكاليفه، فلم يعوقه عائق مما أعاني . . فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته ، فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة - وقدوته أمامه - ولقد انهال المال بعد ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كي تتم التجربة من جانبها الآخر وتتم القدوة . فلم يدع هذا المال يشغله أو يعطله ، فكان كالريح المرسلة في جوده ، حتى يستعلي على فتنة المال ، ويرخص من قيمته في النفوس ؛ وكي لا يقولن أحد بعد ذلك : إنما نهض محمد - صلى الله عليه وسلم - برسالته ، لأنه عاش فقيرا لا يشغله من المال شاغل ، فها هو ذا المال يأتيه غزيرا وفيرا ، ولكنه يمضي في دعوته كذلك . شأنه يوم أن كان فقيرا .

وما المال ؟ وما الكنوز ؟ وما الجنان ؟ حين يتصل الإنسان الفاني الضعيف بالله الباقي القوي ؟ ما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شيء ، وواهب الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون !

« وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » . .

وهي كلمة ظالمة فاحشة حكاها عنهم هنا ، وحكاها عنهم كذلك في سورة الإسراء . ورد عليها هنا وهناك ردا واحدا :

« انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

وكلتا السورتين تعالجان موضوعا متقاربا ، في جو متقارب هنا وهناك . . وقولتهم تلك يقصدون بها الإساءة إلى شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتنقص منه . إذ يمثلونه برجل سحر عقله ، فهو يقول كلاما غريبا لا يقوله الطبيعيون من الناس ! ولكنها في الوقت ذاته تشي بشعورهم الداخلي بأن ما يقوله غير طبيعي ، ولا مألوف ، ولا هو من عادة البشر ولا من مستوى البشر . . والرد عليهم يوحي بالتعجيب من أمرهم : « انظر كيف ضربوا لك

Marfat.com

الأمثال » وشبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك برواة الأساطير مرة .. وكله ضلال ، وبعد عن إدراك الحق « فضلوا » ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدى « فلا يستطيعون سبيلا » .

وينهى هذا الجدل ببيان تفاهة ما يقترحون وما يتصورون من أعراض الحياة الدنيا ، التى يحسبونها ذات قيمة ، ويرونها أجدر أن يعطيها الله لرسوله إن كان حقا رسولا ، من كنز يلقى إليه ، أو جنة يأكل منها . فلو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع :

« تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » .

ولكنه شاء أن يجعل له خيرا من الجنات والقصور . الاتصال بواهب الجنات والقصور . والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوفيقه .. وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذى لاتقاربه نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم . وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون !

* * *

وعند هذا الحد من استعراض مقولاتهم الظالمة عن الله وعلى رسول الله ، يكشف عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم . فهم يكذبون بالساعة، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء، ولا يخشون يوما يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء . وهنا يصورهم فى مشهد من مشاهد القيامة يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك ؛ وعلى حسن ما ينتظر المؤمنين فى ذلك الهول المظيم :

« بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا !

« قل : أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزءا ومصيرا ، لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربك وعدا مسئولا ؟ » ..

بل كذبوا بالساعة .. وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال . هذا المدى الذى يصوره التعبير بعيدا متطاولا ، يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه : « بل كذبوا بالساعة » ... ثم

Marfat.com

يكشف عن الهول الذى ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة . إنها السعير حاضرة مهيأة : «وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » ..

والتشخيص ـ ونعنى به خلع الحياة وتجسيمها على ماليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعانى والحالات النفسية ـ فن فى القرآن ، يرتفع بالصور وبالمشاهد التى يعرفها إلى حد الإعجاز ، بما يبث فيها من عنصر الحياة (١) .

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هى تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هى تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ؛ وهى تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظا منهم ؛ وهى تتميز من النقمة ، وهم إليها فى الطريق ! .. مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب !

ثم ها هم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم فى السلاسل . وألقوا فى مكان منها ضيق ، يزيدهم كربة وضيقا ، ويعجزهم عن التفلت والتململ .. ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون فى السعير . فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء : « إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا » .. فالهلاك اليوم أمنية المتمنى ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذى لا يطاق .. ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء . يسمعون تهكما ساخرا مريرا : « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » . فهلاك واحد لا يجدى شيئا ولا يكفى شيئا !

وفى هذا الموقف المكروب الرعيب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ، ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة . يعرض فى أسلوب متهكم كذلك ساخر .

« قل : أذلك خير ؟ أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاءا ومصيرا ؟ لهم فيها ما يشاءون خالدين . كان على ربك وعدا مسؤولا ؟»

أذلك الكرب الفظيع خير ؟ أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذى لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها مايشاءون ؟ وهل هناك

---

(١) يراجع فصل . « التخييل الحسى والتجسيم » فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

Marfat.com

وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم .

ثم يمضي مستطردا يعرض مشهدا آخر من مشاهد الساعة التي كذب بها المكذبون . مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التي كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عبادا ومعبودين أمام الديان يسألون ويجيبون :

« ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوما بورا .. فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » ..

وما يعبدون من دون الله قد يكونون هم الأصنام . وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون الله . وإن الله ليعلم . ولكن الاستجواب هكذا في الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ! والجواب هو الإنابة من هؤلاء « الآلهة » ! الإنابة لله الواحد القهار . وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون الله ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال :

« قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوما بورا » . .

فهذا المتاع الطويل الموروث - على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر - قد ألهاهم وأنساهم ذكر النعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار . كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار . والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحي كذلك بالجدب والخواء . جدب القلوب ، وخواء الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزي المهين :

« فقد كذبوكم بما تقولون . فما تستطيعون صرفا ولا نصرا » . . لا صرف العذاب ولا الانتصار .

وبينما المشهد في الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد في الأرض :

« ومن يظلم منكم : نذقه عذابا كبيرا » . .

Marfat.com

ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تتهيأ فيها للاستجابة ؛ وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب !

* * *

والآن وقد شهدوا وشهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء . ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه فى الأسواق . . الآن يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسليه ويؤسيه ، بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة . أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » . .

فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه . إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله . سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » . ليعترض من لا يدركون حكمة الله وتدبيره وتقديره . وليصبر من يثق بالله وحكمته ونصره . ولتمضى الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر . وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء : « أتصبرون ؟ » . . « وكان ربك بصيرا » . بصيرا بالطبائع والقلوب ، والمصائر والغايات . ولهذه الإضافة هنا « وكان ربك » إيحاؤها وظلها ونسمتها الرخية على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى مقام التأسية والتسلية والإيواء والتقريب . والله بصير بمداخل القلوب . . .

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَيَقُولُونَ : حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا * أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ

Marfat.com

ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا .

« وَقَالَ ٱلرَّسُولُ : يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ! كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا : ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا . أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ؟ * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (٤٤)

يبدأ هذا الشوط من السورة بما يشبه بدء الشوط الأول ، ويسير سيرته فى تقديم ما يتطاول به المشركون على ربهم ، وما يتفوهون به من اعتراضات واقتراحات ، مقدمة لما يتطاولون به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مقام تسليته وتعزيته . غير أن السياق

Marfat.com

هنا يعجل بعرض ما ينتظرهم من عذاب الآخرة عقابا على ذلك التطاول ، فى سلسلة متصلة من مشاهد القيامة ، ردا على قولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » . . ثم يعرض اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجما ، ويعقب ببيان الحكمة من تنزيله متتابعا ، ويطمئن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على عون الله له كلما تحدوه فى جدل : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . . ويعرض عليه وعليهم مصارع المكذبين قبلهم ، ويوجه نظرهم إلى مصرع قوم لوط ، وهم يمرون على قريته المدمرة ، مستنكرا ألا يحرك قلوبهم منظرها وهم يمرون عليها . . كل أولئك مقدمة لعرض استهزائهم بشخصه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتطاولهم على مقامه ، وما يكاد يعرض هذا حتى يعقب عليه تعقيبا قويا ، يحقرهم فيه ويحتقرهم : « إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » .

* * *

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! لقد استكبروا فى أنفسهم ، وعتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجرا محجورا . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا . ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوما على الكافرين عسيرا . ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ! ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » ..

إن المشركين لا يرجون لقاء الله ، أى لا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا يحسبون حسابه ، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه . ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله ، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله .

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! » . .

فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشرا ؛ وكانوا يطلبون ، لكى يؤمنوا بالعقيدة التى يدعوهم إليها ، أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها ، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا . . وهو تطاول على مقام الله سبحانه . تطاول الجاهل المستهتر الذى لا يحس جلال الله فى نفسه ،

Marfat.com

ولا يقدر الله حق قدره . فمن هم حتى يتطاولوا هـذا التطاول ؟ من هم إلى جوار الله العظيم الجبار المتكبر ؟ من هم وهم فى ملك الله وخلقه كالذرة التائهة الصغيرة ، إلا أن يربطوا أنفسهم بالله عن طريق الإيمان فيستمدوا منه قيمتهم . . ومن ثم يرد عليهم فى نفس الآية قبل أن تنتهى ، يكشف عن منبع هـذا التطاول :

« لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » . .

لقد عظم شأنهم فى نظر أنفسهم ، فاستكبروا وطغوا طغيانا كبيرا . لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا . لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت فى أعينهم وتضخمت وعظمت ، حتى ليحسبونهم شيئا عظيما فى هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا !

ثم يسخر منهم بصدق وحق ، إذ يطامهم على الهول الذى ينتظرهم يوم يرون الملائكة - ورؤية الملائكة هى أقل الطلبين تطاولا - فإنهم لا يرون الملائكة إلا فى يوم عصيب هائل ، ينتظرهم فيه العذاب الذى لا طاقة لهم به ، ولا نجاة لهم منه . ذلك هو يوم الحساب والعقاب :

« يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين . ويقولون : حجرا محجورا . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » . .

يوم يتحقق اقتراحهم الذى اقترحوه : « يوم يرون الملائكة » يومئذ لا يبشر المجرمون ولكن يعذبون . فيالها من استجابة لما يقولون ! يومئذ يقولون : « حجرا محجورا » أى حراما محرما . وهى جملة اتقاء للشر وللأعداء كانوا يقولونها استبعادا لأعدائهم وتحرزا من أذاهم . وهى تجرى فى ذلك اليوم على ألسنتهم بحكم العادة من الذهول حين يفاجأون . ولكن أين هم اليوم مما كانوا يقولون ! إن الدعاء لا يعصمهم ولا يمنعهم :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

هكذا فى لحظة . والخيال يتبع حركة القدوم المجسمة المتخيلة ، - على طريقة القرآن فى التجسيم والتخييل[1] - . وعملية الإثارة للأعمال ، والتذرية فى الهواء ؛ فإذا كل ما عملوا فى الدنيا من عمل صالح هباء . ذلك أنه لم يقم على الإيمان ، الذى يصل القلب بالله ، والذى

---

(١) يراجع فصل : التخييل الحسى والتجسيم فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » يراجع كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن »

Marfat.com

بجعل العمل الصالح منهجاً مرسوماً وأصلا قاصـدا ، لا خبط عشواء ، ولا نزوة طارئة ، ولا حركة مبتورة لا قصد لها ولا غاية . فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

إن وجود الإنسان وحياته وعمله فى نظرة الإسلام موصولة كلها بأصل هذا الكون ، وبالناموس الذى يحكمه ، والذى يصله كله بالله . بما فيه الإنسان وما يصدر عنه من نشاط . فإذا انفصل الإنسان بحياته عن المحور الرئيسى الذى يربطه ويربط الكون ، فإنه يصبح لقى ضائعاً لا وزن له ولا قيمة ، ولا تقدير لعمله ولا حساب . بل لا وجود لهذا العمل ولا بقاء .

والإيمان هو الذى يصل الإنسان بربه ؛ فيجعل لعمله قيمة ووزنا ، ويجعل له مكانه فى حساب هذا الكون وبنائه .

وهكذا تعدم أعمال أولئك المشركين . تعدم إعداما يصوره التعبير القرآنى تلك الصورة الحسية المتخيلة :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ..

وهنا يلتفت إلى الجانب الآخر فإذا المؤمنون أصحاب الجنة ليتم التقابل فى المشهد :

« أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » ..

فهم مستقرون مستروحون ناعمون فى الظلال . والاستقرار هنا يقابل خفة الهباء المنثور . والاطمئنان يقابل الفزع الذى يطلق الاستعاذة فى ذهول .

ولقد كان الكفار يقترحون أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة . وربما كان ذلك تأثرا بالأساطير الإسرائيلية التى كانت تصور الإله يتراءى لهم فى سحابة أو عمود من النار. فهنا يعود ليرسم مشهدا آخر يوم يتحقق اقتراحهم بنزول الملائكه إليهم :

« ويوم تشقق السماء بالغمام ، ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمان . وكان يوما على الكافرين عسيرا » .

وهذه الآية وكثير غيرها فى القرآن يقرر أن أحداثاً فلكية ضخمة ستتم فى ذلك اليوم . وكلها تشير إلى اختلال كامل فى النظام الذى يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه

Marfat.com

ونجومه وكواكبه . وإلى انقلاب فى أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم . وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هـذا الانقلاب كما جاءت فى سور متعددة . « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت ... وإذا البحار سجرت».. « إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت».. « إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت » . . « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » . « إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » .. « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . يومئذ وقعت الواقعة ؛ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .. « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » .. « إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها» .. « يوم يكون النـاس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » . . « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم » .. « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .. « السماء منفطر به » .. « إذا دكت الأرض دكا » . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. « فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت » .. « ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » . . « وترى الجبـال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .. « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة » .. «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » .. « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » .

فهذه الآيات كلها تنبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتدك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائها من أثر الاضطراب ؛ وإما بتفجر ذراتها واستحالتها ناراً . كذلك تطمس فيها النجوم وتنكدر ، وتشقق فيها السماء وتنفطر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة متلهبة حمراء ... إلى آخر هذا الهول الكونى الرعيب .

وفى هذه السورة ـ الفرقان ـ يخوف الله المشركين بتشقق السماء بالغمام . وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة . وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين

Marfat.com

كما كانوا يقترحون ، لا لتصديق الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم « وكان يوما على الكافرين عسيرا » بما فيه من هول ، وبما فيه من عذاب . . فما لهم يقترحون نزول الملائكة وهم لاينزلون إلا فى مثل ذلك اليوم العسير ؟

ثم يعرض مشهدا من مشاهد ذلك اليوم ، يصور ندم الظالمين الضالين . يعرضه عرضا طويلا مديدا ، يخيل للسامع أنه لن ينتهى ولن يبرح . مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى :

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا » . .

ويصمت كل شيء من حوله ؛ ويروح يمد فى صوته المتحسر ، ونبراته الأسيفة ؛ والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ، ويزيد أثره عمقا . حتى ليكاد القارىء للآيات والسامع يشاركان فى الندم والأسف والأسى !

« ويوم يعض الظالم على يديه » . . فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها . إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل فى عضه على اليدين . وهى حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيما .

« يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » . . فسلكت طريقه ، لم أفارقه ، ولم أضل عنه . . الرسول الذى كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولا !

« يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » . . فلانا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله(١) . . « لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى » . .

---

(١) تذكر بعض الروايات فى سبب نزول هذه الآيات ، أن عقبة ابن أبى معيط كان يكثر من مجالسة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى ابن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت. فقال : لاوالله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال : لاأرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه. فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك . فقال له النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لا ألقاك خارج مكة إلا علوت رأسك بالسيف » فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله .

Marfat.com

لقد كان شيطانا يضل ، أو كان عونا للشيطان « وكان الشيطان للانسان خذولا » يقوده إلى مواقف الخذلان ، ويخذله عند الجد ، وفى مواقف الهول والكرب ..

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزا بهذه المشاهد المزلزلة ، التى تجسم لهم مصيرهم المخيف ، وتريهم إياه واقعا مشهودا ، وهم بعد فى هذه الأرض ، يكذبون بلقاء الله ، ويتطاولون على مقامه دون توقير ، ويقترحون الاقتراحات المستهترة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان .

* * *

وبعد هذه الجولة فى اليوم العسير يعود بهم إلى الأرض يستعرض موقفهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – واعتراضاتهم على طريقة تنزيل القرآن . ثم ينهى هذه الجولة بمشهدهم كذلك يوم الحشر والنشور :

« وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا . وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا . وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » ..

لقد هجروا القرآن الذى نزله الله على عبده لينذرهم . ويبصرهم . هجروه فلم يفتحوا له أسماعهم إذ كانوا يتقون أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه ردا . وهجروه فلم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله ، ويجدوا الهدى على نوره . وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم ، وقد جاء ليكون منهاج حياة يقودها إلى أقوم طريق :

« وقال الرسول : يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا »

وإن ربه ليعلم ؛ ولكنه دعاء البث والإنابة ، يشهد به ربه على أنه لم يأل جهدا ، ولكن قومه لم يستمعوا لهذا القرآن ولم يتدبروه .

فيسليه ربه ويعزيه . فتلك هى السنة الجارية قبله فى جميع الرسالات . فلكل نبي أعداءَ يهجرون الهدى الذى يجيئهم به ، ويصدون عن سبيل الله . ولكن الله يهدى رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين :

Marfat.com

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هاديا ونصيرا » . .

ولله الحكمة البالغة . فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوى عودها ؛ ويطبعها بطابع الجد الذى يناسب طبيعتها . وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها - مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق - هو الذى يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة ؛ وهو الذى يمحص القائمين عليها ، ويطرد الزائفين منهم ؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة ، التى لا تبتغى مغانم قريبة . ولا تريد إلا الدعوة خالصة ، تبتغى بها وجه الله تعالى .

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها فى الطريق خصوم ومعارضون ، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون ، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات ، هو الذى يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا . فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا . بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا فى سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس .. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل . وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء . وعندئذ تمضى دعوة الحق فى طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها ، واجتازوا امتحانها وبلاءها . أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته . وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالى ، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين . وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم ، فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة . فيكون هذا كله رصيدا للدعوة التى يحملون رايتها على السراء والضراء .

والذى يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات ؛ حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام فى صف أصحاب الدعوات ، وهم ثابتون على دعوتهم ، ماضون فى طريقهم ، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب

Marfat.com

الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام ، إلا أن فى هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن . . وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالى الثمين الذى يرجح كل أعراض الحياة ، ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة . وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجاً فى هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع !

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبى عدواً من المجرمين ؛ وجعل المجرمين يقفون فى وجه دعوة الحق ، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين ، فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون فى الطريق ، والنهاية مقدرة من قبل ، ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله . إنها الهداية إلى الحق ، والانتهاء إلى النصر : « وكفى بربك هاديا ونصيرا » .

وبروز المجرمين فى طريق الأنبياء أمر طبيعى . فدعوة الحق إنما تجىء فى أوانها لعلاج فساد واقع فى الجماعة أو فى البشرية . فساد فى القلوب ، وفساد فى النظم ، وفساد فى الأوضاع . ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون ، الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلونه من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتنفس شهواتهم فى جوه الوبىء . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التى يستندون هم فى وجودهم إليها . . فطبيعى إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعا عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذى يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ، ولا يستطيع الحياة إلا فى القاذر ، وبعض الديدان يموت فى الماء الطاهر الجارى ، ولا يستطيع الحياة إلا فى المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . . فطبيعى إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، يستميتون فى كفاحها . وطبيعى أن تنتصر دعوة الحق فى النهاية ، لأنها تسير مع خط الحياة ، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضىء الذى تتصل فيه بالله ، والذى تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراده الله . . « وكفى بربك هادياً ونصيرا » . .

ثم يمضى فى استعراض مقولات المجرمين الذين يقفون فى وجه دعوة القرآن ، والرد عليها:

« وقال الذين كفروا : لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . .

ولقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، وينشىء مجتمعا ، ويقيم نظاما . والتربية تحتاج إلى زمن

Marfat.com

وإلى تأثر وانفعال بالـكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع . والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد . إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ؛ و تتدرج فى مراقيه رويدا رويدا ، وتعتاد على حمل تـكاليفه شيئا فشيئا ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخما ثقيلا عسيرا . وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالى أكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية ، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها .

ولقد جاء القرآن بمنهـاج كامل شامل للحياة كلها . وجاء فى الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهى فى طريق نشأتها ونموها ، ووفق استعدادها الذى ينمو يوما بعد يوم فى ظل المنهج التربوى الإلهى الدقيق . جاء ليـكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليـكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفا حرفا وكلة كلمة ، وتـكاليفا تـكاليفا . جاء لتـكون آياته هى « الأوامر اليومية » التى يتلقاها المسلمون فى حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندى فى ثكنته أو فى الميدان « الأمر اليومى » مع التأثر والفهم والرغبة فى التنفيذ ؛ ومع الانطباع والتـكيف وفق ما يتلقاه ..

من أجـل هذا كله نزل القرآن مفصلا . يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وبثبته على طريقه ؛ ويتتابع على مراحل الطريق رتلا بعد رتل ، وجزءا بعد جزء :

« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » .

والترتيل هنا هو التتابع والتوالى وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب واستعدادها للتلقى ..

ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق فى تـكييف تلك النفوس التى تلقته مرتلا متتابعا ، وتأثرت به يوما يوما ، وانطبعت به أثرا أثرا . فلما غفل المسلمون عن هذا النهج ، واتخذوا القرآن كتاب متاع للثقافة ، وكتاب تعبد للتلاوة ، فحسب ، لامنهج تربية للانطباع والتـكيف ومنهج حياة للعمل والتنفيذ . لم ينتفعوا من القرآن بشىء ، لأنهم خرجوا عن منهجه الذى رسمه العليم الخبير ..

Marfat.com

ويمضى فى تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتطمينه على إمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل ، وكلما اقترحوا عليه اقتراحا ، أو اعترضوا عليه اعتراضا :

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . .

وإنهم ليجادلون بالباطل ، والله يرد عليهم باطلهم بالحق الذى يدمغه . والحق هو الغاية التى يريد القرآن تقريرها ، وليس مجرد الانتصار فى الجدل ، ولا الغلب فى المحاجة . إنما هو الحق القوى بنفسه ، الواضح الذى لا يتلبس به الباطل .

والله سبحانه يمد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالعون فى كل جدل يقوم بينه وبين قومه. فهو على الحق ، والله يمده بالحق الذى يعفى على الباطل . فأنى يقف جدلهم لحجة الله البالغة ؟ وأنى يقف باطلهم للحق الدامغ الذى يتنزل من عند الله ؟

وتنتهى هذه الجولة بمشهدهم يحشرون على وجوههم يوم القيامة ، جزاء تأبيهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم ومنطقهم فى جدلهم العقيم :

« الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم . أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » . .

ومشهد الحشر على الوجوه فيه من الإهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقابل التعالى والاستكبار والإعراض عن الحق . وهو يضع هذا المشهد أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعزية له عما يلقاه منهم . ويضعه أمامهم تحذيراً لهم مما ينتظرهم . وهو مشهد مجرد عرضه يذل كبرياءهم ويزلزل عنادهم ، ويهز كيانهم . وقد كانت هذه الإنذارات تهزهم هزا ، ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظلون معاندين .

* * *

ثم يجول بهم جولة فى مصارع المكذبين من السابقين :

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ؛ فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما . وعادا وثمود وأصحاب الرس ، وقرونا بين ذلك كثيرا. وكلا ضربنا له الأمثال ، وكلا تبرنا تتبيرا . ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ؛ أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشورا » ..

Marfat.com

إنها أمثلة مختصرة سريعة ترسم مصائر المكذبين :

فهذا موسى يؤتى الكتاب ويرسل معه أخوه هارون وزيرا ومعينا. ويؤمر بمواجهة «القوم الذين كذبوا بآياتنا» ذلك أن فرعون وملأه كانوا مكذبين بآيات الله ـ حتى قبل إرسال موسى وهارون إليهم، فآيات الله قائمة دائمة، والرسل إنما يذكرون بها الغافلين .. وقبل أن تتم الآية الثانية فى السياق يرسم مصيرهم في عنف وإجمال « فدمرناهم تدميرا » .

وهؤلاء قوم نوح : « لما كذبوا الرسل أغرقناهم » .. وهم كذبوا نوحا وحده . ولكن نوحا إنما جاءهم بالعقيدة الواحدة التى أرسل بها الرسل جميعا . فلما كذبوه كانوا قد كذبوا الرسل جميعا . « وجعلناهم للناس آية » فإن آية الطوفان لا تنسى على الدهر ، وكل من نظر فيها اعتبر إن كان له قلب يتدبر « وأعتدنا للظالمين عذابا أليما » فهو حاضر لايحتاج إلى إعداد. ويظهر لفظ الظالمين بدل الضمير لإثبات هذا الوصف لهم وبيان سبب العذاب . وهؤلاء عاد وثمود وأصحاب الرس [1] والقرون الكثيرة بين ذلك . كلهم لاقوا ذات المصير بعد أن ضربت لهم الأمثال ، فلم يتدبروا القول ، ولم يتقوا البوار والدمار ...

وهذه الأمثلة كلها من قوم موسى ونوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ومن القرية التى أمطرت مطر السوء ـ وهى قرية لوط ـ كلها تسير سيرة واحدة وتنتهى نهاية واحدة « وكلا ضربنا له الأمثال » للعظة والاعتبار « وكلا تبرنا تتبيرا » وكانت عاقبة التكذيب هى التحطيم والتفتيت والدمار . والسياق يستعرض هذه الأمثلة ذلك الاستعراض السريع لعرض هذه المصارع المؤثرة . وينهيها بمصرع قوم لوط وهم يمرون عليه فى سدوم فى رحلة الصيف إلى الشام . وقد أهلكها الله بمطر بركانى من الأبخرة والحجارة فدمرها تدميرا. ويقرر فى نهايته أن قلوبهم لا تعتبر ولا تتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث ، ولا يرجون لقاء الله . فذلك سبب قساوة تلك القلوب . وانطماسها . ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم واعتراضاتهم وسخرياتهم من القرآن ومن الرسول .

* * *

(١) البئر المطوية أى التى لم تبن حوائطها وقيل إن أصحابها كانوا بقرية باليمامة فقتلوا نبيهم ، واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود الذين حرقوا المؤمنين فيه وقد ذكروا فى سورة البروج .

Marfat.com

وبعد هذ الاستعراض السريع يجيء ذكر استهزائهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سبقه تطاولهم على ربهم ، واعتراضهم على طريقة تنزيل القرآن . وسبقه كذلك مشاهدهم المفجعة فى يوم الحشر ، ومصارع المكذبين أمثالهم فى هذه الأرض .. كل أولئك تطييبا لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليه . ثم يعقب عليه بتهديدهم وتحقيرهم وتنزيلهم إلى أحط من درك الحيوان .

« وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ؛ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته . فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته وهو من ذروة بنى هاشم وهم ذروة قريش . وكان عندهم ذا مكانة من خلقه وهو الملقب بينهم بالأمين . ولقد ارتضوا حكومته بينهم فى وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل . ويوم دعاهم على الصفا فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أن خيلا بسفح هذا الجبل قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .

ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم راحوا يهزأون به ويقولون : « أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » وهى قولة ساخرة مستنكرة .. أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية ، وأن ماجاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء ؟ كلا . إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقاوم . وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التى تهددهم فى مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية ، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التى تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع .

ولقد كانوا يعقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المحبوكة ، ويتفقون فيها على مثل هـذه الوسيلة وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين :

روى ابن إسحاق أن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سن فيهم ـ وقد حضر الوسم ـ موسم الحج ـ فقال لهم : يامعشر قريش : إنه قد حضر هذا الوسم ، وإن

Marfat.com

وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت ياأبا عبدشمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع .قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن . لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : إنه مجنون قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله طلاوة ، وإن أصله لعذق [(١)] ، وإن فرعه لجناة [(٢)] وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .. فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

فهذا مثل من الكيد والتدبير يشى بحيرة القوم فى المؤامرات ضد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومعرفتهم بحقيقته فى الوقت ذاته . فما كان اتخاذهم إياه هزوا ، وقولهم ساخرين: «أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ » بصورة الاستغراب والاستنكار والزراية إلا طرفا من تلك المؤامرات المدبرة لا ينبعث عن حقيقة شعورية فى نفوسهم ، إنما يتخذ وسيلة للحط من قدره فى أعين الجماهير ، التى يحرص سادة قريش على استبقائها تحت وصايتهم الدينية ، استبقاء للمراكز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية التى يتمتعون بها فى ظل تلك الوصاية ! شأن قريش فى هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعاتها فى كل زمان وفى كل مكان .

وبينما كانوا يظهرون الهزؤ والاستخفاف كانت أقوالهم ذاتها تشى بمقدار ما فى نفوسهم من شخصه ومن حجته ومن القرآن الذى جاء به ، فيقولون :

« إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » ..

---

(١) أى نخلة . يشبهه بالنخلة ثبت أصلها .

(٢) أى يحمل الجنى أى الثمار الناضجة.

Marfat.com

فلقد زلزل قلوبهم إذن باعترافهم حتى كادوا يتركون آلهتهم وعبادتهم ـ على شدة حرصهم على استبقاء دياناتهم وما وراءها من مراكز ومغانم ـ لولا أنهم قاوموا تأثرهم به وصبروا على آلهتهم ! والصبر لا يكون إلا على المقاومة العنيفة للجاذبية العنيفة . وهم يسمون الهداية إضلالا لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم . ولكنهم لا يملكون إخفاء الزلزلة التى أصابت قلوبهم من دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشخصيته والقرآن الذى معه حتى وهم يتظاهرون بالاستخفاف بشخصه ودعوته ، إصرارا وعنادا . ومن ثم يعاجلهم بالتهديد المجمل الرهيب :

« وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » .

فيعلمون إن كان ما جاءهم به هو الهدى أو أنه هو الضلال . ولكن حين لا ينفع العلم ، حين يرون العذاب . سواء أكان ذلك فى الدنيا كما ذاقوا يوم بدر ، أم كان فى الآخرة كما يذوقون يوم الحساب .

ويلتفت بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعزيه عن عنادهم وجموحهم واستهزائهم ، فهو لم يقصر فى الدعوة ، ولم يقصر فى الحجة ، ولم يستحق ما لاقوه به من التطاول ، إنما العلة فيهم أنفسهم . فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه ، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان . وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه :

« أرأيت من اتخذ إلهه هواه . أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ » ..

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعلت منه إلها يعبد ويطاع .

والله ـ سبحانه ـ يخاطب عبده فى رفق ومودة وإيناس فى أمر هذا النموذج من الناس : « أرأيت ؟ » ويرسم له هذه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذى لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة ؛ ليطيب خاطره من مرارة الإخفاق فى هدايته . فهو غير قابل للهدى ، وغير صالح لأن يتوكل الرسول بأمره ، ولا أن يحفل بشأنه : « أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ » . .

Marfat.com

ثم يخطو خطوة أخرى فى تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبدا لذواتهم وهواها وشهواتها . يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التى لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط :

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام . بل هم أضل سبيلا » .

وفى التعبير تحرز وإنصاف ، إذ يذكر « أكثرهم » ولا يعمم ، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى ، أو تقف عند الحقيقة تتدبرها . فأما الكثرة التى تتخذ من الهوى إلها مطاعا ، والتى تتجاهل الدلائل وهى تطرق الأسماع والعقول ، فهى كالأنعام . وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك ، والتكيف وفق مايتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ، ووقوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكون أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدى بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدى وظائفها أداء كاملا صحيحا . بينما يهمل الإنسان ماأودعه الله من خصائص ، ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة :

« إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ..

وهكذا يعقب على استهزائهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك التعقيب الذى يخرج المستهزئين من إطار الآدمية فى عنف واحتقار ومهانة .

وهكذا ينتهى الشوط الثانى فى السورة .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

Marfat.com

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيرًا .

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ؛ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْرًا مَحْجُوراً * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَانُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا : وَمَا الرَّحْمَانُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟ وَزَادَهُمْ نُفُوراً .

« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً » ﴿٦٢﴾

فى هذا الشوط يدع مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبدأ جولة فى مشاهد الكون ومجاليه ، يوجه إليها قلب الرسول ويصل بها مشاعره . وهذا الاتصال كاف وحده ليدفع خاطره عن مضايقات المشركين الصغيرة ؛ ويفتح قلبه على تلك الآفاق الوسيعة التى يتضاءل معها كيد الكائدين وعدواة المجرمين ..

والقرآن يوجه القلوب والعقول دائما إلى مشاهد هذا الكون ؛ ويربط بينها وبين العقول والقلوب . ويوقظ المشاعر لاستقبالها بحس جديد متفتح ، يتلقى الأصداء والأضواء ،

Marfat.com

وينفعل بهـا ويستجيب ، ويسير فى هذا الـكون ليلتقط الآيات المبثوثة فى تضاعيفه ، المنثورة فى أرجائه ، المعروضة فى صفحاته ، ويرى فيها يد الصانع المدبر ، ويستشعر آثار هذه اليد فى كل ماتقع عليه عينه ، وكل مايلمسه حسه ، وكل مايلتقطه سمعه ؛ ويتخذ من هـذا كله مادة للتدبر والتفـكر ، والاتصال بالله ، عن طريق الاتصال بما صنعت يداه .

وحين يعيش الإنسان فى هـذا الـكون مفتوح العين والقلب ، مستيقظ الحس والروح ، موصول الفـكر والخاطر ؛ فإن حياته ترتفع عن ملابسات الأرض الصغيرة ، وشعوره بالحياة يتسامى ويتضاعف معاً . وهو يحس فى كل لحظة أن آفاق الـكون أفسح كثيرا من رقعة هذه الأرض ؛ وأن كل مايشهده صادر عن إرادة واحـدة ، مرتبط بناموس واحد ، متجه إلى خالق واحـد ؛ وإن هو إلا واحـد من هذه المخلوقات الـكثيرة المتصلة بالله ؛ ويد الله فى كل ماحوله ، وكل ماتقع عليه عينه ، وكل ماتلمسه يداه .

إن شعورا من التقوى ، وشعورا من الأنس، وشعورا من الثقة لتمتزج فى حسه ، وتفيض على روحه ، وتعمر عالمه ، فتطبعه بطابع خاص من الشفافية والمودة والطمأنينة فى رحلته على هذا الـكوكب حتى يلقى الله . وهو يقضى هذه الرحلة كلها فى مهرجان من صنع الله وعلى مائدة من يد الصانع المدبر الجميل التنسيق .

وفى هذا الدرس ينتقل السياق من مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمده ثم تقبضه فى يسر ولطف . إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث . إلى مشهد الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها المـاء المحيى للموات . إلى مشهد البحرين الفرات والأجاج وبينهما برزخ يمنعهما وحجز بينهما فلا يختلطان. ومن ماء السماء إلى ماء النطفة ، وإذا هو بشر يصرف الحياة . إلى مشهد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . إلى مشهد البروج فى السماء وما فيهـا من سراج مضىء وقمر منير . إلى مشهـد الليل والنهـار يتعاقبـان على مدار الزمان .

وفى خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيها ؛ ويذكر بقدرته وتدبيره ؛ ويعجب معه إشراك المشركين ، وعبادتهم مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وجهلهم بربهم وتطاولهم عليه ، وتظاهرهم على الـكفر والجحود والنـكران . فإذا هو تصرف عجيب مريب فى وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، ومشاهد الـكون الذى خلقه الله .

Marfat.com

فلنعش نحن لحظات فى ذلك المهرجان الذى يدعونا الخالق البارىء المصور إليه فى طول الحياة .

***

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ـ ولو شاء لجعله ساكنا ـ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . .

إن مشهد الظل الوريف اللطيف ليوحى إلى النفس المجهودة المكدودة بالراحة والسكن والأمان . وكأنما هو اليد الآسية الرحيمة تنسم على الروح والبدن ، وتمسح على القرح والألم ، وتهدهد القلب المتعب المكدود ... أفهذا الذى يريده الله سبحانه وهو يوجه قلب عبده إلى الظل بعد ما ناله من استهزاء ولأواء ؟ وهو يمسح على قلبه المتعب فى هذه المعركة الشاقة ، وهو فى مكة يواجه الكفر والكبر والمكر والعناد ، فى قلة من المؤمنين وكثرة من المشركين ؛ ولم يؤذن له بعد فى مقابلة الاعتداء بمثله وفى رد الأذى والتهجم والاستهزاء ؟ ! إن هذا القرآن الذى كان يتنزل على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان هو البلسم المريح ، والظل الظليل ، والروح الحي فى هجير الكفر والجحود والعصيان . وإن الظل ـ وبخاصة فى هجير الصحراء المحرق ـ لهو المشهد الذى يتناسق مع روح السورة كلها وما فيها من أنداء وظلال .

والتعبير يرسم مشهد الظل ويد الله الخفية التدبير تمده فى رفق ، وتقبضه فى لطف : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟ » . . « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . .

والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس فى النهار . وهو يتحرك مع حركة الأرض فى مواجهة الشمس ، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله ؛ والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها ، وتميز مساحته وامتداده وارتداده . ومتابعة خطوات الظل فى مده وانقباضه يشيع فى النفس نداوة وراحة كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة ، وهى تتبع صنع البارىء اللطيف القدير .. وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب ، وهى تطول وتطول ، وتمتد وتمتد . ثم فى لحظة . لحظة واحدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعا . لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال . أين تراها ذهبت ؟ لقد قبضتها اليد الخفية التى مدتها . لقد انطوت كلها فى الظل الغامر الطامى . ظل الليل والظلام !

Marfat.com

إنها يد القدرة القوية اللطيفة . التى يغفل البشر عن تتبع آثارها فى الكون من حولهم وهى تعمل دائبة لايدركها الكلال .

« ولو شاء لجعله ساكنا » .. فبناء الكون المنظور على هذا النسق ، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذى جعل الظل متحركا هذه الحركة اللطيفة . ولو اختلف ذلك النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره فى الظل الذى نراه . لوكانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لايمتد ولا يقبض . ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هى عليه لكان الظل فى امتداده وقبضه أبطأ أو أسرع. فتنسيق الكون المنظور على ناموسه هذا هو الذى يسمح بظاهرة الظل ، ويمنحها خواصها التى نراها .

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التى نراها كل يوم ، ونمر بها غافلين ، هو طرف من منهج القرآن فى استحياء الكون دائما فى ضمائرنا ، وفى إحياء شعورنا بالكون من حولنا ،وفى تحريك خوامد إحساسنا التى أفقدها طول الألفة إيقاع المشاهد الكونية العجيبة . وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب ...

* * *

ومن مشهد الظل إلى مشهد الليل الساتر ، والنوم الساكن ، والنهار وما فيه من حركة ونشور :

« وهو الذى جعل الليل لباسا ، والنوم سباتا ؛ وجعل النهار نشورا » ..

والليل يستر الأشياء والأحياء فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتشح بظلامه فهو لباس . وفى الليل تنقطع الحركة ويسكن الدبيب وينام الناس وكثير من الحيوان والطور والهوام . والنوم انقطاع عن الحس والوعى والشعور . فهو سبات . ثم يتنفس الصبح وتنبعث الحركة ، وتدب الحياة فى النهار . فهو نشور من ذلك الموت الصغير ، الذى يتداول الحياة على هذه الأرض مع البعث والنشور مرة فى كل دورة من دورات الأرض الدائبة التى لا يصيبها الكلال . وهى تمر بالبشر وهم غافلون عما فيها من دلالة على تدبير الله ، الذى لايغفل لحظة ولا ينام .

* * *

Marfat.com

ثم ظاهرة الرياح المبشرة بالمطر وما يبثه من حياة :

« وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا » . .

والحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة ، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض . ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه ، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكا صحيحا كاملا . وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه ، وهم يترقبون الرياح التى يعرفونها تسوق السحب ، ويستبشرون بها ؛ ويحسون فيها رحمة الله - إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان .

والتعبير يبرز معنى الطهارة والتطهير : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » وهو بصدد ما فى الماء من حياة . « لنحيي به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيرا » فيلقى على الحياة ظلا خاصا . ظل الطهارة . فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذى ينشئ الحياة فى الموات ويسقى الأناسى والأنعام .

* * *

وعند هذا المقطع من استعراض المشاهد الكونية يلتفت إلى القرآن النازل من السماء كذلك لتطهير القلوب والأرواح ؛ وكيف يستبشرون بالماء المحيي للأجسام ولا يستبشرون بالقرآن المحيي للأرواح :

« ولقد صرفناه [1] بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » .

« ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » .. فعرضناه عليهم فى صور شتى ، وأساليب متعددة ،

(١) بعض المفسرين يرجع الضمير فى « صرفناه » إلى الماء بوصفه أقرب مذكور فى العبارة . ولأن القرآن لم يذكر فى هذا المقام. ولكننا نرجح أن الضمير عائد على القرآن ، لأنه لاشك فى أن قوله: « وجاهدهم به » يعنى القرآن فهو لايجاهدهم بالماء. والذى يجعل الضمير الثانى راجعا إلى القرآن يجعل الضمير الأول كذلك . إنما هى التفاتة من التفاتات القرآن الكثيرة بمناسبة مضمرة ملحوظة. هذه المناسبة هنا هى إنزال الماء الطهور المحيي ، التى ترد الذهن إلى إنزال القرآن المطهر المحيي الذى تدور السورة كلها عليه .

Marfat.com

ولفتات متنوعة؛ وخاطبنا بمشاعرهم ومداركهم، وأرواحهم وأذهانهم؛ ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم، وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم.. « ليذكروا » .. فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر. والحقيقة التي يحاول القرآن ردهم إليها مركوزة في فطرتهم، أنساهم إياها الهوى الذي اتخذوا منه إلها.. « فأبى أكثر الناس إلا كفورا ».

ومهمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذن ضخمة شاقة؛ وهو يواجه البشرية كلها وأكثرها أضله الهوى، وأبى إلا الكفر ودلائل الإيمان حاضرة..

« ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ».

فتوزع المشقة، وتخف المهمة. ولكن الله اختار لها عبدا واحدا، هو خاتم الرسل؛ وكلفه إنذار القرى جميعا، لتتوحد الرسالة الأخيرة، فلا تتفرق على ألسنة الرسل في القرى المتفرقة، وأعطاه القرآن ليجاهدهم به:

« فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا »..

وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان، والتأثير العميق، والجاذبية التي لا تقاوم، ما كان يهز قلوبهم هزا، ويزلزل أرواحهم زلزالا شديدا؛ فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا.

ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير: « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ». وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن؛ وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فتنقاد إليه النفوس، وتهوى إليه الأفئدة.

ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة، وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن. فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم ما أمروا هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير!

قال ابن إسحاق: حدثني محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهري أنه حُدِّث: أن أبا سفيان ابن حرب، وأبا جهل ابن هشام، والأخنس ابن شريق ابن عمر ابن وهب الثقفي حليف

Marfat.com

بنى زهرة . . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ! ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ! فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه . ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ؟ وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالو : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! !

« قال : فقام عنه الأخنس وتركه » .

فهكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفو إلى هذا القرآن فتغلبهم ، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يتهدد زعامتهم ، لو اطلع عليهم الناس ، وهم مأخوذون شبه مسحورين !

و إن فى القرآن من الحق الفطرى البسيط ، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل ، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار ، وأن يصد عنه تدفق التيار . وإن فيه من مشاهد القيامة ، ومن القصص ، ومن مشاهد الكون الناطقة ، ومن مصارع الغابرين ، ومن قوة التشخيص يهز القلوب هزا لا تملك معه قرارا . وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنسانى

Marfat.com

فى بعض الأحيان ، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد ! !

فلا عجب مع ذلك أن يأمر الله نبيه أن لايطيع الكافرين ، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن . فإنما يجاهدهم بقوة لايقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو محال .

***

وبعد هذه اللفتة يعود إلى مشاهد الكون ، فيعقب على مشهد الرياح المبشرة والماء الطهور، بمشهد البحار العذبة والملحة وما بينهما من حجاز :

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ؛ وجعل بينهما برزخا، وحجرا محجورا » . .

وهو الذى ترك البحرين ، الفرات العذب والملح المر ، يجريان ويلتقيان ، فلا يختلطان ولا يمتزجان ؛ إنما يكون بينهما برزخ وحاجز من طبيعتهما التى فطرها الله . فمجارى الأنهار غالبا أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذى يصب فى البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا شذوذا. وبهذا التقدير الدقيق لايطغى البحر – وهو أضخم وأغزر – على النهر الذى منه الحياة للناس والأنعام والنبات . ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد . إنما يتم بإرادة الخالق الذى أنشأ هذا الكون لغاية تحققها نواميسه فى دقة وإحكام .

وقد روعى فى نواميس هذا الكون ألا تطغى مياه المحيطات الملحة لا على الأنهار ولا على اليابسة حتى فى حالات المد والجزر التى تحدث من جاذبية القمر للماء الذى على سطح الأرض ، ويرتفع بها الماء ارتفاعا عظيما .

يقول صاحب كتاب : الإنسان لايقوم وحده (العلم يدعو إلى الإيمان) :

« يبعد القمر عنا مسافة مئتين وأربعين ألفا من الأميال ، ويذكرنا المد الذى يحدث مرتين تذكيرا لطيفا بوجود القمر . والمد الذى يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدما فى بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحنى مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شىء منتظما لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التى ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحنى قشرة الأرض التى تبدو لنا صلبة للغاية .

« والمريخ له قمر . قمر صغير . لايبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال . ولو كان قمر نا يبعد

Marfat.com

عنا خمسين ألف ميل مثلا ، بدلا من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلا ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها. وفى هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذى فى الهواء يحدث أعاصير كل يوم .

« وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت ، فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية كلها يكون نحو ميل ونصف . وعندئذ ما كانت الحياة لتوجد إلا فى أعماق المحيط السحيقة على وجه الاحتمال ! »

ولكن اليد التى تدبر هذا الكون مرجت البحرين وجعلت بينهما برزخا وحاجزا من طبيعتهما ومن طبيعة هذا الكون المتناسق الذى تجرى مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ، هذا الجرى المقدر المنسق المرسوم .

* * *

ومن ماء السماء وماء البحر والنهر إلى ماء النطفة الذى تنشأ منه الحياة البشرية المباشرة :

« وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » ..

فمن هذا الماء يتخلق الجنين : ذكرا فهو نسب ، وأنثى فهو صهر ، بما أنها موضع للصهر . وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء . فمن خلية واحدة (من عشرات الألوف الكامنة فى نقطة واحدة من ماء الرجل) تتحد ببويضة المرأة فى الرحم ، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب .. الإنسان .. أعجب الكائنات الحية على الإطلاق !

ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة ، لا يدرك البشر سرها ، ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها . فما من خلية من آلاف الخلايا يمكن أن تلحظ فيها مميزات معروفة هى التى تؤهلها لأن تنتج ذكرا أو أنثى ، وما من بويضة كذلك لوحظ فيها مثل هذه الميزات . ومع ذلك تصير هذه إلى أن تكون رجلا ، وهذه إلى

Marfat.com

أن تكون امرأة ، فى نهاية المطاف ! « وكان ربك قديرا » .. وهاهى ذى القدرة تكشف عن طرف منها فى هذا العجب العجاب !

ولو راح الإنسان يدقق فى هـذا الماء الذى يخلق منه الإنسان ، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة فى الأجسام الدقيقة البالغة الدقة ، التى تحمل عناصر الوراثة للجنس كله ، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين ، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ماترسم له يد القدرة من خلق واتجاه فى طريق الحياة .

وهذه لمحات من كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » عن خصائص الوراثة الكامنة فى تلك الذريرات الصغيرة :

« كل خليـة ذكرا أو أنثى . تحتوى على كروموزومات[1] وجينات (وحدات الوراثة) والكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التى تحتوى الجينة . والجينات هى العامل الرئيسى الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حى أو إنسان . والسيتو بلازم[2] هى تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التى تحيط بالاثنتين . وتبلغ الجينات (وحـدات الوراثة) من الدقة أنهـا ـ وهى المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعا ، التى على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسـية وألوانها وأجناسها ـ لو جمعت كلها ووضعت فى مكان واحد ، لـكان حجمها أقل من حجم « الكستبان » !

« وهـذه الجينات الميكرسكوبية البالغـة الدقة هى المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات . « والكستبان » الذى يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم . ومع ذلك فإن هذه هى الحقيقة التى لا جدال فيها .

« وإن الجنين وهو يخلص فى تطوره التدريجى من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسى ، إنمـا يقص تاريخا مسجلا ، قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذرى فى الجينات والسيتوبلازم .

... « لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات ، فى خـلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهى تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص

---

(١) الكروموزوم هى وحدة المادة العضوية ، والعامل فى نقل الصفات الوراثية .

(٢) السيتوبلازم هى المادة البروتوبلازمية التى حول نواة الخلية .

Marfat.com

.بو ـكل شيء حي . وهى تتحكم تفصيلا فى الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لـكل نبات . تماما كما تقرر الشكل ، والقشر ، والشعر ، والأجنحة لـكل حيوان بما فيه الإنسان » .

وبهذا القدر نكتفى من عجائب الحياة ، التى أودعتها إياها القدرة الخالقة المدبرة . « وكان ربك قديرا » ..

* * *

وفى مثل هـذا الجو . جو الخلق والتقدير . وأمام تلك الحياة الناشئة من ماء السماء وماء النطفة . المزودة بتلك الخصائص ، التى تجعل من خلية ذكرا بمميزاته كلها ووراثاته ، وتجعل من خلية أنثى بمميزاتها كذلك ووراثاتها.. فى مثل هـذا الجو تبدو عبادة غير الله شيئا مستغربا مستنكرا تشمئز منه الفطرة . . وهنا يعرض عباداتهم من دون الله .

« ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم . وكان الـكافر على ربه ظهيرا » ..

« وكان الـكافر على ربه ظهيرا » . . كل كافر ـ ومشركو مكة من ضمنهم ! ـ إنما هو حرب على ربه الذى خلقه وسواه . فـكيف ذلك ، وهو صغير ضئيل لا يبلغ أن يكون حربا ولا ضدا على الله ؟ إنه حرب على دينه . وحرب على منهجه الذى أراده للحياة . إنما يريد التعبير أن يفظع جريمته ويبشعها ، فيصوره حربا على ربه ومولاه !

فهو يحارب ربه حين يحارب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته، فلا على الرسول منه ، فإنما الحرب مع الله ، وهو به كفيل . ثم يطمئن الله عبده ، ويخفف العبء عن عاتقه ، ويشعره أنه حين يؤدى واجبه فى التبشير والإنذار ، وجهاد الـكفار بما معه من قرآن فلا عليه من عداء المجرمين له ولا عناد الـكافرين . والله يتولى عنه المعركة مع أعدائه الذين إنما يعادون الله . فليتوكل على ربه . والله أعلم بذنوب عباده !

« وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . قـل : ما أسألـكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا . وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا » .

وبهذا يحدد واجب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو التبشير والإنذار . ولم يكن بعد مأمورا بقتال المشركين وهو فى مكة لضمان حرية التبشير والإنذار كما أمر به بعد ذلك فى المدينة.

Marfat.com

وذلك لحكمة يعلمها الله . نحدس منها أنه كان فى هذه الفترة يعد الرجال الذين ترتكز إليهم هذه العقيدة الجديدة ، وتعيش فى نفوسهم ، وتترجم فى حياتهم ، وتتمثل فى سلوكهم ، لكى يكونوا نواة المجتمع المسلم الذى يحكمه الإسلام ويهيمن عليه . ولكى لا يدخل فى خصومات وثارات دموية تصد قريشاً عن الإسلام ، وتغلق قلوبهم دونه ؛ والله يقدر أنهم سيدخلون فيه بعضهم قبل الهجرة وسائرهم بعد الفتح ، ويكون منهم نواة صلبة للعقيدة الخالدة بإذن الله .

على أن لب الرسالة بقى فى المدينة كما كان فى مكة هو التبشير والإنذار . إنما جعل القتال لإزالة الموانع المادية دون حرية الدعوة ، ولحماية المؤمنين حتى لا تكون فتنة ؛ فالنص صادق فى مكة وفى المدينة على السواء : « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » .

« قل : ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » . .

فليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مطمع فى أجر ولا عرض من أعراض الحياة الدنيا يناله ممن يهتدون إلى الإسلام . ليست هناك إتاوة ، ولا نذر ولا قربان يقدمه المسلم . وهو يدخل فى الجماعة المسلمة بكلمات ينطق بها لسانه ويعتقد بها قلبه . وهذه ميزة الإسلام . ميزته أن ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته ، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته ؛ ليس هنالك « رسم دخول » ولا ثمن لتناول سر ولا بركة ولا استقبال ! هذه هى بساطة هذا الدين وبراءته من كل ما يحول بين القلب والإيمان ؛ ومن كل ما يقف بين العبد وربه من وسطاء وكهان . . ليس هنالك سوى أجر واحد للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو اهتداء المهتدى إلى الله وتقربه إلى ربه بما يراه ! « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » . . هذا وحده هو أجره . . يرضى قلبه الطاهر ويستريح وجدانه النبيل أن يرى عبدا من عباد الله قد اهتدى إلى ربه ، فهو يبتغى رضاه ، ويتحرى طريقه ، ويتجه إلى مولاه .

« وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده » . .

وكل ما عدا الله ميت ، لأنه صائر إلى موت ، فلا يبقى إلا الحى الذى لا يموت . والتوكل على ميت ، تفارقه الحياة يوما طال عمره أم قصر ، هو ارتكان إلى ركن ينهار ، وإلى ظل يزول . إنما التوكل على الحى الدائم الذى لا يزول . . « وسبح بحمده » ولا يحمد إلا الله المنعم الوهاب . . ودع أمر الكفار الذين لا ينفعهم التبشير والإنذار إلى الحى الذى لا يموت فهو يعلم ذنوبهم ولا يخفى عليه منها شىء : « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » .

Marfat.com

وفى معرض الخبرة المطلقة والقدرة على الجزاء يذكر خلق الله للسماوات والأرض ، واستعلاءه على العرش :

« الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمان ، فاسأل به خبيرا » .

وأيام الله التى خلق فيها السماوات والأرض غير أيامنا الأرضية قطعا . فإنما أيامنا هذه ظل للنظام الشمسى ، ومقياس لدورة فلكية وجدت بعد خلق السماوات والأرض . وهى مقيسة بقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس . والخلق لا يقتضى إلا توجه الإرادة الإلهية المرموز له بلفظة : « كن » فتتم الكينونة « فيكون » . ولعل هذه الأيام الستة من أيام الله التى لا يعلم مقدارها إلا هو ـ إنما تمت فيها أطوار متباعدة فى السماوات والأرض حتى انتهت إلى وضعها الحالى . أما الاستواء على العرش فهو معنى الاستعلاء والسيطرة ولفظ « ثم » لا يدل على الترتيب الزمنى إنما يدل على بعد الرتبة . رتبة الاستواء والاستعلاء .

ومع الاستعلاء والسيطرة الرحمة الكبيرة الدائمة : « الرحمان » .. ومع الرحمة الخبرة : « فاسأل به خبيرا » الخبرة المطلقة التى لا يخفى عليها شىء . فإذا سألت الله ، فإنما تسأل خبيرا ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

* * *

ومع هذا فإن أولئك المتبجحين المتطاولين ، يقابلون الدعوة إلى عبادة الرحمان باستخفاف واستنكار :

« وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمان : قالوا : وما الرحمان ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا » !

وهى صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول ؛ تذكر هنا للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم لا يوقرون ربهم ، فيتحدثون بهذه اللهجة عن ذاته العلية. فهل يستغرب من هؤلاء أن يقولوا عن الرسول ما قالوا ؟ وهم ينفرون من اسم الله الكريم ، ويزعمون أنهم لا يعرفون اسم « الرحمان » ويسألون عنه بما ، زيادة فى الاستهتار . « قالوا : وما الرحمان ؟ » . ولقد بلغ من تطاولهم واستخفافهم أن يقولوا : مانعرف الرحمان إلا ذاك باليمامة . يعنون به مسيلمة الكذاب !

Marfat.com

ويرد على تطاولهم هذا بتمجيد الله سبحانه وتكبيره والتحدث ببركته وعظمته ، وعظمة خلقه ، وآياته المذكرة به فى هذا الخالق العظيم .

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا . وجعل فيها سراجا ، وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ، أو أراد شكورا » .

والبروج ـ على الأرجح ـ منازل الكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة. والفخامة هنا تقابل فى الحس ذلك الاستخفاف فى قولة المشركين : « وما الرحمان » ؟ فهذا شىء من خلقه ضخم هائل عظيم فى الحس وفى الحقيقة ؛ وفى هذه البروج تنزل الشمس ويسميها « سراجا » لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها . وفيها القمر المنير الذى يبعث بنوره الهادىء اللطيف .

ويعرض كذلك مشهد الليل والنهار وتعاقبهما . وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس ، وفيهما الكفاية : « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس ، ويخلف أحدهما أخاه ، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات . بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة .

جاء فى كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » (العلم يدعو إلى الإيمان) .

« تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل فى الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط فى الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون ليلنا ونهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات . وفى هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار . وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض ! » .

فتبارك الذى خلق السماوات والأرض ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا . وتبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » ..

Marfat.com

« وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا: سَلَامًا ⓺⓷ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

« قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » ⓻⓻

هذا الشوط الأخير فى السورة يبرز فيه « عباد الرحمان » بصفاتهم المميزة ، ومقوماتهم الخاصة ؛ وكأنما هم خلاصة البشرية فى نهاية المعركة الطويلة بين الهدى والضلال . بين البشرية الجاحدة المشاقة والرسل الذين يحملون الهدى لهذه البشرية . وكأنما هم الثمرة الجنية لذلك الجهاد الشاق الطويل ، والعزاء المريح لحملة الهدى فيما لا قوه من جحود وصلادة وإعراض !

وقد سبق فى الدرس الماضى تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم « الرحمان » فهاهم أولاء عباد الرحمان ، الذين يعرفون الرحمان ، ويستحقون أن ينسبوا إليه ، وأن يكونوا عباده . ها هم أولاء بصفاتهم المميزة ومقومات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم . ها هم أولاء مثلا حية واقعية

Marfat.com

للجماعة التى يريدها الإسلام ، وللنفوس التى ينشئها بمنهجه التربوى القويم . وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يعبأ بهم الله فى الأرض ، ويوجه إليهم عنايته ؛ فالبشر كلهم أهون على الله من أن يعبأ بهم ، لولا أن هؤلاء فيهم ، ولولا أن هؤلاء يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء .

* * *

« وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما »..

هاهى ذى السمة الأولى من سمات عباد الرحمان : أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة ، ليس فيها تكلف ولا تصنع ، وليس فيها خيلاء ولا تنفج ، ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل . فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية ، وعما يستكن فيها من مشاعر . والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة ، تخلع صفاتهـا هذه على مشية صاحبها ، فيمشى مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة . فيها وقار وسكينة ، وفيها جد وقوة . وليس معنى : « يمشون على الأرض هونا » أنهم يمشون متماوتين منكسى الرؤوس ، متداعى الأركان ، متهاوى البنيان ؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح ! وهذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا مشى تكفأ تكفيا ، وكان أسرع الناس مشية ، وأحسنها وأسكنها ، قال أبو هريرة : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كأنما الأرض تطوى له ــ وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث . وقال على ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا مشى تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب . وقال مرة إذا تقلع ــ قلت والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب ، وهى مشية أولى العزم والهمة والشجاعة (١) .

وهم فى جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة ، لايتلفتون إلى حماقة الحمق وسفه السفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمق فى جدل أو عراك ، ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما » لا عن ضعف ولكن عن ترفع ؛ ولا عن عجز إنما عن استعلاء ، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع .

* * *

(١) عن زاد المعاد فى هدى خير العباد لشمس الدين أبى عبدالله محمد ابن قيم الجوزية .

Marfat.com

هـذا نهارهم مع الناس فأما ليلهم فهو التقوى ومراقبة الله ، والشعور بجلاله ، والخوف من عذابه .

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم . إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما » ..

والتعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمان ، فى جنح الليل والناس نيام . فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجداً وقياما ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده . هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ ، بمـا هو أروح منه وأمتع ، مشغولون بالتوجه إلى ربهم ، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به ، ينام النـاس وهم قائمون ساجدون ؛ ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمان ، ذى الجلال والإكرام .

وهم فى قيامهم وسجودهم وتطلعهم وتعلقهم تمتلىء قلوبهم بالتقوى ، والخوف من عذاب جهنم . يقولون : « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما » .. وما رأوا جهنم ، ولكنهم آمنوا بوجودها ، وتمثلوا صورتها مما جاءهم فى القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله الكريم . فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق ، وثمرة التصديق .

وهم يتوجهون إلى ربهم فى ضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم . لا يطمئنهم أنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ؛ فهم لما يخالج قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم ، ولا يرون فيها ضمانا ولا أمانا من النار ، إن لم يتداركهم فضـل الله وسماحته وعفوه ورحمته ، فيصرف عنهم عذاب جهنم .

والتعبير يوحى كأنمـا جهنم متعرضة لكل أحد ، متصدية لكل بشر ، فاتحة فاها ، تهم أن تلتهم ، باسطة أيديها تهم أن تقبض على القريب والبعيد ! وعباد الرحمان الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يخافونها ويخشونها ، ويتضرعون إلى ربهم أن يصرف عنهم عذابها ، وأن ينجيهم من تعرضها وتصديها !

ويرتعش تعبيرهم وهم يتضرعون إلى ربهم خوفا وفزعا : « إن عذابها كان غراما » : أى ملازما لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله ؛ فهذا ما يجعله مروعا مخيفا شنيعاً . .

Marfat.com

« إنها ساءت مستقرا ومقاما » وهل أسوأ من جهنم مكانا يستقر فيه الإنسان ويقيم . وأين الاستقرار وهي النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار !

* * *

وهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع ، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال .

والمسلم - مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة - ليس حرا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء - كما هو الحال في النظام الرأسمالي ، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان . إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير . فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله . فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية . والإسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي ، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد ، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان :

« وكان بين ذلك قواما » ..

* * *

وسمة عباد الرحمان بعد ذلك أنهم لا يشركون بالله ، ويتحرجون من قتل النفس ، ومن الزنا . تلك الكبائر المنكرات التي تستحق أليم العذاب :

« والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » .

Marfat.com

وتوحيد الله أساس هـذه العقيدة ، ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة فى الاعتقاد ؛ والغموض والالتواء والتعقيد ، الذى لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس - إلا بالحق - مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التى تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن ؛ وحياة الغابات والكهوف التى لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفا أسمى من إرواء سعار اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة التى لا هم للذكران والإناث فيها إلا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ؛ والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان . . من أجل ذلك ذكرها الله فى سمات عباد الرحمان . أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله . وعقب عليها بالتهديد الشديد : «ومن يفعل ذلك يلق أثاما» أى عذابا . وفسر هذا العذاب بما بعده « يضاعف له العذاب يوم القيامة . ويخلد فيه مهانا » . . فليس هو العذاب المضاعف وحده ، وإنما هى المهانة كذلك ، وهى أشد وأنكى .

ثم يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير المسيء بالتوبة والإيمان الصحيح والعمل الصالح : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » . وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال ، وثاب إلى حمى الله ، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة . « وكان الله غفورا رحيما » . .

وباب التوبة دائما مفتوح ، يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب . لا يصد عنه قاصد ، ولا يغلق فى وجه لاجىء ، أيا كان ، وأيا ما ارتكب من الآثام .

روى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن صفوان ابن عمرو عن عبد الرحمان ابن جبير عن أبى فروة ، أنه أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم . قال : « فافعل الخيرات

Marfat.com

واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراتى وفجراتى ؟ قال : « نعم » .
فما زال يكبر حتى توارى .

ويضع قاعدة التوبة وشرطها : «ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا» ..فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهى بالعمل الصالح الذى يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية . وهو فى الوقت ذاته ينشىء التعويض الإيجابى فى النفس للإقلاع عن المعصية . فالمعصية عمل وحركة ، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذى تحسه بعد الإقلاع . وهذه لمحة فى منهج التربية القرآنى عجيبة ، تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة . ومن أخبر من الخالق بما خلق ؟ سبحانه وتعالى !

* * *

وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات « عباد الرحمان » :

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما » . .

وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، أنهم لا يؤدون شهادة زور ، لما فى ذلك من تضييع الحقوق ، والإعانة على الظلم . وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعا منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات.وهو أبلغ وأوقع . وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر: « وإذا مروا باللغو مروا كراما » لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ؛ إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بله المشاركة فيه ! فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة مايدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها فى نفسه وفى الحياة كلها فى شغل شاغل .

* * *

ومن سماتهم أنهم سريعو التذكر إذا ذكروا ، قريبو الاعتبار إذا وعظوا ، مفتوحو القلوب لآيات الله ، يتلقونها بالفهم والاعتبار :

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .

وفى التعبير تعريض بالمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم وأباطيلهم كالصم والعميان؛

Marfat.com

لايسمعون ولا يبصرون ، ولا يتطلعون إلى هدى أو نور . وحركة الانكباب على الوجوه بلا سمع ولابصر ولا تدبر حركة تصور الغفلة والانطماس والتعصب الأعمى . فأما عباد الرحمن ، فهم يدركون إدرا كا واعيا بصيرا مافى عقيدتهم من حق ، وما فى آيات الله من صدق ، فيؤمن إيمانا واعيا بصيرا ، لاتعصبا أعمى ولا انكبابا على الوجوه ! فإذا تحمسوا لعقيدتهم فإنما هى حماسة العارف المدرك البصير .

* * *

وأخيرا فإن عباد الرحمان لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ؛ وأنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها ، بل يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم ؛ فتقر بهم عيونهم ، وتطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد « عباد الرحمن » ويرجون أن يجعل الله منهم قدوة طيبة للذين يتقون الله ويخافونه :

« والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » . .

وهذا هو الشعور الفطرى الإيمانى العميق : شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين فى الدرب إلى الله . وفى أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال. والرغبة كذلك فى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون فى الله . وليس فى هذا من أثرة ولا استعلاء فالركب كله فى الطريق إلى الله .

* * *

فأما جزاء عباد الرحمان فيختم به هذا البيان :

« أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » . .

والغرفة ربما كان المقصود بها الجنة ، أو المكان الخاص فى الجنة ، كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس فى البيوت فى هذه الأرض ، عندما يستقبلون الأضياف . وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم ، يستقبلون فى الغرفة بالتحية والسلام ، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات . وهو تعبير ذو دلالة . فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ، ومغريات الحياة ، ودوافع السقوط . والاستقامة جهد لايقدر عليه إلا بالصبر . الصبر الذى يستحق أن يذكره الله فى هذا الفرقان .

Marfat.com

وفى مقابل جهنم التى يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقرا ومقاما، يجزيهم الله الجنة « خالدين فيها . حسنت مستقرا ومقاما » فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله. وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام.

***

والآن وقد صور عباد الرحمان . تلك الخلاصة الصافية للبشرية . يختم السورة بهوان البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء. فأما المكذبون فالعذاب حتم عليهم لزام.

« قل : ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ..

وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها ؛ ومساقها للتسرية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعزيته عما يلاقى من عناد قومه وجحودهم . وتطاولهم عليه، وهم يعرفون مقامه ؛ ولكنهم فى سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون .. فما قومه ؟ وما هذه البشرية كلها، لولا القلة المؤمنة التى تدعو الله ، وتتضرع إليه . كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون ؟ .

من هم والأرض التى تضم البشر جميعا إن هى إلا ذرة صغيرة فى فضاء الكون الهائل . والبشرية كلها إن هى إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض . والأمة واحدة من أمم هذه الأرض . والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله ؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا ؛ ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه ! وهو هين هين ، ضعيف ضعيف ، قاصر قاصر . إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد ، وعندئذ فقط يكون شيئا فى ميزان الله ؛ وقد يرجح ملائكة الرحمن فى هذا الميزان . فضلا من الله الذى كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة ، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له ، فيحفظ بذلك خصائصه التى سجدت له معها الملائكة ؛ وإلا فهو لقى ضائع ، لو وضع نوعه كله فى الميزان ما رجحت به كفة الميزان !

« قل : مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » .. وفى التعبير سند للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإعزاز : « قل: مايعبأ بكم ربى » . فأنا فى جواره وحماه . هو ربى وأنا عبده . فما أنتم بغير الإيمان به ، والانضمام إلى عباده ؟ إنكم حصب جهنم « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ..

Marfat.com

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّة
وآياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« طسم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ⑨

موضوع هذه السورة الرئيسى هو موضوع السور المكية جميعاً .. العقيدة .. ملخصة فى عناصرها الأساسية : توحيد الله : « فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين » .. والخوف من الآخرة : « ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .. والتصديق بالوحى المنزل على محمد رسول الله – صلى الله عليه سلم – : « وإنه لتنزيل رب العالمين ؛ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .. ثم التخويف من عاقبة التكذيب ، إما بعذاب الدنيا الذى يدمر المكذبين ؛ وإما بعذاب الآخرة الذى ينتظر الكافرين: « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! » .. « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

Marfat.com

ذلك إلى تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ؛ وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا فى سبيلها من الظالمين ؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

وجسم السورة هو القصص الذى يشغل ثمانين ومئة آية من مجموع آيات السورة كلها . والسورة هى هـذا القصص مع مقدمة وتعقيب . والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحـدة متكاملة متجانسة ، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه فى أساليب متنوعة ، تلتق عند هدف واحـد . . ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقـة أو الحلقات التى تؤدى هـذه الأغراض .

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلهـا جو الإنذار والتـكذيب ، والعذاب الذى يتبع التـكذيب . ذلك أن السورة تواجه تـكذيب مشركى قريش لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستهزاءهم بالنذر ، وإعراضهم عن آيات الله ، واستعجالهم بالعذاب الذى يوعدهم به ؛ مع التقول على الوحى والقرآن ؛ والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين !

والسورة كلها شوط واحد ـ مقدمتها وقصصها وتعقيبها ـ فى هذا المضمار . لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها . ونبدأ بالمقدمة قبل القصص المختار :

* * *

« طسم . تلك آيات الـكتاب المبين » . .

طا . سين . ميم . . الأحرف المقطعة للتنبيه إلى أن آيات الـكتاب المبين ـ ومنها هـذه السورة ـ مؤلفة من مثل هذه الأحرف ؛ وهى فى متناول المكذبين بالوحى ؛ وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الـكتاب المبين . والحديث عن هذا الـكتاب متداول فى السورة . فى مقدمتها ونهايتها . كما هو الشأن فى السور المبدوءة بالأحرف المقطعة فى القرآن .

وبعد هـذا التنبيه يبدأ فى مخاطبة رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ الذى يهمه أمر المشركين ويؤذيه تـكذيبهم له وللقرآن الـكريم ؛ فيسليه ويهون عليه الأمر ؛ ويستكثر ما يعانيه من أجلهم ؛ وقد كان الله قادرا على أن يلوى أعناقهم كرها إلى الإيمان، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسرا :

Marfat.com

« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ! إن نشأ ننزل عليهم من السماء آيـة فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وفي التعبير مايشبه العتب على شدة ضيقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهمه بعدم إيمانهم : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .. وبخع النفس قتلها . وهذا يصور مدى ما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعانى من تـكذيبهم ، وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التـكذيب ، فتذوب نفسه عليهم ـ وهم أهله وعشيرته وقومه ـ ويضيق صدره . فربه يرأف به ، وينهنهه عن هذا الهم القاتل ، ويهون عليه الأمر ، ويقول له : إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شئنا أن نـكرههم عليه لأكرهناهم ، ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملـكون معها جدالا ، ولا انصرافاً عن الإيمان . ويصور خضوعهم لهذه الآية صورة حسية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » ملوية محنية حتى لـكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم ، فهم عليها مقيمون !

ولـكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا فى كل ناحية :

معجزا فى بنائه التعبيرى وتنسيقه الفنى ، باستقامته على خصائص واحدة ، فى مستوى واحد ، لا يختلف ولايتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ؛ كما هى الحال فى أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف فى عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدل على مصدره الذى لا تختلف عليه الأحوال .

معجزاً فى بنائه الفـكرى ، وتناسق أجزائه وتـكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقى وتتناسق وتـتكامل ؛ وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ؛ ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها .. وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة ، فى اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولابد أن تـكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمـكان . هى التى أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

Marfat.com

معجزا فى يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ؛ وعلاجها لعقدها ومشكلاتها فى بساطة ويسر عجيبين ؛ وفى تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مماطلة .

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ـ ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوى الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسلم ـ ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوى إلا أعناق من يشاهدونها ؛ ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعا يشهد .. فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان مايقوم حياتهم ـ لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم ـ ويلبى حاجاتهم كاملة؛ ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن ؛ ذلك أنه يعطى كل طالب بقدر حاجته ؛ ويبقى رصيده لاينفد ، بل يتجدد . ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حينا بعد حين :

« وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين » . .

ويذكر اسم الرحمان هنا للإشارة إلى عظيم رحمته بتنزيل هذا الذكر ، فيبدو إعراضهم عنه مستقبحا كريها ؛ وهم يعرضون عن الرحمة التى تتنزل عليهم ، ويرفضونها ، ويحرمون أنفسهم منها ، وهم أحوج ما يكونون إليها !

ويعقب على هذا الإعراض عن ذكر الله ورحمته بالتهديد بعقابه وعذابه :

« فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . .

وهو تهديد مضمر مجمل مهول . وفى التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد . « فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . . ستأتيهم أخبار العذاب الذى يستهزئون به ! وهم لن يتلقوا أخبارا . إنما سيذوقون العذاب ذاته ، ويصبحون هم أخبارا فيه ، يتناقل الناس ماحل بهم منه . ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد المرهوب !

وإنهم يطلبون آية خارقة ؛ ويغفلون عن آيات الله الباهرة فيما حولهم ؛ وفيها الكفاية

Marfat.com

للقلب المفتوح والحس البصير ؛ وكل صفحة من صفحات هذا الكون العجيب آية تطمئن بها القلوب .

« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين » . .

ومعجزة إخراج النبات الحى من الأرض ، وجعله زوجا ذكرا وأنثى ، إما منفصلين كما فى بعض فصائل النبات ، وإما مجتمعين كما هو الغالب فى عالم النبات ، حيث تجتمع أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث فى عود واحد .. هذه المعجزة تتكرر فى الأرض حولهم فى كل لحظة : « أو لم يروا ! » والأمر لا يحتاج إلى أكثر من الرؤية ؟

والمنهج القرآنى فى التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون ؛ وينبه الحس الخامد ، والذهن البليد ، والقلب المغلق ، إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان فى كل مكان ؛ كى يرتاد هذا الكون الحى بقلب حى ؛ يشاهد الله فى بدائع صنعه ، ويشعر به كلما وقعت عينه على بدائعه ؛ ويتصل به فى كل مخلوقاته ؛ ويراقبه وهو شاعر بوجوده فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ويشعر أنه هو واحد من عباده ، متصل بمخلوقاته ، مرتبط بالنواميس التى تحكمهم جميعا . وله دوره الخاص فى هذا الكون ، وبخاصة هذه الأرض التى استخلف فيها :

« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » . .

كريم بما فيه من حياة ، صادرة من الله الكريم . . واللفظ يوحى إلى النفس باستقبال صنع الله بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال ؛ لا بالاستهانة والغفلة والإغفال .. « إن فى ذلك لآية » . وهم يطلبون الآيات . ولكن أكثرهم لا يؤمن بهذه الآية : « وما كان أكثرهم مؤمنين » !

وتنتهى مقدمة السورة بالتعقيب الذى يتكرر فى السورة بعد استعراض كل آية :

« وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . .

« العزيز » القوى القادر على إبداع الآيات ، وأخذ المكذبين بالعذاب « الرحيم » الذى يكشف عن آياته ، فيؤمن بها من يهتدى قلبه ؛ ويمهل المكذبين ؛ فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير . وفى آيات الكون غنى ووفرة ، ولكن رحمته تقتضى أن يبعث بالرسل للتبصير والتنوير . والتبشير والتحذير .

Marfat.com

« وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى: أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ① قَوْمَ فِرْعَوْنَ. أَلَا يَتَّقُونَ؟ * قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي، فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ: كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

« قَالَ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ؟ * قَالَ: فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ * قَالَ: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ: أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ: فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟ * قَالُوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

« فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ: هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ؟ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ * قَالَ: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا

Marfat.com

حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ! إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا : لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

« فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ : كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . .

هذه الحلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ تجيء فى هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة ، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة ؛ وإلى طمأنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم ؛ وإلى رعاية الله لدعوته

Marfat.com

والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون فى الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل ـ وهو الموقف الذى كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة ـ وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية فى القرآن الكريم .

وقد وردت حلقات من قصة موسى ـ عليه السلام ـ حتى الآن فى سورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طـه . عدا إشارات إليها فى سور أخرى .

وفى كل مرة كانت الحلقات التى تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذى تعرض فيه ، على نحو ماهى فى هذه السورة ؛ وكانت تشارك فى تصوير الموضوع الذى يهدف إليه السياق[1] .

والحلقة المعروضة هنا هى حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب ، وعقاباً على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين . ونجاة موسى وبنى إسرائيل من كيد الظالمين . وفى هذا تصديق قول الله سبحانه فى هذه السورة عن المشركين : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . . وقوله : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . .

وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية ، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذى يليه . وهى ظاهرة فنية ملحوظة فى طريقة العرض القرآنية للقصة[2] .

وهنا سبعة مشاهد : أولها مشهد النداء والبعثة والوحى والمناجاة بين موسى ـ عليه السلام ـ وربه . وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتى العصا واليد البيضاء . وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى . ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء ! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وسادسها مشهد ذو شقين : الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسرى

---

(١) تراجع ص ٦٣ ـ ٦٤ من الجزء السادس عشر من الظلال . وفصل : القصة فى القرآن فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن .

(٢) فصل :القصة فى القرآن .

Marfat.com

بعباده ليلا ، والثانى مشهد إرسال فرعون فى المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بنى إسرائيل . وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين .

وقد عرضت هذه المشاهد فى سورة الأعراف ، وفى سورة يونس ، وفى سورة طه . ولكنها عرضت فى كل موضع من الجانب الذى يناسب ذلك الموضع ، وبالطريقة التى تتفق مع اتجاهه ، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك .

ففى الأعراف مثلا بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا ، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا ، بينما وسع فى عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك ، وعرض آيات موسى مدة إقامته فى مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة . واستطرد بعد ذلك مع بنى إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر فى حلقات كثيرة . . واختصر هذا هنا فلم يشر إليه . بينما وسع فى مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله ؛ وهو موضوع الجدل فى هذه السورة بين المشركين والنبى صلى الله عليه وسلم .

وفى يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصراً لم يعرض فيه آيتى العصا واليد ، واختصر كذلك فى مشهد المباراة . بينما توسع هنا فى كليهما .

وفى سورة طـــه توسع فى مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه . واستطرد بعد مشهدى المواجهة والمباراة فصاحب بنى إسرائيل فى رحلتهم طويلا . ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة .

وكذلك لا نجد تكراراً فى عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت فى سور القرآن . لأن هذا التنويع فى اختيار الحلقات التى تعرض ، ومشاهد كل حلقة ، والجانب الذى يختار من كل مشهد ، وطريقة عرضه . . . كل أولئك يجعلها جديدة فى كل موضع . متناسقة مع هذا الوضع .

* * *

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . .

Marfat.com

الخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القصص ، بعد ماقال له فى مطلع السورة :
« فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ».. ثم أخذ يقص عليه أنباء المكذبين المعرضين المستهزئين ، وما حاق بهم من العذاب الأليم .

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون . ألا يتقون ؟ » ..

وهذا هو المشهد الأول : مشهد التكليف بالرسالة لموسى ـ عليه السلام ـ وهو يبدأ بإعلان صفة القوم : « القوم الظالمين » فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال ، وظلموا بنى إسرائيل بما كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويعذبونهم بالسخرة والنكال . . لذلك يقدم صفتهم ثم يعينهم « قوم فرعون » ثم يعجب موسى من أمرهم ويعجب كل إنسان : « ألا يتقون ؟ » ألا يخشون ربهم ؟ ألا يخافون مغبة ظلمهم ؟ ألا يرجعون عن غيهم ؟ ألا إن أمرهم لعجيب يستحق التعجيب ! وكذلك كل من كان على شاكلتهم من الظالمين !

ولم يكن أمر فرعون وملئه جديدا على موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرفه ، ويعرف ظلم فرعون وعتوه وجبروته ، ويدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم . ومن ثم يشكو إلى ربه ما به من ضعف وقصور لا ليتنصل أو يعتذر عن التكليف ، ولكن ليطلب العون والمساعدة فى هذا التكليف العسير .

« قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » .

والظاهر من حكاية قوله ـ عليه السلام ـ أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله فى وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده . إذ كانت بلسانه حبسة هى التى قال عنها فى سورة طه : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » ومن شأن هذه الحبسة أن تنشىء حالة من ضيق الصدر ، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام . وتزداد كلما زاد الانفعال ، فيزداد الصدر ضيقا ... وهكذا . . . وهى حالة معروفة . فمن هنا خشى موسى أن تقع له هذه الحالة وهو فى موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون . فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته ،

Marfat.com

وطلب إليه أن يوحى إلى هارون أخيه ، ويشركه معه فى الرسالة اتقاء للتقصير فى أداء التكليف ، لا نكوصا ولا اعتذارا عن التكليف . فهارون أفصح لسانا ومن ثم هو أهدأ انفعالا ؛ فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان . ولقد دعا موسى ربه - كما ورد فى سورة طه - ليحل هذه العقدة من لسانه ، ولكنه زيادة فى الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرا ومعينا . .

وكذلك الشأن فى قوله : « ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون » . . فإن ذكره هنا ليس للخوف من المواجهة ، والتخلى عن التكليف . ولكن له علاقة بالإرسال إلى هارون . حتى إذا قتلوه قام هارون من بعده بالرسالة ، وأتم الواجب كما أمره ربه دون تعويق .

فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية . الاحتياط من أن يحتبس لسانه فى الأولى وهو فى موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة . والاحتياط من أن يقتلوه فى الثانية فتتوقف دعوة ربه التى كلف أداءها وهو على إبلاغها واطرادها حريص . وهذا هو الذى يليق بموسى - عليه السلام - الذى صنعه الله على عينه ، واصطنعه لنفسه .

ولما علم ربه من حرصه هذا وإشفاقه واحتياطه أجابه إلى ما سأل ، وطمأنه مما يخاف . والتعبير هنا يختصر مرحلة الاستجابة ، ومرحلة الإرسال إلى هارون ، ومرحلة وصول موسى إلى مصر ولقائه لهارون ؛ ويبرز مشهد موسى وهارون مجتمعين يتلقيان أمر ربهما الكريم ، فى نفس اللحظة التى يطمئن الله فيها موسى ، وينفى مخاوفه نفيا شديدا ، فى لفظة تستخدم أصلا للردع وهى كلمة « كلا » !

« قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » .

كلا . لن يضيق صدرك ويحتبس لسانك . وكلا لن يقتلوك . فأبعد هذا كله عن بالك بشدة . واذهب أنت وأخوك . « اذهبا بآياتنا » وقد شهد موسى منها العصا واليد البيضاء - والسياق يختصرها هنا لأن التركيز فى هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة وموقف السحرة وموقف الغرق والنجاة . اذهبا « إنا معكم مستمعون » فأية قوة ؟ وأى سلطان ؟ وأى حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان فى كل لحظة وفى كل مكان. ولكن الصحبة المقصودة هنا هى صحبة النصر والتأييد . فهو يرسمها فى صورة الاستماع ، الذى هو أشد درجات الحضور والانتباه. وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة . وذلك على طريقة القرآن فى التعبير بالتصور

Marfat.com

اذهبا « فأتيا فرعون » فأخبراه بمهمتكما فى غير حذر ولا تلجلج : « فقولا : إنا رسول رب العالمين » وهما اثنان ولكنهما يذهبان فى مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول . رسول رب العالمين . فى وجه فرعون الذى يدعى الألوهية ، ويقول لقومه : « ماعلمت لكم من إله غيرى » فهى المواجهة القوية الصريحة بحقيقة التوحيد منذ اللحظة الأولى ، بلا تدرج فيها ولا حذر . فهى حقيقة واحدة لا تحتمل التدرج والمداراة .

« إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . . وواضح من هذا ومن أمثاله فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن ، أنه لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون . وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل ـ وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام ـ فبهت هذا الدين فى نفوسهم ، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

* * *

وإلى هنا نحن أمام مشهد البعثة والوحى والتكليف . ولكن الستار يسدل . لنجدنا أمام مشهد المواجهة . وقد اختصر ماهو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية :

« قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ؟ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة : « إنا رسول رب العالمين » . ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم ! « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا فى قصره منذ أن التقطوا تابوته[١] . وأنه هرب بعد قتله للقبطى الذى وجده يتعارك مع الإسرائيلى[٢] . . وقيل : إن هذا القبطى كان من حاشية فرعون . فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التى يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكما مستهزئا مستعجبا :

(١) سورة طه . الجزء السادس عشر من الظلال . (٢) سورة القصص .

Marfat.com

« قال : ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت ، وأنت من الكافرين ؟ » . .

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التى لقيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتى اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذى نشأت فى بيته ، وتدعو إلى إله غيره ؟ !

وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التى تدعيها اليوم ؟ ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟ !

ويذكره بحادث مقتل القبطى فى تهويل وتجسيم : « وفعلت فعلتك التى فعلت » . . فعلتك البشعة الشنيعة التى لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها « وأنت من الكافرين » برب العالمين الذى تقول به اليوم ، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين !

وهكذا جمع فرعون كل ماحسبه ردا قاتلا لا يملك موسى - عليه السلام - معه جوابا ، ولا يستطيع مقاومة . وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من قصاص ، يتهدده به من وراء الكلمات !

ولكن موسى وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه - انطلق - يجيب :

« قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ! » . .

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومى ، لا اندفاع العقيدة التى عرفتها اليوم بما أعطانى ربى من الحكمة . « ففررت منكم لما خفتكم » على نفسى . فقسم الله لى الخير : ووهب لى الحكمة « وجعلنى من المرسلين » فلست بدعا من الأمر ، إنما أنا واحد من الرعيل « من المرسلين »(١) .

ثم يجبهه تهكما بتهكم . ولكن بالحق . « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » . .

---

(١) يلاحظ من ناحية التنسيق الفنى فى التعبير أن حرف الفاصلة فى السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقوله : من المرسلين . يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد فى السورة . بعكس مالو قيل : وجعلنى رسولا . ولكنه مع هذا يؤدى معنى مقصودا . وهو أنه واحد من كثيرين وأن الأمر ليس بدعا ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفنى والدقيق فى التعبير .

Marfat.com

فما كانت تربيتى فى بيتك وليدا إلا من جراء استعبادك لبنى إسرائيل، وقتلك أبناءهم، مما اضطر أمى أن تلقينى فى التابوت، فتقذف بالتابوت فى الماء، فتلتقطوننى، فأربى فى بيتك، لا فى بيت أبوىّ. فهل هذا هو ماتمنه على، وهل هذا هو فضلك العظيم ؟!

عندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه. ولكن فى تجاهل وهزء وسوء أدب فى حق الله الكريم :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ » ..

إنه ـ قبحه الله ـ يسأل : أى شىء يكون رب العالمين الذى تقول : إنك من عنده رسول ؟ وهو سؤال المتنكر للقول من أساسه، المتهكم على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث !

فيجيبه موسى ـ عليه السلام ـ بالصفة المشتملة على ربوبيته ـ تعالى ـ للكون المنظور كله وما فيه :

« قال : رب السماوات والأرض وما بينهما. إن كنتم موقنين » ..

وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه .. إنه رب هذا الكون الهائل الذى لا يبلغ إليه سلطانك ـ يافرعون ـ ولا علمك. وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله هذا الشعب وهذا الجزء من وادى النيل. وهو ملك صغير ضئيل، كالذرة أو الهباءة فى ملكوت السماوات والأرض وما بينهما. وكذلك كان جواب موسى ـ عليه السلام ـ يحمل استصغار مايدعيه فرعون مع بطلانه، وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل، والتفكير فيمن يكون ربه .. فهو رب العالمين !.. ثم عقب على هذا التوجيه بما حكايته[1] : « إن كنتم موقنين » فهذا وحده هو الذى يحسن اليقين به والتصديق.

والتفت فرعون إلى من حوله، يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثر به، على طريقة الجبارين الذين يخشون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب :

« قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ » ..

ألا تستمعون إلى هذا القول العجيب الغريب، الذى لا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه !

(١) لم يكن موسى يتكلم العربية. فقد كان يخاطب فرعون باللغة المصرية طبعا. ولكن القرآن يحكى قوله.

Marfat.com

ولم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين .

« قال : ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه ،فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ، فما هو إلا واحد من عبيده . لا إله كما يدعى بين قومه ! وهو رب قومه ، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ! وهو رب آبائهم الأولين . فالوراثة التى تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة . فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين !

وإنها للقاصمة لفرعون . فما يطيق عليها سكوتا والملأ حوله يستمعون . ومن ثم يرمى قائلها فى تهكم بالجنون :

« قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » . .

إن رسولكم الذى أرسل إليكم .. يريد أن يتهكم على مسألة الرسالة فى ذاتها ، فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم ، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها . ويتهم موسى — عليه السلام — بالجنون ، ليذهب أثر مقالته التى تطعن وضع فرعون السياسى والدينى فى الصميم . وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين .

ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت فى عضد موسى ؛ فيمضى فى طريقه يصدع بكلمة الحق التى تزلزل الطغاة والمتجبرين :

« قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما . إن كنتم تعقلون » ..

والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم ؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما ، وشدة ألفتهما . واللفظ يدل على الشروق والغروب . كما يدل على مكانى الشروق والغروب . وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون ولا غيره من المتجبرين أن يدعى تصريفهما . فمن يصرفهما إذن ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذى لا يتخلف مرة ولا يبطئ عن أجله المرسوم ؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا ، ويوقظ العقول الغافية إيقاظا . وموسى — عليه السلام — يثير مشاعرهم ، ويدعوهم إلى التدبر والتفكير : « إن كنتم تعقلون » . .

والطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية .

Marfat.com

ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب . فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذى يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط فى أيديهم وتخذلهم البراهين :

« قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين [(١)] » .

هـذه هى الحجة وهذا هو الدليل : التهديد بأن يسلكه فى عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد. وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم فى القديم والجديد !

غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه . . وكيف وهو رسول الله ؟ والله معه ومع أخيه ؟ فإذا هو يفتح الصفحة التى أراد فرعون أن يغلقها ويستريح . يفتحها بقول جديد ، وبرهان جديد :

« قال : أولو جئتك بشىء مبين ؟ » . .

وحتى لو جئتك ببرهان واضح على صدق رسالتى فإنك تجعلنى من المسجونين ؟ وفى هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ؛ ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته ، وهو يدعى أنه مجنون . ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل :

« قال : فأت به إن كنت من الصادقين » . .

إن كنت من الصادقين فى دعواك ؛ أو إن كنت من الصادقين فى أن لديك شيئا مبينا . فهو ما يزال يشكك فى موسى ، خيفة أن تترك حجته فى نفوس القوم شيئا .

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدى من فرعون أقصاه:

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » . .

والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا . يدل على هذا بقوله : « فإذا هى » فلم يكن الأمر تخييلا ، كما هو الحال فى السحر الذى لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة .

(١) يقال هنا ما قيل من قبل فى قوله : « من المرسلين »

Marfat.com

ومعجزة الحياة التى تدب من حيث لايعلم البشر ، معجزة تقع فى كل لحظة ،ولكن الناس لا يلقون لها بالا ، لطول الألفة والتكرار ، أو لأنهم لايشهدون التحول على سبيل التحدى . فأما فى مثل هذا المشهد . وموسى – عليه السلام – يلقى فى وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب .

وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها ؛ فأسرع يقاومها ويدفعها ؛ وهو يحس ضعف موقفه ، ويكاد يتملق القوم من حوله ؛ ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ، ليغطى على وقع المعجزة المزلزلة :

« قال للملإ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ » ..

وفى قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرا ؛ فهو يصف صاحبها بأنه ساحر « عليم » . ويبدو ذعره من تأثر القوم بها فهو يغريهم به : « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » . ويبدو تضعضعه وتهاويه ، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها ، فيطلب أمرهم ومشورتهم : « فماذا تأمرون ؟ » ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون !

وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون فى القول بعد التجبر . ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى فى الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى : ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون !

وأشار عليه الملأ ؛ وقد خدعتهم مكيدته ، وهم شركاء فرعون فى باطله ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع التى تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان ؛ وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير ، حين ترى معجزتى موسى وتسمع إلى ما يقول . . أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله ، بعد التهيئة والاستعداد :

« قالوا : أرجه وأخاه . وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » . .

أى أمهله وأخاه إلى أجل ؛ وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى ، يجمعون السحرة المهرة ، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه .

***

Marfat.com

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يحشدون ، والناس يجمعون للمباراة ، وتبث فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان ؛ وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والطغيان .

« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ؟ » . .

وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير : « هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة ؟ » هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد ، لنترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي ! والجماهير دائما تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون ، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات ، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس . وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السلام !

* * *

ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة ؛ يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ؛ ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم !

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذن لمن المقربين » . .

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ؛ تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما في كل مكان وفي كل زمان .

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع . وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر . يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه . وهو بزعمه الملك والإله !

* * *

ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسام :

Marfat.com

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . .

ويبدأ المشهد هادئاً عاديا . إلا أنه يشى منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذى معه ؛ وقلة اكتراثه لجموع السحرة المحشودين من المدائن ، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة ، ووراءهم فرعون وملؤه ، وحولهم تلك الجماهير المضللة المخدوعة .. يتجلى هذا الاطمئنان فى تركه إياهم يبدأون :

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون » . .

وفى التعبير ذاته ما يشى بالاستهانة : ألقوا ما أنتم ملقون » . . بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام .

وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته :

« فألقوا حبالهم وعصيهم ؛ وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » . .

ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيهم ، كما فصله فى سورة الأعراف وطه ، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق ، وينتهى مسارعا إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل ؛ لأن هذا هو هدف السورة الأصيل .

« فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون » . .

ووقعت المفاجأة المذهلة التى لم يكن يتوقعها كبار السحرة ؛ فلقد بذلوا غاية الجهد فى فنهم الذى عاشوا به وأتقنوه ؛ وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه . وهم جمع كثير . محشود من كل مكان . وموسى وحده ، وليس معه إلا عصاه . ثم إذا هى تلقف ما يأفكون ؛ واللقف أسرع حركة للأكل . وعهدهم بالسحر أن يكون تخييلا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم

Marfat.com

وعصيهم حقا . فلاتبق لها أثرا . ولو كان ماجاء به موسى سحرا ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها . ولـكنهم ينظرون ولا يجدونها فعلا !

عندئذ لا يملـكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذى لا يقبل جدلا . وهم أعرف الناس بأنه الحق :

« فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » . .

وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضيــة . ولـكن الحق الذى مس قلوبهم قد حولهم تحويلا . لقد كانت هزة رجتهم رجا ، وخضتهم خضا ؛ ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حيه خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، فى لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجدا ، بغير إرادة منهم ، تتحرك ألسنتهم ، فتنطلق بكلمة الإيمان ، فى نصاعة وبيان : « آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » .

وإن القلب البشرى لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا . وصدق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمان . إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »(١) . وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين . على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان فى وجه الطاغية من عواقب ونتائج ، ولا يعنيهم ماذا يفعل أو ماذا يقول .

ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه . فالجماهير حاشدة . وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المبـاراة . عبأوهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلى ، ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، ويريد أن يجعل الحكم لقومه ؛ وأن السحرة سيغلبونه ويفحمونه . . ثم هاهم أولاء يرون السحرة يلقون مايلقون باسم فرعون وعزته . ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ؛ ويعترفون بصدق موسى فى رسالته من عند الله ، ويؤمنون برب العالمين الذى أرسله ، ويخلعون عنهم عبادة فرعون ، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته ، وانتظروا أجره ، واستفتحوا بعزته !

---

(١) أخرجه الشيخان .

Marfat.com

وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش. أسطورة الألوهية ، أو بنوته للآلهة ـ كما كان شائعا في بعض العصور ـ وهؤلاء هم السحرة . والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاولها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها . ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهونهم بها . فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة ؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشا ولا تحمي حكما .

إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة ، وذعر الملأ من حوله ، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة ؛ وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجدا معترفين منيبين .

عندئذ جن جنون فرعون ، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال . بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى !

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين » ..

« آمنتم له قبل أن آذن لكم » .. لم يقل آمنتم به . إنما عده استسلاما له قبل إذنه . على طريقة المناورات التي يدبرها صاحبها وهو مالك لإرادته ، عارف بهدفه ، مقدر لعاقبته . ولم يشعر قلبه بتلك اللمسة التي مست قلوبهم . ومتى كان للطغاة قلوب تشعر بمثل هذه اللمسات الوضيئة ؟ ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير : « إنه لكبيركم الذي علمكم السحر » وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة ـ وهم من الكهنة ـ كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تبناه ، أو كان يختلف إليهم في المعابد . فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلا من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا في أعين الجماهير !

ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين :

« فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » ..

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية ، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه ، يرتكبها

Marfat.com

فى عنف وغلظة وبشاعة ، بلا تحرج من قلب أو ضمير .. وإنها لكلمة فرعون الطاغية المتجبر الذى يملك تنفيذ ما يقول .. فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التى رأت النور !

إنها كلمة القلب الذى وجد الله فلم يعد يحفل مايفقد بعد هذا الوجدان . القلب الذى اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان . القلب الذى يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير :

« قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . .

لا ضير . لاضير فى تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف[1] . لاضير فى التصليب والعذاب. لا ضير فى الموت والاستشهاد . . لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . وليكن فى هذه الأرض ما يكون : فالمطمع الذى نتعلق به ونرجوه « أن يغفر لنا ربنا خطايانا » جزاء « أن كنا أول المؤمنين » .. وأن كنا نحن السابقين ..

يا لله ! يالروعة الإيمان إذ يشرق فى الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة فى النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما فى الأرض تافه حقير زهيد .

هنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة . لا يزيد شيئا . ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق . وهو يربى به النفوس فى مكة وهى تواجه الأذى والكرب والضيق ويربى به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب .

فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين . وفرعون يتآمر ويجمع جنوده أجمعين :

«وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون .. فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون » . .

وهنا فجوة فى الوقائع والزمن لا تذكر فى هذا الموضع . فقد عاش موسى وبنو إسرائيل فترة بعد المباراة ، وقعت فيها الآيات الأخرى المذكورة فى سورة الأعراف[2] قبل أن يوحى

---

(١) اليد اليمنى مع الرجل اليسرى . واليد اليسرى مع الرجل اليمنى .

(٢) الجزء التاسع من الظلال ص ٢٨ ــ ٣٣ .

Marfat.com

الله لموسى بالرحيل بقومه . ولكن السياق هنا يطويها ليصل إلى النهاية المناسبة لموضوع السورة واتجاهها الأصيل .

لقد أوحى الله إلى موسى إذن أن يسرى بعباده ، وأن يرحل بهم ليلا ، بعد تدبير وتنظيم . ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده ؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو فى الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات) .

وعلم فرعون بخروج بنى إسرائيل خلسة ، فأمر بما يسمى « التعبئة العامة » وأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ، ليدرك موسى وقومه ، ويفسد عليهم تدبيرهم ؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير !

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند . . ولكن هذا الجمع قد يشى بانزعاج فرعون ، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الملك الإله - بزعمه ! - إلى التعبئة العامة . ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين :

« إن هؤلاء لشرذمة قليلون » !

ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم ، والاحتشاد لهم ، وهم شرذمة قليلون !

« وإنهم لنا لغائظون » . .

فهم يأتون من الأفعال والأقوال مايغيظ ويغضب ويثير !

وإذن فلهم شأن وخطر على كل حال ! فليقل العملاء : إن هذا لا يهم فنحن لهم بالمرصاد :

« وإنا لجميع حاذرون » . .

مستيقظون لمكائدهم ، محتاطون لأمرهم ، ممسكون بزمام الأمور !

إنها حيرة الباطل المتجبر دائما فى مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين !

***

وقبل أن يعرض المشهد الأخير ، يعجل السياق بالعاقبة الأخيرة من إخراج فرعون وملئه مما كانوا فيه من متاع . ووراثة بنى إسرائيل المستضعفين :

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ، وأورثناها بنى إسرائيل » . .

Marfat.com

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم . فكانت خرجتهم هذه هى الأخيرة . وكانت إخراجا لهم من كل ماهم فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير الأخير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين . تعجيلا بالجزاء على الظلم والبطر والبغى الوخيم .

« وأورثناها بنى إسرائيل » . .

ولا يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ؛ وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه . لذلك يقول المفسرون : إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهى وراثة لنوع ماكانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

* * *

وبعد هـذا الاعتراض يجىء المشهد الحاسم الأخير :

« فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين » . .

لقد أسرى موسى بعباد الله ، بوحى من الله وتدبير . فأتبعهم جنود فرعون فى الصباح بمكر من فرعون وبطر . ثم هاهو ذا المشهد يقترب من نهايته . والمعركة تصل إلى ذروتها . . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين . وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكى السلاح يطلبونهم ولا يرحمون !

وقالت دلائل الحال كلها : أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم :

« قال أصحاب موسى : إنا لمدركون » . .

وبلغ الكرب مداه ، وإن هى إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين !

ولكن موسى الذى تلقى الوحى من ربه ، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة، و إن كان لا يدرى كيف تكون . فهى لا بد كائنة والله هو الذى يوجهه ويرعاه .

Marfat.com

« قال : كلا إن معى ربى سيهدين » . .

كلا . فى شدة وتوكيد . كلا لن نكون مدركين. كلا لن نكون هالكين . كلا لن نكون مفتونين . كلا لن نكون ضائعين «كلا إن معى ربى سيهدين» بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفى اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير فى ليل اليأس والكرب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون :

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر » . .

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر . فهذا مفهوم . إنما يعجل بالنتيجة :

« فانفلق . فكان كل فرق كالطود العظيم » . .

ووقعت المعجزة ، وتحقق الذى يقول عنه الناس : مستحيل . لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور . والله الذى خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

وقعت المعجزة وانكشف بين فرق الماء طريق . ووقف الماء على جانبى الطريق كالطود العظيم . واقتحم بنو إسرائيل . .

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتا مشدوها بذلك المشهد الخارق ، وذلك الحادث العجيب .

ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتا فأطال الوقوف ــ وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم فى طريق مكشوف ــ قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم فى ذلك الطريق العجيب .

وتم تدبير الله . فخرج بنو إسرائيل من الشاطىء الآخر ، بينما كان فرعون وجنوده بين فرق الماء أجمعين . وقد قربهم الله لمصيرهم المحتوم :

« وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين » . .

« ثم أغرقنا الآخرين » !!!

ومضت آية فى الزمان ، تتحدث عنها القرون . فهل آمن بها الكثيرون ؟

« إن فى ذلك لآية . وما أكثرهم مؤمنين » .

فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما . وإن خضع لها الناس قسرا . إنما الإيمان هدى فى القلوب .

Marfat.com

« وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

التعقيب المعهود فى السورة بعد عرض الآيات والتكذيب

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ * قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؛ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ * قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ؟ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ .

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ... ـي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ : * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ !

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ١٠٤

Marfat.com

مضت قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه ؛ وانتهت بتلك النهاية ، وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين ـ كما كانت القلة المؤمنة يومذاك فى مكة ـ وفيها الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين .

فالآن تتبعها قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه . ويؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتلوها على المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم ، وأنهم على دينه القديم ؛ وهم يشركون بالله ، ويقيمون الأصنام لعبادتها فى بيته الحرام ، الذى بناه إبراهيم خالصا لله .. فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة مايزعمون .

والقصص فى هذه السورة لايتبع الخط التاريخى ، لأن العبرة وحدها هى المقصودة . فأما فى سورة الأعراف مثلا فقد كان الخط التاريخى مقصودا ، لعرض خط وراثة الأرض ، وتتابع الرسل من عهد آدم ـ عليه السلام ـ فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ ، منذ الهبوط من الجنة ، وبدء الحياة البشرية .

والحلقة التى تعرض هنا من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هى حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير باليوم الآخر. يعقب هذا مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذى انتهى بهم إلى ماهم فيه . كأنهم قد صاروا فعلا إلى ماهم فيه ! وهنا عبرة القصة للمشركين .. ومن ثم يتوسع فى الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ؛ ومصير المشركين فى يوم الدين . لأن التركيز متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله فى سور أخرى .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى البقرة ، والأنعام ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، ومريم ، والأنبياء ، والحج . وكانت فى كل سورة مناسبة لسياقها العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

عرضت فى سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل ، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمنا ، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هى للمسلمين ، الذين يتبعون ملته ، لا لمن يدعون بالنسب وراثته . وكان هذا بصدد مخالفات بنى إسرائيل ، وطردهم ولعنهم ، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين ..

Marfat.com

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت ، والذي يأتي بالشمس من المشرق ، وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب . فبهت الذي كفر .

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، وأمره بذبح أربعة من الطير ، وتوزيع أشلائهن على الجبال ، ثم إحياؤها بين يديه ، فجاءت تسعى إليه .

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء .

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه ، واهتدائه إليه ، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس ، وتتبع مشاهد الكون . وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة ، وآيات الله في الكون ، ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له .

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق ، وكان ذلك في سياق قصة لوط ، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بإبراهيم . وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين .

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع ؛ وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ؛ وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته ، وأن يقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ، برسالة واحدة ، هي التوحيد ؛ وعرض المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك ؛ وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود !

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل، في صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين ، وعذابه للعصاة المذنبين .

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه ، وغلظة أبيه عليه ، واعتزاله لأبيه وقومه ، وهبة إسماعيل وإسحاق له . وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله المصطفين من عباده . وجوها كله تظلله الرحمة والود واللين .

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه ، وزرايته على أصنامهم . وتحطيم هذه الأصنام ، وإلقائه في النار التي كانت بردا وسلاما عليه بأمر الله ، ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى

Marfat.com

الأرض التي باركنا فيها للعالمين . وذلك في صدد استعراض أمة الرسل ، ورعاية الله لهذه الأمة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك .

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين . .

* * *

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ » . .

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذي يزعمون أنهم ورثته ، وأنهم يتبعون ديانته . اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة ؛ وهو يخالف أباه وقومه في شركهم ، وينكر عليهم ماهم عليه من ضلال ، ويسألهم في عجب واستنكار : « ما تعبدون ؟ »

« قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » !

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة . فحكاية قولهم : إنها أصنام تنبئ بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون لها ، ويدأبون على عبادتها . وهذه نهاية السخف . ولكن العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ماتنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم !

ويأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يوقظ قلوبهم الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير :

« قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ » . .

فأقل مايتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ! وهذه الأصنام لاتسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر . فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضر ؟ لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه !

ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لايشكون في أن إبراهيم إنما يتهكم ويستنكر ؛ وهم لايملكون حجة لدفع مايقول . فإذاتكلموا كشفوا عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلاوعي ولا تفكير :

« قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » . .

Marfat.com

إن هـذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع . ولـكنا وجدنا آباءنا يعكفون عليها ، فعكفنا عليها وعبدناها !

وهو جواب مخجل . ولـكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه ، كما لم يخجل المشركون فى مكة أن يفعلوه . فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلا باعتباره دون بحث ؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم ، فيخلوا باعتبار أولئك الآباء ، ويقروا أنهم كانوا على ضلال . وهذا مالا يجوز فى حق الذاهبين ! وهكذا تقوم مثل هـذه الاعتبارات الجوفاء فى وجه الحق ، فيؤثرونها على الحق ، فى فترات التحجر العقلى والنفسى والانحراف التى تصيب الناس ، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير .

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم ـ على حلمه وأناته ـ إلا أن يهزهم بعنف ، ويعلن عداوته للأصنام ، وللعقيدة الفاسدة التى تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات !

« قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » ..

وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، هم وآباؤهم ـ وهم آباؤه ـ الأقدمون !

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة فى العقيدة لوالد ولا لقوم ؛ وأن الرابطة الأولى هى رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هى قيمة الإيمان. وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون .

واستثنى إبراهيم « رب العالمين » من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون : « فإنهم عدو لى إلا رب العالمين » . . فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف ؛ وقد يكون من عبد الله ولـكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن فى القول ، والدقة الواعية فى التعبير ، الجديران بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق .

ثم يأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى صفة ربه . رب العالمين . وصلته به فى كل حال وفى كل حين . فنحس القربى الوثيقة ، والصلة الندية ، والشعور بيد الله فى كل حركة ونأمة ، وفى كل حاجة وغاية .

Marfat.com

« الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . .

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله فى تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه فى ثقة ، ويتوجه إليه فى حب ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . والنغمة الرخية فى حكاية قوله فى القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرخى اللين المديد . .

« الذى خلقنى فهو يهدين » . . الذى أنشأنى من حيث يعلم ولا أعلم ؛ فهو أعلم بما هيئ وتكوينى ، ووظائفى ومشاعرى ، وحالى ومآلى : « فهو يهدين » إليه ، وإلى طريقى الذى أسلكه ، وإلى نهجى الذى أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم - عليه السلام - أنه عجينة طيعة فى يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أى صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق فى طمأنينة وراحة وثقة ويقين .

« والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين » . . فهى الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم فى الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه - وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح - إنما يذكر ربه فى مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . . ويشفيه . . ولا يذكره فى مقام الابتلاء حين يبتليه .

« والذى يميتنى ثم يحيين » .. فهو الإيمان بأن الله هو الذى يقضى الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور فى استسلام ورضى عميق .

« والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . . فأقصى مايطمع فيه إبراهيم - عليه السلام - النبي الرسول ، الذى يعرف ربه هذه المعرفة ، ويشعر بربه هذا الشعور ، ويحس فى قرارة نفسه هذه القربى .. أقصى مايطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرىء نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع فى فضل ربه ، ويرجو فى رحمته ، وهذا وحده هو الذى يطمعه فى العفو والمغفرة .

إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج ؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهى عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل .

Marfat.com

وهكذا يجمع إبراهيم فى صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر فى أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد . وهى العناصر التى ينكرها قومه ، وينكرها المشركون .

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب فى دعاء رخى مديد ، يتوجه به إلى ربه فى إيمان وخشوع : « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » . .

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض ؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى ؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذى عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه . والذى ذاق فهو يطلب المزيد ؛ والذى يرجو ويخاف فى حدود ما ذاق وما يريد .

« رب هب لى حكما » . . أعطنى الحكمة التى أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة ، فأبقى على الدرب يصلنى بما هو أبقى .

« وألحقنى بالصالحين » . . يقولها إبراهيم النبى الكريم الأواه الحليم . فيا للتواضع ! ويا للتحرج ! ويا للإشفاق من التقصير ! ويا للخوف من تقلب القلوب ! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين ! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذى يلحقه بالصالحين !

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » .. دعوة تدفعه إليها الرغبة فى الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة ؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيرا لسان صدق يدعوهم إلى الحق ، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم . ولعلها هى دعوته فى موضع آخر . إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول : « ربنا واجعلنا مسلمين لك . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم(١) » .. وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق فى الآخرين ، وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين . هى فى عرف الناس أمد طويل ، وهى عند الله أجل معلوم ، تقتضى حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

(١) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة البقرة .

Marfat.com

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .. وقد دعا ربه ـ من قبل ـ أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح ، الذي يسلكه في صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون .

« واغفر لأبي إنه كان من الضالين » .. ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

« ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .. ونستشف من قولة إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « ولا تخزني يوم يبعثون » مدى شعوره بهول اليوم الآخر ؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره . وهو النبي الكريم . كما نستشف من قوله : « يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض . وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزنا « يوم لا ينفع مال ولا بنون » ؛ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض ؛ وهي لا تزن شيئا في الميزان الأخير !

وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم ؛ فكأنما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب :

« وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا

Marfat.com

إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! » .

لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين . ولقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقريع والتأنيب ، قبل أن يكبكبوا فى الجحيم .. إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله ـ وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وماكان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون ـ إنهم ليسألون اليوم : « أين ماكنتم تعبدون من دون الله ؟ » أين هم « هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ » ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون » .. كبكبوا .. وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوون . هم « وجنود إبليس أجمعون » . والجميع جنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

ثم نستمع إليهم فى الجحيم .. إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام : «تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين » فنعبدكم عبادته . إما معه وإما من دونه. الآن يقولونها بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع .. وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح مافاتنا فيها ؟ « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » ! وما هو إلا التمنى . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين !

ثم يجىء التعقيب المعهود : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

وهو نفس التعقيب الذى جاء فى السورة بعد عرض مصارع عاد وثمود وقوم لوط : كما جاء تعقيبا على كل آية من آيات الله وقعت للمكذبين . فهذا المشهد من مشاهد القيامة عوض فى سياق السورة عن مصارع المكذبين فى الدنيا . إذ يصور نهاية قوم إبراهيم . ونهاية الشرك

Marfat.com

كافة . وهو موضع العبرة فى قصص السورة جميعا . ومشاهد القيامة فى القرآن تعرض كأنها واقعة، وكأنما تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر ، وتهتز بها الوجدانات . كالمصارع التى تمت على أعين الناس وهم يشهدون .

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ؟ * قَالَ : وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ .

« قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ، وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » ﴿١٢٢﴾

كما رجع السياق القهقرى فى التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم ، كذلك يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخى ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ، كقصة موسى وقصة إبراهيم ، تعرض فى سور شتى من القرآن . وقد عرضت من قبل فى سورة « الأعراف » فى الخط التاريخى للرسل والرسالات بعد هبوط آدم من الجنة

Marfat.com

عرضا مختصرا ، يتلخص فى دعوته قومه إلى التوحيد ، وإنذارهم عذاب يوم عظيم ، واتهام قومه له بالضلال ، وعجبهم من أن يبعث الله إليهم رجلا منهم ، وتكذيبهم له . ومن ثم إغراقهم ونجاته هو ومن معه بدون تفصيل .

وعرضت فى سورة يونس باختصار كذلك فى نهاية رسالته ، إذ تحدى قومه فكذبوه . ثم كانت نجاته ومن معه فى الفلك ، وإغراق الآخرين .

وعرضت فى سورة « هود » بتفصيل فى قصة الطوفان والفلك وما بعد الطوفان كذلك من دعائه لربه فى أمر ابنه الذى أغرق مع المغرقين . وما كان بينه وبين قومه قبل ذلك من جدال حول عقيدة التوحيد .

وعرضت فى سورة « المؤمنون » فذكر منها دعوته لقومه إلى عبادة الله الواحد ، واعتراضهم عليه بأنه بشر منهم يريد أن يتفضل عليهم ؛ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، واتهامه بالجنون . ثم توجهه إلى ربه يطلب نصرته . وإشارة سريعة إلى الفلك والطوفان .

وهى تعرض فى الغالب فى سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين ــ وكذلك هى فى هذه السورة ــ وأظهر مافى الحلقة المعروضة هنا دعوته لقومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجرا على الهدى ، وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء ــ وهذا ما كان يواجهه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مكة سواء بسواء ــ ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه . واستجابة الله له بإغراق المكذبين وتنجية المؤمنين .

* * *

« كذبت قوم نوح المرسلين » . .

تلك هى النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية . ثم يأخذ فى التفصيل .

وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحا . ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين . فالرسالة فى أصلها واحدة ، وهى دعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له . فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين ، فهذه دعوتهم أجمعين . والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره فى مواضع كثيرة، بصيغ متعددة ، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية ، تختص بها الدعوات جميعا ؛ وتقسم بها البشرية كلها إلى صفين : صف المؤمنين وصف الكافرين ، على مدار الرسالات ومدار القرون . وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هى أمته ، منذ

Marfat.com

فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير . وإذا الصف الآخر هم الكفار فى كل ملة وفى كل دين . وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعا ، ويحترم الرسل جميعا ، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هى رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم فى تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان . إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل . وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل . فى كل زمان وفى كل مكان . وهكذا يتوحد الميزان فى يد المسلم على مدار التاريخ كله ؛ وترتفع القيم فى شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن ، والقرابات الحاضرة أو الموغلة فى بطن التاريخ. ترتفع فتصبح قيمة واحدة . هى قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع ، ويقوّم بها الجميع .

« كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين. فاتقوا الله وأطيعون » .

هذه هى دعوة نوح التى كذبه فيها قومه ــ وهو أخوهم ــ وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق . ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة ، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم : « ألا تتقون ؟ » وتخافون عاقبة ما أنتم فيه ؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته ؟

وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد فى هذه السورة . فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم . وهكذا قال نوح لقومه . وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح :

« إنى لكم رسول أمين» .. لا يخون ولا يخدع ولا يغش ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه من التبليغ .

« فاتقوا الله وأطيعون » . . وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله ، ويحددها فى هذه المرة ، وينسبها إلى الله تعالى ، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم .

ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها ، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله ، وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه ، فهو يطلب أجره من رب الناس الذى كلفه دعوة الناس . وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضروريا للدعوة الصحيحة ، تميزا لها مما

Marfat.com

عهده الناس فى الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد . وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائما مصدر ابتزاز للأموال بشق الأساليب . فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائما متجردين ، لا يطلبون أجراً على الهدى . فأجرهم على رب العالمين .

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال : « فاتقوا الله وأطيعون » .. ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب . وهو اعتراض مكرور فى البشرية مع كل رسول :

« قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ »..

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء . وهم السابقون إلى الرسل والرسالات ، وإلى الإيمان والاستسلام . لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة ، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة . ومن ثم فهم الملبون السابقون . فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم ، وتقعد بهم مصالحهم ، القائمة على الأوضاع الزيفة ، المستمدة من الأوهام والأساطير ، التى تلبس ثوب الدين . ثم هم فى النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة . قيمة الإيمان والعمل الصالح . قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين . بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ومن ثم يجيبهم نوح الجواب الذى يقرر القيم الثابتة ؛ ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على مايعملون .

« قال : وما علمى بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين » .

والكبراء يقولون دائما عن الفقراء : إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضى العلية ، ولا تطاق فى أوساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف ! فنوح يقول لهم : إنه لا يطلب إلى الناس شيئاً سوى الإيمان . وقد آمنوا . فأما عملهم قبله فموكول إلى الله ، وهو الذى يزنه ويقدره . ويجزيهم على الحسنات والسيئات . وتقدير الله هو الصحيح « وما تشعرون » بالقيم الحقة التى ترجح فى ميزان الله . وما وظيفتى إلا الإنذار والإفصاح : « إن أنا إلا نذير مبين » .

فلما أن واجههم نوح — عليه السلام — بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم ؛ وعجزوا عن اللغو

Marfat.com

فى الجدل بالحجة والبرهان ، لجأوا إلى مايلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان . لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التى يعتمد عليها الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان :

« قالوا : لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين » . .

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة ، وعرف نوح أن القلوب الجاسية لن تلين .

هنا توجه نوح إلى الولى الوحيد ، والناصر الفريد ، الذى لا ملجأ سواه للمؤمنين :

« قال : رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ، ونجنى ومن معى من المؤمنين » .

وربه يعلم أن قومه كذبوه . ولكنه البث والشكوى إلى الناصر المعين ، وطلب النصفة ، ورد الأمر إلى صاحب الأمر : « فافتح بينى وبينهم فتحا » يضع الحد الأخير للبغى والتكذيب : « ونجنى ومن معى من المؤمنين » . .

واستجاب الله لنبيه الذى يتهدده الطغيان بالرجم ، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله ، وطاعة رسوله ، لا يطالب على ذلك أجراً ، ولا يبتغى جاها ولا مالا :

« فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين » . .

هكذا فى إجمال سريع . يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان فى فجر البشرية . ويقرر مصير كل معركة تالية فى تاريخ البشرية الطويل .

ثم يجىء التعقيب المكرور فى السورة عقب كل آية من آيات الله العزيز الرحيم :

« إن فى ذلك لآية . وما أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

« كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؟ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ؟ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ؟ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ

Marfat.com

بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« قَالُوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ⑭⓪

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن . وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذى طهر وجه الأرض من العصاة .

وقد وردت هذه القصة فى الأعراف مفصلة وفى هود ، كما وردت فى سورة « المؤمنون » بدون ذكر اسم هود وعاد . وهى تعرض هنا مختصرة بين طرفيها : طرف دعوة هود لقومه ، وطرف العاقبة التى انتهى إليها المكذبون منهم . وتبدأ كما بدأت قصة قوم نوح :

« كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين » . .

فهى الكلمة الواحدة يقولها كل رسول : دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله . وإعلان للزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة ، وترفع عن قيم الأرض الزائلة ، وتطلع إلى ماعند الله من أجر كريم .

ثم يزيد ماهو خاص بحال القوم وتصرفاتهم ، فينكر عليهم الترف فى البنيان لمجرد التباهى بالمقدرة ، والإعلان عن الثراء ، والتكاثر والاستطالة فى البناء ؛ كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا ، وما يسخرونه فيها من القوى ، وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ » . .

Marfat.com

والريع المرتفع من الأرض . والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة . ومن ثم سماه عبثا . ولو كان لهداية المارة ، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: « تعبثون » .. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع ، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

ويبدو كذلك من قوله : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » أن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يذكر ؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشييد العلامات على المرتفعات ؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء .

ويمضي هود في استنكار ما عليه قومه :

« وإذا بطشتم بطشتم جبارين » . .

فهم عتاة غلاظ ، يتجبرون حين يبطشون ؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش . شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون .

وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله ، لينهنه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة :

« فاتقوا الله وأطيعون » .

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون . وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا ، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم ، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم !

« واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولا : « أمدكم بما تعلمون » . وهو حاضر بين أيديهم ، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه ، ثم يفصل بعض التفصيل : « أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون » وهي النعم المعهودة في ذلك العهد ؛ وهي نعمة في كل عهد . . ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم . في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب . فهو أخوهم ، وهو واحد منهم ، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه .

ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف ، لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة. فإذا الإصرار والعناد والاستهتار .

Marfat.com

« قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » !

فما يعنينا أن تعظ أو ألا تكون أصلا من الواعظين ! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة . يتبعه مايشى بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد !

« إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين » . .

فحجتهم فيما هم عليه ، وفيما يستنكره عليهم هود ، أنه خلق الأولين ونهجهم . وهم يسيرون على نهج الأولين ! ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين ! « وما نحن بمعذبين » !

ولا يستطرد السياق هنا فى تفصيل ماثار بينهم وبين رسولهم من جدل ؛ فيمضى قدما إلى النهاية :

« فكذبوه فأهلكناهم » . .

وفى كلمتين اثنتين ينتهى الأمر ؛ ويطوى قوم عاد الجبارون ؛ وتطوى مصانعهم التى يتخذون ؛ ويطوى ما كانوا فيه من نعيم ، من أنعام وبنين وجنات وعيون !

وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن الله كلما تقدمت فى الحضارة ؛ وتحسب أن الإنسان قد أصبح فى غنية عن الله ! وهى تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ماتحسبه واقياً لها من أعدائها . . ثم تصبح وتمسى فإذا العذاب يصب عليها من فوقها ومن تحتها . عن أى طريق .

« إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . .

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑭١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ : أَلَا تَتَّقُونَ؟ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ؟ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

« قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ .

Marfat.com

« قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ١٥٩

إنها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول . ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهرا ومنهجا ، في أصلها الواحد الذي تقوم عليه ، وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول الآتي من عند الله .

ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة ، وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة — (وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبي — صلى الله عليه وسلم — بدورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك) — ويخوفهم سلب هذه النعمة ، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه :

« أتتركون فيما هاهنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ؟ » .

وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ؛ ولا يتدبرون منشأه ومأتاه ، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم . فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ، ويخافوا زواله .

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية ، وتنبه فيها الحرص والخوف : « أتتركون فيما هاهنا آمنين ؟ » أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة . . وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت ، ولا يزعجكم سلب ، ولا يفزعكم تغيير ؟

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون ، وزروع متنوعات ، ونخل جيدة الطلع ، سهلة

Marfat.com

الهضم حتى كأن جناها مهضوم لايحتاج إلى جهد فى البطون ! وتتركون فى البيوت تنحتونها فى الصخور بمهارة وبراعة ، وفى أناقة وفراهة ؟

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى،وإلى الطاعة ، وإلى مخالفة الملأ الجائرين البعيدين عن الحق والقصد ، المائلين إلى الفساد والشر .

« فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . .

ولكن هذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية ، فلا تصغى لها ولا تلين :

« قالوا : إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » . .

إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون ! كأنما الدعوة إلى الله لايدعوها إلا مجنون !

« ما أنت إلا بشر مثلنا » . . وتلك هى الشبهة التى ظلت تخايل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيباً دائما ؛ وما كانت تدرك حكمة الله فى أن يكون الرسول بشرا ، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشرى باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور .

وكانت البشرية تتصور الرسول خلقا آخر غير البشر . أو هكذا ينبغى أن يكون ؛ ما دام يأتى إليها بخبر السماء ، وخبر الغيب ، وخبر العالم المحجوب عن البشر . . ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذى كرمه الله به ، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم . يأكل وينام ويتزوج ويمشى فى الأسواق . ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع ، وهو متصل بذلك السر العظيم .

وكانت البشرية جيلا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقا مرسل من الله : «فأت بآية إن كنت من الصادقين » .. وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة ، فاستجاب الله لعبده صالح ، وأعطاه هذه الخارقة فى صورة ناقة ؛ لا نخوض فى وصفها كما خاض المفسرون القدامى ، لأنه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه فى هذا الوصف . فنكتفى بأنها كانت خارقة كما طلبت ثمود .

Marfat.com

« قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » ..

لقد جاءهم بالناقة ، على شرط أن يكون الماء الذى يستقون منه يوما للناقة ويوما لهم ، لا يجورون عليها فى يومها ، ولا تجور عليهم فى يومهم ، ولا يختلط شرابها بشرابهم ، كما لا يختلط يومها بيومهم . ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين ؟ إنها لم تسكب الإيمان فى القلوب الجافة ؛ ولم تطلع النور فى الأرواح المظلمة . على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها . وإنهم لم يحفظوا عهدهم، ولم يوفوا بشرطهم :

« فعقروها فأصبحوا نادمين » .

والعقر : النحر . والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . ولقد حذرهم منهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير . ومن ثم كتبت خطيئتها على الجميع ، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم .

ولقد ندم القوم على الفعلة ، ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير :

« فأخذهم العذاب » .. ولا يفصل نوعه هنا للمسارعة والتعجيل !

ثم يجيء التعقيب : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ؟ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ : إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ .

Marfat.com

« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (١٧٥)

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي ليس ملحوظا في هذه السورة ـ كما أسلفنا ـ إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج ، وعاقبة التكذيب : من نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين .

ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ؛ ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى ، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة ، ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ :

« أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون » .

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور ، وترك النساء . وهو انحراف في الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ؛ وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكوني العام ، الذي يجعل كل من في الكون وكل ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمي إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ، لخروجهم من ركب الحياة ، ومن موكب الفطرة ، ولتعريهم من حكمة وجودهم ، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد .

Marfat.com

فلما دعاهم لوط إلى ترك هـذا الشذوذ ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها .. تبين أنهم مستعدين للعودة إلى ركب الحياة ، وإلى سنة الفطرة :

« قالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين » .

وقد كان فيهم غريبا . وفد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه ، وترك وطنه وأرضه ، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه . ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم ، ليردهم عما هم فيه ، فإذا بهم يهددونه بالإخراج من بينهم ، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم !

عندئذ لم يبق إلا أن يعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ ، في تقزز واستبشاع :

« قال : إني لعملكم من القالين » . .

والقلى : الكره البالغ . يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز . ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله :

« رب نجني وأهلي مما يعملون » . .

وهو لا يعمل عملهم ؛ ولكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مردٍ مهلك . وهو فيهم. فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير .

واستجاب الله دعوة نبيه :

« فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين » . .

هذه العجوز هي امرأته ـ كما يذكر في سور أخرى ـ وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة ، وتعينهم عليها !

« ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا ، فساء مطر المنذرين » . .

قيل خسفت قراهم وغطاها الماء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت في الأردن .

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان . وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين .

Marfat.com

وعلى أية حال فقد قص القرآن نبأ قرى لوط - على هذا النحو - وقوله الفصل فى الموضوع.
ثم يعقب على مصرعهم بالتعقيب المكرور :
« إن فى ذلك لآية : وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

« كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ؟ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ .

« قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » (١٩١)

وهذه قصة شعيب - ومكانها التاريخى قبل قصة موسى - تجىء هنا فى مساق العبرة كبقية القصص فى هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم - غالبا - أهل مدين . والأيكة الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيضة الوريفة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم :

Marfat.com

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

وقد كان شأنهم ـ كما ذكر فى سورتى الأعراف وهود ـ أن يطففوا فى الميزان والمكيال ، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط فى هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضى عن الحق والعدل فى معاملات الناس .

ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى فى نفوسهم ، وهو يذكرهم بخالقهم الواحـــد . خالق الأجيال كلها والسابقين جميعا :

« واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين » .

فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور ، فهو يخلط ويهذى بما يقول :

« قالوا : إنما أنت من المسحرين » . .

وإلا أن يستنكروا رسالته . فهو بشر مثلهم ، وما هكذا ـ فى زعمهم ـ يكون الرسول . ويرمونه بالكذب فيما يقول :

« وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين » .

وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقا فيما يدعيه ؛ وأن يسقط عليهم رجوما من السماء ، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعا :

« فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

وهو تحدى المستهتر الهازىء المستهين ! وهو شبيه بتحدى المشركين للرسول الكريم . .

« قال : ربى أعلم بما تعملون » . .

ويعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل .

« فكذبوه . فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم » .

قيل : أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور . ثم تراءت لهم سحابة ، فاستظلوا بها ؛ فوجدوا لها بردا ، ثم إذا هى الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميرا . وكان ذلك « يوم الظلة » فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم !

Marfat.com

ثم يجيء التعقيب المكرور :

« إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ويختم القصص فى السورة ليجىء على إثره التعقيب الأخير . .

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ؟

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ .

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ .

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ .

« فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ

Marfat.com

السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ؟ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ﴿٢٢٧﴾

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكذيب والإعراض . وقصة التحدى والعقاب .

وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومشركى قريش : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » . . ثم سيق القصص ، وكله نماذج للقوم يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون !

فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذى تضمنته المقدمة ؛ فجاء هذا التعقيب الأخير ، يتحدث عن القرآن ، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين — ومنه هذا القصص الذى مضت به القرون ، فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين — ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن ، لأنه مذكور فى كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ؛ ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لايتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد — صلى الله عليه وسلم — كما تتنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا والشعراء يهيمون فى كل واد وفى الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين ، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . .

* * *

Marfat.com

« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » . .

والروح الأمين جبريل - عليه السلام - نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أمين على مانزل به ، حفيظ عليه . نزل به على قلبه فتلقاه تلقيا مباشرا ، ووعاه وعيا مباشرا . نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين . هو لسان قومه الذي يدعوهم به ، ويتلو عليهم القرآن . وهم يعرفون مدى مايملك البشر أن يقولوا ؛ ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وإن كان بلغتهم ؛ وأنه بنظمه ، وبمعانيه ، وبمنهجه ، وبتناسقه . يشي بأنه آت من مصدر غير بشري يقين .

وينتقل من هذا الدليل الذاتي إلى دليل آخر خارجي :

« وإنه لفي زبر الأولين . أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » . .

فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين . ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلهم ؛ ويحدث بعضهم بعضا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي ، ولسان عبد الله بن سلام - رضي الله عنهما - والأخبار في هذا ثابتة كذلك يقين .

إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد ، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ؛ فلو جاءهم به أعجمي لاينطق العربية فتلاه عليهم قرآنا عربيا ما آمنوا به ، ولا صدقوه ، ولا اعترفوا أنه موحى به إليه ، حتى مع هذا الدليل الذي يجبه المكابرين :

« ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » . .

وفي هذا تسرية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتصوير لعنادهم ومكابرتهم في كل دليل . ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم . فهكذا قضى الأمر أن يتلقوه بالتكذيب ، كأنه طبع في قلوبهم لا يحول . حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لايشعرون :

« كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون » . .

والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم . فيقول : إنه على هذه الهيئة . هيئة عدم

Marfat.com

الإيمان والتكذيب بالقرآن . على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه . فهو لا يجرى فيها إلا مكذبا به . ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم « حتى يروا العذاب الأليم » . . « فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » . . وقد بقى بعضهم فعلا على هذا الوضع حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم . . وفى هذه اللحظة فقط يفيقون :

« فيقولوا : هل نحن منظرون ؟ » . .

هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى ، نصلح بها ما فات . وهيهات هيهات !

ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله ، على سبيل الاستهزاء والاستهتار ، واغترارا بما هم فيه من متاع ، يبلد حسهم ، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال . شأنهم شأن ذوى النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ؛ وقلما يتصورون أن تحول . فهو يوقظهم هنا من هذه الغفلة ، ويرسم لهم صورتهم حين يحل بهم مايستعجلون :

« أفبعذابنا يستعجلون ؟ أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » . .

فيضع صورة الاستعجال بالعذاب فى جانب . وفى الجانب الآخر تحقق الوعيد . وإذا سنون المتاع ساقطة كأنها لم تكن ، لاتغنى عنهم شيئا ، ولا تخفف من عذابهم .

وفى الحديث الصحيح : « يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يارب [1] » . .

ثم يخوفهم بأن الإنذار مقدمة الهلاك . وأن رحمة الله ألا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولا ، يذكرها بدلائل الإيمان :

« وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين » . .

ولقد أخذ الله على البشر عهد الفطرة أن يوحدوه ويعبدوه . والفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد مالم تفسد وتنحرف [2] . وبث دلائل الإيمان فى الكون ، كلها يوحى بوجود

---

(١) رواه ابن كثير فى التفسير ، وقال : فى الحديث الصحيح .
(٢) يراجع تفسير : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم » جزء ٩ ص ٥٨ .

Marfat.com

الخالق الواحد . فإذا نسى الناس عهد الفطرة ، وأغفلوا دلائل الإيمان ، جاءهم نذير يذكرهم مانسوا ، ويوقظهم إلى ما أغفلوا . فالرسالة ذكرى تذكر الناسين وتوقظ الغافلين . زيادة فى العدل والرحمة « وما كنا ظالمين » فى أخذ القرى بعد ذلك بالعذاب والهلاك . فإنما هو جزاء النكسة عن خط الهدى ومنهج اليقين .

* * *

ثم يبدأ معهم جولة جديدة عن القرآن الكريم :

« وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » . .

لقد قرر فى الجولة الماضية أنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ؛ واستطرد مع تكذيبهم به ، واستعجالهم ما يتوعدهم من عذاب فيه . . وهاهو ذا ينفى دعواهم أنه من وحى الشياطين على طريقة الكهان ، الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب ، وبالسمع الذى يتكهنون فيه بالأخبار .

وما يليق هذا القرآن بالشياطين . وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر .

وما هم بمستطيعين أن يأتوا به . فهم معزولون عن سماع الوحى به من الله . إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين . وليس هذا بميسور للشياطين .

* * *

وهنا يلتفت بالخطاب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحذره من الشرك ــ وهو أبعد من يكون عنه ــ ليكون غيره أولى بالحذر . ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين . ويأمره بالتوكل على الله ، الذى يلحظه دائما ويرعاه :

« فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم » . .

وحين يكون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ متوعدا بالعذاب مع المعذبين ، لو دعا مع الله

Marfat.com

إلها آخر . وهـذا محال ولـكنه فرض للتقريب . فـكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟ ! وليس هنالك محاباة ، والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول ، لو ارتـكب هذا الإثم العظيم !

وبعد إنذار شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلف إنذار أهله . لتكون لمن سواهم عبرة، أن هؤلاء يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . .

روى البخارى ومسلم أنه لما نزلت هـذه الآية أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا فصعد عليه ثم نادى : ياصباحاه ! فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يابنى عبد المطاب . يابنى فهر . يابنى لؤى . أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليـكم صدقتمونى ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لـكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : « تبت يدا أبى لهب وتب ... »

وأخرج مسلم ـ بأسناده ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قلت : لما نزلت : « وأنذر عشيرتك الأقربين » قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يافاطمة ابنة محمد . ياصفية ابنة عبد المطلب . يابنى عبد المطلب . لا أملك لـكم من الله شيئا . سلونى من مالى ماشئتم » .

وأخرج مسلم والترمذى ـ بأسناده عن أبى هريرة ـ قال : لما نزلت هذه الآية . دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشا فعم وخص فقال : يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى والله لا أملك لـكم من الله شيئا . إلا أن لـكم رحما سأبلها ببلالها » ...

فهذه الأحاديث وغيرها تبين كيف تلقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمر ، وكيف أبلغه لعشيرته الأقربين ، ونفض يده من أمرهم ، ووكلهم إلى ربهم فى أمر الآخرة ، وبين لهم أن قرابتهم له لا تنفعهم شيئا إذا لم ينفعهم عملهم ، وأنه لا يملك لهم من الله شيئا ، وهو رسول الله . . وهـذا هو الإسلام فى نصاعته ووضوحه ، ونفى الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسوله الـكريم .

كذلك بين الله لرسوله كيف يعامل المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة الله على يديه :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ..

Marfat.com

فهو اللين والتواضع والرفق فى صورة حسية مجسمة . صورة خفض الجناح ، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط . وكذلك كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع المؤمنين طوال حياته . فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم .

وكذلك بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم ، ويبرأ مما يعملون :

« فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون » ..

وكان هذا فى مكة ، قبل أن يؤمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقتال المشركين .

ثم يتوجه به – صلى الله عليه وسلم – إلى ربه ، يصله به صلة الرعاية الدائمة القريبة :

« وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم » .

دعهم وعصيانهم ، متبرئا من أعمالهم ، وتوجه إلى ربك معتمدا عليه ، مستعينا فى أمرك كله به . ويصفه – سبحانه – بالصفتين المكررتين فى هذه السورة . العزة والرحمة . ثم يشعر قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالأنس والقربى . فربه يراه فى قيامه وحده للصلاة ، ويراه فى صفوف الجماعة الساجدة . يراه فى وحدته و يراه فى جماعة المصلين يتعهدهم وينظمهم ويؤمهم ويتنقل بينهم . يرى حركاته وسكناته ، ويسمع خطراته ودعواته : « إنه هو السميع العليم » ..

وفى التعبير على هذا النحو إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية . وهكذا كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يشعر أنه فى كنف ربه ، وفى جواره وقربه . وفى جو هذا الأنس العلوى كان يعيش ..

* * *

والجولة الأخيرة فى السورة حول القرآن أيضا . فى المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . وفى المرة الثانية نفى أن تتنزل به الشياطين . أما فى هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تتنزل على مثل محمد – صلى الله عليه وسلم – فى أمانته وصدقه وصلاح منهجه ، إنما تتنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل :

Marfat.com

« هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » ..

وكان فى العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم . وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جرى وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ، ولا يأمرون بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم .

ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا : إنه شعر ، ويقولون عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنه شاعر . وهم فى حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذى لا يعرفون له نظيرا ، والذى يدخل إلى قلوب الناس ، ويهز مشاعرهم ، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا .

فجاء القرآن يبين لهم فى هذه السورة أن منهج محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح ، ويدعو إلى غاية محددة ، ويسير فى طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يقول اليوم قولا ينقضه غدا ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ؛ إنما يصر على دعوة ، ويثبت على عقيدة ، ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة . تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد فى لحظة أسود . وفى لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولا ، ويسخطون فيقولون قولا آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال !

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ، ويتخيلون أفعالا ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها . فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم فى خيالهم واقعا آخر يعيشون عليه !

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة ، الذى يريد تحقيقها فى عالم الواقع ودنيا الناس . فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق . وهو يمضى فى طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ؛ لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى تصبح واقعا فى عالم الناس .

فنهج الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومنهج الشعراء مختلفان ، ولا شبهة هناك ، فالأمر واضح صريح :

Marfat.com

« والشعراء يتبعهم الغاوون.ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون.وأنهم يقولون مالا يفعلون؟!».

فهم يتبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى ، الذين لا منهج لهم ولا هدف .

وهم يهيمون فى كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذى يسيطر عليهم فى لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات .

وهم يقولون مالا يفعلون . لأنهم يعيشون فى عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذى لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ، لأنهم عاشوها فى تلك العوالم الموهومة ، وليس لها واقع ولا حقيقة فى دنيا الناس المنظورة !

إن طبيعة الإسلام ـ وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ فى واقع الحياة ، وهو حركة ضخمة فى الضمائر المكنونة وفى أوضاع الحياة الظاهرة ـ إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية ـ فى الغالب ـ لأن الشاعر يخلق حلما فى حسه ويقنع به . فأما الإسلام فيريد تحقيق الحلم ويعمل على تحقيقه ، ويحول المشاعر كلها لتحقق فى عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع.

والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوم . فإذا كانت هذه الحقائق لا تعجبهم ، ولا تتفق مع منهجه الذى يأخذهم به ، دفعهم إلى تغييرها ، وتحقيق المنهج الذى يريد .

ومن ثم لا تبقى فى الطاقة البشرية بقية للأحلام المهومة الطائرة . فالإسلام يستغرق هذه الطاقة فى تحقيق الأحلام الرفيعة ، وفق منهجه الضخم العظيم .

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته ـ كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ . إنما يحارب المنهج الذى سار عليه الشعر والفن . منهج الأهواء والانفعالات التى لا ضابط لها ؛ ومنهج الأحلام المهومة التى تشغل أصحابها عن تحقيقها . فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعرا وفنا ؛ وتعمل فى الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة فى دنيا الواقع ؛ ولا تكتفى بخلق عوالم وهمية تعيش فيها ، وتدع واقع الحياة كما هو مشوها متخلفا قبيحا !

وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام ، فى ضوء الإسلام ، ثم تعبر عن هذا كله شعرا وفنا .

Marfat.com

فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن ، كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ . ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون ، وإلى خفايا النفس البشرية . وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن . وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال .

ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء :

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » . .

فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة ، واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام . وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حسان ابن ثابت ، وكعب ابن مالك وعبد الله ابن رواحة – رضي الله عنهم – من شعراء الأنصار ، ومنهم عبد الله ابن الزبعرى ، وأبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب وقد كانا يهجوان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في جاهليتهما ، فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول الله ونافحا عن الإسلام .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لحسان : « اهجهم – أو قال هاجهم – وجبريل معك » . . وعن عبد الرحمان ابن كعب عن أبيه أنه قال للنبي – صلى الله عليه وسلم – إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » (رواه الإمام أحمد) .

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها . وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ، ليكون شعراً أو فناً يرضاه الإسلام .

وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا دفعا ؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام

Marfat.com

ولا تمجيدا له أو لأيام الإسلام ورجاله . . ليس من الضرورى أن يكون فى هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ، ممزوجة بشعور المسلم الذى يربط هذه المشاهد بالله فى حسه لهى الشعر الإسلامى فى صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله ، أو بهذا الوجود الذى أبدعه الله ، لكفيلة أن تنشىء شعرا يرضاه الإسلام .

ومفرق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها . فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذى يرضاه الإسلام .

* * *

وتختم السورة بهذا التهديد الخفى المجمل :

« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . .

السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب . كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

تنتهى بهذا التهديد المخيف . الذى يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب ؛ يتمثل فى صور شتى ، يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين زلزالا شديدا .

Marfat.com

سورة النمل مكية
وآياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » (٦)

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ؛ وهى تمضى على نسقها فى الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذى تعالجه ؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين فى مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر فى سنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسى ـ كسائر السور المكية ـ هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحى وأن الغيب كله لله ، لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ؛ وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويأتى القصص لتثبيت هذه المعانى ؛ وتصوير عاقبة المكذبين بها ، وعاقبة المؤمنين .

تأتى حلقة من قصة موسى ـ عليه السلام ـ تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار وذهابه إليها ، ونداله من الملأ الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر

Marfat.com

تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . . « فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » . وكذلك شأن المشركين فى مكة كان مع آيات القرآن المبين .

وتليها إشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ثم قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهى نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التى يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان ـ وهو عبد من عباد الله ـ واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذى وهب سليمان ما وهب ، وسخر له ما سخر . وهو الذى يملك كل شىء . وهو الذى يعلم كل شىء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذى لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تآمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله ، وتبييتهم قتله ؛ ثم مكر الله بالقوم ، ونجاة صالح والمؤمنين معه ، وتدمير ثمود مع المتآمرين : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » . . وقد كانت قريش تتآمر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبيت له ، كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه ، بحجة أنهم أناس يتطهرون ! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم ، وتركهم للدمار : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » . . ولقد همت قريش بإخراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتآمرت فى ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل .

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله : « قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ » . . ثم أخذ يطوف معهم فى مشاهد الكون ، وفى أغوار النفس ، يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق ، الذى يعلم الغيب وحده ، وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة ، وما ينتظر المكذبين بالساعة فى ذلك اليوم العظيم .

ويختم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة

Marfat.com

الذي حرمها وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين . وقل : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها ، وماربك بغافل عما تعملون » . .

***

والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . . ومن ثم يجيء في مقدمة السورة : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » . ويجيء في التعقيب « قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادارك علمهم في الآخرة » . . « وإن ربك ليعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » ويجيء في الختام : «سيريكم آياته فتعرفونها» . . ويجيء في قصة سليمان :« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .. وفي قول سليمان : « ياأيها الناس علمنا منطق الطير » . . وفي قول الهدهد : « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ».وعند مايريد سليمان استحضار عرش الملكة ، لايقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن ، إنما يقدر على هذه : « الذي عنده علم من الكتاب » .

وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة تظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل ، حسب تتابعه الذي أسلفنا . فنأخذ في استعراضها تفصيلا .

* * *

« طا . سين » . . الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة والقرآن كله . وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتابا كهذا القرآن ، بعد التحدي والإفحام . .

ويلي ذلك التنبيه ذكر القرآن :

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين »

Marfat.com

والكتاب هو نفسه القرآن . وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ؛ واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذى أرسله إليهم سليمان . وهو عبد من عباد الله .

ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه :

« هدى وبشرى للمؤمنين » . .

وهذه أبلغ مما لو قيل : فيه هدى وبشرى للمؤمنين . فالتعبير القرآنى على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين . والقرآن يمنح المؤمنين هدى فى كل فج ، وهدى فى كل طريق . كما يطلع عليهم بالبشرى فى الحياتين الأولى والآخرة .

وفى تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة . . إن القرآن ليس كتاب علم نظرى أو تطبيق ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب ، أول مايخاطب ؛ ويسكب نوره وعطره فى القلب المفتوح ، الذى يتلقاه بالإيمان واليقين . وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ؛ وأدرك من معانيه وتوجيهاته مالا يدركه منه القلب الصلد الجاف ؛ واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدى إليه الجاحد الصادف . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارىء المطموس !

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة ، وهو غافل أو عجول ، فلا تنض له بشىء ؛ وفجأة يشرق النور فى قلبه ، فتتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال . وتصنع فى حياته صنع المعجزة فى تحويلها من منهج إلى منهج ، ومن طريق إلى طريق .

وكل النظم والشرائع والآداب التى يتضمنها هذا القرآن ، إنما تقوم قبل كل شىء على الإيمان . فالذى لا يؤمن قلبه بالله ، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحى من عند الله وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذى يريده الله . الذى لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدى بالقرآن كما ينبغى ولا يستبشر بما فيه من بشارات .

إن فى القرآن كنوزا ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان . والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فأما حين أصبح القرآن كتابا يترنم المترنمون بآياته ، فتصل إلى الآذان ، ولا تتعداها إلى القلوب . فإنه لم يصنع شيئا ، ولم ينتفع به أحد . . لقد ظل كنزا بلا مفتاح !

Marfat.com

والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى .. إنهم هم :

« الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » ..

يقيمون الصلاة.. فيؤدونها حق أدائها ، يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدى الله ، شاعرة أرواحهم بأنهم فى حضرة ذى الجلال والإكرام ، مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضىء ، مشغولة خواطرهم بنجاء الله ودعائه والتوجه إليه فى محضره العظيم .

ويؤتون الزكاة .. فيطهرون نفوسهم من رذيلة الشح ؛ ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال ؛ ويصلون إخوانهم فى الله ببعض ما رزقهم الله ؛ ويقومون بحق الجماعة المسلمة التى هم فيها أعضاء .

وهم بالآخرة هم يوقنون .. فإذا حساب الآخرة يشغل بالهم ، ويصدهم عن جموح الشهوات، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة .

هؤلاء المؤمنون الذاكرون الله ، القائمون بتكاليفه ، المشفقون من حسابه وعقابه ، الطامعون فى رضائه وثوابه .. هؤلاء هم الذين تتفتح قلوبهم للقرآن ، فإذا هو هدى وبشرى . وإذا هو نور فى أرواحهم ، ودفعة فى دمائهم ، وحركة فى حياتهم . وإذا هو زادهم الذى به يبلغون ؛ وريهم الذى به يشتفون .

وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد فى صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها ، فيسدرون فى غيهم ، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم :

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب ، وهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

والإيمان بالآخرة هو الزمام الذى يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال فى الحياة. والذى لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هى فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهى قصيرة مهما طالت . وما تكاد تتسع لشىء من مطالب النفوس وأمانيها التى لا تنال ! ثم ما الذى يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ، وتحقيق لذاته ورغباته ؟ وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدى الله ؛ ولا يتوقع ثوابا ولا عقابا يوم يقوم الأشهاد ؟

ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزينا للنفس التى لا تؤمن بالآخرة ، تندفع إليه

Marfat.com

بلا معوق من تقوى أو حياء . والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها ، وأن تجده حسنا جميلا ؛ مالم تهتد بآيات الله ورسالاته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفانى . فإذا هى تجد لذتها فى أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام !

والله ـ سبحانه ـ هو الذى خلق النفس البشرية على هذا النحو ؛ وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى ، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها . ومشيئته نافذة ـ وفق سنته التى خلق النفس البشرية عليها ـ فى حالتى الاهتداء والعماء . ومن ثم يقول القرآن عن الذين لايؤمنون بالآخرة : « زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » .. فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة الله فى أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم . . وهذا هو معنى التزيين فى هذا المقام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء : « أولئك الذين لهم سوء العذاب . وهم فى الآخرة هم الأخسرون » . . سواء كان سوء العذاب لهم فى الدنيا أو فى الآخرة ، فالخسارة المطلقة فى الآخرة ، محققة جزاء وفاقا على الاندفاع فى سوء الأعمال .

وتنتهى مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهى الذى يتنزل منه هذا القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ..

ولفظ «تلقى» يلقى ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شىء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم . . وتتجلى حكمته وعلمه فى هـذا القرآن . فى منهجه ، وتكاليفه ، وتوجيهاته ، وطريقته . وفى تنزيله فى إبانه . وفى توالى أجزائه . وتناسق موضوعاته .

ثم يأخذ فى القصص . وهو معرض لحكمة الله وعلمه وتدبيره الخفى اللطيف .

« إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ نَارًا . سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ،

Marfat.com

وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَامُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ . فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . يَامُوسَىٰ لَا تَخَفْ . إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا : هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » (١٤)

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى ــ عليه السلام ــ بعد قوله تعالى فى هذه السورة: « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » .. وكأنما ليقول لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنك لست بدعا فى هذا التلقى . فها هو ذا موسى يتلقى التكليف ، وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعا فى التكذيب . فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله ، ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلوا . « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين !

* * *

« إذ قال موسى لأهله : إنى آنست نارا . سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » .

وقد ذكر هذا الموقف فى سورة طه . وهو فى طريق عودته من أرض مدين إلى مصر ، ومعه زوجه بنت شعيب عليه السلام [1] . وقد ضل طريقه فى ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا

(١) ليس هناك نص مقطوع به على أن شعيبا كان هو الشيخ الكبير الذى خدمه موسى وتزوج إحدى ابنتيه . ولكن هذا هو الأرجح نظرا لورود قصة موسى بعد قصة شعيب فى كل سرد تاريخى للقصتين فى القرآن . مما يوحى بأنهما كانا متعاصرين أو متوالين .

Marfat.com

قوله لآهله : سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . وكان ذلك إلى جانب الطور . وكانت النيران توقد فى البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ؛ فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفء ، أو وجدوا الدليل على الطريق .

« إنى آنست نارا » فقد رآها على بعد ، فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق ، أو أن يقبس منها مايستدفىء به أهله فى قر الليل فى الصحراء .

ومضى موسى — عليه السلام — إلى النار التى آنسها ، ينشد خبرا ، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى :

« فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » ..

إنه النداء الذى يتجاوب به الكون كله ، وتتصل به العوالم والأفلاك ؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذى تتصل فيه السماء بالأرض ؛ وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير ؛ ويرتفع فيه الإنسان الفانى الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله .

« فلما جاءها نودى » .. بهذا البناء للمجهول — وهو معلوم — ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادى العظيم .

« نودى أن بورك من فى النار ومن حولها » ..

فمن ذا كان فى النار ؟ ومن ذا كان حولها ؟ إنها على الأرجح لم تكن نارا من هذه النار التى نوقدها . إنما كانت نارا مصدرها الملأ الأعلى . نارا أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء : « أن بورك من فى النار » إيذانا بفيض من البركة العلوية على من فى النار من الملائكة ومن حولها .. وفيمن حولها موسى .. وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة فى سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلى ذى الجلال عليها ، وإذنه لها بالبركة الكبرى .

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء : « وسبحان الله رب العالمين . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » ..

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين ، وكشف لعبده أن الذى يناديه هو الله العزيز الحكيم .

Marfat.com

وارتفعت البشرية كلها فى شخص موسى - عليه السلام - إلى ذلك الأفق الوضىء الكريم . ووجد موسى الخبر عند النار التى آنسها ، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ؛ ووجد القبس الدافىء . ولكنه كان القبس الذى يهدى إلى الصراط المستقيم .

وكان النداء للاصطفاء ؛ ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة فى الأرض فى ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه :

« وألق عصاك » .. باختصار هنا ، حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذى فى سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هى عبرة النداء والتكليف .

« فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب » ..

فقد ألقى عصاه كما أمر ؛ فإذا هى تدب وتسعى ، وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات « الجان » . وأدركت موسى - عليه السلام - طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التى لم تخطر له ببال ، وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر فى الرجوع ! وهى حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة فى مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال .

ثم نودى موسى بالنداء العلوى المطمئن ؛ وأعلن له عن طبيعة التكليف الذى سيلقاه :

« ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلين » ..

لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون فى حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف .

« إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء . فإنى غفور رحيم » ..

إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسنا بعد سوء ، ويدعوا الظلم إلى العدل ؛ ويدعوا الشرك إلى الإيمان ، ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتى واسعة وغفرانى عظيم .

والآن وقد اطمأن موسى وقر ، يجهزه ربه بالمعجزة الثانية ، قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف :

« وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ..

وكان هذا . وأدخل موسى يده فى فتحة ثوبه - وهى جيبه - فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض ، ولكن عن معجزة . ووعده ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذى شاهد منه اثنتين ؛ وكشف له حينئذ عن وجهته التى من أجلها دعاه وجهزه ورعاه !

Marfat.com

« فى تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

ولم يعدد هنا بقية هذه الآيات التسع ، التى كشف عنها فى سورة الأعراف . وهى سنون الجدب ، ونقص الثمرات، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع، والدم. لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها ، وعلى وضوحها وجحود القوم لها :

« فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا : هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

ويصف هذه الآيات الكثيرة العدد ، الكاشفة عن الحق ، حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة ، فهى تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذا فقد قالوا عنها : إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به ، ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه « ظلما وعلوا » وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذى لا شبهة فيه : « واستيقنتها أنفسهم » . قالوا جحودا ومكابرة ، لأنهم لا يريدون الإيمان ، ولا يطلبون البرهان . استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم .

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ، ويستيقنون أنه الحق ، ولكنهم يجحدونه ، ويجحدون دعوة النبى — صلى الله عليه وسلم — إياهم إلى الله الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على دياناتهم وعقائدهم ، لما وراءها من أوضاع تسندهم ، ومغانم تتوافد عليهم . وهى تقوم على تلك العقائد الباطلة ، التى يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها ، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم ، وترتج فى ضمائرهم . ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهى المريب !

وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه . بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم ، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم ، أو الخطر على أوضاعهم ، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم . فيقفون فى وجهه مكابرين ، وهو واضح مبين .

« فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

وعاقبة فرعون وقومه معروفة ، كشف عنها القرآن فى مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة ، لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه ، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين .

Marfat.com

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ .

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ،فَقَالَ: أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ،وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ : سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ .

« قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا : نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

Marfat.com

أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون* وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .

« فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ! فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

« قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين* قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم * قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ؟

« فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين .

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين .

« قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها . قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(١)

ترد هذه الإشارة إلى داود ، وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى ـ عليهم السلام ـ وهم من أنبياء بني إسرائيل ، في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ؛

Marfat.com

ويجىء فيها : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

وقصة سليمان ـ عليه السلام ـ فى هذه السورة مبسوطة بتوسع أكثر منها فى أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهد لها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شىء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإنس والطير ، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب ، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله ، وإدراكه أن النعمة ابتلاء ، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح فى هذا الابتلاء .

ومناسبة ورود هذا القصص إجمالا فى هذه السورة ماسبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن ، وتقرير أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات فى تاريخ بنى إسرائيل .

أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو فى عدة مواضع منها ومن السورة :

التركيز فى جو السورة وظلالها على العلم ـ كما أسلفنا فى أوائلها ـ والإشارة الأولى فى قصة داود وسليمان هى : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطق الطير : « وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير » . وعذر الهدهد عن غيبته فى ثنايا القصة يبدأ بقوله : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » . والذى عنده « علم » من الكتاب هو الذى يأتى بعرش الملكة فى غمضة عين . . .

وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالتكذيب . وفى القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ ، فما تلبث طويلا حتى تأتى هى وقومها مسلمين . لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذى سخر لسليمان ماسخر ، وهو القاهر فوق عباده . وهو رب العرش العظيم .

وفى السورة استعراض لنعم الله على العباد ، وآياته فى الكون ، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه . وفى القصة نموذج للعبد الشاكر ، الذى يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه ؛ المتدبر لآيات الله الذى لايغفل عنها ، ولاتبطره النعمة ، ولاتطغيه القوة . . فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها .

Marfat.com

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة فى القرآن ، ولطريقة الأداء الفنى كذلك . فهى قصة حافلة بالحركة ، وبالمشاعر ، وبالمشاهد ، وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

فلنأخذ فى عرضها بالتفصيل :

***

« ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

هذه هى إشارة البدء فى القصة . وإعلان الافتتاح . . خبر تقريرى عن أبرز النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم فى سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، و حرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان فنى هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ؛ بالإضافة إلى ما ذكر فى سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد الله الذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . والإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له إياه . وهو بعض منه وعطاياه !

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه . لا يثمر سعادة

Marfat.com

لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله ...

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » . و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددها بالتحطيم والدمار والفناء (١) ؟

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بنعمة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

« وورث سليمان داود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين » . .

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . إنما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !

« وورث سليمان داود » والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس : « قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من

---

(١) قال البروفسور « م . ى . أولى فنيت » الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية . بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار . وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط . وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » .

وقد صحت نبوءته وأنتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس إليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يتراوح عددهم بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومئتى ألف . وهذا غير المشوهين والمحروقين الذين ماتوا بعد ذلك . وهم يعدون بعشرات الألوف ! ! !

Marfat.com

كل شيء » . . فيظهر ماعلمه من منطق الطير ويجمل بقية النم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم .

« يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » . . يذيعها سليمان ـ عليه السلام ـ فى الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لامباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليها « إن هذا لهو الفضل المبين » فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لايؤتى أحدا من كل شيء ـ بهذا التعميم ـ إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم ـ هى لغاتها ومنطقها ـ فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان ـ عليه السلام ـ فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم . .

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان ـ عليه السلام ـ فى هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل ! وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع . وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من

Marfat.com

الإنس سواء بسواء . والطائفة التى سخرها له من الطير وهبها إدرا كا خاصا أعلى من إدراك نظائرها فى أمة الطير .

يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز..

حقيقة إن سنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ؛ و إن خلقة الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام . وإنها خاضعة ـ كحلقة مفردة ـ للناموس العام ، الذى يقتضى وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة إن الهدهد الذى يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقى إلى نوع آخر .. وإن هذا ـ كما يبدو ـ طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذى لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر . ويكمل ناموس الله فى الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » ..

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور . يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » (الكلام عن إبليس أو الشيطان

Marfat.com

وإبليس من الجن) وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية ـ ولا ندرى كيف ـ وأن منهم طائفة آمنت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخبارا : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا .. » ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له في البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان ـ إذ أن ملكه لم يتجاوز مايعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات ـ فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. «إن إبليس كان من الجن » .. وقال في سورة «الناس » : « الذى يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس» وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان . وماكانوا ليزاولوا هـذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد . ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة في موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، مااستطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد ؛ على بلايين الطير . ولما قال : مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على على هـذا ماظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولا بد أن هـذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان . لا لجميع الهداهد وجميع الطيور فإن نوع الإدراك الذى ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

Marfat.com

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير . يجمع أوله على آخره « فهم يوزعون » حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

« حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ..

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى ـ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا عن اتباع مثله ، على ماأوتوا من عقل راق وإدراك عال ـ قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل : ادخلوا مساكنكم ـ كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ماقالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ماقالت ، وبمضمون ماقالت. هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه. وانشرح صدره لإدراكه . فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا « فتبسم ضاحكا من قولها » .. وسرعان ماهزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة ؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ؛ واتجه إلى ربه فى إنابة يتوسل إليه :

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . .

« رب » . . بهذا النداء القريب المباشر المتصل . . « أوزعنى » اجمعنى كلى . اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى

Marfat.com

وتوجهاتى . اجمعنى كلى . اجمع طاقاتى كلها . أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لـكلمة أوزعنى) لتـكون كلها فى شكر نعمتك علىّ وعلى والدى ..

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان ـ عليه السلام ـ فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياع وابتهال .

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . . « وأن أعمل صالحا ترضاه » . . فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

« وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . .

أدخلنى برحمتك ... فهو يعلم أن الدخول فى عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله ـ حتى بعد أن اصطفاه . خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره .. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوف إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النمـلة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبى ، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية فى مقالة النملة . فقد تدرك النمـلة أن هؤلاء خلق أكبر ؛ وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النمـلة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده ، فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف . وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحال .

***

Marfat.com

والآن نأتى إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ؛ وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية لوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوى دورا لكل من الجن والإنس والطير . ويبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة . . وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة : شخصية سليمان ، وشخصية الملكة ، وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها .

* * *

يبدأ المشهد الأول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

« وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين » . .

فهاهو ذا الملك النبى . سليمان . فى موكبه الفخم الضخم . هاهو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض . وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفقة مرنة جامعة : « مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ » .

Marfat.com

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لاتكون فوضى .فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندى الغائب المخالف : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه » .. ولكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الأرض ،إنما هو نبى . وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى أن يقضى فى شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره . . ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : « أو ليأتينى بسلطان مبين » . أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة(أولعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد. ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجأة ضخمةلسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

« فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء،ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ،فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » ..

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له : « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .. فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : « أحطت بما لم تحط به » ؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ ـ ومملكة سبأ هى فى جنوب الجزيرة باليمن ـ فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، « أوتيت من كل شيء » وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع . « ولها عرش عظيم » . أى سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة. وذكر أنه وجد الملكة وقومها « يسجدون للشمس من دون الله » وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير « الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض » . والخبء : المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهى كناية

Marfat.com

عن كل مخبوء وراء ستار الغيب فى الكون العريض . « ويعلم ماتخفون وما تعلنون » وهى مقابلة للخبء فىالسماوات والأرض بالخبء فى أطواء النفس . ماظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذى لم يقض الملك فى أمره بعد ؛ فهو يلمح فى ختامالنبأ الذى يقصه، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس إليه عروش البشر. ذلك كى يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمامهذه العظمة الإلهية :

« الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » . .

فيلمس قلب سليمان — فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها — بهذه الإشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب .. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه ؛ ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به . إنما يأخذ فى تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبى العادل والملك الحازم :

« قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون » .

ولا يعلن فى هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك . وتعرض المفاجأة الفنية فى موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب ، وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

« قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » . .

فهى تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذى جاء به — كما تقول التفاسير — لأعلنت

Marfat.com

هذه العجيبة التى لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها ولا من ألقاه .

وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التى أعلنت عنها للملأ : « إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » . . وهى كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا فى هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التى يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحى إليها بهذا الوصف الذى أعلنته .

وفحوى الكتاب فى غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد : ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ؛ ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع فى الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

« قالت : يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » . .

وفى هذا تبدو سمة الملكة الأريبة ؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذى ألقى إليها من حيث لا تعلم ، والذى يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأى بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأى :

« قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » .

وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التى تكره الحروب والتدمير ، والتى تنضى سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

« قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » !

فهى تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة

Marfat.com

أشاعوا فيها الفساد ، وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه .

والهـدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدي . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذي لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

« فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ..

وفي الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : « أتمدونن بمال ؟ » أتقدمون لي هـذا العرض التافه الرخيص ؟ « فما آتاني الله خير مما آتاكم » لقد آتاني من المال خيرا مما لديكم . ولقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق : العلم والنبوة . وتسخير الجن والطـير ، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني « بل أنتم بهديتكم تفرحون » . وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعنى أهل الأرض ، الذين لايتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه !

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : « ارجع إليهم » بالهدية وانتظروا المصير المرهوب : « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بهـا » جنود لم تسخر للبشر في أي مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نضال : « ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هـذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لايشير إليهم بكلمة كأنما قضي الأمر ، وانتهى الكلام في هذا الشأن .

ثم إذا سليمان ـ عليه السلام ـ يدرك أن هذا الرد سينهي الأمر مع ملكة لاتريد العداء ـ كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية ! ـ ويرجح أنها ستجيب دعوته . أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لايذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت

Marfat.com

بعدها . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة ، وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده فى استحضار عرشها ، الذى خلفته فى بلادها محروسا مصونا :

« قال : يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . .

ترى ما الذى قصد إليه سليمان — عليه السلام — من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها — فيما يبدو — فإذا « الذى عنده علم من الكتاب » يعرض أن يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر فى حياتهم المادية . وهذا أقصى ما يقال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : « عنده علم من الكتاب » فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع . فكم فى هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ماعنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التى تتم بها تلك الخارقة التى تمت على يده ، لأن ماعنده من

Marfat.com

علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ، ولاستخدام ماوهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه ـ عليه السلام ـ ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه . ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

« فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ـ عليه السلام ـ وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ؛ واستشعر أن النعمة ـ على هذا النحو ـ ابتلاء ضخم مخيف ؛ يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل النعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه . والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان ـ عليه السلام ـ فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

« قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » .

غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدى إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

« فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو » . .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها . . أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جىء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟

Marfat.com

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفى أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ماتراه فيه من أمارات ؟ وقد انتهت إلى جواب ذكى أريب : « قالت : كأنه هو » لا تنفى ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة فى السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » .

ثم يتدخل السياق القرآنى لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ؛ فقد نشأت فى قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهى الشمس كما جاء فى أول القصة :

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين » . .

وكان سليمان ــ عليه السلام ــ قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها ــ وهذه طريقة أخرى فى الأداء القرآنى فى القصة غير الطريقة الأولى[1] :

« قيل لها : ادخلى الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . .

لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها : ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة . فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : « قال : إنه صرح ممرد من قوارير » !

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها « مع سليمان » لا لسليمان . ولكن « لله رب العالمين » .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو

---

(١) براجع فصل القصة فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن فقرة الخصائص الفنية للقصة ، صفحة ١٤٨ ــ ١٧٦ من الطبعة الثالثة .

Marfat.com

كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة . . « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله . . رب العالمين . . على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم إلى الإسلام . وفي نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد ابن عبد الله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هي ذي امرأة في التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوي بين الداعي والمدعوين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ : يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا : اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ، قَالَ : طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

« وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا : تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ !

« وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » ﴿٥٣﴾

Marfat.com

فى معظم المواضع فى القرآن ترد قصة صالح وثمود فى سياق قصص عام مع نوح وهود، ولوط وشعيب. وأحيانا تجيء قصة إبراهيم فى هذا السياق أو لا تجيء. أما فى هذه السورة والتركيز فيها على قصص بنى إسرائيل، فقد جاءت قصة موسى وقصة داود وسليمان. واختصرت قصة هود وقصة شعيب من السلسلة ولم تجيء قصة إبراهيم.

وفى هذه السورة لاتذكر حلقة الناقة فى قصة صالح ـ عليه السلام ـ إنما يذكر تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله، ومكرهم به وهو لا يشعر، فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون، ودمرهم وقومهم أجمعين، وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون، وترك بيوت المفسدين خاوية وجعلها لمن بعدهم آية. والمشركون فى مكة يمرون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون . . .

***

« ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله، فإذا هم فريقان يختصمون » . .

يلخص رسالة صالح ـ عليه السلام ـ فى حقيقة واحدة: « أن اعبدوا الله » فهذه هى القاعدة التى ترتكز عليها رسالة السماء إلى الأرض فى كل جيل، ومع كل رسول. ومع أن كل ما حول البشر فى هذا الكون، وكل ما يكمن فيهم أنفسهم، يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة الواحدة، فقد أمضت البشرية أجيالا وأزمانا لا يعلمها إلا الله، وهى تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود، أو وقفة الهزء والتكذيب. وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخالدة، وتجنح إلى شتى السبل، التى تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم.

فأما قوم صالح ـ ثمود ـ فيحكى القرآن خلاصة موقفهم بعد دعوته إياهم، وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون. فريقا يستجيب له، وفريقا يخالف عنه. وكان الفريق المعارض هو الكثرة، كما نعرف من المواضع الأخرى فى القرآن عن هذه القصة.

وهنا فجوة فى السورة على طريقة القصص القرآنى ندرك منها أن المكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذى أنذرهم به صالح، بدلا من أن يطلبوا هدى الله ورحمته ـ شأنهم فى هذا شأن مشركى قريش مع الرسول الكريم ـ فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم برحمته:

Marfat.com

« قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون »!

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . . بدلا من أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق !

وكذلك كان قوم صالح يقولون . ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار . ويعتذرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شؤما عليهم ، ويتوقعون الشر من ورائهم :

« قالوا : اطيرنا بك وبمن معك » . .

والتطير : التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطاردا . فإن مر سانحا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر . وإن مر بارحا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ! وما تدري الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول . ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لاتعرفه وما لاتقدر عليه . فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لا تقف عند حد ، ولا تخضع لعقل ، ولا تنتهي إلى اطمئنان ويقين .

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه ، لأنهم — بزعمهم — قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين ! — هؤلاء الذين لايؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه .. نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣ ، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد ... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة . ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة . وهي جوعتها إلى الإيمان ، وعدم استغنائها عنه ، وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان ؛ وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام ، لأنه أكبر من الطاقة البشرية ،ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان ، زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض ، التي زود على قدرها بالمواهب والطاقات !

Marfat.com

فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة ، الضالة فى تيه الوهم والخرافة ، ردهم صالح إلى نور اليقين ، وإلى حقيقته الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام :

« قال : طائركم عند الله » .

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله . والله قد سن سننا وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير . فمن اتبع سنة الله ، وسار على هداه ، فهناك الخير ، بدون حاجة إلى زجر الطير . ومن انحرف عن السنة ، وحاد عن السواء ، فهناك الشر ، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير .

« بل أنتم قوم تفتنون » . .

تفتنون بنعمة الله ، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر . فاليقظة وتدبر السنن ، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير فى النهاية . لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء .

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة فى تقدير الأمور . وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم . وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله ، وأن ليس شيء مما يقع عبثاً أو مصادفة . . وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس . وبذلك يقضى الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله ، وبخالق الكون ومدبره ، وبالنواميس التى تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم .

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التى لم تفسد ، ولم تنحرف الانحراف الذى لا رجعة منه . وكان من قوم صالح ، من كبرائهم ، تسعة نفر لم يبق فى قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح . فراحوا يأتمرون به ، ويدبرون له ولأهله فى الظلام . .

« وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه : ماشهدنا مهلك أهله . وإنا لصادقون » . .

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد ، لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح ، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته ، وبيتوا فيما بينهم أمرا . ومن العجب

Marfat.com

أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا الشر المنكر الذى يبيتونه ، وهو قتل صالح وأهله بياتا ، وهو لايدعوهم إلا لعبادة الله !

وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: « تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله » ولا حضرنا مقتله . . « وإنا لصادقون » . . فقد قتلوهم فى الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أى لم يروه بسبب الظلام !

وهو احتيال سطحى وحيلة ساذجة . ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها ، ويبررون كذبهم ، الذى اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله . نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين ! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات ، وبخاصة حين لاتهتدى بنور الإيمان ، الذى يرسم لها الطريق المستقيم .

كذلك دبروا . وكذلك مكروا . . ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه ، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لايشعرون :

« ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا . وهم لايشعرون » . .

وأين مكر من مكر ؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة ؟

وكم ذا يخطىء الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة ، ويغفلون عن العين التى ترى ولا تغفل ، والقوة التى تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لايشعرون :

« فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » . .

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية . وقد كانوا منذ لحظة واحدة ، فى الآية السابقة من السورة ، يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون !

وهذه السرعة فى عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة فى السياق . لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية . مباغتة القدرة التى لاتغلب للمخدوعين بقوتهم ؛ ومباغتة التدبير الذى لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون » . . والعلم هو الذى عليه التركيز فى السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث .

Marfat.com

وبعد مشهد الباغتة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . .

« وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

والذى يخاف الله يقيه سبحانه من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين . كما جاء فى حديث قدسى جليل .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [1] .

« فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » (٥٨) .

هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة، تبرز همّ قوم لوط بإخراجه ، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التى كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية . فاحشة الشذوذ الجنسى بإتيان الرجال ، وترك النساء ، على غير الفطرة التى فطر الله الناس عليها . بل عامة الأحياء .

وهى ظاهرة غريبة فى تاريخ الجماعات البشرية . فقد يشذ أفراد ، لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية ؛ فيميل الذكور لإتيان الذكور ؛ وأكثر ما يكون هذا فى معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء ، أو فى السجون التى يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسى ، محرومين من الاتصال بنساء . . أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو

(١) هذه نهاية الجزء التاسع عشر فى تقسيم المصحف . ولكننا تابعنا السياق إلى نهاية القصة .

Marfat.com

القاعدة فى بلد بأسره ، مع وجود النساء وتيسر الزواج ، فهذا هو الحادث الغريب حقا فى تاريخ الجماعات البشرية !

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر ، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة التزاوج : فقال : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . فجعل الأحياء كلها أزواجا سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس فى شتى المخلوقات . والتزاوج يبدو أصيلا فى بناء الكون كله ـ فضلا على الأحياء ـ فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب وإلكترونات . أى من كهربائية إيجابية وأخرى سلبية . وهى وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعا كما يبدو حتى الآن .

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أن الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج .حتى التى لا يوجد لها من جنسها ذكر وأنثى تجتمع خلايا التذكير والتأنيث فى آحادها ، وتتكاثر بهذا الاجتماع .

ولما كان التزاوج هو قاعدة الحياة فى ناموس الخلق ، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة ، التى لا تحتاج إلى تعليم ، ولا تتوقف على تفكير . وذلك كى تسير الحياة فى طريقها بدافع الفطرة الأصيل . والأحياء يجدون لذتهم فى تحقيق مطالب الفطرة . والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة فى كيانهم بلا وعى منهم ولا توجيه من غيرهم . وقد جعل الله تركيب أعضاء الأنثى وأعضاء الذكر ، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة الفطرية من اجتماعهما . ولم يجعل هذا فى أعضاء الذكرين وميولهما .

ومن ثم يكون عجيبا أن تنحرف الفطرة انحرافا جماعيا كما حدث فى قوم لوط ، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم .

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب مما يفعلون !

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون » ..

عجب فى عبارته الأولى من إتيانهم هذه الفاحشة ، وهم يبصرون الحياة فى جميع أنواعها وأجناسها تجرى على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ فى وسط الحياة والأحياء . وصرح فى عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة . ومجرد الكشف عنها يكفى لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية ، ولمألوف الفطرة جميعا . ثم دمغهم بالجهل بمعنيه : الجهل بمعنى فقدان

Marfat.com

الإثم . والجهل بمعنى السفه والحمق . وكلا المعنيين متحقق فى هذا الانحراف البغيض . فالذى لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شىء ، ولا يعلم شيئا أصلا . والذى يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق يعتدى على جميع الحقوق !

فماذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف ، وهذا التوجيه إلى وحى الفطرة السليمة ؟

كان جوابهم فى إختصار أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته ـ إلا امرأته ـ بحجة أنهم أناس يتطهرون !

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون». وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر . وقد يكون إنكارا عليه أن يسمى هذا تطهرا ، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما فى ميلهم المنحرف من قذارة . وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!

على أية حال لقد هموا بهمهم ، وحزموا أمرهم . وأراد الله غير ما كانوا يريدون :

« فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (١) . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » ..

ولا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته فى السور الأخرى.. فنكتفى نحن بهذا مجاراة للسياق . ولكننا نلمح فى اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيى المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة ـ ماء النطف ـ فى غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب .. والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره . وإن هو إلا رأى أراه فى هذا التدبير .

تم الجزء التاسع عشر ويليه الجزء العشرون مبدوءاً بقوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

---

(١) الهالكين بسبب أنها كانت عجوز سوء توافق قومها على الانحراف والشذوذ .

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء العشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة النمل والقصص والعنكبوت

Marfat.com

« قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ؟ ﴿٥٩﴾
أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *
أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلِيلًا مَا
تَذَكَّرُونَ * أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ،
وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ .

« قُلْ : لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ *
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا
نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *
وَيَقُولُونَ : مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

« إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ
لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ *

Marfat.com

فتوكل على الله إنك على الحق المبين * إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون * ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

« ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض – إلا من شاء الله – وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن ؛ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين * وقل : الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون » ﴿٩٣﴾.

Marfat.com

هذا الدرس ختام سورة النمـل ، بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط ـ عليهم السلام ـ وهذا الختـام متصل بمطلع السورة فى الموضوع . والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام . كل قصة تؤدى جانبا من جوانب الغرض الذى يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله ، وبالسلام على من اصطفاهم من عباده ، من الأنبياء والرسل ، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة . جولة فى مشاهد الكون وأغوار النفس ، وأطواء الغيب ؛ وفى أشراط الساعة ومشاهد القيـامة ، وأهوال الحشر ، التى يفزع لها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

* * *

فى هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات فى صفحة الكون وفى أطواء النفس ، لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات فى إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار المشاعر ؛ وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم فى ظلمـات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمتـه ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفى كل مرة يقرعهم : أ إله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا : إن إلها مع الله يفعل من هذا كله شيئا ؛ وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التى تقتحم القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانيـة يحسونها فى قلوبهم . . يستعرض تكذيبهم بالآخرة ، وتخبطهم فى أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع

Marfat.com

بهم فى ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هزا ويرجها رجا . . .

وفى نهـاية الجولة يجىء الختـام أشبه بالإيقاع الأخير عميقا رهيبا . . ينفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعيد ، المكذبين بالآخرة ، وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الـكون وأهوال الحشر ، وعواقب الطاغين والعصاة ـ ويتركهم إلى مصيرهم الذى يختارون ؛ ويحدد منهجه ووسيلته ولمن شاء أن يختار :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين » . . .

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذى يستأهل الحمد وحده ؛ ويكلهم إلى الله يريهم آياته ؛ ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن :

« وقل : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون » . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

* * *

« قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ » . .

يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول الـكلمة التى تليق أن يفتتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك : « قل : الحمد لله » . . المستحق للحمد من عباده على آلائه ، وفى أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذى يختاره ، ومنهجه الذى يرضاه . « وسلام على عباده الذين اصطفى » لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، وبيان منهجه .

وبعد هذا الافتتاح يأخذ فى توقيعاته على القلوب المنـكرة لآيات الله ، مبتدئا بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنـكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة :

« آلله خير أم ما يشركون ؟ » . .

وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائـكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقى أن يكون شبيها بالله ـ سبحانه ـ فضلا على أن يكون خيرا منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن

Marfat.com

يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد ، أو أن يطلب عنه جواب !

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ،ومن مشاهده التى يرونها بأعينهم :

« أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » ..

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ، ولا يملك كذلك أن يدعى أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها .. وهى أصنام أو أوثان ، أو ملائكة وشياطين ، أو شمس أو قمر .. فالبداهة تصرخ فى وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعى مثل هذا الادعاء المتهافت فى القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض ، والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها ، كفيلا بإلزام الحجة ، ودحض الشرك ، وإفحام المشركين . وما يزال هذا السؤال قائما فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذى يبدو فيه القصد ، ويتضح فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذى لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، ملجىء بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذى تتضح وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تصميما واحدا متناسقا لهذا الكون لا تعدد فى طبيعته ولا تعدد فى اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة . إرادة قاصدة لا يفوتها القصد فى الكبير ولا فى الصغير .

« أم من خلق السماوات والأرض » .. « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ » ..

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ، ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر ، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذى يسمح بنزول المطر ، بهذا القدر ، الذى توجد به الحياة ، على النحو الذى وجدت به ، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة ، وأن تتوافق المصادفات بهذا الترتيب الدقيق ، وبهذا التقدير المضبوط . المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصيص الذى يعبر عنه القرآن الكريم بقوله : «وأنزل لكم ... » والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس

Marfat.com

وفق حاجة حياتهم ، منظورا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون :

« فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » . .

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحدائق يبعث فى القلب البهجة والنشاط والحيوية. وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحى الذى يبعثها كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع فى الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات فى الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن فى القديم والحديث . فضلا على معجزة الحياة النامية فى الشجر ـ وهى السر الأكبر الذى يعجز عن فهمه البشر ـ : « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » وسر الحياة كان وما يزال مستغلقا على الناس . سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان . فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول : كيف جاءت هذه الحياة ، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان . ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور .

وعند ما يصل فى هذه الوقفة أمام الحياة النامية فى الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير ، يهجم عليهم بسؤال :

« أإله مع الله ؟ » . .

ولا مجال لمثل هذا الادعاء ؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبا ، وهم يسوون آلهتهم المدعاة بالله ، فيعبدونها عبادة الله : « بل هم قوم يعدلون » . .

ويعدلون . إما أن يكون معناها يسوون . أى يسوون آلهتهم بالله فى العبادة . وإما أن يكون معناها : يحيدون . أى يحيدون عن الحق الواضح المبين . بإشراك أحد مع الله فى العبادة ؛ وهو وحده الخالق الذى لم يشاركه أحد فى الخلق . وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق !

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى :

Marfat.com

« أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لهـا رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ » ..

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هى حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهى الهيئة التى خلق عليها الأرض . لقد جعلها قرارا للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعها من الشمس والقمر ؛ أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة فى الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها ... إلى آخر هذه الملابسات الكثيرة التى لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق .. لو تغير شىء من هذا كله أدنى تغيير ، لما كانت الأرض قرارا صالحا للحياة .

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى :« أم من جعل الأرض قرارا؟ » كل هذه العجائب .ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرا صالحا للحياة على وجه الإجمال؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدا من آلهتهم كان له شرك فى خلق الأرض على هذا المنوال . وهذا يكفى . ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحا للأجيال ؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئا من معناه الضخم المتجدد على توالى الأجيال . وتلك معجزة القرآن فى خطابه لجميع العقول ، على توالى الأزمان !

« أم من جعل الأرض قرارا . وجعل خلالها أنهارا ؟ » ..

والأنهار فى الأرض هى شرايين الحياة ، وهى تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب ، تحمل معها الخصب والحياة والنماء . والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض . والله الذى خلق هذا الكون هو الذى قدر فى تصميمه إمكان تكون السحب ، ونزول المطر ، وجريان الأنهار . وما يملك أحد أن يقول : إن أحدا سوى الخالق المدبر قد شارك فى خلق هذا الكون على هذا النحو ؛ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون . فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ؟ « أإله مع الله ؟ »

« وجعل لها رواسى » ..

والرواسى : الجبال . وهى ثابتة مستقرة على الأرض . وهى فى الغالب منابع الأنهار ، حيث تجرى منها مياه الأمطار إلى الوديان ؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة .

Marfat.com

والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني . وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار .

« وجعل بين البحرين حاجزا » ..

البحر الملح الأجاج ، والنهر العذب الفرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء .والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي ، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار ، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلا لا يطغى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائما من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر . إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزا لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون ، وتصميمه على هذا النحو الدقيق .

فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ « أإله مع الله ؟ » ..

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى . ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق .. « بل أكثرهم لا يعلمون » . .

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملي الصنعة فيها والتنسيق ، وتدبر السنة فيها والناموس . ولأن التركيز في السورة كلها على العلم (كما ذكرنا في تلخيص السورة في الجزء الماضي) .

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم :

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله؟ قليلا ما تذكرون » ..

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم ، وواقع أحوالهم .

فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهاوى الأسناد ؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ؛ وكل من كان يرجوه للكربة

Marfat.com

قد تنكر له أو تولى .. فى هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التى تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل فى ساعات الرخاء . فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق .

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة فى ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية فى قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة، ويضطرهم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة فى فطرتهم ، ويسوقها لهم فى مجال الحقائق الكونية التى ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدائق البهيجة ، وجعل الأرض قرارا ، والجبال رواسى ، وإجراء الأنهار ، والحاجز بين البحرين . فالتجاء المضطر إلى الله ، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه فى الآفاق وتلك فى الأنفس سواء بسواء .

ويمضى فى لمس مشاعرهم بما هو واقع فى حياتهم : « ويجعلكم خلفاء الأرض » ..

فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذى استخلف جنسهم فى الأرض أولا . ثم جعلهم قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، يخلف بعضهم بعضاً فى مملكة الأرض التى جعلهم فيها خلفاء ؟

أليس هو الله الذى فطرهم وفق النواميس التى تسمح بوجودهم فى هذه الأرض ، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التى تقدرهم على الخلافة فيها ، وتعدهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . النواميس التى تجعل الأرض لهم قرارا ؟ والتى تنظم الكون كله متناسقا بعضه مع بعض بحيث تتهيأ للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة فى تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلا(١) .

وأخيراً أليس هو الله الذى قدر الموت والحياة ، واستخلف جيلا بعد جيل ؟ ولو عاش الأولون

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . جزء ١٩ ، ص ١٢

Marfat.com

لضاقت الأرض بهم وبالآخرين ؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذى يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا فى عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض ! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق فى الأنفس كتلك الحقائق فى الآفاق . فمن الذى حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟

« أإله مع الله ؟ » . .

إنهم لينسون ويغفلون . وهذه الحقائق كامنة فى أعماق النفوس ، مشهودة فى واقع الحياة :

« قليلا ما تذكرون » !

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله صلة الفطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحدا .

ثم يمضى السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة فى حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب ، ومشاهداتهم التى لا تنكر :

« أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ! » . . .

والناس – ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن – يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم ؛ ويسبرون أسرار البر والبحر فى تجاربهم . . ويهتدون . . فمن يهديهم ؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟

من ؟ أإله مع الله ؟

« ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ » . .

والرياح ، مهما قيل فى أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكونى الأول ،

Marfat.com

الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة .

فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من ؟

« أإله مع الله ؟ » .. « تعالى الله عما يشركون ! » .

ويختم هـذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدي والإفحام :

« أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ..

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحدا تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجىء للإقرار بوجوده ؛ وقد باءت بالفشل المنطق كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته ؛ فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون . ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجىء كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء ، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانا بعض الجزاء . فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء . وهذا لا يتم في الحياة الدنيا . فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال . . أما لماذا لم يتم في هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء ؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعته . وسر الصنعة عند الصانع . وهو غيب من غيبه الذي لم يطلع عليه أحدا !

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدىء الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ » . . « أإله مع الله ؟ » ..

Marfat.com

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل فى صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات ؛ وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ؛ ويكشف عن شيء منها لعباده آناً بعد آن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه فى الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما ييسره الله لهم من القوى والطاقات . ولهم منه فى الآخرة عطاء الله الذى يقسمه لهم – وهو من السماء بمدلولها المعنوى ، الذى يتردد كثيرا فى القرآن والسنة ؛ وهو معنى الارتفاع والاستعلاء .

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة ، لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة . فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذى يعيش عليه العباد . وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون فى الآخرة على عملهم وتصرفهم فى هذا الرزق الذى أعطوه فى الدنيا .. وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة . فهو فى الدنيا للحياة ، وهو فى الآخرة للجزاء.. وهكذا تبدو دقة التناسق فى السياق القرآنى العجيب .

والبدء والإعادة حقيقة . والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق ، فيردهم القرآن إليها فى تحد وإفحام :

« أإله مع الله ؟ » . . « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . .

وإنهم ليعجزون عن البرهان ، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن فى الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ؛ فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذى يأخذ به القلوب ؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقها الواضح الواصل البسيط ؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التى تغشيها الغفلة والنسيان ، ويحجبها الجحود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة فى تصميم الكون وأغوار النفس ؛ والتى لا تقبل المراء الذى يقود إليه المنطق الذهنى البارد ، الذى انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقى ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام !

* * *

Marfat.com

وبعد هذه الجولة فى الآفاق وفى أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفى الشرك . يأخذ معهم فى جولة أخرى، عن الغيب المستور الذى لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وعن الآخرة وهى غيب من غيب الله ، يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته ؛ ويعجز الإدراك والعلم البشرى عن تحديد موعده :

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون . وقال الذين كفروا : أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين ! قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون . وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون . وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل فى العقيدة ، لا يستقيم منهجها فى الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه فى هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية فى أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيبا من قضية البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التى لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة ، وتستمرئ الجحود والمعصية ، وتستطرد فى الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد موعدها أو يكذبوا بالنذر ، ويحسبوها أساطير ، سبق تكرارها ولم تحقق أبدا !

فهنا يقرر أن الغيب من أمر الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود :

Marfat.com

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون » . .

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لاينفذ إليه علمه ، ولايعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وكان الخير فى هذا الذى أراده الله ، فلو علم الله أن فى كشف هذا الستر المسبل خيرا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة فى الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم . . ولا زيادة . . وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعينه فى هذه المهمة . بل إن انطباق أهدابه دونه لما يثير تطلعه إلى المعرفة ، فينقب ويبحث . وفى الطريق يخرج المخبوء فى باطن الأرض ، وجوف البحر ، وأقطار الفضاء ؛ ويهتدى إلى نواميس الكون والقوى الكامنة فيه ، والأسرار المودعة فى كيانه لخير البشر ، ويحلل فى مادة الأرض ويركب ، ويعدل فى تكوينها وأشكالها ، ويبتدع فى أنماط الحياة ونماذجها . . حتى يؤدى دوره كاملا فى عمارة هذه الأرض ، ويحقق وعد الله بخلافة هذا المخلوق الإنسانى فيها .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من فى السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور لا تستدعى انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقى سره عند الله دون سواه .

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله » . .

وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدع ، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة .

وبعد هذا التعميم فى أمر الغيب يخصص فى أمر الآخرة لأنها القضية التى عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد :

« وما يشعرون أيان يبعثون » . .

ينفى عنهم العلم بموعد البعث فى أغمض صوره وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعورا . فذلك من الغيب الذى يقرر أن لا أحد يعلمه

Marfat.com

فى السماوات ولا فى الأرض . . ثم يضرب عن هذا ليتحدث فى موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتها :

« بل اداراك علمهم فى الآخرة » . .

فانتهى إلى حدوده ، وقصر عن الوصول إليها ، ووقف دونها لا يبلغها .

« بل هم فى شك منها » . .

لا يستيقنون بمجيئها ، بله أن يعرفوا موعدها ، وينتظروا وقوعها .

« بل هم منها عمون » . .

بل هم عنها فى عمى ، لايبصرون من أمرها شيئا ، ولا يدركون من طبيعتها شيئا .. وهذه أشد بعداً عن الثانية وعن الأولى :

« وقال الذين كفروا : أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ » . .

وهذه كانت العقدة التى يقف أمامها الذين كفروا دائما : أإذا فارقتنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت فى القبور ، وصارت ترابا .. أإذا وقع هذا كله ــ وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا فى حالات نادرة شاذة ــ أإذا وقع هذا لنا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض التى اختلط رفاتنا بترابها فصار ترابا ؟

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئا . ولا يدرى أحد أين كانت الخلايا والذرات التى تكونت منها هيا كلهم الأولى . فلقد كانت مفرقة فى أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواز الفضاء ، فمنها ما جاء من تربة الأرض، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبعث من جسد رم وتبخرت بعض عناصره فى الهواء !.. ثم تمثلت هذه الخلايا والذرات فى طعام يأكلونه ، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به . . ثم إذا هذا الشتيت الذى لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصى مصادره إلا الله ، يتجمع فى هيكل إنسان ؛ وهو ينمو من بويضة عالقة فى رحم ، حتى يصير جسدا مسجى فى كفن . . فهؤلاء فى خلقتهم أول مرة ، فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر فى المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شىء من الاختلاف !

Marfat.com

هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار :

« لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل. إن هذا إلا أساطير الأولين » .

فهم كانوا يعرفون أن الرسل من قبل قد أنذروا آباءهم بالبعث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة ، ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ؛ فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين : إنها أساطير الأولين يرويها محمد — صلى الله عليه وسلم — غافلين أن للساعة موعدها الذى لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم ، إنما يجيء فى الوقت المعلوم لله ، المجهول للعباد فى السماوات والأرض سواء . ولقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لجبريل — عليه السلام — وهو يسأله عن الساعة : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل »[1] .

وهذا يلمس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الذين كذبوا قبلهم بالوعيد ويسميهم المجرمين :

وفى هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم ، فالجيل من البشر ليس مقطوعا من شجرة البشرية ؛ وهو محكوم بالسنن المتحكمة فيها ؛ وماحدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ؛ فإن السنن لا تحيد ولا تحابى . والسير فى الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة ، وفيها تفتيح لنوافذ مغيبة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحييها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة ، وتدبر خطواتها وحلقاتها ، ليعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق ، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة .

وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن ينفض يديه من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم ، الذى وجههم إلى نظائره ، وألا يضيق صدره بمكرهم ، فإنهم لن يضروه شيئا ، وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه تجاههم وأبلغهم وبصرهم .

« ولا تحزن عليهم . ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » . .

وهذا النص يصور حساسية قلبه — صلى الله عليه وسلم — وحزنه على مصير قومه الذى يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم ، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالدعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير .

ثم يمضى فى سرد مقولاتهم عن قضية البعث ، واستهانتهم بالوعيد بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة :

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . .

(١) من حديث عبد الله ابن عمر . فى حقيقة الإسلام والإيمان . أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

Marfat.com

كانوا يقولون هـذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التى يمرون عليها مصبحين كقرى لوط ، وآثار ثمود فى الحجر ، وآثار عاد فى الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم . كانوا يقولون مستهزئين : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» متى هذا العذاب الذى تخوفوننا به ؟ إن كنتم صادقين فهاتوه ، أو خبرونا بموعده على التحديد !

وهنا يجىء الرد يلقى ظلال الهول المتربص ، وظلال التهكم المنذر فى كلمات قصار :

« قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » ..

بذلك يثير فى قلوبهم الخوف والقلق من شبح العذاب . فقد يكون وراءهم ـ رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة ـ وهم لا يشعرون . وهم فى غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! فيالها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهترون !

ومن يدرى . إن الغيب لمحجوب . وإن الستار لمسبل . فما يدرى أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات مايذهل وما يهول ! إنما العاقل من يحذر ، ومن يتهيأ ويستعد فى كل لحظة لما وراء الستر المسدول !

« وإن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون » . .

وإن فضله ليتجلى فى إمهالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون ، عسى أن يتوبوا إليه و يثوبوا إلى الطريق المستقيم . « ولكن أكثرهم لا يشكرون » على هذا الفضل ، إنما يستهزئون ويستعجلون ، أو يسدرون فى غيهم ولا يتدبرون .

« إن ربك ليعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » . .

وهو يمهلهم ويؤخر العذاب عنهم ، مع علمه بما تكنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإمهال عن علم ، والإمهال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكن صدورهم وما يعلنون .

ويختم هـذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الكامل الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض :

« وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » ..

ويجول الفكر والخيال فى السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شىء ، ومن سر ، ومن قوة ، ومن خبر ، وهى مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . والتركيز

Marfat.com

فى السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة ، وهذه واحدة منها نختم بها هذه الجولة .

وبمناسبة الحديث عن علم الله المطلق يذكر ماورد فى القرآن من فصل الخطاب فيما اختلف عليه بنو إسرائيل ، بوصفه طرفا من علم الله المستيقن ، ونموذجا من فضل الله وقضائه بين المختلفين . ليكون هذا تعزية لرسوله – صلى الله عليه وسلم – وليدعهم لله يفصل بينه وبينهم بقضائه الأخير :

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ؛ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين. إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

ولقد اختلف النصارى فى المسيح – عليه السلام – وفى أمه مريم .

قالت جماعة : إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة : إن الأب والإبن وروح القدس إن هى إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فانحدر الله الذى هو الأب فى صورة روح القدس وتجسد فى مريم إنسانا وولد منها فى صورة يسوع ! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما ! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضا . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين ... فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا . وقال عن المسيح : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر .. « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » . وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون .

واختلفوا فى مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال : إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال : إن يهوذا أحد حوارييه الذى خانه ودل عليه ألقى عليه شبه المسيح وصلب . ومنهم من قال : ألقى شبهه على الحوارى

Marfat.com

ميمون وأخذ به .. وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وقال : « ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك . . » وكانت كلمة الفصل فى ذلك الخلاف .

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية ؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذى أنزله الله : «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ..

وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجردا من الأساطير الكثيرة التى اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرا من الأقذار التى ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتى لم يكد نبى من أنبياء بنى إسرائيل يخرج منها نظيفا ! .. إبراهيم - بزعمهم - قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة فى أعينهما ! ويعقوب الذى هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو ! ولوط - بزعمهم - أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كى لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادتا ! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندى إلى المهالك ليفوز - بزعمهم - بامرأته ! وسليمان مال إلى عبادة (بعل) بزعمهم . مجاراة لإحدى نسائه التى كان يعشقها ولا يملك معارضتها !

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التى أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله الذى يفصل فى خلافات القوم فيها ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذى يجادل فيه المشركون ، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين !

« وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » ..

« هدى » يقيهم من الاختلاف والضلال ، ويوحد النهج ، ويعين الطريق ، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التى لا تختلف ولا تحيد ، « ورحمة » يرحمهم من الشك والقلق والحيرة ، والتخبط بين المناهج والنظريات التى لا تثبت على حال ؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه ، ويعيشون فى سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم ، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل .

Marfat.com

والمنهج القرآنى منهج فريد فى إعادة إنشاء النفوس ، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة ؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذى تعيش فيه ، متمشية مع السنن التى تحكم هذا الكون — فى يسر وبساطة ، بلا تكلف ولا تعمل . ومن ثم تستشعر فى أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى ؛ لأنها تعيش فى كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به ، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه . وهذا التناسق بين النفس والكون ، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشرى والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة ، والسلام بين البشر ، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار .. وهذه هى الرحمة فى أشمل صورها ومعانيها ..

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذى يفصل بين بنى إسرائيل فى اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة .. يقرر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه ، ويحكم بينهم حكمه الذى لا مرد له . حكمه القوى المبنى على العلم اليقين :

« فتوكل على الله إنك على الحق المبين » ..

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار . سنة لا تتخلف .. قد تبطئ . تبطئ لحكمة يعلمها الله ، وتتحقق بها غايات يقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر .

ويمضى فى تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم فى العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق فى النصح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن .. يمضى فى تسليته والتسرية عنه من هذا كله ؛ فهو لم يقصر فى دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعى آذانهم فتتحرك قلوبهم ، فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم ، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ، فما له فيهم حيلة ، وليس له إلى قلوبهم سبيل ؛ ولا ضير عليه فى ضلالهم وشرودهم الطويل :

« إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

Marfat.com

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور . فيخرجهم مرة فى صورة الموتى ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة فى هيئة الصم مدبرين عن الداعى ، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة فى صورة العمى يعضون فى عماهم ؛ لا يرون الهادى لأنهم لا يبصرون ! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة ، فتمثل المعنى وتعمقه فى الشعور !

وفى مقابل الموتى والعمى والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون .

« إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقى آيات الله،بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور. وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم. وعمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم « فهم مسلمون » .

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه ، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه . وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، المستعدة للاستماع ، التى لا تجادل ولا تمارى بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب .

* * *

بعد ذلك يجول بهم جولة أخرى فى أشراط الساعة ، وبعض مشاهدها ، قبل الإيقاع الأخير الذى يختم به السورة . . جولة يذكر فيها ظهور الدابة التى تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهدا للحشر والتبكيت للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آيتى الليل والنهار المعروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ فى الصور ، ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ؛ ويعرض عليهم مشهد المحسنين آمنين من ذلك الفزع ، والمسيئين كبت وجوههم فى النار :

Marfat.com

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تـكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فـكبت وجوههم فى النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا فى أحاديث كثيرة بعضها صحيح ؛ وليس فى هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها فى روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحا عن أوصافها ، فما يعنى شيئا أن يكون طولها ستين ذراعا ، وأن تـكون ذات زغب وريش وحافر ، وأن يكون لها لحية ! وأن يكون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . . إلخ هذه الأوصاف التى افتن فيها المفسرون !

وحسبنا أن نقف عند النص القرآنى والحديث الصحيح الذى يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذى تنفع فيه التوبة ؛ وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ؛ وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تـكلمهم . والدواب لاتتـكلم ، أو لايفهم عنها الناس . ولـكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لايؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

ومما يلاحظ أن المشاهد فى سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام. فجاء ذكر « الدابة » وتـكليمها الناس متناسقا مع مشاهد

Marfat.com

السورة وجوها ، محققا لتناسق التصوير فى القرآن ، وتوحيد الجزئيات التى يتألف منها المشهد العام[1] .

ويعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة ، إلى مشهد الحشر !

« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » . .

والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين « فهم يوزعون » يساقون أولهم على آخرهم ، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار .

« حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ » .

والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب . فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثانى فملؤه التهكم ، وله فى لغة التخاطب نظائر : أكذبتم ؟ أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر يقال : إنكم قضيتم حياتكم فيه ، إلا هذا التكذيب المستنكر الذى ما كان ينبغى أن يكون . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه :

« ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون » . .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم فى الدنيا ، وهم واجمون صامتون ! ذلك على حين نطقت الدابة قبيل ذلك . وها هم الناس لا ينطقون ! وذلك من بدائع التقابل فى التعبير القرآنى ، وفى آيات الله التى يعبر عنها هذا القرآن .

ونسق العرض فى هذه الجولة ذو طابع خاص ، هو المزاوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، والانتقال من هذه إلى تلك فى اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا ينتقل من مشهد المكذبين بآيات الله ، المبهوتين فى ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا ، كان جديرا أن يوقظ وجدانهم ، ويدعوهم إلى التدبر فى نظام الكون وظواهره ، ويلقى فى روعهم أن هناك إلهاً يرعاهم ، ويهيىء لهم أسباب الحياة والراحة ، ويخلق الكون مناسبا لحياتهم لا مقاوماً لها ولا حربا عليها ولا معارضا لوجودها أو استمرارها :

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن من ص ٨٦ إلى ص ١٠٧ من الطبعة الثالثة .

Marfat.com

ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يوقظا فى الإنسان وجدانا دينيا يجنح إلى الاتصال بالله ، الذى يقلب الليل والنهار ، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان ، ولكنهم لا يؤمنون .

ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهارا لانعدمت الحياة على وجه الأرض ؛ وكذلك لو كان الدهر كله ليلا . لابل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس فى النهار كل نبات ، ولتجمد فى الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة . ففى الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات . ولكنهم لا يؤمنون .

ومن آيتى الليل والنهار فى الأرض ، وحياتهم الآمنة المكفولة فى ظل هذا النظام الكونى الدقيق يعبر بهم فى ومضة إلى يوم النفخ فى الصور ، وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض ومن فيهن من الخلائق إلا من شاء الله . وما فيه من تسيير للجبال الرواسى التى كانت علامة الاستقرار ؛ وما ينتهى إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والخير ، ومن عقاب بالفزع والكب فى النار :

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ؛ وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

والصور البوق ينفخ فيه . وهذه هى نفخة الفزع الذى يشمل كل من فى السماوات ومن فى الأرض ــ إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . قيل هم الشهداء . . وفيها يصعق كل حى فى السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفى هذه يحشر الجميع « وكل أتوه داخرين » أذلاء مستسلمين .

ويصاحب الفزع الانقلاب الكونى العام الذى تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب فى خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ؛ وكأنما الجبال

Marfat.com

مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين النطلقين بلا وجهة ولا قرار !

« صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

سبحانه ! يتجلى إتقان صنعته فى كل شىء فى هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ، ولا ثغرة ولا نقص ، ولا تفاوت ولا نسيان . ويتدبر المتدبر كل آثار الصنعة المعجزة ، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . فى الصغير والكبير ، والجليل والحقير . فكل شىء بتدبير وتقدير ، يدير الرؤوس التى تتابعه وتتملاه[1] .

« إنه خبير بما تفعلون » . .

وهذا يوم الحساب عما تفعلون . قدره الله الذى أتقن كل شىء . وجاء به فى موعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؛ ليؤدى دوره فى سنة الخلق عن حكمة وتدبير ؛ وليحقق التناسق بين العمل والجزاء فى الحياتين المتصلتين المتكاملتين ، « صنع الله الذى أتقن كل شىء . إنه خبير بما تفعلون » .

فى هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا فى الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر :

« من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون » .

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنة . ولقد خافوا الله فى الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة . بل أمنهم يوم يفزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

« ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » . .

وهو مشهد مفزع . وهم يكبون فى النار على وجوههم . ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ !

« هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

فقد تنكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم ؛ فهم يجزون به كبا لهذه الوجوه فى النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار .

* * *

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . الجزء التاسع عشر .

Marfat.com

وفى النهاية تجىء الإيقاعات الأخيرة : حيث يلخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته ومنهجه فى الدعوة ؛ ويكلهم إلى مصيرهم الذى يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ؛ ويختم بحمد الله كما بدأ ، ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته ، ويحاسبهم على ما يعملون :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ؛ وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين . وقل : الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون » ..

وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ؛ وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ؛ ثم لا يوحدون الله الذى حرمه وأقام حياتهم كلها عليه .

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوّم العقيدة كما ينبغى أن تقوّم ، فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، لا شريك له ؛ ويكمل التصور الإسلامى للألوهية الواحدة، فرب هذه البلدة هو رب كل شىء فى الوجود « وله كل شىء » ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين . المسلمين كل ما فيهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعيل الممتد فى الزمن التطاول من الموحدين المستسلمين .

هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهى تلاوة القرآن :

« وأن أتلو القرآن » ..

فالقرآن هو كتاب هـذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده الغناء فى جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى المشاعر طرقها ؛ وفيه مايزلزل القلوب الجاسية ويهزها هزا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة ، وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن ، والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها .. « وأن أتلو القرآن » ..

« فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين » ..

وفى هذا تتمثل فردية التبعة فى ميزان الله ، فيما يختص بالهدى والضلال . وفى فردية التبعة تتمثل كرامة هـذا الإنسان ، التى يضمنها الإسلام ، فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما

Marfat.com

هى تلاوة القرآن ، وتركه يعمل عمله فى النفوس ، وفق منهجه الدقيق العميق ، الذى يخاطب الفطرة فى أعماقها ، وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن .

« وقل : الحمد لله » مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله :

« سيريكم آياته فتعرفونها » ..

وصدق الله . ففى كل يوم يرى عباده بعض آياته فى الأنفس والآفاق . ويكشف لهم عن بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار .

« وما ربك بغافل عما تعملون » ..

وهكذا يلقى إليهم فى الختام هـذا الإيقاع الأخير ، فى هـذا التعبير الملفوف . اللطيف . المخيف .. ثم يدعهم يعملون ما يعملون ، وفى أنفسهم أثر الإيقاع العميق : « وما ربك بغافل عما تعملون » ..

Marfat.com

سورة القصص مكية
وآياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« طسم ① تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة،ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين.

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، وهم لا يشعرون.

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته: قصيه، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون.

Marfat.com

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

* * *

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ .

« وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ : هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ .

« فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَامُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ .

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ، قَالَ : يَامُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ .

« وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ : عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ .

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا

Marfat.com

شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

« فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ : لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ * قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي – إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ – مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * قَالَ : ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَٱللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

* * *

« فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ : ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ ، مِنَ ٱلشَّجَرَةِ : أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ، فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ .

* * *

Marfat.com

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا: مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » ﴿٤٣﴾

هذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون فى مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود ، هى قوة الله ؛ وأن هناك قيمة واحدة فى هذا الكون ، هى قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون فى البدء ، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - فى الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ؛ وفى مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة ، ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون فى الأرض ، واتخذ أهلها شيعاً ، واستضعف بنى إسرائيل ، يذبح أبناءهم ،

Marfat.com

ويستحي نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته ، وحذره ويقظته ، لا تغني عنه شيئا ؛ بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير ، المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمي عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تعرض قيمة المال ، ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته ، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون ، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تستخفهم زينته ؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ؛ وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت في أمر فرعون ، فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين .

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان ؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة ، هذا خسف به وبداره ، وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد ، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ؛ ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية ، بلا ستار من الخلق ، ولا سبب من قوى الأرض ، لتضع حدا للشر والفساد (1) .

---

(1) سبق أن قلت في تفسير سورة طه في صفحة ٩٨ من الجزء السادس عشر :

« إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب ، وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان =

Marfat.com

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص - فى سورة القصص - ويفتح أبصارهم على آيات الله المبثوثة فى مشاهد الكون تارة ، وفى مصارع الغابرين تارة ، وفى مشاهد القيامة تارة .. وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص ، وتساوقها وتتناسق معها ؛ وتؤكد سنة الله التى لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان . وقد قال المشركون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » . فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم ، لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التى من أجلها يخضع الناس لهم ، ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم فى هذه السورة قصة موسى وفرعون ، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون فى جوار الله ، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التى تعارف عليها الناس ؛ وأن الخوف إنما يكون فى البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التى تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة فى صورة أخرى وتؤكدها .

وعقب على مقالتهم « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .. يذكرهم بأنه هو الذى آمنهم من الخوف فهو الذى جعل لهم هذا الحرم الآمن ؛ وهو الذى يديم عليهم أمنهم ، أو يسلبهم إياه ؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر : « وكم من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجىء النذير : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .

= فى وجه فرعون دون تلجلج ، ودون تحرج ، ودون اتقاء التعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة ، وإعلان النصر الذى تم قبل ذلك فى الأرواح والقلوب » .

والذى قلته هنا أصح ، بشهادة سياق القصة فى هذه السورة . وإن كان لما قلت فى سورة طه مكانه بتغيير فى العبارة . فإن يد القدرة تدخلت منذ أول الأمر لإدارة المعركة . ولكن النصر النهائى لم يتم تمامه إلا بعد استعلان الإيمان فى قلوب الذين آمنوا بموسى بعد رسالته ، وجهروا بكلمة الحق فى وجه الطغيان العاتى المتجبر .

Marfat.com

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ؛ فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذى فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه ، لا - رادّه إلى بلده ، ناصره على الشرك وأهله. وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذى أخرجه منه المشركون . سيعود آمنا ظافرا مؤيدا . وفى قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكده . فقد عاد موسى ـ عليه السلام ـ إلى البلد الذى خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بنى إسرائيل واستنقذهم ، وهلك فرعون وجنوده على أيدى موسى وقومه الناجين ..

ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير :

« ولا تدع مع الله إلهـا آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » .

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة ، فلنأخذ فى تفصيل أشواطها الأربعة : قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير ...

* * *

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة :

« طا . سين . ميم » .. تلك آيات الكتاب المبين » ..

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، فى لغة البشر الفانين :

« تلك آيات الكتاب المبين » ..

فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحى الذى يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة فى الكبير والصغير :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » ..

Marfat.com

فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ؛ يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق . وهذا القصص المتلو فى السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به ينتفعون .

وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقى ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفتهم هذه التى تؤهلهم لتلك العناية الكريمة : « لقوم يؤمنون » .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ فى عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ فى عرضه منذ أول حلقة فى القصة ــ حلقة ميلاده ــ ولا تبدأ مثل هذا البدأ فى أية سورة أخرى من السور الكثيرة التى وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التى ولد فيها ؛ وتجرده فى طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؛ وضعف قومه واستذلالهم فى يد فرعون . . ذلك كله هو الذى يؤدى هدف السورة الرئيسى ؛ ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؛ وتضرب الظلم والطغيان والبغى ضربة مباشرة عند ما يعجز عن ضربها البشر ؛ وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ؛ وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذى كانت القلة المسلمة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى تقريره وتثبيته ؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية فى حاجة إلى معرفته واستيقانه .

ولقد كانت قصة موسى ــ عليه السلام ــ تبدأ غالبا فى السور الأخرى من حلقة الرسالة ــ لا من حلقة الميلاد ــ حيث يقف الإيمان القوى فى وجه الطغيان الباغى ؛ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان فى النهاية . فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود ؛ إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه فى ذاته ؛ والبغى حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر ؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم ، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة فى هذه السورة ؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التى تؤدى هذا الغرض وتبرزه ، والقصة فى القرآن تخضع فى طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض . فهى أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ . وهى تتناسق فى هذا مع السياق الذى تعرض فيه ، وتتعاون فى بناء القلوب ، وبناء الحقائق التى تعمر هذه القلوب .

Marfat.com

والحلقات المعروضة من القصة هنا هي : حلقة مولد موسى – عليه السلام – وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته. وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم ، وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتآمر فرعون وملئه عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها . وحلقة النداء والتكليف بالرسالة . ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون . والعاقبة الأخيرة – الغرق – مختصرة سريعة .

ولقد أطال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية – وهما الحلقتان الجديدتان في القصة في هذه السورة – لأنهما تكشفان عن تحدى القدرة السافرة للطغيان الباغي . وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ : « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وعلى طريقة القرآن في عرض القصة ، قسمها إلى مشاهد؛ وجعل بينها فجوات فنية يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد ، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية .

وقد جاءت الحلقة الأولى في خمسة مشاهد . والحلقة الثانية في تسعة مشاهد والحلقة الثالثة في أربعة مشاهد . وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة . وبين كل مشهد ومشهد ، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد .

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا القصص . . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة تساوق موضوعها وأهدافها في هذا الموضع من القرآن :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . .

وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث ، وتتكشف اليد التي تجريها . وتتكشف

Marfat.com

معها الغاية التي تتوخاها . وانكشاف هذه اليد ، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها ، متمش مع أبرز هدف لها. ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء .وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب .

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجرى حوادث القصة في عهده ، فالتحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد في دلالتها شيئاً . ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف ـ عليه السلام ـ الذي استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو « إسرائيل » وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا .

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية « علا في الأرض » وتكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعا ، كل طائفة في شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؛ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد ؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا.

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر ؛ ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف ، فقد يصبحون إلبا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب ، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته ، تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال ، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب .وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم ،واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم . وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث ، فوق مايصبه عليهم من نكال وعذاب .

وروى أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل ، ليبادر بذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

هذه هي الظروف التي تجرى فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ عند ولادته ، كما وردت في هذه السورة :

Marfat.com

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم. إنه كان من المفسدين » ..

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؛ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسون إرادة الله وتقديره ؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون.

والله يعلن هنا إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلا :

« ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية فى شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ؛ فيبث عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة (التى أعطاهم إياها عند ما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخى الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما ، وما يتخذون الحيطة دونه ، وهم لا يشعرون !

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ فى عرض القصة ذاتها . يعلن واقع الحال ، وما هو مقدر فى المآل . ليقف القوتين وجها لوجه : قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التى تبدو للناس قادرة على الكثير . وقوة الله الحقيقية الهائلة التى تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التى ترهب الناس !

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ فى عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها وماجرياتها ، وما ستنتهى إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التى أعلنها قبل البدء فى عرضها .

ومن ثم تنبض القصة بالحياة ؛ وكأنها تعرض لأول مرة ، على أنها رواية معروضة الفصول، لا حكاية غبرت فى التاريخ . وهذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

* * *

Marfat.com

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدى وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار :

لقد ولد موسى فى ظل تلك الأوضاع القاسية التى رسمها قبل البدء فى القصة ؛ ولد والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تحز رأسه . .

وها هى ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . ها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هى ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى فى روعها كيف تعمل ، وتوحى إليها بالتصرف :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى » . .

يا الله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو فى حضنك . وهو فى رعايتك. إذا خفت عليه وفى فمه ثديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه « فألقيه فى اليم » !!

« ولا تخافى ولا تحزنى » إنه هنا . . فى اليم . . فى رعاية اليد التى لا أمن إلا فى جوارها، اليد التى لا خوف معها . اليد التى لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التى تجعل النار بردا وسلاما ، وتجعل البحر ملجأ ومناما . اليد التى لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعا أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناب .

« إنا رادوه إليك » .. فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده .. « وجاعلوه من المرسلين » .. وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

هذا هو المشهد الأول فى القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاما . ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثانى :

« فالتقطه آل فرعون » ..

Marfat.com

أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هي البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع فى أيدى آل فرعون ؟

نعم ! ولكنها القدرة تتحدى. تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة. تتحدى فرعون وهامان وجنودهما. إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كى لا يفلت منهم طفل ذكر .. فها هى ذى يد القدرة تلق فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأى طفل ؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين ! هاهى ذى تلقيه فى أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد ! هاهى ذى تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل ، وفى أحضان نسائهم الوالدات !

ثم هاهى ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية :

« ليكون لهم عدوا وحزنا » .

ليكون لهم عدوا يتحداهم وحزنا يدخل الهم على قلوبهم :

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . .

ولكن كيف ؟ كيف وهاهو ذا بين أيديهم ، مجردا من كل قوة ، مجردا من كل حيلة ؟ لندع السياق يجيب:

« وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ؟ وهم لا يشعرون » ..

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال . حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة . وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف !

« قرة عين لى ولك » . .

وهو الذى تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم ـ فيما عدا المرأة ـ عدوا وحزنا !

« لاتقتلوه » ..

Marfat.com

وهو الذى على يده مصرع فرعون وجنده !

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ..

وهو الذى تخبىء لهم الأقدار من ورائه ماحذروا منه طويلا !

« وهم لا يشعرون » . .

فيا للقدرة القادرة التى تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون !

وينتهى المشهد الثانى ويسدل الستار عليه إلى حين .

ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالهة وقلبها الملهوف ؟

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدى به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قصيه » . .

لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو ياترى وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها : كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذف بها فى اليم ؟ كيف فعلت مالم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة فى هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآنى يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية : « فارغا » . . لا عقل فيه ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصريف !

« إن كادت لتبدى به » . . وتذيع أمرها فى الناس ، وتهتف كالمجنونة : أنا أضعته . أنا أضعت طفلى . أنا ألقيت به فى اليم اتباعا لهاتف غريب !

« لولا أن ربطنا على قلبها » .. وشددنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها من الهيام والشرود .

« لتكون من المؤمنين » . . المؤمنين بوعد الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه .

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة !

« وقالت لأخته : قصيه » . . اتبعى أثره ، واعرفى خبره ، إن كان حيا ، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر . . أو أين مقره ومرساه ؟

وذهبت أخته تقص أثره فى حذر وخفية ، وتتلمس خبره فى الطرق والأسواق . فإذا بها

Marfat.com

تعرف أين ساقته القدرة التى ترعاه ؟ وتبصر به عن بعد فى أيدى خدم فرعون يبحثون له عن ثدى للرضاع :

« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ » . .

إن القدرة التى ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع، لتدعهم يحتارون به ؛ وهو يرفض الثدى كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟ فيتلقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهى المشهد الرابع ؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير فى هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى فى بدنه ، مرموقا فى مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب :

« فرددناه إلى أمه ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

* * *

ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى ـ عليه السلام ـ والحلقة التالية التى تمثل شبابه واكتماله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى فى قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه فى القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية فى الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذى يصنع على عين الله ، ويعد لوظيفته ، فى وسط عباد فرعون وكهنته . .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ،

Marfat.com

فقد آتاه الله الحكمة والعلم ، وجزاه جزاء المحسنين :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين » ..

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوى والعقلى . وهو يكون عادة حوالى سن الثلاثين . فهل ظل موسى فى قصر فرعون ، ربيبا ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة فى ظل تلك الأوضاع الآسنة التى لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى ـ عليه السلام ـ ؟ وبخاصة أن أمه لابد أن تكون قد عرّفته من هو ومن قومه وما ديانته . وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغى اللئيم ؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيجيء ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم : « وكذلك نجزى المحسنين » يشى كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ؛ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ؛ فوكزه موسى فقضى عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » ..

ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر فى عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، فى وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون ؟

لقد دخل المدينة على كل حال « فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » . .

وقد كان أحدهما قبطيا ـ يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طباخ القصر . والآخر إسرائيلى . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجدا به على عدوهما القبطى . فكيف وقع هذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلى بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال

Marfat.com

فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال فى القصر ، متبنى ، أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلى على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بنى إسرائيل . وأنه ناقم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن فى مقام موسى — عليه السلام — فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء فى مستنقع الشر والفساد . .

« فوكزه موسى فقضى عليه » . .

والوكز الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطى . مما ينبئ بقوة موسى وفتوته ، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطى ، ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ؛ فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان :

« قال : هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين » . .

ثم استطرد فى فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالبا مغفرته وعفوه :

« قال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى » . .

واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره :

« فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم » . .

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز فى حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى — عليه السلام — وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهدا يعده من الوفاء بشكر النعمة التى أنعمها عليه ربه :

« قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » . .

Marfat.com

فهو عهد مطلق ألا يقف فى صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها فى كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعا تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغى .

ذلك بحق نعمة الله عليه فى قبول دعائه ؛ ثم نعمته فى القوة والحكمة والعلم التى آتاه الله من قبل .

وهذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام - شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقى بهذه السمة البارزة فى هذه الشخصية فى مواضع أخرى كثيرة .

بل نحن نلتقى بها فى المشهد الثانى فى هذه الحلقة مباشرة :

« فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ؛ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى: إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » ..

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطى ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيرا للمجرمين .

ومر يوم وأصبح فى المدينة خائفا من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى . ولفظ « يترقب » يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر فى كل لحظة . . وهى سمة الشخصية الانفعالية تبدو فى هذا الموقف كذلك . والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمة « فى المدينة » فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفا يترقب فى المدينة ، فأعظم الخوف ما كان فى مأمن ومستقر !

وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن فى هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفسا فى عهود الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئا فضلا على أن يصبح « خائفا يترقب » لو أنه كان ما يزال فى مكانه من قلب فرعون وقصره .

وبينما هو فى هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » !

Marfat.com

إنه صاحبه الإسرائيلي الذى طلب بالأمس نصرته على القبطى . إنه هو مشتبكا مع قبطى آخر ؛ وهو يستصرخ موسى لينصره؛ ولعله يريد منه أن يقضى على عدوهما المشترك بوكزة أخرى! ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه فى كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال :

« قال له موسى : إنك لغوى مبين »..

غوى بعراكه هـذا الذى لا ينتهى واشتباكاته التى لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بنى إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التى تضر ولا تفيد .

ولكن الذى حدث أن موسى – بعد ذلك – انفعلت نفسه بالغيظ من القبطى ، فاندفع يريد أن يقضى عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التى أشرنا إليها ، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى – عليه السلام – بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغى ، والضيق بالأذى الواقع على بنى إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغى ، الطويل الأمد ، الذى يحتفر فى القلب البشرى مسارب من الغيظ وأخاديد .

« فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » . .

وإنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغى فلا تجيش نفوسهم لدفعه ؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره « جبارا فى الأرض » كما قال القبطى لموسى . ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هـذا هو الفضل ، وأن هـذا هو الأدب ، وأن هـذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح ! فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن

Marfat.com

نفسه ، فيحطم السياج الذى أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التى يقوم عليها . . إذا رأوا مظلوما يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا ، وسموا هذا المظلوم الذى يدفع الظلم سفاكا أو جبارا ، وصبوا عليه لومهم ونقمتهم . ولم ينل الظالم الطاغى من نقمتهم ولومهم إلا القليل ! ولم يجدوا للمظلوم عذرا - حتى على فرض تهوره - من ضيقه بالظلم الثقيل !

ولقد طال الظلم ببنى إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى - عليه السلام - حتى رأيناه يندفع فى المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع فى المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذى هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه ، بل رعاه ، واستجاب له ، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حدا فى الاحتمال . وأن الظلم حين يشتد ، وتغلق أبواب النصفة ، يندفع المضطهد إلى الهجوم والاقتحام . فلم يهول فى وصف الفعلة التى فعلها موسى ، كما تهول الجماعات البشرية التى مسخ الظلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطرى مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والضيق .

وهذه هى العبرة التى تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما ، فهو لا يبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يضخمها . ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية . وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله . . أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ؛ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التى قضاها ، حيث لا تجدى تلك الاشتباكات الفردية الجانبية فى تغيير الأوضاع . كما كف الله المسلمين فى مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلى سرا بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بنى إسرائيل .

نرجح هذا لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون فى معركة بينه وبين إسرائيلى فى مثل هذه الظروف يعد حدثا مريحا لنفوس بنى إسرائيل ، يشفى بعض غيظهم ، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة فى همس وفرح وتشف ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك ، وبخاصة إذا عرف عن موسى من قبل نفرته من البغى ، وانتصاره للمظلومين ،

Marfat.com

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة : « أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ؟ » .

أما بقية عبارته : « إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويورّي به ؟ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جبارا لا مصلحا ، يقتل الناس بدلا من إصلاح ذات البين ، وتهدئة ثائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوبا من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه .

ولقد قال بعض المفسرين : إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي ، لأنه لما قال له موسى : « إنك لغوي مبين » ، ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذي هو عدو لهما ، حسب الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو ، وأنه يتقدم ليبطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين .

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدسا من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع[1] .

والظاهر أن موسى لم يتقدم بعد إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينهى إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذره ائتمار الملأ من قوم فرعون به وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال : ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك . فاخرج إني لك من الناصحين » . .

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة ، لتتم مشيئتها !

(١) جريت على الرأي الأول في كتاب التصوير الفني في القرآن. ولكني إلى هذا الرأي الأخير أميل الآن.

Marfat.com

لقد عرف الملأ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه ، والذي جاء ذكره في سورة (غافر)(1) انتدبته ليسعى إلى موسى « من أقصى المدينة » في جد واهتمام ومسارعة ، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك : «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين» ..

« فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجني من القوم الظالمين » ..

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها ، التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه في المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة : « رب نجني من القوم الظالمين » ..

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة ، خائفا يترقب ، وحيدا فريدا ، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونه وهداه :

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ..

ونلمح شخصية موسى -عليه السلام- فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لازاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هداه: « عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ..

ومرة أخرى نجد موسى - عليه السلام - في قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراوة والنعمى . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه في كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء :

---

(1) « وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » الآية (28) .

Marfat.com

« ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ماخطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » . .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى – عليه السلام – وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوى المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولا ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب :

« قال : ماخطبكما ؟ » .

« قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » . .

فأطلعناه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى – عليه السلام – وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر فى نصابه . تقدم ليسقى للمرأتين أولا ، كما ينبغى أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب فى أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعى المروءة والنجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعى الذى تعرفه النفوس :

« فسقى لهما » . .

مما يشهد بنبل هذه النفس التى صنعت على عين الله . كما يشى بقوته التى ترهب حتى وهو فى إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

Marfat.com

« ثم تولى إلى الظل » . .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفرة كانت فى ذلك القيظ والحر .

« فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . .

إنه يأوى إلى الظل المادى البليل بجسمه ، ويأوى إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه : « رب . إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . رب إنى فى الهاجرة . رب إنى فقير . رب إنى وحيد . رب إنى ضعيف . رب إنى إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج .

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . .

وما نكاد نستغرق مع موسى - عليه السلام - فى مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج ، معقبا فى التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب .

« فجاءته إحداهما تمشى على استحياء . قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . . .

يافرج الله ! وياقربه ويانداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها : « إحداهما » وقد جاءته « تمشى على استحياء » مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . « على استحياء » . فى غير ماتبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لاتضطرب . الاضطراب الذى يطمع ويغرى ويهيج ؛ إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

وينهى السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذى لم ينص على اسمه.

Marfat.com

وقيل : إنه ابن أخى شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يثرون (١) .

« فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال : لا تخف . نجوت من القوم الظالمين » ..

فقد كان موسى فى حاجة إلى الأمن ؛ كما كان فى حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق فى مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور : « لا تخف » فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقى فى قلبه الطمأنينة ، ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل : « نجوت من القوم الظالمين » فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع فى المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة :

« قالت إحداهما : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذى لابد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال . وهى تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت ؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشىء من هذه المزاحمة .

وها هوذا شاب غريب طريد وهو فى الوقت ذاته قوى أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقى لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهى تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوى على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهى لا تتلعثم فى هذه الإشارة ولا تضطرب ،

---

(١) سبق أن قلت مرة فى الظلال : إن هذا الرجل هو شعيب . وقلت مرة : إنه قد يكون النبى شعيبا أو لا يكون .. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين . والذى يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير . وشعيب شهد مهلك قومه ، المكذبين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به . فلو كان هو شعيب - النبى - بين بقية قومه المؤمنين ، ماسقوا قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير . فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل !

يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعاليمه لموسى صهره . ولو كان شعيبا النبى لسمعنا صوت النبوة فى شىء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات .

Marfat.com

ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهى بريئة النفس ، نظيفة الحس ؛ ومن ثم لا تخشى شيئا ، ولا تتمتم ولا تجمجم وهى تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذى يغطى البئر وكان لايرفعه - فيما قالوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أوأقل . فالبئر لم يكن مغطى ، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين ، أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة : امشى خلفى ودليني على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها .. فهذ كله تكلف لا داعى له ، ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى - عليه السلام - عفيف النظر نظيف الحس ، وهى كذلك ، والعفة والأمانة لاتحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة . فالعفة تنضح فى التصرف العادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع !

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلا فطريا سليما ، صالحا لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان فى رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التى لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ويرعى ما شيته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به .

« قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدنى إن شاء الله من الصالحين »

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد - ولعله كان يشعر كما أسلفنا - أنها محددة ، وهى التى وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها فى غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحا لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس فى هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم ، أو لايليق أن يجىء العرض من الجانب الذى فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذ البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون

Marfat.com

ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض فى غير ما خطبة ولانية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة !

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو من يرغب فى تزوجهن منهم . كان يتم هذا فى صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء .. عرض عمر ـ رضى الله عنه ـ ابنته حفصة على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا طيب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن ، علمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامى يبنى بيوته ويقيم كيانه . فى غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى ـ فعرض على موسى ذلك العرض واعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه فى العمل ؛ راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين فى معاملته ووفائه . وهو أدب جميل فى التحدث عن النفس وفى جانب الله . فهو لا يزكى نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر فى هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ؛ فى وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله :

« قال : ذلك بينى وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ . والله على ما نقول وكيل » .

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللعثمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه : « أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ » . . سواء قضيت ثمانى سنوات أو أتممت عشرا ، فلا عدوان فى تكاليف العمل ، ولا عدوان فى تحتيم العشر ؛ فالزيادة على الثمانية

Marfat.com

اختيار . . « والله على ما نقول وكيل » . فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلا .

بين موسى – عليه السلام – هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين فى الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوى أن يوفى بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أخبر أنه : « قضى أكثرهما وأطيبها » (١)

وهكذا اطمأن بموسى – عليه السلام – المقام فى بيت حميه ؛ وقد أمن من فرعون وكيده. ولحكمة مقدرة فى علم الله كان هذا الذى كان . . فلندع الآن هذه الحلقة تمضى فى طريقها حتى تنقضى . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار . .

* * *

وتمضى السنوات العشر التى تعاقد عليها موسى – عليه السلام – لا يذكر عنها شيء فى سياق السورة ، ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عائدا من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذى سلكه منذ عشر سنوات وحيدا طريداً . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائد ليتلقى فى الطريق ما لم يخطر له على بال . ليناديه ربه ويكلمه ، ويكلفه النهوض بالمهمة التى من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه ،ليطلق له بنىإسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا ؛ ويرثون الأرض التى وعدهم ليمكن لهم فيها ؛ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدوا وحزنا ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقا :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله : امكثوا، إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين؛ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك

---

(١) أخرجه البخارى

Marfat.com

من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوما فاسقين . قال : رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ..

وقبل أن نستعرض هذين المشهدين فى هذه الحلقة نقف قليلا أمام تدبير الله لموسى ـ عليه السلام ـ فى هذه السنوات العشر ، وفى هذه الرحلة ذهابا وجيئة ، فى هذا الطريق ..

لقد نقلت يد القدرة خطى موسى ـ عليه السلام ـ خطوة خطوة . منذ أن كان رضيعا فى المهد حتى هذه الحلقة . ألقت به فى اليم ليلتقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة فى قلب امرأته لينشأ فى كنف عدوه . ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً . وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها . وصاحبته فى الطريق الصحراوى من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد . وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر . ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف . .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب ، قبل النداء وقبل التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفزع . وتجربة الغربة والوحدة والجوع . وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور . وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق فى واقع الحياة العملى ، إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر ـ عدا رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، وأقدمهم عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعبدا للخلق واستعلاء فى الأرض .

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه ، فردوا

Marfat.com

عليه واستكانوا دهرا طويلا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس . فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ؛ انحرفوا عنها ، وفسدت صورتها فى قلوبهم . فلا هى قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ؛ ولا هى باقية على عقيدتها القديمة . ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا .

وهو فى اختصار مرسل لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا ، له حياة خاصة ، تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة ، فهى نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة ، ومايعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . ومايعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التى نشأ فيها موسى — عليه السلام — وحياة الجهد الشاق فى الدعوة وتكاليفها العسيرة .

إن لحياة القصور جوا خاصا ، وتقاليد خاصة ، وظلالا خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغنى والفقير ، والواجد والمحروم ، وفيهم النظيف والوسخ ، والمهذب والخشن ؛ وفيهم الطيب والخبيث والخير والشرير . وفيهم القوى والضعيف ، والصابر والجزوع .. وفيهم وفيهم .. وللفقراء عادات خاصة فى أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم ، وطريقة فهمهم للأمور ، وطريقة تصورهم للحياة ، وطريقة حديثهم وحركتهم ، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم . . وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا فى القصور ؛ ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلا على معاناتها وعلاجها ، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح ، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم فى قلوب أهل القصور !

Marfat.com

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشظف أحيانا . . وقلوب أهل القصور ـ مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة ـ لا تصبر طويلا على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها فى واقع الحياة .

فشاءت القدرة التى تنقل خطى موسى ـ عليه السلام ـ أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة ؛ وأن تزج به فى مجتمع الرعاة ، وأن تجعله يستشعر النعمة فى أن يكون راعى غنم يجد القوت والمأوى ، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ؛ وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقى به فى خضم الحياة كبيرا بعد ما ألقت به فى خضم الأمواج صغيرا ، ليمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها . .

فلما أن استكملت نفس موسى ـ عليه السلام ـ تجاربها ، وأكملت مرانتها ودربتها ، بهذه التجربة الأخيرة فى دار الغربة ، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ، ومجال رسالته وعمله ، سالكة به الطريق التى سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب فى ذات الطريق ؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . الطريق الذى سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه ، كى يستكمل صفات الرائد وخبرته ، حتى لا يعتمد على غيره ولو فى ريادة الطريق . فقومه كانوا فى حاجة إلى رائد يقودهم فى الصغيرة والكبيرة ، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ؛ حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله ، وكيف أعدته القدرة لتلقى التكليف . فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، فى طريقه إلى هذا التكليف .

* * *

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » . .

ترى أى خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها

Marfat.com

خائفا يترقب ؟ وأنساه الخطر الذى ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفسا ؟ وهناك فرعون الذى كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؟

إنها اليد التى تنقل خطاه كلها ، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطرى إلى الأهل والعشيرة ، وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذى خرج هاربا منه وحيدا طريدا . ليؤدى المهمة التى خلق لها ورعى منذ اللحظة الأولى .

على أية حال ها هوذا عائد فى طريقه ، ومعه أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلمة ؛ وقد ضل الطريق ، والليلة شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التى شاهدها ، ليأتى منها بخبر أو جذوة .. هذا هو المشهد الأول فى هذه الحلقة .

فأما المشهد الثانى فهو المفاجأة الكبرى :

« فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة » ..

فها هو ذا يقصد إلى النار التى آنسها ، وها هوذا فى شاطىء الوادى إلى جوار جبل الطور، الوادى إلى يمينه « فى البقعة المباركة » .. المباركة منذ هذه اللحظة .. ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوى الآتى لموسى « من الشجرة » ولعلها كانت الوحيدة فى هذا المكان :

« أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » :

وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا فى ذلك الوادى العميق ، فى ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلىء به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندرى كيف وبأية جارحة وعن أى طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى ؛ وبوركت البقعة التى تجلى عليها ذو الجلال ؛ وتميز الوادى الذى كرم بهذا التجلى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان .

واستطرد النداء العلوى يلقى إلى عبده التكليف :

« وأن ألق عصاك » ..

وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؛ ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التى صاحبها طويلا ، والتى يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب فى سرعة ، وتتحرك فى خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهى حية كبرى :

« فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب » ..

Marfat.com

إنها المفاجأة التي لم يستعد لها؛ مع الطبيعة الانفعالية، التي تأخذها الوهلة الأولى .. « ولى مدبرا ولم يعقب » ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها؟ ولم يتأمل هذه العجيبة الضخمة. وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها!

ثم يستمع إلى ربه الأعلى:

« ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » ..

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس، ويتعاورانها في مراحل حياتها جميعا. إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها؛ وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس، مقدر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل. وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق.

« أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » ..

وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه، ومن ترعاه عين الله؟

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ..

وأطاع موسى الأمر، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها. فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة. إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة. إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل.

وأدركت موسى طبيعته. فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة. ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة. ذلك أن يضم يده على قلبه، فتخفض من دقاته، وتطامن من خفقاته:

« واضمم إليك جناحك من الرهب » ..

وكأنما يده جناح يقبضه على صدره، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه. والرفرفة أشبه بالخفقان، والقبض أشبه بالاطمئنان. والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن.

والآن وقد تلقى موسى ما تلقى، وقد شاهد كذلك ما شاهد، وقد رأى الآيتين الخارقتين، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن .. الآن يعرف ماوراء الآيات، والآن يتلقى التكليف الذي كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه ..

Marfat.com

« فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوما فاسقين » . .

وإذن فهى الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذى تلقته أم موسى وهو طفل رضيع : « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . . الوعد اليقين الذى انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفساً ، وأنه خرج من بينهم طريدا ، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيدا . وهو فى حضرة ربه . وربه يكرمه بلقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه بآياته ، ويكرمه برعايته ، فماله لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتنقطع رسالته :

« قال : رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » . .

يقولها لا ليعتذر ، ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ؛ ولكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى مضيها فى طريقها ، لو لقى مايخاف . وهو الحرص اللائق بموسى القوى الأمين :

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون » .

إن هارون أفصح لسانا فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو ردء له معين ، يقوى دعواه ، ويخلفه إن قتلوه .

وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين :

« قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » . .

لقد استجاب ربه رجاءه ؛ وشد عضده بأخيه . وزاده على مارجاه البشارة والتطمين : « ونجعل لكما سلطانا » . . فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له فى الأرض سلطان ؛ ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار : « فلا يصلون إليكما » . . وحولكما من سلطان الله سياج ، ولكما منه حصن وملاذ .

ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التى يجبهان بها الطغاة . فإذا هى وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة : « بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

Marfat.com

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ؛ وتؤدى دورها مكشوفا بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس ، فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .

* * *

وينتهى هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوى الزمان ويطوى المكان ، فإذا موسى وهارون فى مواجهة فرعون ، بآيات الله البينات ؛ وإذا الحوار بين الهدى والضلال ؛ وإذا النهاية الحاسمة فى هذه الدنيا بالغرق ، وفى الحياة الأخرى باللعنة . فى سرعة واختصار :

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى : ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون : ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون ؛ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين » ..

إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التى تذكر فى سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ فى الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة .. وهذا الإسراع فى هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة فى السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل فى المواجهة أو تطويل .

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ...

وكأنما هى ذات القولة التى يقولها المشركون لمحمد – صلى الله عليه وسلم – فى مكة يومذاك .. « ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » .. فهى المماراة فى الحق الواضح الذى لا يمكن دفعه . المماراة المكرورة حينما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب .

Marfat.com

إنهم يدعون أنه سحر، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم، لم يسمعوا به فى آبائهم الأولين!

وهم لا يناقشون بحجة، ولا يدلون ببرهان، إنما يلقون بهذا القول الغامض الذى لا يحق حقاً ولا يبطل باطلا ولا يدفع دعوى. فأما موسى ـ عليه السلام ـ فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله. فما أدلوا بحجة ليناقشها، ولا طلبوا دليلا فيعطيهم، إنما هم يمارون كما يمارى أصحاب الباطل فى كل مكان وفى كل زمان، فالاختصار أولى والإعراض أكرم، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله:

«وقال موسى: ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون».

وهو رد مؤدب مهذب، يلمح فيه ولا يصرح. وفى الوقت ذاته ناصع واضح، ملىء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل. فربه أعلم بصدقه وهداه، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى، والظالمون فى النهاية لا يفلحون. سنة الله التى لا تتبدل. وإن بدت ظواهر الأمور أحيانا فى غير هذا الاتجاه. سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبى قومه.

وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا، ولعبا ومداورة، وتهكما وسخرية:

«وقال فرعون: ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى. فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى، وإنى لأظنه من الكاذبين»..

ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى.. كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التى كانت سائدة فى مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذى لا يدع لرأس أن يفكر، ولا للسان أن يعبر. وهم يرونه بشرا مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب!

ثم يتظاهر بالجد فى معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: «فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى».. فى السماء كما يقول! وبلهجة

Marfat.com

التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك فى صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة : « وإنى لأظنه من الكاذبين » !

وفى هذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهى محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية :

« واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » . .

فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر (التى جاء ذكرها فى مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل فى سور أخرى) .

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم » .

هكذا فى اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ فى اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم الذى ألقى فى مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمناً وملجأ . وهو ذاته الذى ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون فى جناب الله ، والمخافة إنما تكون فى البعد عن ذلك الجناب .

« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . .

فهى عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذبين . وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين فى مثل لمح البصر ، وفى أقل من نصف سطر !

وفى لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ؛ ويقف بفرعون وجنوده فى مشهد عجيب . . يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار :

« وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » . .

فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة !

« ويوم القيامة لا ينصرون » . .

فهى الهزيمة فى الدنيا ، وهى الهزيمة فى الآخرة ، جزاء البغى والاستطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هى اللعنة فى هذه الأرض ، والتقبيح فى يوم القيامة .

وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ولفظة « المقبوحين » ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقزز

Marfat.com

والاشمئزاز . ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه ، والتطاول على الله وعلى عباد الله .

* * *

ويعبر السياق هنا مرحلة الخروج ببنى إسرائيل من مصر ، وما حدث خلالها من أحداث . ليعجل بعرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون :

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس ، وهدى ورحمة ، لعلهم يتذكرون » . .

هذا نصيب موسى . وهو نصيب عظيم . وهذه عاقبة موسى . وهى عاقبة كريمة . . كتاب من الله يبصر الناس كأنه بصائرهم التى بها يهتدون ، « وهدى ورحمة » . . « لعلهم يتذكرون » . . يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين ، فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير ، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين .

* * *

وهكذا تنتهى قصة موسى وفرعون فى هذه السورة . شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا فى جانب الله . وأن المخافة لا تكون إلا فى البعد عن الله . ذلك إلى تدخل يد القدرة سافرة متحدية للطغيان والطغاة ، حين تصبح القوة فتنة يعجز عن صدها الهداة . وهى المعانى التى كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى الاطمئنان إليها . وكان المشركون المستكبرون فى حاجة إلى تدبرها . وهى المعانى المتجددة الدائمة حينما كانت دعوة إلى الهدى، وحينما كان طغيان يقف فى وجه الهدى .

وهكذا يجىء القصص فى القرآن مادة تربية للنفوس ، وتقرير لحقائق وسنن فى الوجود « لعلهم يتذكرون » . .

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ، وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو

Marfat.com

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَيَقُولُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى . أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ، وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ : فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

« وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا . أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا

Marfat.com

أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ : ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ * قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٧٥)

Marfat.com

مضت قصة موسى – عليه السلام – بدلالاتها التي وضحت في الدرس الماضي . فأما في هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ؛ ثم يمضي السياق في طريقه على محور السورة الأصيل ، يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون ، وفي مشاهد الحشر ، وفيما هم فيه من الأمر ؛ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم –صلى الله عليه وسلم– وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون .

* * *

والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحي . فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ؛ وما كان حاضر أحداثها ، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك ، « فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . .

« وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر : وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ؛ ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ؛ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثلما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون . قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » . .

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتا مع موسى – عليه السلام – بعد أجل محدد .. ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة (على ما ذكر في سورة الأعراف)

Marfat.com

وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح ، لتكون شريعته فى بنى إسرائيل . وما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاهدا لهذا الميقات ، حتى يعلم نبأه المفصل ، كما ورد فى القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس ـ أى أجيالا متطاولة: « ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » . فتلك دلالة على أن الذى نبأه به هو العليم الخبير ، الذى يوحى إليه بالقرآن الكريم .

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين ، ومقام موسى ـ عليه السلام ـ بها وتلاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان مقيما فى أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذى جاءت فيه : « ولكنا كنا مرسلين » بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين .

كذلك صور القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وما سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ النداء ، وما سجل فى وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ـ فقد كانت الرسالات فى بنى إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل : « لعلهم يتذكرون » .

فهى رحمة الله بالقوم . وهى حجته كذلك عليهم ، كى لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب ـ وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب ـ فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان :

« ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين ! » ..

كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعه الحق الذى لا مرية فيه لم يتبعوه :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون » ..

Marfat.com

وهكذا لم يذعنوا للحق ، واستمسكوا بالتعلات الباطلة : « قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى » إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التى نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة .

ولكنهم لم يكونوا صادقين فى حجتهم ، ولا مخلصين فى اعتراضهم : « أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ » ولقد كان فى الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكتوبة فى التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر :

« قالوا: سحران تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون » !

فهو المراء إذن واللجاجة، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى فى الإفحام والإحراج . يقول لهم : إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه :

« قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين » !

وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذى لا يستند إلى دليل :

« فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

إن الحق فى هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذى يصده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما مماراة فى الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض فى العقيدة ، أو ضعف فى الحجة ، أو نقص فى الدليل . كما يدعى أصحاب الهوى المغرضون .

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » ..

Marfat.com

وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين معرضون غير معذورين. متجنون لا حجة لهم ولا معذرة ، متبعون للهوى ، معرضون عن الحق الواضح :

« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ » . .

وهم فى هذا ظالمون باغون :

« إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

إن هذا النص ليقطع الطريق على المتعذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علما بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله . « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل .

« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » . .

* * *

وحين تنتهى هذه الجولة ، فيتبين منها التواؤهم ومراؤهم ، يأخذ معهم فى جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية . تتجلى هذه الصورة فى فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم :

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين » . .

قال سعيد ابن جبير - رضى الله عنه - نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ عليهم : « يس والقرآن الحكيم » حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ؛ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ » . . .

Marfat.com

وروى محمد ابن إسحاق فى السيرة : « ثم قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه ، وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام ، فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا » .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أى ذلك كان . قال : ويقال والله أعلم: إن فيهم نزلت هذه الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ » .

قال : وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ والآيات اللاتى فى سورة المائدة : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ... إلى قوله ـ فاكتبنا مع الشاهدين » .

وأياً ما كان الذين نزلت فى أمرهم هذه الآيات ، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه . كى يقفهم وجها لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلق هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؛ وتحتمل فى سبيل الحق الذى آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء ، وتصبر على الحق فى وجه الأهواء ووجه الإيذاء .

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » . .

وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، من أوتى أوله عرف الحق فى آخره ، فاطمأن له ، وآمن به ،وعلم أنه من عند الله الذى نزل الكتاب كله.

« وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين » ...

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل

Marfat.com

أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذى لا يكذب . « إنه الحق من ربنا » . . « إنا كنا من قبله مسلمين » . والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين .

هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه :

« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » . .

الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين فى الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، جزاء على ذلك الصبر ، وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا ، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية ، وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم فى المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة فى كل زمان ومكان :

« ويدرأون بالحسنة السيئة » . .

وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس ، ورغبتها فى دفع السخرية ، ورد الأذى ، والشفاء من الغيظ ، والبرد بالانتقام ! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التى ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون مايلقون من الناس راضين مطمئنين.

« ومما رزقناهم ينفقون » . .

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد: منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض. الأولى فى النفس ، والثانية فى المال . وكثيرا ما يردان متلازمين فى القرآن .

وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة :

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم . لا نبتغى الجاهلين » . .

واللغو فارغ الحديث ، الذى لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذى يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا ، ولا معرفة مفيدة . وهو البذىء من القول الذى يفسد الحس واللسان ، سواء : أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب .

Marfat.com

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر، ولا تعنى بهذا البذاء . فهى مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره :

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . .

ولكنهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم فى جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم فى موادعة وسلام .

« وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم » . .

هكذا فى أدب ، وفى دعاء بالخير ، وفى رغبة فى الهداية .. مع عدم الرغبة فى المشاركة :

« لا نبتغى الجاهلين » . .

ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم فى لغوهم أو نسمع إليه صامتين !.

إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسىء .

* * *

هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهدى من يحب . إنما يهدى الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان . .

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين » . .

ورد فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان يحوطه وينصره ، ويقف دونه فى وجه قريش ، ويحميه حتى يبلغ دعوته ، ويحتمل فى سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبنى هاشم وحصارهم فى الشعب . ولكنه إنما يفعل ذلك كله حبا لابن أخيه ، وحمية وإباء ونخوة . فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فلم يكتب الله له هذا ، لما يعلمه سبحانه من أمره . .

Marfat.com

قال الزهرى: حدثنى سعيد ابن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومى - رضى الله عنه - قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد عنده أبا جهل ابن هشام وعبدالله ابن أمية ابن المغيرة. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدالله ابن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فأنزل الله تعالى: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى». وأنزل فى أبى طالب: «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» .. (أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى).

ورواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد ابن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال: لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: «يا عماه. قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون: ما حمله عليها إلا جزع الموت لأقررت بها عينك. لا أقولها إلا لأقر بها عينك. ونزل قول الله تعالى: «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين».

وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى وقتادة أنها نزلت فى أبى طالب. وكان آخر ما قاله: هو على ملة عبد المطلب.

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته. فهذا عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكافله وحاميه والذائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدة حبه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشدة حب رسول الله له أن يؤمن. ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة، ولم يقصد إلى العقيدة. وقد علم الله هذا منه، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويرجوه. فأخرج هذا الأمر - أمر الهداية - من حصة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجعله خاصا بإرادته سبحانه وتقديره. وما على الرسول إلا البلاغ. وما على الداعين بعده إلا النصيحة. والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمان، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال.

***

Marfat.com

والآن يجيء السياق إلى قوانهم التي قالوها للرسول - صلى الله عليه وسلم - معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التي تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فيبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخي ، ومن حاضرهم الذي يشهدونه ، بعد ما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة في البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسل والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضآلة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله .

«وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون . وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا،وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون . وما أوتيتم من شيء فتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

إنها النظرة السطحية القريبة ، والتصور الأرضي المحدود ، هو الذي أوحي لقريش وهو الذي يوحي للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغري بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار :

« وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ..

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ؛ وأن هذا ليس وهما وليس قولا يقال لطمأنة القلوب . إنما هو

Marfat.com

حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها فى الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذى ارتضاه له . والذى يتبع هدى الله يستمد مما فى هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوى إلى ركن شديد ، فى واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة فى هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ ولا يقتضى إلغاء هــذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطها معا برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة فى هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف ؛ بعد إعدادها لحمل هــذه الأمانة . أمانة الخلافة فى الأرض وتصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها فى ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم فى وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذى وهبهم الأمن ؟ ومن الذى جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذى جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ؟ تتجمع فى الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت فى مواطنها ومواسمها الكثيرة :

« أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ » . .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذى مكن لهم هــذا

Marfat.com

الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟!

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله . فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا ، وأن يأمنوا التخطف حقا ، فهاهى ذى علة الهلاك فليتقوها :

« وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » ..

إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التى يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية .. « لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قصة البطر بالنعمة ؛ وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا ، ولم يرثها بعدهم أحد « وكنا نحن الوارثين » .

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل فى أمها رسولا . فتلك هى سنته التى كتبها على نفسه رحمة بعباده :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » ..

وحكمة إرسال الرسول فى أم القرى ـ أي كبراها أو عاصمتها ـ أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ماجاءهم النذير . « وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .. يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو إلا شىء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله :

« وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟ » .

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؛ ولا لما

Marfat.com

يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل مافى هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ ، وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله « متاع الحياة الدنيا وزينتها » . . « وما عند الله خير وأبقى » خير فى طبيعته وأبقى فى مدته .

« أفلا تعقلون؟ » ..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجىء التعقيب فى هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل فى الاختيار !

وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتى الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار :

« أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده فى الآخرة حقا وهو لابد لاقيه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم هاهو ذا فى الآخرة محضر إحضاراً للحساب . والتعبير يوحى بالإكراه « من المحضرين » الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد !

وتلك نهاية المطاف فى الرد على مقالتهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » فحتى لو كان ذلك كذلك ، فهو خير من أن يكونوا فى الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن فى الدنيا والتمكين ، ومعه العطاء فى الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى فى هذا الكون ، ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار .

* * *

وعندما يصل بهم إلى الشاطىء الآخر يجول بهم جولة أخرى فى مشهد من مشاهد القيامة ، يصور مغبة ماهم فيه من الشرك والغواية :

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل : ادعوا

Marfat.com

شركائكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون .

« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فعسى أن يكون من المفلحين » ..

والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب :

« أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ » ..

والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئاً ، ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الخزى والفضيحة على رؤوس الأشهاد .

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصدهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون :

« ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا؛ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون» !

ربنا إننا لم نغوهم قسرا ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؟ إنما هم وقعوا فى الغواية عن رضى منهم واختيار ، كما وقعنا نحن فى الغواية دون إجبار . « تبرأنا إليك » من جريمة إغوائهم . « ماكانوا إيانا يعبدون » إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقا من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة !

عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التى حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله :

« وقيل : ادعوا شركاءكم » ..

ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم !

والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين :

« فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » ..

ولم يكن منتظرا غير ذاك ، ولكنه الإذلال والإعنات !

« ورأوا العذاب » ..

Marfat.com

رأوه فى هذا الحوار . ورأوه ماثلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب .

وهنا فى اللحظة التى يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذى يرفضونه ، وهو أمنية المتمنى فى ذلك الموقف المكروب : وهو بين أيديهم فى الدنيا لو أنهم إليه يسارعون :

« لو أنهم كانوا يهتدون » ..

ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب :

« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ » .

وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب وصمت الذى لا يجد ما يقول :

« فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » .

والتعبير يلقى ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئا عن أى شئ ! ولا يملكون سؤالا ولا جوابا . وهم فى ذهولهم صامتون ساكتون !

« فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين » . .

وهذه هى الصفحة المقابلة . ففى الوقت الذى يبلغ الكرب ذروته بالمشركين ، يتحدث عمن تاب وآمن وعمل صالحا ، وما ينتظره من الرجاء فى الفلاح . ولمن شاء أن يختار . وفى الوقت فسحة للاختيار !

* * *

ثم يرد أمرهم وأمر كل شئ إلى إرادة الله واختياره ؛ فهو الذى يخلق كل شئ ، ويعلم كل شئ ، وإليه مرد الأمر كله فى الأولى والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم فى الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالله يخلق ما يشاء ويختار :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون » . .

وهذا التعقيب يجئ بعد حكاية قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » وبعد

Marfat.com

استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية .. يجئ لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه فى النهاية .

« وربك يخلق ما يشاء ويختـار . ما كان لهم الخيرة » ..

إنها الحقيقة التى كثيرا ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق مايشاء؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولاأن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا ، ولا أن يعدل أو يبدل فى خلقه شيئا . وإنه هو الذى يختـار من خلقـه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولا ولا فعلا . . « ما كان لهم الخيرة » لا فى شأن أنفسهم ولا فى شأن غيرهم، ومرد الأمر كله إلى الله فى الصغير والكبير . .

هذه الحقيقة لو استقرت فى الأخلاد والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شئ ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شئ يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذى يختار .

وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع ـ بعد أن يبذلوا مافى وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار ـ بالرضى والتسلم والقبول . فإن عليهم مافى وسعهم والأمر بعد ذلك لله .

ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له فى خلقه ولا فى اختياره . .

« سبحان الله وتعالى عما يشركون » . .

« وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » ..

فهو يجازيهم بما يعلم من أمرهم ، يختار لهم ماهم له أهل ، من هدى أو ضلال .

« وهو الله لا إله إلا هو » .. فلا شريك له فى خلق ولا اختيار .

« وله الحمد فى الأولى والآخرة » . . على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره ، وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء .

« وله الحكم » .. يقضى فى عباده بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه .

« وإليه ترجعون » . . فيقضى بينكم قضاءه الأخير ..

Marfat.com

وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته فى هذا الوجود واطلاعه على سرهم وعلانيتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم فى قبضته لا يفلتون ؟

***

ثم يجول بهم جولة فى مشاهد الكون الذى يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتى الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار :

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون ؟. قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ..

والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التى لا تبلى . ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما فى تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار ، أو التعطل والبوار ، أو الملل والهمود .

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملى الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا ، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . ومايشعر الإنسان بقيمة الشىء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان.

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ » . .

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا فى أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار !

Marfat.com

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ »[1] . .

والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات فى الصيف . ويجدون فى ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة فى نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار !

ألا إن كل شىء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون بتدبير . وكل شىء عنده بمقدار :

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . .

فالليل سكينة وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، وللتجه فيه إلى فضل الله . فما يعطى الناس شيئا إلا من فضله « ولعلكم تشكرون » ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالى الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التى لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار .

* * *

ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء . ويقفهم وجها لوجه أمام أباطيلهم المدعاة ، حيث تتذاوب وتتهاوى فى موقف السؤال والحساب :

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا : هاتوا برهانكم . فعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » . .

وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق فى جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذى يعرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيها الذى يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ، والمقصود

(١) حين ذكر الليل لو كان سرمدا قال : « أفلا تسمعون ؟ » وحين ذكر النهار لو كان سرمدا قال: « أفلا تبصرون ؟ » ذلك أن السمع هو حاسة الليل والبصر هو حاسة النهار وذلك من التناسق الفنى فى الأداء .

Marfat.com

إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفى مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ؛ ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة :

« فعلموا أن الحق لله » . . الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة .

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . من شرك ومن شركاء ، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! فى وقت حاجتهم إليه فى موقف الجدل والبرهان !

* * *

بهذا تنتهى التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب فى تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد . وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوفت بها فى جنبات الكون وفى أغوار النفس ، وفى مصارع الغابرين ، وفى سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين فى السورة : قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ .

Marfat.com

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَىْ ! كَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَىْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ .

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَن جَاءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ٨٤

مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون ، وقد عرضت فما قوة السلطان والحكم ، وكيف باءت بالبوار مع البغى والظلم ، والكفران بالله ، والبعد عن هداه . والآن تجىء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهى بالبوار مع البغى والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن فى الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو فى الأرض ولا فساد .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفى بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى فى مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج فى حياة موسى ؟ أم وقعت فى بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول : إنه كان ابن عم لموسى — عليه السلام — وأن الحادث وقع فى زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى ، ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة فى مقابل رشوة من المال ، فبرأ الله موسى وأذن له فى قارون ، فخسفت به الأرض . .

ولسنا فى حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت فى القرآن كافية لأداء الغرض منها فى سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التى جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد فى دلالتها شيئا ما ترك

Marfat.com

تحديدها . فلنستعرضها إذن فى صورتها القرآنية، بعيدة عن تلك الروايات التى لا طائل وراءها..

* * *

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى » ..

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها « قارون » وتحدد قومه « قوم موسى » وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغى « فبغى عليهم » وتشير إلى سبب هذا البغى وهو الثراء : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » ..

ثم تمضى بعد ذلك فى استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التى صاحبتها فى النفوس .

لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر فيم كان البغى ، ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم - كما يصنع طغاة المال فى كثير من الأحيان - وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم فى ذلك المال . حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب .

وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغى ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذى يرضاه الله فى التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ؛ ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب :

« إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » .

Marfat.com

وفى هـذا القول جماع ما فى المنهج الإلهى القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

« لا تفرح » . . فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر الذى ينسى المنعم بالمال ؛ وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذى يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد ..

« إن الله لا يحب الفرحين » . . فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذى لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين ، المتطاولين بسلطانه على الناس .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا ، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها . والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التى لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

« وأحسن كما أحسن الله إليك » . . فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة وإحسان الشكران .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض » . . الفساد بالبغى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء . والفساد

Marfat.com

بإنفاق المال فى غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

« إن الله لا يحب المفسدين » . . كما أنه لا يحب الفرحين .

كذلك قال له قومه : فكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معانى الفساد والإفساد :

« قال : إنما أوتيته على علم عندى » !

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمى الذى طوع لى جمعه وتحصيله . فما لكم تملون على طريقة خاصة فى التصرف فيه ، وتتحكمون فى ملكيتى الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدى الخاص ، واستحققته بعلمى الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر فى البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردى الذى بذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ؛ ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه . ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ، ولا فى إمساكه حتى التقتير ؛ ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال ، ورقابتها على طرق تحصيله ، وطرق تنميته . وطرق إنفاقه والاستمتاع به . وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم وفى بطر ذميم .

ومن ثم جاء التهديد قبل تمام الآية ، ردا على قولته الفاجرة المغرورة :

« أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر

Marfat.com

مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجى . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد !

« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » !

* * *

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغى والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالى على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجىء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتى قارون ، و يحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين ، فى ثقة وفى يقين :

« فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثلما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان فى الميزان :

« قال الذين يريدون الحياة الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم » ..

وفى كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ماهو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأى الوسائل نال مانال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على مافى أيدى المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذى أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذى خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التى اتخذوها .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال

Marfat.com

والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم « الذين أوتوا العلم » . العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم :

« وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون » .

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان .

* * *

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما . ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا :

« فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » . .

هكذا فى جملة قصيرة ، وفى لمحة خاطفة : « فخسفنا به وبداره الأرض » فابتلعته وابتلعت داره ، وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال .

وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاضية إلى الله ؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال . وكان هذا المشهد الأخير :

« وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : وى ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن من الله علينا لخسف بنا . وى ! كأنه لا يفلح الكافرون » . .

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس ، ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى

Marfat.com

الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين ، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين .

***

ويسدل الستار على هذا المشهد . وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة . وقد رجحت قيمة الإيمان فى كفة الميزان .. ثم يأخذ فى التعقيب فى أنسب أوان :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا. والعاقبة للمتقين » ..

تلك الآخرة التى تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .. فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ؛ ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، ومنهجه فى الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا ؛ ولا يبغون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية .

« والعاقبة للمتقين » الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه .

وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا :

« من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » ..

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ..

Marfat.com

والآن وقد انتهى القصص ، وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن خلفه القلة المسلمة التى كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مخرج من بلده ، مطارد من قومه ، وهو فى طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذى يحبه ، والذى يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى موقفه ذاك :

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . .

فما هو بتاركك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ماهو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويفتنون المؤمنين من حولك . إنما فرض عليك القرآن لينصرك به فى الموعد الذى قدره ، وفى الوقت الذى فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارد ، ولكنك غدا منصور إليه عائد .

وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد فى ذلك الظرف المكروب ، ليمضى - صلى الله عليه وسلم - فى طريقه آمنا واثقا ، مطمئنا إلى وعد الله الذى يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه .

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين فى الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى فى سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله فى وجه الطغيان فى النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما فى وسعه ، ويخلى عاتقه ، ويؤدى واجبه .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التى خرج منها هاربا مطاردا . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملأه ، وكانت العاقبة للمهتدين . . فامض إذن فى طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذى فرض عليك القرآن :

Marfat.com

«قل : ربي أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو في ضلال مبين » ..

ودع الأمر لله يجازي المهتدين والضالين .

وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه :

« وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » ..

وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق مايشاء ويختار ،فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان . ولكن الله - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - قد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقي ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره ربه - بما أنعم عليه بهذا الكتاب - ألا يكون ظهيراً للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ؛ ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة في وجه الشرك والمشركين .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين ؛ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون » ..

إنه الإيقاع الأخير في السورة ، يفصل مابين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطريقه ومابين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقهم إلى يوم القيامة .. الإيقاع الأخير ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين » .. فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ، ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ؟ وفيم يتعاونان ؟

Marfat.com

« ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » . . فطريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يمضوا فى طريقهم لا يلويهم عنها الملوون ، ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤتمنون .

« وادع إلى ربك » .. دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمغنم ، ولا لتمليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها ، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق .

« ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر » يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهى عن الشرك والنهى عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق فى العقيدة بين الصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وآدابها وأخلاقها وتكاليفها وتشريعاتها جميعا . وهى المحور الذى يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هى تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع .

ثم يمضى فى التوكيد والتقرير :

« لا إله إلا هو » .. « كل شىء هالك إلا وجهه » .. « له الحكم » .. « وإليه ترجعون » ..

« لا إله إلا هو » .. فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية إلا له ، ولا قوة إلا قوته ، ولا ملاذ إلا حماه .

« كل شىء هالك إلا وجهه » .. فكل شىء زائل . وكل شىء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله .. كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقى . متفردا بالبقاء .

« له الحكم » .. يقضى بما يشاء ، ويحكم كما يشاء ، لا يشركه فى حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه .

Marfat.com

« وإليه ترجعون » . . فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضائه ، ولا ملجأ دونه ولا مهرب .

* * *

وهكذا تختم السورة التى تتجلى فيها يد القدرة سافرة ، تحرس الدعوة إلى الله وتحميها ، وتدمر القوى الطاغية الباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة : وحدانية الله سبحانه وتفرده بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليمضى أصحاب الدعوات فى طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفى يقين . .

Marfat.com

سورة العنكبوت مكية
وآياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا . وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! * مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِٱللَّهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ ؟ * وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ .

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » ⑬

Marfat.com

سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر « الجهاد » فيها وذكر « المنافقين » . . ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد فى سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت فى إسلام سعد ابن أبى وقاص كما سيجىء . وإسلام سعد كان فى مكة بلا جدال ؛ وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التى قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح فى السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

والسورة كلها متماسكة فى خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ؛ وعن تكاليف الإيمان الحقة التى تكشف عن معدنه فى النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف فى طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ؛ فإن سياقها يمضى بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن فى طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال .

ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة فى وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذها الله جميعا :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » . .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا يجسم وهنها وتفاهتها :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

ويربط بعد ذلك بين الحق الذى فى تلك الدعوات والحق الذى فى خلق السماوات والأرض؛ ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلها من عند الله ، وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يمضى فى الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال

Marfat.com

المشركين له ؛ وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون فى منطقهم : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » . . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ! » . . « فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » . . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين .

وفى ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة ، غير خائفين من الموت ، إذ « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » . غير خائفين من فوات الرزق : « وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » . .

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين فى الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . . فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق فى السورة ، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام ، حول محورها الأول وموضوعها الأصيل .

* * *

ويمضى سياق السورة حول ذلك المحور الواحد فى ثلاثة أشواط :

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والمنافقين والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة : « وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » . .

والشوط الثانى يتناول القصص الذى أشرنا إليه ، وما يصوره من فتن وعقبات فى طريق الدعوات والدعاة ، والتهوين من شأنها فى النهاية حين تقاس إلى قوة الله . ويتحدث عن الحق الكامن فى دعوة الرسل ، وهو ذاته الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض . وكله من عند الله .

والشوط الثالث يتناول النهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى . إلا الذين ظلموا منهم. وعن وحدة الدين كله ، واتحاده مع هذا الدين الأخير الذى يجحد به الكافرون ، ويجادل فيه المشركون . ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين فى الله المهديين إلى سبل الله : « وإن الله لمع المحسنين » . .

* * *

Marfat.com

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته . تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ؛ فإما النهوض بها وإما النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذى يفضحه الله .

وهى إيقاعات لا سبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التى وردت فيها . فنكتفى بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها فى موضعها مع السياق .

* * *

« ألف . لام . ميم » . .

الحروف المقطعة التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أنها مادة الكتاب الذى أنزله الله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – مؤلفا من مثل هذه الحروف ، المألوفة للقوم ، الميسرة لهم ليؤلفوا منها ما يشاؤون من القول ؛ ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب . لأنه من صنع الله لا من صنع إنسان .

وقد قلنا من قبل : إن السور التى صدرت بهذه الحروف تتضمن حديثا عن القرآن ، إما مباشرة بعد هذه الحروف ، وإما فى ثنايا السورة ، كما هو الحال فى هذه السورة . فقد ورد فيها : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » . . « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب » . . « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » . . « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » . . مما يتمشى مع القاعدة التى اخترناها لتفسير هذه الأحرف فى افتتاح السور .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ الحديث عن الإيمان ، والفتنة التى يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

إنه الإيقاع الأول فى هذا المقطع القوى من السورة . يساق فى صورة استفهام استنكارى لمفهوم الناس للإيمان ، وحسبانهم أنه كلمة تقال باللسان .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ » . .

Marfat.com

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ــ وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه ــ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه :

« ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد مايعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه !

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة . فهي أمانة كريمة ؛ وهي أمانة ثقيلة ؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة ، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم

Marfat.com

التى يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أشير فى هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنـة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم فى طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منـكر لا يحس به أحد ، ولا يحامى عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذى معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملـكون من أمر الحياة شيئا .

وهنالك فتنة الغربة فى البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا فى تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة فى هـذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة فى الرذيلة ، وهى مع ذلك راقية فى مجتمعها ، متحضرة فى حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية مايناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهى مشاقة لله !

وهنالك الفتنة الـكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبيـة الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة فى المتاع والسلطان ، أو فى الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس ، وفى ملابسات الحياة ، وفى منطق البيئة ، وفى تصورات أهل الزمان !

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف ، ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون فى أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الـكبرى ، أمانة السماء فى الأرض ، وأمانة الله فى ضمير الإنسان .

وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولـكنه الإعداد الحقيق لتحمل الأمانة . فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لايتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيق على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيق على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية فى نصر الله أو فى ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفى عنها الخبث ؛ وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع . وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد

Marfat.com

بالجماعات ، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا ، وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالا بالله ، وثقة فيما عنده من الحسنيين : النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية فى النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار .

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهى عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالى الثمن ؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؛ وبما ذاقوا فى سبيلها من الآلام والتضحيات . والذى يبذل من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته . ثم يصبر على الأذى والحرمان ؛ يشعر ولاشك بقيمة الأمانة التى بذل فيها ما بذل ؛ فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق فى النهاية فأمر تكفل به وعد الله . وما يشك مؤمن فى وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدرة ، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله . وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم بأن فى دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء :

جاء فى الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء » . .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فماهم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليه الانتصار والفلاح . وعد الله كذلك وسنته فى نهاية المطاف :

« أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ! » . .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولاسابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذى جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذى جعل أخذ المسيئين سنة لاتتبدل ولا تتخلف ولا تحيد .

وهذا هو الإيقاع الثانى فى مطلع السورة ، الذى يوازن الإيقاع الأول ويعادله . فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لابد أن تجىء .

Marfat.com

أما الإيقاع الثالث فيتمثل فى تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به فى ثقة وفى يقين :

« من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم » ..

فلتقر القلوب الراجية فى لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء فى شوق ولكن فى يقين .

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجى المشتاق ، الموصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها على تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها : « وهو السميع العليم » .

والإيقاع الرابع يواجه القلوب التى تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لغنى عن كل أحد :

« ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » ..

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فإنما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير لهم فى الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاقه ؛ ويستعلى به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل ما فى كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد .

« ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » .

فلا يقفن أحد فى وسط الطريق ، وقد مضى فى الجهاد شوطا ؛ يطلب من الله ثمن جهاده ؛ ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطىء المكافأة على ماناله ! فإن الله لا يناله من جهاده شىء . وليس فى حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل : « إن الله لغنى عن العالمين » . وإنما هو فضل من الله أن يعينه فى جهاده ، وأن يستخلفه فى الأرض به ، وأن يأجره فى الآخرة بثوابه :

Marfat.com

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

فليطمئن المؤمنون العاملون على مالهم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات . وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل المشرق والجزاء الطيب ، ينتظرانهم فى نهاية المطاف . وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته فى الحياة الانتصاف .

* * *

ثم يجيء إلى لون من ألوان الفتنة أشرنا إليه فى مطلع السورة : فتنة الأهل والأحباء . فيفصل فى الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط ، لا إفراط فيه ولا تفريط :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » . .

إن الوالدين لأقرب الأقرباء . وإن لهما لفضلا ، وإن لهما لرحما ؛ وإن لهما لواجبا مفروضا : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله . وهذا هو الصراط : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » . .

إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى . فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع . وإن هى إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله .

« إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . .

ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين . فإذا المؤمنون أهل ورفاق ، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » . .

وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ؛ وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، وتنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، فهى روابط عارضة لا أصيلة ، لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها .

Marfat.com

روى الترمذي عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد ابن أبي وقاص ـ رضى الله عنه ـ وأمه حمنة بنت أبي سفيان ، وكان بارا بأمه . فقالت له : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتعير بذلك أبد الدهر ، يقال : ياقاتل أمه . ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلي . فلما أيست منه أكلت وشربت. فأنزل الله هذه الآية آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك .

وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ؛ واستبقى الإحسان والبر . وإن المؤمن لعرضة لمثل هذه الفتنة في كل آن ؛ فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان .

* * *

ثم يرسم صورة كاملة لنموذج من النفوس في استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء ، ثم الادعاء العريض عند الرخاء . يرسمها في كلمات معدودات ، صورة واضحة الملامح بارزة السمات :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله . فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين » ..

ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تكلف إلا نطقها باللسان ، « فإذا أوذى في الله » بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى « جعل فتنة الناس كعذاب الله » فاستقبلها في جزع ، واختلت في نفسه القيم ، واهتزت في ضميره العقيدة ؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذى يلقاه ، حتى عذاب الله ؛ وقال في نفسه : ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء ، فعلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذى لا يعرف أحد مداه .

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة .

« ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم » !

إنا كنا معكم . . وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوى ،

Marfat.com

وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجيء الرخاء تنبث الدعوى العريضة ، وينتفش المنزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون : « إنا كنا معكم » !

« أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ » . .

أو ليس يعلم ما تنطوى عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن الذى يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون ؟

« وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » . .

وليكشفنهم فيعرفون ؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون .

ونقف لحظة أمام التعبير القرآنى الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ فى هذا النموذج من الناس حين يقول :

« جعل فتنة الناس كعذاب الله » . .

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب ، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين فى بعض اللحظات ــ وللطاقة البشرية حدود ــ ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة فى تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل ، وبين عذاب الله العظيم ؛ فلا يختلط فى حسهم أبدا عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير ، حتى فى اللحظة التى يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال . . . إن الله فى حس المؤمن لا يقوم له شىء ، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله . . وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان فى القلوب والنفاق .

***

وأخيرا يعرض فتنة الإغواء والإغراء ؛ ويعرض معها فساد تصور الذين كفروا للتبعة والجزاء ؛ ويقرر فردية التبعة وشخصية الجزاء . وهو المبدأ الإسلامى الكبير ، الذى يحقق العدل فى أجلى مظاهره ، وأفضل أوضاعه :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم . وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء . إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » . .

Marfat.com

وقد كان الذين كفروا يقولون هـذا تمشيا مع تصورهم القبلى فى احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها . ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء فى الآخرة إطلاقا :

« اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ..

ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذه بعمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا :

« وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء » ..

ويجبههم بما فى قولتهم هذه من كذب وادعاء :

« وإنهم لـكاذبون » ..

ويحملهم وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعفى هؤلاء من تبعة الضلال :

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

ويغلق هـذا الباب من أبواب الفتنة ؛ فيعلم النـاس أن الله لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرئ بما كسب رهين ..

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ⑭ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

« وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ ، وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ .

Marfat.com

«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ : سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ . ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِىءُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . فَأَنجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ : إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقَالَ : إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ، وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ : إِلَّا أَنْ قَالُوا : ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * قَالَ : رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ .

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ : إِنَّ فِيهَا لُوطًا . قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

Marfat.com

« وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقَالُوا : لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

« وَعَادًا وَثَمُودَ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

« وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

« فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

« خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » ﴿٤٥﴾

Marfat.com

انتهى الشوط الأول بالحديث عن سنة الله فى ابتلاء الذين يختارون كلمة الإيمان ، وفتنتهم حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . وقد أشار إلى الفتنة بالأذى ، والفتنة بالقرابة ، والفتنة بالإغواء والإغراء .

وفى هذا الشوط يعرض نماذج من الفتن التى اعترضت دعوة الإيمان فى تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام . يعرضها ممثلة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية . مفصلا بعض الشيء فى قصة إبراهيم ولوط ، مجملا فيما عداها .

وفى هذا القصص تتمثل ألوان من الفتن ، ومن الصعاب والعقبات فى طريق الدعوة .

ففى قصة نوح ـ عليه السلام ـ تتبدى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم لم يؤمن له إلا القليل « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » ..

وفى قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطغيان الضلال . فقد حاول هداهم ماستطاع ، وجادلهم بالحجة والمنطق : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه » .

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها ، وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ؛ مع الاستهتار بالنذير : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » ..

وفى قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة .

كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق .

ويعقب على هذا القصص بمثل يضربه لهوان القوى المرصودة فى طريق دعوة الله ، وهى مهما علت واستطالت « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وينتهى هذا الشوط بدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتلو الكتاب ، وأن يقيم الصلاة ، وأن يدع الأمر بعد ذلك لله « والله يعلم ماتصنعون » ..

***

Marfat.com

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » . .

والراجح أن فترة رسالته التى دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاما . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعى ولا مألوف فى أعمار الأفراد . ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر فى هذا الوجود ـ وهذا وحده برهان صدقه ـ فإذا أردنا له تفسيرا فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلا ومحدودا ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار . وهذه الظاهرة ملحوظة فى أعمار كثير من الأحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما فى النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة . حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الذباب الذى يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور(1)

ومن ثم يطول عمر الصقر . وتقل أعمار بغاث الطير . ولله الحكمة البالغة . وكل شىء عنده بمقدار . ولم تثمر ألف سنة ـ إلا خمسين عاما ـ غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح . وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة ، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفينة . ومضت قصة الطوفان والسفينة « آية للعالمين » تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون .

* * *

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى . رسالة إبراهيم :

« وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا ، وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له ، إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . .

إنها دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ وهى مرتبة فى عرضها ترتيبا دقيقا يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات . .

(1) بغاث الطير : ضعافه . ومقلاة نزور ، أى مقلة فى الفراخ .

Marfat.com

لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها :

« اعبدوا الله واتقوه » . .

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم ، وما تتضمنه من الخير لهم ، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم ، واختيار الخير لأنفسهم . وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي !

وفي الخطوة الثالثة بين لهم فساد ماهم عليه من العقيدة من عدة وجوه : أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثانا ـ والوثن : التمثال من الخشب ـ وهي عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله .. وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما يخلقون إفكا وينشئون باطلا ، يخلقونه خلقا بلا سابقة أو مقدمة ، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة . . وثالثها : أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعا ، ولا ترزقهم شيئا :

« إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » . .

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم:

« فابتغوا عند الله الرزق » . .

والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان . ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس .

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشكروه :

« واعبدوه واشكروا له » . .

وأخيرا يكشف لهم أنه لامفر من الله ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين:

« إليه ترجعون » . .

فإن كذبوا ـ بعد ذلك كله ـ فما أهون ذلك ! فلن يضر الله شيئا ، ولن يخسر رسوله شيئا . فقد كذب الكثيرون من قبل ، وما على الرسول إلا واجب التبليغ :

« وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . .

Marfat.com

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة ، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة ، وهذه الخطوات تمد نموذجا لطريقة الدعوة جديرا بأن يتملاه أصحاب كل دعوة ، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب .

* * *

وقبل أن يمضي السياق إلى نهاية القصة ، يقف وقفة يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله على الإطلاق ؛ المكذبين بالرجعة إلى الله والبعث والمآب :

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي ، وأولئك لهم عذاب أليم » . .

إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه . خطاب دليله هذا الكون ؛ ومجاله السماء والأرض ؛ على طريقة القرآن في اتخاذ الكون كله معرضا لآيات الإيمان ودلائله ؛ وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب ، تبحث فيها عن آيات الله ، وترى دلائل وجوده ووحدانيته ، وصدق وعده ووعيده . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبدا لا تغيب عن إنسان . ولكنها تفقد جدتها في نفوس الناس بطول الألفة ؛ ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار . فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة ، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الوحي ، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها . ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر ، ولا يتخذ طرائق الجدل الذهني البارد والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة . . تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلت غريبة عليه ، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق . .

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ؟ ثم يعيده . إن ذلك على الله يسير » . .

وإنهم ليرون كيف يبدئ الله الخلق . يرونه في النبتة النامية ، وفي البيضة والجنين ، وفي كل مالم يكن ثم يكون ؛ مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم

Marfat.com

خالقوه ! وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ؛ معجز فى معرفة منشئه وكيف جاء – ودع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه – ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذى يبدئ الخلق فى كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وهم يرون ولا يملكون الإنكار !

فإذا كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم ؛ فالذى أنشأه يعيده :

« إن ذلك على الله يسير » . .

وليس فى خلق الله شئ عسير عليه تعالى . ولكنه يقيس للبشر بمقاييسهم . فالإعادة أيسر من البدء فى تقديرهم . وإلا فالبدء كالإعادة ، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله سبحانه . وإنما هو توجه الإرادة وكلمة : كن . فيكون . .

ثم يدعوهم إلى السير فى الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته فى الخلق والإنشاء ، فى الجامد والحى سواء ، ليدركوا أن الذى أنشأ يعيد بلا عناء :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شئ قدير » . .

والسير فى الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ولم يملها القلب . وهى لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش فى المكان الذى ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شئ من مشاهده أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر فى الأرض الجديدة ، مما كان يمر على مثله أو أروع منه فى موطنه دون التفات ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته . وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها ؛ أو كانت لا تفصح له بشئ ولا تناجيه !

فسبحان منزل هذا القرآن ، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس .

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . .

إن التعبير هنا بلفظ الماضى « كيف بدأ الخلق » بعد الأمر بالسير فى الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق . يثير فى النفس خاطرا معينا . . ترى هنالك فى الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التى يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط

Marfat.com

الحياة ؛ كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ ــ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء فى معرفة سر الحياة : ماهى ؟ ، ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حى ؟ــ ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة ..

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر . ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هـذا البحث العلمى الذى نشأ حديثا ؛ فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقـة المقصودة به ــ لو كان ذلك هو المقصود ــ فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا فى مقدورهم ، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة . ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة فى النبات والحيوان والإنسان فى كل مكان . ويكون السير فى الأرض كما أسلفنا لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر فى آثار قدرة الله على إنشاء الحيـاة التى تبرز فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

وهناك احتمال أهم يتمشى مع طبيعة هـذا القرآن ؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التى تناسب حياة الناس فى أجيالهم جميعا ، ومستوياتهم جميعا ، وملابسات حياتهم جميعا ، ووسائلهم جميعا . ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته . ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحيـاة ونموها أبدا . ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين .

هذا أقرب وأولى .

« إن الله على كل شيء قدير » ..

يبدأ الحياة ويعيدها بهـذه القدرة المطلقة التى لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة ، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن ، بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة !

ومن قدرة الله على كل شيء: تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب ؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد :

« يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء . وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » . .

والعذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله ؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ؛

Marfat.com

وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بعد ذلك ، وما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ورغبته في هداه ، ينتهيان به إلى عون الله له ـ كما كتب على نفسه ـ وإعراضه عن دلائل الهدى وصده عنها يؤديان به إلى الانقطاع والضلال . ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب .

« وإليه تقلبون » ..

تعبير عن المآب فيه عنف ، يناسب المعنى بعده :

« وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » ..

فليس لكم من قوة في هذا الوجود تمتنعون بها من الانقلاب إلى الله . لا من قوتكم في الأرض ، ولا من قوة ما تعبدونه أحيانا من الملائكة والجن وتحسبون له قوة في السماء .

« وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ..

وأين من دون الله الولي والنصير؟ أين الولي والنصير من الناس ؟ أو من الملائكة والجن ؟ وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فوق أن يملكوا لسواهم شيئا ؟

« والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم » ..

ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه . وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة معروفة : « وأولئك لهم عذاب أليم » ..

* * *

وبعد هذا الخطاب المعترض في ثنايا القصة ، الذي جاء خطابا لكل منكر لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضمنا .. بعد هذا الخطاب يعود لبيان جواب قوم إبراهيم ، فيبدو هذا الجواب غريبا عجيبا ، ويكشف عن تبجح الكفر والطغيان ، بما يملك من قوة ومن سلطان :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه . فأنجاه الله من النار . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

اقتلوه أو حرقوه .. ردا على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التي خاطب بها قلوبهم وعقولهم على النحو الذي بيناه قيمته في عرض الدعوات .

Marfat.com

وإذ أن الطغيان أسفر عن وجهه الـكالح ؛ ولم يكن إبراهيم ــ عليه السلام ــ يملك له دفعا ، ولا يستطيع منه وقاية . وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك . تتدخل بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر :

« فأنجاه الله من النار » ..

وكان فى نجاته من النار على النحو الخارق الذى تمت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان . ولـكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة ، فدل هذا على أن الخوارق لا تهدى القلوب ، إنما هو الاستعداد للهدى والإيمان :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

الآية الأولى هى تلك النجاة من النار . والآية الثانية هى عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هى أن الخارقة لا تهدى القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال .

ويمضى فى القصة بعد نجاة إبراهيم من النار . فلقد يئس من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة . فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم ، قبل أن يعتزلهم جميعا :

« وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيـاة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لـكم من ناصرين » ..

إنه يقول لهم : إنـكم اتخذتم الأوثان من دون الله ، لا اعتقادا واقتناعا بأحقية هـذه العبادة ؛ إنما يجامل بعضكم بعضا ، ويوافق بعضـكم بعضا ، على هذه العبادة ؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه ــ حين يظهر الحق له ــ استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة !

وإن هذا ليقع فى الجماعات التى لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضى الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه ! وهى الجد كل الجد . الجد الذى لا يقبل تهاونا و لا استرخاء ولا استرضاء .

ثم يـكشف لهم عن صفحتهم فى الآخرة . فإذا المودة التى يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة ، والتى يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها .. إذا هى يوم القيامة عداء ولعن وانفصام :

« ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » ..

يوم يتنكر التابعون للمتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوى صاحبه الذى أغواه !

Marfat.com

ثم لا يجدى ذلك الكفر والتلاعن شيئا ، ولا يدفع عن أحد عذابا :

« ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » ..

النار التى أرادوا أن يحرقوه بها ، فنصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة !

وانتهت دعوة إبراهيم لقومه ، والمعجزة التى لاشك فيها . انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط . ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات . وهاجر معه من أور الكلدانيين فى العراق ، إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام :

« فآمن له لوط ، وقال : إنى مهاجر إلى ربى ، إنه هو العزيز الحكيم » ..

ونقف أمام قولة لوط : « إنى مهاجر إلى ربى » .. لنرى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة . ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقربا له ملتجئا إلى حماه . هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله فى مهجره ، بعيدا عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء فى أن يفىء القوم إلى الهدى والإيمان بحال .

وعوض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله ـ عوضه عن هذا كله ذرية تمضى فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت فى ذريته . وهو عوض ضخم فى الدنيا وفى الآخرة :

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .

وهو فيض من العطاء جزيل ، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذى يتمثل فيه الخلوص لله بكليته ، والذى أجمع الطغيان على حرقه بالنار ، فكان كل شىء من حوله بردا وسلاما ، وعطفا وإنعاما . جزاء وفاقا .

* * *

ثم تأتى قصة لوط عقب قصة إبراهيم ، بعد ماهاجر إلى ربه مع إبراهيم ، فنزلا بوادى الأردن ؛ ثم عاش لوط وحده فى إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد . وكانت تسكن مدينة سدوم . وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة .

ثم حدث أن فشا فى القوم شذوذ عجيب ، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة فى تاريخ

Marfat.com

البشرية . ذلك هو الميل الجنسى المنحرف إلى الذكور بدلا من الإناث اللاتى خلقهن الله للرجال ، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطردة فى جميع الأحياء . إذ خلقها الله أزواجا : ذكرانا وإناثا . فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء :

« ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال : رب انصرنى على القوم المفسدين » . .

ومن خطاب لوط لقومه يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه . فهم يأتون الفاحشة الشاذة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين :

يأتون الرجال . وهى فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها . فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة ، فتكون هذه جريمة فاحشة ، ولكنها داخلة فى نطاق الفطرة ومنطقها . فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعا . وفساد فى التركيب النفسى والتركيب العضوى سواء . فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر ، وامتداده بالنسل الذى ينشأ عن هذه المباشرة . وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة ، نفسيا وعضويا ، وفقا لذلك التناسق . فأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها ، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها تبعا لانعدام الهدف منها . فإذا وجد فيها أحد لذة فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيا من خط الفطرة ، وعاد مسخا لا يرتبط بخط الحياة !

ويقطعون السبيل ، فينهبون المال ، ويروعون المارة ، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرها . وهى خطوة أبعد فى الفاحشة الأولى ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد فى الأرض .

ويأتون فى ناديهم المنكر . يأتونه جهارا وفى شكل جماعى متفق عليه ، لا يخجل بعضهم من بعض . وهى درجة أبعد فى الفحش ، وفساد الفطرة ، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح !

والقصة هنا مختصرة ، وظاهر أن لوطا أمرهم فى أول الأمر ونهاهم بالحسنى ؛ وأنهم أصروا على ماهم فيه ، فخوفهم عذاب الله ، وجبههم بشناعة جرائمهم الكبرى :

Marfat.com

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » ..

فهو التبجح في وجه الإنذار ، والتحدي المصحوب بالتكذيب ، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة . وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلا أن يتوجه إلى ربه طالبا نصره الأخير :

« قال : رب انصرني على القوم المفسدين » ..

وهنا يسدل الستار على دعاء لوط ، ليرفع عن الاستجابة . وفي الطريق يلم الملائكة المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم ، يبشرونه بولد صالح من زوجه التي كانت من قبل عقيما :

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين . قال : إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » ..

وهذا المشهد . مشهد الملائكة مع إبراهيم . مختصر في هذا الموضع لأنه ليس مقصودا ؛ فقد سبق في قصة إبراهيم أن الله وهب له إسحاق ويعقوب ؛ وولادة إسحاق هي موضوع البشرى ، ومن ثم لم يفصل قصتها هنا لأن الغرض هو إتمام قصة لوط . فذكر أن مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرى . ثم أخبروه بمهمتهم الأولى : « إنا مهلكو أهل هذه القرية . إن أهلها كانوا ظالمين » ..

وأدركت إبراهيم رقته ورأفته ، فراح يذكر الملائكة أن في هذه القرية لوطا ؛ وهو صالح وليس بظالم !

وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنهم أولى بهذه المعرفة !

« قالوا : نحن أعلم بمن فيها ؛ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » ..

وقد كان هواها مع القوم ، تقر جرائمهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب .

وينتقل إلى مشهد ثالث . مشهد لوط وقد جاء إليه الملائكة في هيئة فتية صباح ملاح ؛ وهو يعلم شنشنة قومه ، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعا . فضاق صدره وساءه حضورهم إليه ، في هذا الظرف العصيب :

« ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا » ..

ويختصر هنا هجوم القوم على الضيوف ، ومحاورة لوط لهم ، وهم في سعار الشذوذ

Marfat.com

المريض . . ويمضى إلى النهاية الأخيرة . إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم ، ويخبرونه بمهمتهم ، وهو فى هذا الكرب وذلك الضيق :

« وقالوا : لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » . .

وترسم هذه الآية مشهد التدمير الذى أصاب القرية وأهلها جميعا ـ إلا لوطا وأهله المؤمنين ـ وقد كان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين . ويغلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعتها ؛ وأمطرت عليها هذا المطر الذى يصاحب البراكين .

وما تزال آثار هذا التدمير باقية تحدث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون :

« ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » . .

وكان هذا هو المصير الطبيعى لهذه الشجرة الخبيثة التى فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة . ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والتحطيم .

* * *

ثم إشارة إلى قصة شعيب ومدين :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، فقال : ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . .

وهى إشارة تبين وحدة الدعوة ، ولباب العقيدة : « اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر » . . وعبادة الله الواحد هى قاعدة العقيدة . ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه فى هذه الحياة الدنيا من الكسب المادى الحرام بالتطفيف فى الكيل والميزان ، وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد فى الأرض ، والاستطالة على الخلق .

وفى اختصار يذكر انتهاء أمرهم إلى تكذيب رسولهم ؛ وأخذهم بالهلاك والتدمير ، على سنة الله فى أخذ المكذبين .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . .

وقد تقدم بيان الرجفة التى زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التى أسقطت

Marfat.com

قلوبهم وتركتهم مصموقين حيث كانوا فى دارهم لا يتحركون . فأصبحوا فيها جاثمين . جزاء ما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين !

* * *

وإشارة كذلك إلى مصرع عاد وثمود :

« وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » ..

وعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة بالقرب من وادى القرى . وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للعرب يمرون عليها فى رحلتى الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد العز والتمكين .

وهذه الإشارة المجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين .

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » ..

فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ؛ ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم . وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهى غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال ، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع . « فصدهم عن السبيل » سبيل الهدى الواحد المؤدى إلى الإيمان . وضيع عليهم الفرصة « وكانوا مستبصرين » يملكون التبصر ، وفيهم مدارك ولهم عقول .

* * *

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . « ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا فى الأرض ، وما كانوا سابقين » ..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه ، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغى والفساد . وفرعون كان طاغية غشوما ، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويجعلهم شيعا ، ويقتل ذكور بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم عتوا وظلما . وهامان كان وزيره المدبر لمكائده ، المعين له على ظلمه وبطشه .

« ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض » ..

Marfat.com

فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء . لم تعصمهم من أخذ الله ، ولم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله ، بل أدركهم وأخذهم كما سيجيء .

« وما كانوا سابقين » ..

* * *

هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة ، قد أخذهم الله جميعا . بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلا :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم ، وثمود أخذتهم الصيحة وقارون خسف به وبداره الأرض ، وفرعون وهامان غرقا في اليم وذهبوا جميعا مأخوذين بظلمهم . « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ..

* * *

والآن . وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون . . والآن . وبعد الحديث في مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء . . الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة في هذا المجال . . إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية . فهي وما تحتمي به سواء :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » . .

إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود . الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحيانا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ،

Marfat.com

فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها !

وتخدعهم قوة المال ، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة . ويتقدمون إليها فى رغب وفى رهب ؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون !

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التى يصول بها من يملكها ويجول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد فى المحاريب !

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة . تخدعهم فى أيدى الأفراد وفى أيدى الجماعات وفى أيدى الدول ، فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار !

وينسون القوة الوحيدة التى تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها ، وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد .

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت فى أيدى الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول . كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت ... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لاحماية لها من من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن .

وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى الركين .

هذه الحقيقة الضخمة هى التى عنى القرآن بتقريرها فى نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض ودكت بها المعاقل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة فى كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه فى العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل . بل بديهة مستقرة فى النفس ، لا يجول غيرها فى حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هى القوة . وولاية الله وحدها هى الولاية . وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

Marfat.com

إنها العنكبوت : وماتملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء . لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولاينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة . هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم . وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت فى حساب الله ، وفى حساب العقيدة حين تصح العقيدة ، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير .

« إن الله يعلم مايدعون من دونه من شئ » . .

إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء . وهى الحقيقة التى صورت فى المثل السابق . . عنكبوت تحتمى بخيوط العنكبوت !

« وهو العزيز الحكيم » . .

هو وحده العزيز القادر القاهر الحكيم المدبر لهذا الوجود .

« وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون » . .

فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلقى القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم . وقالوا : إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون : « ومايعقلها إلا العالمون » . .

* * *

ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التى قدمها بالحق الكبير فى تصميم هذا الكون كله على طريقة القرآن فى ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير :

« خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . .

وهكذا تجىء هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل المصور لحقيقة القوى فى الوجود ، متناسقة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق المتناثرة كلها بالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ؛ والذى قامت به السماوات والأرض ، فى ذلك النظام الدقيق الذى لايتخلف ولايبطىء ولا يختلف ولا يصدم بعضه بعضا ، لأنه حق متناسق لاعوج فيه !

« إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . .

الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وحناياه ، المشهودة

Marfat.com

فى تنسيقه وتنظيمه ، المنثورة فى جوانبه حيثما امتدت الأبصار . والمؤمنون هم الذين يدركونها ، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر للتلقى والإدراك .

* * *

وفى نهاية الشوط يربط الكتاب الذى أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – ويربط الصلاة وذكر الله ، بالحق الذى فى السماوات والأرض ، وبسلسلة الدعوة إلى الله من لدن نوح عليه السلام :

« اتل ماأوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون » ..

اتل ما أوحى إليك من الكتاب فهو وسيلتك للدعوة ، والآية الربانية المصاحبة لها ، والحق المرتبط بالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض .

وأقم الصلاة إن الصلاة – حين تقام – تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهى اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهى تطهر وتجرد لا يتسق معهما دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما . « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا »[1] . وما أقام الصلاة كما هى إنما أداها أداء ولم يقمها . . وفرق كبير بينهما . . فهى حين تقام ذكر لله . « وذكر الله أكبر » . أكبر إطلاقا . أكبر من كل اندفاع ومن كل نزوع . وأكبر من كل تعبد وخشوع .

« والله يعلم ما تصنعون » . .

فلا يخفى عليه شيء ، ولايلتبس عليه أمر . وأنتم إليه راجعون . فمجازيكم بما تصنعون . .

تم الجزء العشرون ، ويليه الجزء الواحد والعشرون
مبدوءاً بقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب »

---

(١) رواه ابن جرير قال : حدثنا على حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وذكر الحديث . .

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء الحادي والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة العنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب

Marfat.com

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ - وَقُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ: إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ: كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، وَيَقُولُ: ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .. »

Marfat.com

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ؟

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ٦٩

هذا هو الشوط الأخير فى سورة العنكبوت . وقد مضى منها شوطان فى الجزء العشرين . ومحور السورة ــ كما أسلفنا ــ هو الحديث عن الفتنة والابتلاء لمن يقول كلمة الإيمان ، لتمحيص القلوب وتمييز الصادقين والمنافقين بمقياس الصبر على الفتنة والابتلاء .. وذلك مع التهوين من شأن القوى الأرضية التى تقف فى وجه الإيمان والمؤمنين ؛ وتفتنهم بالأذى وتصدهم عن السبيل، وتوكيد أخذ الله للمسيئين ونصره للمؤمنين الذين يصبرون على الفتنة ، ويثبتون للابتلاء . سنة الله التى مضت فى الدعوات من لدن نوح عليه السلام . وهى السنة التى لا تتبدل ، والتى ترتبط بالحق الكبير المتلبس بطبيعة هذا الكون ، والذى يتمثل كذلك فى دعوة الله الواحدة التى لا تتبدل طبيعتها.

وقد انتهى الشوط الثانى فى نهاية الجزء السابق بدعوة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين به إلى تلاوة ما أوحى إليه من الكتاب ، وإقامة الصلاة لذكر الله ، ومراقبة الله العليم بما يصنعون .

Marfat.com

وفى الشوط الأخير يستطرد فى الحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب قبله . ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم ، فبدلوا فى كتابهم، وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم ـ وأن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله مصدق لما معهم .

ثم يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بهذا الكتاب الأخير على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم ، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة ، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل فى تنزيل الكتاب على رسول منهم ، يخاطبهم به ، ويحدثهم بكلام الله . ولم يكن يتلو من قبله كتابا ولا يخطه بيمينه ، فتكون هناك أدنى شبهة فى أنه من عمله ومن تأليفه !

ويحذر المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، وحالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء فى مكة ؛ يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده . يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمان فى لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب؛ فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية ، ويلمسها هكذا إلا خالقها اللطيف الخبير .

وينتقل من هذا إلى التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم فيقرون لله ـ سبحانه ـ بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتنزيل الماء من السماء ، وإحياء الأرض الموات ؛ وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين .. ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ، ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به . ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق . وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة . ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختم السورة بوعد من الله أكيد بهداية المجاهدين فى الله ، يريدون أن يخلصوا إليه ، مجتازين العوائق والفتن والمشاق وطول الطريق ، وكثرة المعوقين .

***

Marfat.com

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم ـ وقولوا :آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ..

إن دعوة الله التى حملها نوح ـ عليه السلام ـ والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهى دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد ، هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وهدايتها إلى طريقه ، وتربيتها بمنهاجه . وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة ، تعبد إلها واحدا . وإن البشرية فى جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله . وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان ، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة فى تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون .

هذه هى الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التى يقوم عليها الإسلام ؛ والتى تقررها هذه الآية من القرآن ؛ هذه الحقيقة التى ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب ، أو جنس ، أو وطن . أو تبادل أو تجارة . ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله ، ممثلة فى عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان ؛ وتختفى فيها القوميات والأوطان ؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان . ولا تبقى إلا العروة الوثقى فى الخالق الديان .

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجىء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر . . « إلا الذين ظلموا منهم » فانحرفوا عن التوحيد الذى هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه فى الحياة . فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة . وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عند ما قامت له دولة فى المدينة .

وإن بعضهم ليفترى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه حاسن أهل الكتاب وهو فى مكة مطارد من المشركين . فلما أن صارت له قوة فى المدينة حاربهم ، مخالفا كل ما قاله فيهم وهو فى مكة ! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكى عليه . فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم ، ولم ينحرف عن دين الله . وعن التوحيد الخالص الذى جاءت به جميع الرسالات .

Marfat.com

« وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . .

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع ، والجدل والنقاش . وكلهم يؤمنون بإله واحد ، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم ، وهو فى صميمه واحد ، والمنهج الإلهى متصل الحلقات .

« وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » . .

« كذلك » . على النهج الواحد المتصل . وعلى السنة الواحدة التى لا تتبدل . وعلى الطريقة التى يوحى بها الله لرسله « كذلك أنزلنا إليك الكتاب » . . فوقف الناس بإزائه فى صفين: صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش ، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه ، وتصديقه لما بين أيديهم . . « وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » . . فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذى يغطى روحه عنها ويسترها ، فلا يراها ولا يتملاها ! والكفر هو التغطية والحجاب فى أصل معناه اللغوى ، وهو ملحوظ فى مثل هذا التعبير .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذن لارتاب المبطلون » . .

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها . فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاش بينهم فترة طويلة من حياته ، لا يقرأ ولا يكتب ؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذى يعجز القارئين الكاتبين. ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئا كاتبا . فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ؟

ونقول : إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها . فحتى على فرض أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قارئا كاتبا ، ماجاز لهم أن يرتابوا . فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر . فهو أكبر جدا من طاقة البشر ومعرفة البشر ، وآفاق البشر . والحق الذى فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذى فى هذا الكون . وكل وقفة أمام نصوصه توحى للقلب بأن وراءه قوة ، وبأن فى عباراته سلطانا ، لا يصدران عن بشر !

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » . .

Marfat.com

فهو دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة فى صدورهم ، تطمئن إليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلا وهى الدليل . والعلم الذى يستحق هذا الاسم ، هو الذى تجده الصدور فى قرارتها ، مستقرا فيها ، منبعثاً منها ؛ يكشف لها الطريق ، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ! « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .. الذين لايعدلون فى تقدير الحقائق وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

« وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » ..

يعنون بذلك الخوارق المادية التى صاحبت الرسالات من قبل فى طفولة البشرية . والتى لا تقوم حجة إلا على الجيل الذى يشاهدها . بينما هذه هى الرسالة الأخيرة التى تقوم حجتها على كل من بلغته دعوتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ثم جاءت آياتها الخوارق آيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذى لاتنفد عجائبه ؛ والذى تتفتح كنوزه لجميع الأجيال ؛ والذى هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، يحسونها خوارق معجزة كلما تدبروها ، وأحسوا مصدرها الذى تستمد منه سلطانها العجيب !

« قل : إنما الآيات عند الله » .. يظهرها عند الحاجة إليها ، وفق تقديره وتدبيره . وليس لى أن أقترح على الله شيئا . ليس هذا من شأنى ولا من أدبى « وإنما أنا نذير مبين » . أنذر وأحذر وأكشف وأبين ؛ فأؤدى ما كلفته . ولله الأمر بعد ذلك والتدبير .

إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة . وإيضاح حدود الرسول وهو بشر مختار . فلا تتلبس بصفات الله الواحد القهار . ولا تغيم حولها الشبهات التى غامت على الرسالات حين برزت فيها الخوارق المادية ، حتى اختلطت فى حس الناس والتبست بالأوهام والخرافات . ونشأت عنها الانحرافات .

وهؤلاء الذين يطلبون الخوارق يغفلون عن تقدير فضل الله عليهم بتنزيل هذا القرآن :

« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . .

وإنه لبطر بنعمة الله ورعايته التى تجل عن الشكر والتقدير . أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء

Marfat.com

بهذا القرآن ؟ وهو يتنزل عليهم ، يحدثهم عما فى نفوسهم ، ويكشف لهم عما حولهم ؛ ويشعرهم أن عين الله عليهم ، وأنه معنى بهم حتى ليحدثهم بأمرهم ، ويقص عليهم القصص ويعلمهم . وهم هـذا الخلق الصغير الضئيل التائه فى ملـكوت الله الـكبير . وهم وأرضهم وشمسهم التى تدور عليها أرضهم .. ذرات تائهة فى هذا الفضاء الهائل لا يمسكهن إلا الله . والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم . ثم هم لا يكتفون !

« إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . .

فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هـذه الرحمة فى نفوسهم ، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل ؛ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلى الـكبير . وهم الذين ينفعهم هذا القرآن ، لأنه يحيا فى قلوبهم ، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره ، ويشرق فى أرواحهم بالمعرفة والنور .

فأما الذين لا يشعرون بهذا كله ، فيطلبون آية يصدقون بها هـذا القرآن ! هؤلاء المطموسون الذين لا تتفتح قلوبهم للنور . هؤلاء لا جدوى من المحاولة معهم ؛ وليترك أمر الفصل بينه وبينهم إلى الله !

«قل : كفى بالله بينى وبينـكم شهيدا ، يعلم مافى السماوات والأرض . والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » . .

وشهادة من يعلم مافى السماوات والأرض أعظم شهادة . وهو الذى يعلم أنهم على الباطل :

« والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » . .

الخاسرون على الإطلاق . الخاسرون لـكل شىء . الخاسرون للدنيا والآخرة . الخاسرون لأنفسهم وللهدى والاستقامة والطمأنينة والحق والنور .

إن الإيمان بالله كسب . كسب فى ذاته . والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله . إنه طمأنينة فى القلب واستقامة على الطريق ، وثبات على الأحـداث ، وثقة بالسند ، واطمئنان للحمى ، ويقين بالعاقبة. و إن هذا فى ذاته لهو الـكسب ؛ وهوهو الذى يخسره الـكافرون . و« أولئك هم الخاسرون » . .

* * *

Marfat.com

ثم يمضى فى الحديث عن أولئك المشركين . عن استعجالهم بالعذاب . وجهنم منهم قريب :

« ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون » ..

ولقد كان المشركون يسمعون النذير ، ولا يدركون حكمة الله فى إمهالهم إلى حين ؛ فيستعجلون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعذاب على سبيل التحدى . وكثيرا ما يكون إمهال الله استدراجا للظالمين ليزدادوا عتوا وفسادا. أو امتحانا للمؤمنين ليزدادوا إيمانا وثباتا ؛ وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات . أو استبقاء لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيرا من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغى فيثوبوا إلى الهدى . أو استخراجا لذرية صالحة من ظهورهم تعبد الله وتنحاز إلى حزبه ولو كان آباؤهم من الضالين .. أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور .

ولكن المشركين لم يكونوا يدركون شيئا من حكمة الله وتدبيره ، فكانوا يستعجلون بالعذاب على سبيل التحدى .. « ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب » .. وهنا يوعدهم الله بمجئ العذاب الذى يستعجلونه . بمجيئه فى حينه . ولكن حيث لا ينتظرونه ولا يتوقعونه . وحيث يبهتون له ويفاجأون به : « وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » .

ولقد جاءهم هذا العذاب من بعد فى بدر . وصدق الله . ورأوا بأعينهم كيف يحق وعد الله . ولم يأخذهم الله بالهلاك الكامل كأخذ المكذبين قبلهم ؛ كما أنه لم يستجب لهم فى إظهار خارقة مادية كى لا يحق عليهم وعده بهلاك من يكذبون بعد الخارقة المادية .لأنه قدر للكثيرين منهم أن يؤمنوا فيما بعد ، وأن يكونوا من خيرة جند الإسلام ؛وأخرج من ظهورهم من حملوا الراية جيلا بعد جيل ، إلى أمد طويل . وكان ذلك كله وفق تدبير الله الذى لا يعلمه إلا الله .

وبعد الوعيد بعذاب الدنيا الذى يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، جعل يكرر استنكاره لاستعجالهم بالعذاب ، وجهنم لهم بالمرصاد :

« يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ..

Marfat.com

وعلى طريقة القرآن فى التصوير ، وفى استحضار المستقبل كأنه مشهود ، صور لهم جهنم محيطة بالكافرين.وذلك بالقياس إليهم مستقبل مستور؛ولكنه بالقياس إلى الواقع المكشوف لعلم الله حاضر مشهود . وتصويره على حقيقته المستورة يوقع فى الحس رهبة ، ويزيد استعجالهم بالعذاب نكارة . فأنى يستعجل من تحيط به جهنم ، وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ؟ !

ويرسم لهم صورتهم فى جهنم هذه المحيطة بهم ؛ وهم يستعجلون بالعذاب :

« يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم،ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون ».. وهو مشهد مفزع فى ذاته ، يصاحبه التقريع المخزى والتأنيب المرير : « ذوقوا ما كنتم تعملون » .. فهذه نهاية الاستعجال بالعذاب ؛ والاستخفاف بالنذر .

* * *

ويدع الجاحدين المكذبين المستهترين فى مشهد العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ليلتفت إلى المؤمنين ، الذين يفتنهم أولئك المكذبون عن دينهم، ويمنعونهم من عبادة ربهم .. يلتفت إليهم يدعوهم إلى الفرار بدينهم ، والنجاة بعقيدتهم . فى نداء حبيب وفى رعاية سابغة ، وفى أسلوب يمس كل أوتار القلوب :

« ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ، فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » ..

إن خالق هذه القلوب ، الخبير بمداخلها ، العليم بخفاياها ، العارف بما يهجس فيها ، وما يستكن فى حناياها .. إن خالق هذه القلوب ليناديها هذا النداء الحبيب : ياعبادى الذين آمنوا : يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدينها ، لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها . بنسبتها إلى ربها وإضافتها إلى مولاها : « يا عبادى » ..

هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية : « إن أرضى واسعة » ..

أنتم عبادى . وهذه أرضى . وهى واسعة . فسيحة تسعكم . فما الذى يمسككم فى مقامكم

Marfat.com

الضيق ، الذى تفتنون فيه عن دينكم ، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم ؟ غادروا هذا الضيق يا عبادى إلى أرضى الواسعة ، ناجين بدينكم ، أحرارا فى عبادتكم « فإياى فاعبدون ».

إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذى يتحرك فى النفس التى تدعى للهجرة . ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين : بالنداء الحبيب القريب : « يا عبادى » وبالسعة فى الأرض : « إن أرضى واسعة » . ومادامت كلها أرض الله ، فأحب بقعة منها إذن هى التى يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه .

ثم يمضى يتتبع هواجس القلوب وخواطرها . فإذا الخاطر الثانى هو الخوف من خطر الهجرة . خطر الموت الكامن فى محاولة الخروج – وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين فى مكة ، ولا يسمحون لهم بالهجرة عند ما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين – ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة . ومن هنا تجىء اللمسة الثانية :

« كل نفس ذائقة الموت . ثم إلينا ترجعون » ..

فالموت حتم فى كل مكان ، فلا داعى أن يحسبوا حسابه ، يوم لا يعلمون أسبابه . وإلى الله المرجع والمآب . فهم مهاجرون إليه ، فى أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه فى نهاية المطاف . وهم عباده الذين يؤويهم إليه فى الدنيا والآخرة . فمن ذا يساوره الخوف ، أو يهجس فى ضميره القلق ، بعد هذه اللمسات ؟

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده ؛ بل يكشف عما أعده لهم هناك . وإنهم ليفارقون وطنا فلهم فى الأرض عنه سعة . ويفارقون بيوتا فلهم فى الجنة منها عوض . عوض من نوعها وأعظم منها :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها » .

وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله :

« نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » ..

وهى لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب ، فى موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع .

Marfat.com

ثم يهجس فى النفس خاطر القلق على الرزق ، بعد مغادرة الوطن والمال ومجال العمل والنشاط المألوف ، وأسباب الرزق المعلومة . فلا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقر لها القلوب :

« وكأى من دابة لاتحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم » ..

لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود فى حياتهم . فكم من دابة لاتحصل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، ولا كيف تحتفظ به معها . ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعا . وكذلك يرزق الناس . ولو خيل إليهم أنهم يخلقون رزقهم وينشئونه . إنما يهبهم الله وسيلة الرزق وأسبابه . وهذه الهبة فى ذاتها رزق من الله ، لا سبيل لهم إليه إلا بتوفيق الله . فلا مجال للقلق على الرزق عند الهجرة . فهم عباد الله يهاجرون إلى أرض الله يرزقهم الله حيث كانوا . كما يرزق الدابة لاتحمل رزقها ، ولكن الله يرزقها ولا يدعها .

ويختم هذه اللمسات الرفيقة العميقة بوصلهم بالله ، وإشعارهم برعايته وعنايته ، فهو يسمعهم ويعلم حالهم ، ولا يدعهم وحدهم : « وهو السميع العليم » ..

وتنتهى هذه الجولة القصيرة ؛ وقد لمست كل حنية فى تلك القلوب ؛ ولبت كل خاطر هجس فيها فى لحظة الخروج . وقد تركت مكان كل مخافة طمأنينة ، ومكان كل قلق ثقة ، ومكان كل تعب راحة . وقد هدهدت تلك القلوب وغمرتها بشعور القربى والرعاية والأمان فى كنف الله الرحيم المنان .

ألا إنه لا يدرك هواجس القلوب هكذا إلا خالق القلوب . ولا يداوى القلوب هكذا إلا الذى يعلم مافى القلوب .

***

وبعد هذه الجولة مع المؤمنين يرتد السياق إلى التناقض فى موقف المشركين وتصوراتهم. فهم يقرون بخلق الله للسماوات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وإنزاله الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها . وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم . وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف .. ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله ، ويؤذون من يعبدونه وحده ، ويفتنونهم عن عقيدتهم التى لاتناقض فيها ولا اضطراب ، وينسون نعمة الله

Marfat.com

عليهم فى تأمينهم فى البيت الحرام ، وهم يروعون عباده فى بيته الحرام :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله . فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم : من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون . وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون . أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » . .

وهذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب إذ ذاك ؛ وتوحى بأنه كان لها أصل من التوحيد ؛ ثم وقع فيها الانحراف . ولا عجب فى هذا فهم من أبناء إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وقد كانوا بالفعل يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس ؛ ولم يكونوا يحفلون كثيرا بالديانة الموسوية أو المسيحية وهما معهم فى الجزيرة العربية ، اعتزازا منهم بأنهم على دين إبراهيم . غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض والانحراف .

كانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض ، ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل الماء من السماء ، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء . . يقرون أن صانع هذا كله هو الله . ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم ، أو يعبدون الجن ، أو يعبدون الملائكة ؛ ويجعلونهم شركاء لله فى العبادة ، وإن لم يجعلوهم شركاء له فى الخلق . . هو تناقض عجيب . تناقض يُعجِّب الله منه فى هذه الآيات : « فأنى يؤفكون ؟ » أى كيف يصرفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب ؟ « بل أكثرهم لا يعقلون » فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط !

ويبن السؤال عن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ؛ والسؤال عن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها . يقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له فيربط سنة الرزق بخلق السماوات والأرض وسائر آثار القدرة والخلق ، ويكل هذا إلى علم الله بكل شيء : « إن الله بكل شيء عليم » . .

Marfat.com

والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك ، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات . وبسط الرزق وتضييقه بيد الله ؛ وفق الأوضاع والظواهر العامة المذكورة فى الآيات . فموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجرى ، وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر . ومن معادن وفلزات فى جوف الأرض ، وصيد فى البر والبحر .. إلى نهاية موارد الرزق العامة ، تتبع كلها نواميس السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر تبعية مباشرة ظاهرة . ولو تغيرت تلك النواميس عما هى عليه أدنى تغيير لظهر أثر هذا فى الحياة كلها على سطح الأرض ؛ وفى المخبوء فيها من الثروات الطبيعية الأخرى سواء بسواء . فحتى هذا المخبوء فى جوف الأرض ، إنما يتم تكوينه وتخزينه واختلافه من مكان إلى مكان وفق أسباب من طبيعة الأرض ومن مجموعة تأثراتها بالشمس والقمر(١) !

والقرآن يجعل الكون الكبير ومشاهده العظيمة هى برهانه وحجته ، وهى مجال النظر والتدبر للحق الذى جاء به . ويقف القلب أمام هذا الكون وقفة المتفكر المتدبر ، اليقظ لعجائبه ، الشاعر بيد الصانع وقدرته ، المدرك لنواميسه الهائلة ، بلفتة هادئة يسيرة ، لا تحتاج إلى علم شاق عسير ، إنما تحتاج إلى حس يقظ وقلب بصير . وكلما جلا آية من آيات الله فى الكون وقف أمامها يسبح بحمد الله ويربط القلوب بالله : « قل الحمد لله . بل أكثرهم لا يعقلون ! » .

وبمناسبة الحديث عن الحياة فى الأرض وعن الرزق والبسط فيه والقبض ، يضع أمامه الميزان الدقيق للقيم كلها . فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة فى الدار الآخرة :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، لو كانوا يعلمون » ..

فهذه الحياة الدنيا فى عمومها ليست إلا لهوا ولعبا حين لا ينظر فيها إلى الآخرة . حين تكون هى الغاية العليا للناس . حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة . فأما الحياة الآخرة

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان الجزء التاسع عشر من الظلال .

Marfat.com

فهي الحياة الفائضة بالحيوية . هي « الحيوان » لشدة مافيها من الحيوية والامتلاء .

والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيداً . إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه . إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع ، والوقوف فيه عند حدود الله . كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له ، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه ! والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح . فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن ؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها ، مالكاً لحريته معتدلا في نظرته : الدنيا لهو ولعب ، والآخرة حياة مليئة بالحياة .

وبعد هذه الوقفة للوزن والتقويم يمضي في عرض ماهم فيه من متناقضات :

« فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » . .

وهذا كذلك من التناقض والاضطراب . فهم إذا ركبوا في الفلك ؛ وأصبحوا على وجه اليم كاللعبة تتقاذفها الأمواج ؛ لم يذكروا إلا الله . ولم يشعروا إلا بقوة واحدة يلجأون إليها هي قوة الله . ووحدوه في مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء ؛ وأطاعوا فطرتهم التي تحس وحدانية الله : « فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » ونسوا وحي الفطرة المستقيم ؛ ونسوا دعاءهم لله وحده مخلصين له الدين ؛ وانحرفوا إلى الشرك بعد الإقرار والتسليم !

وغاية هذا الانحراف أن ينتهي بهم إلى الكفر بما آتاهم الله من النعمة ، وما آتاهم من الفطرة ، وما آتاهم من البينة ؛ وأن يتمتعوا متاع الحياة الدنيا المحدود إلى الأجل المقدور . ثم يكون بعد ذلك ما يكون ، وهو الشر والسوء .

« ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » . .

وهو التهديد من طرف خفي بسوء ماسوف يعلمون !

ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم في إعطائهم هذا الحرم الآمن الذي يعيشون فيه ؛ فلا يذكرون نعمة الله ولا يشكرونها بتوحيده وعبادته . بل إنهم ليروعون المؤمنين فيه :

« أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ » . .

Marfat.com

ولقد كان أهل الحرم المكي يعيشون فى أمن ، يعظمهم الناس من أجل بيت الله ، ومن حولهم القبائل تتناحر ، ويفزع بعضهم بعضا ، فلا يجدون الأمان إلا فى ظل البيت الذى آمنهم الله به وفيه . فكان عجيبا أن يجعلوا من بيت الله مسرحا للأصنام ، ولعبادة غير الله أيا كان ! « أفبالباطل يؤمنون ؟ وبنعمة الله يكفرون ؟ » !

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » . .

وهم قد افتروا على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه . وهم كذبوا بالحق لما جاءهم وجحدوا به . أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ بلى وعن يقين !

* * *

ويختم السورة بصورة الفريق الآخر . الذين جاهدوا فى الله ليصلوا إليه ؛ ويتصلوا به . الذين احتملوا فى الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم وساروا فى ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم . وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم . وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين » . .

Marfat.com

سورة الروم مكية
وآياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الأَرْضَ ، وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ، أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ .

« اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

Marfat.com

« فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ . هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ . فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ؟ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (٣٢)

Marfat.com

نزلت الآيات الأولى من هــذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك فى إبان احترام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام فى مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم فى ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غيرموحدين ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة فى الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألا بانتصار ملة الـكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هــذه السورة تبشر بغلبة أهل الـكتاب من الروم فى بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

ولـكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد ، ولا فى حدود ذلك الحادث . إنما كانت هــذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالـكون كله ، وليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية والحق الـكبير الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم فى مشاهد الـكون ، وفى أغوار النفس ، وفى أحوال البشر ، وفى عجائب الفطر . . فإذا هم فى ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها ، وتوسع آمادها وأهدافها ، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الـكون كله : ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلى نواميس الـكون وسننه وروابطه .

ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات فى هذا الـكون الـكبير . ويشعرون بضخامة النواميس التى تحكم هــذا الـكون ، وتحكم فطرة البشر ؛ ودقة السنن التى تصرف حياة الناس وأحداث الحياة ، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ؛ وعدالة الموازين التى تقدر بها أعمال الخلق ، ويقوّم بها نشاطهم فى هذه الأرض ، ويلقون على أساسها الجزاء فى الدنيا والآخرة .

وفى ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتـكشف عالمية هــذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها — حتى وهى ناشئة فى مكة محصورة بين شعابها وجبالها —

Marfat.com

ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدها إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه الكبرى ، وفطرة النفس البشرية وأطوارها ، وماضى هذه البشرية ومستقبلها . لا على هذه الأرض وحدها ، ولكن كذلك فى العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ؛ ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة ؛ ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار ، وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر . ويدرك موقفه هو وموقف أمته فى ذلك الخضم الهائل ؛ ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته فى حساب الناس وحساب الله ، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتكاليفه فى ثقة وطمأنينة واهتمام .

***

ويمضى سياق السورة فى عرض تلك الارتباطات ، وتحقيق دلالاتها فى نظام الكون ، وتثبيت مدلولاتها فى القلوب . . يمضى سياق السورة فى شوطين مترابطين :

فى الشوط الأول يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد القيامة وما يجرى فيه للمؤمنين والكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون ، وآيات الله المبثوثة فى ثناياه ؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم . . وينهى هذا الشوط بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التى فطر الناس عليها ؛ والتى لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ؛ ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

وفى الشوط الثانى يكشف عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة . مالم يرتبطوا بعيار ثابت لا يدور مع الأهواء ، ويصور حالهم فى الرحمة والضر ، وعند بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود

Marfat.com

إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هـذه الزاوية ؛ فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ؛ ويوجههم إلى السير فى الأرض ، والنظر فى عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاستقامة على دين الفطرة ، من قبل أن يأتى اليوم الذى يجزى فيه كل بما كسبت يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون كما عاد بهم فى الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ؛ وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك إلا البلاغ ، فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ، ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها . ثم ينهى هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها ؛ والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون .

* * *

وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان فى تصوير موضوعها الرئيسى . وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس ، وأحداث الحياة ، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها ، وسنن الكون ونواميس الوجود . وفى ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة ، وكل حادث وكل حالة ، وكل نشأة وكل عاقبة ، وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق ، محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . وهـذه هى الحقيقة الأولى التى يؤكدها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة الموجهة فى هـذه العقيدة . الحقيقة التى تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ؛ والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . .

* * *

والآن نأخذ فى عرض السورة بالتفصيل :

« الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ،

Marfat.com

وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » . .

بدأت السورة بالأحرف المقطعة : « ألف . لام . ميم » التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن – ومنه هذه السورة – مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التى يعرفها العرب ؛ وهو مع هذا معجز لهم ، لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم .

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم فى بضع سنين . وقد روى ابن جرير – بإسناده – عن عبد الله ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بضع سنين» . قالوا : ياأبا بكر . إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك[1] ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ؛ فذكر ذلك للنبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : « مابضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت فى هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير . وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ماوراءه فى السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان . ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين

(١) أى نراهنك . وجاء فى خبر آخر أن ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر .

Marfat.com

فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون فى أى مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست فى عزلة عما يجرى فى أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثر فى قضية الكفر والإيمان .

وهذه الحقيقة البارزة هى التى يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ؛ ولا يتنبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم . منذ حوالى أربعة عشر قرنا . ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية فى حقيقتها هى قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة فى صميمها هى المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم فى جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة ، وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التى تتستر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوعت العلل والأسباب .

والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة فى وعد الله ، كما تبدو فى قولة أبى بكر — رضى الله عنه — فى غير تلعثم ولا تردد ، والمشركون يعجبون من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول : صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، فى الأجل الذى حدده : « فى بضع سنين » . . وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هى التى ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتا فى وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله وحق وعد الله . وهى عدة كل ذى عقيدة فى الجهاد الشاق الطويل .

والإيحاء الثالث هو فى تلك الجملة المعترضة فى مساق الخبر ، من قول الله سبحانه : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . . والمسارعة برد الأمر كله لله . فى هذا الحادث وفى سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر مايقع فى هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث والأحوال إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التى ليس لأحد عليها من سلطان ؛ ولا يدرى أحد ما وراءها من الحكمة ؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله . وإذن

Marfat.com

فالتسليم والاستسلام هو أقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم .

* * *

« الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » . .

« لله الأمر من قبل ومن بعد » . .

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » . .

ولقد صدق وعد الله ، وفرح المؤمنون بنصر الله .

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » . .

فالأمر له من قبل ومن بعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التى تريد النتيجة هى ذاتها التى تيسر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التى تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التى اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية فى هذا المجال . فهى ترد الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفى البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التى من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لاتتحقق فليس داخلا فى التكليف ، لأن مرد ذلك فى النهاية إلى تدبير الله . ولقد ترك الأعرابى ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ودخل يصلى قائلا : « توكلت على الله » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « اعقلها وتوكل » (١) . فالتوكل فى العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله .

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » . .

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك .

Marfat.com

فهذا النصر محفوف بظلال القدرة القادرة التى تنشئه وتظهره فى عالم الواقع ؛ وبظلال الرحمة التى تحقق به مصالح الناس ؛ وتجعل منه رحمة للمنصورين والمغلوبين سواء . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وصلاح الأرض رحمة للمنتصرين وللمهزومين فى نهاية المطاف .

« وعد الله . لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ..

ذلك النصر وعد من الله ، فلا بد من تحققه فى واقع الحياة : « لا يخلف الله وعده » فوعده صادر عن إرادته الطليقة ، وعن حكمته العميقة . وهو قادر على تحقيقه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يكون فى الكون إلا ما يشاء .

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذى لا يتغير « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير . ذلك أن علمهم سطحى ، يتعلق بظواهر الحياة ، ولا يتعمق سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ؛ ولا يدرك نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » .. ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه .

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا ، يستغرق جهودهم بعضه ، ولا يستقصونه فى حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل، تحكمه نواميس وسنن مستكنة فى كيان هذا الوجود وتركيبه .

والذى لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ؛ ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التى تصرفه، يظل ينظر وكأنه لا يرى ؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها . وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذى يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ؛ وهو الذى يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود . والمؤمنون هذا الإيمان قلة فى مجموع الناس . ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية .

« وهم عن الآخرة هم غافلون » .. فالآخرة حلقة فى سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون

Marfat.com

عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة فى خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقا ولا تحيد .

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ؛ وتؤرجح فى أكفهم ميزان القيم ؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورا صحيحا ؛ ويظل علمهم بها ظاهرا سطحيا ناقصا ، لأن حساب الآخرة فى ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع فى هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هى إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة فى الكون . ونصيبه فى هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم فى الوجود . والأحداث والأحوال التى تتم فى هذه الأرض إن هى إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغى أن يبنى الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

ومن ثم لا يلتقى إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . لا يلتقى هذا وذاك فى تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتفقان فى حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضى والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذى يشمل الأحياء وغير الأحياء .. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذى ينقل الإسلام البشرية إليه ؛ ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان . الخليفة فى الأرض . المستخلف بحكم ما فى كيانه من روح الله .

* * *

ولارتباط تحقق وعد الله بالنصر بالحق الأكبر الذى يقوم عليه هذا الوجود ، وارتباط أمر الآخرة كذلك بهذا الحق استطرد يجول بهم جولة أخرى فى ضمير هذا الكون . فى السماوات والأرض وما بينهما ؛ ويردهم إلى أنفسهم ينظرون فى أعماقها ويتدبرون ، علهم يدركون ذلك الحق الكبير ، الذى يغفلون عنه حين يغفلون عن الآخرة ؛ ويغفلون عن الدعوة التى تقودهم إلى رؤية ذلك الحق وتدبره :

Marfat.com

«أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى . وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون» .

فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم ، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحى بأن هذا الوجود قائم على الحق ، ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تتخلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العمياء ، ولا وفق الهوى المتقلب ، إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا . وأن من مقتضيات هذا الحق الذى يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة ، يتم فيها الجزاء على العمل ، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة . إنما كل شىء إلى أجله المرسوم . وفق الحكمة المدبرة ؛ وكل أمر يجىء فى موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة ، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ! ولكن تأجيلها يغرى الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ويخدعهم : « وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » . .

***

ومن هذه الجولة فى ضمير السماوات والأرض وما بينهما . وهى جولة بعيدة الآماد والآفاق فى هيكل الكون الهائل ، وفى محتوياته المنوعة ، الشاملة للأحياء والأشياء ، والأفلاك والأجرام ، والنجوم والكواكب ، والجليل والصغير ، والخافى والظاهر ، والمعلوم والمجهول . . . من هذه الجولة البعيدة فى ضمير الكون ينقلهم إلى جولة أخرى فى ضمير الزمان ، وأبعاد التاريخ ، يرون فيها طرفا من سنة الله الجارية ، التى لا تتخلف مرة ولا تحيد :

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ؛ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ؛ وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ، أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » .

وهى دعوة إلى التأمل فى مصائر الغابرين ؛ وهم ناس من الناس ؛ وخلق من خلق الله ، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية . فسنة الله هى سنة الله

Marfat.com

فى الجميع . وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هـذا الوجود ، بلا محاباة لجيل من النـاس ، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب . حاشا لله رب العالمين !

وهى دعوة إلى إدراك حقيقة هـذه الحياة وروابطها على مدار الزمان ، وحقيقة هـذه الإنسانية الموحـدة المنشأ والمصير على مدار القرون . كى لا ينعزل جيل من النـاس بنفسه وحيـاته ، وقيمه وتصوراته ، ويغفل عن الصلة الوثيقـة بين أجيال البشر جميعا ، وعن وحدة السنة التى تحكم هذه الأجيال جميعا ؛ ووحدة القيم الثابتة فى حياة الأجيال جميعا .

فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين فى مكة « كانوا أشد منهم قوة » . . « وأثاروا الأرض » . . لحرثوها وشقوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها « وعمروها أكثر مما عمروها » . . فقـد كانوا أكثر حضارة من العرب ، وأقدر منهم على عمارة الأرض . . ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : « وجاءتهم رسلهم بالبينات » . . فلم تتفتح بصائرهم لهذه البينات ؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذى يكشف الطريق . فمضت فيهم سنة الله فى المكذبين ؛ ولم تنفعهم قوتهم ؛ ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ؛ ولقوا جزاءهم العـادل الذى يستحقونه : « فمـا كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى » . . كانت السوءى هى العاقبة التى لقيها المسيئون وكانت جزاء وفاقا على « أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . .

والقرآن الـكريم يدعو المكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا فى الأرض فلا ينعزلوا فى مكانهم كالقوقعة ؛ وأن يتدبروا عاقبـة أولئك المكذبين المستهزئين ويتوقعوا مثلها ؛ وأن يدركوا أن سنة الله واحـدة وأنها لا تحابى أحـدا ؛ وأن يوسعوا آفاق تفـكيرهم فيدركوا وحدة البشرية ، ووحـدة الدعوة ، ووحدة العاقبـة فى أجيال البشرية جميعا . وهـذا هو التصور الذى يحرص الإسلام على أن يطبع به قلب المؤمن وعقله ، ويكرر القرآن الإيقاع حوله كثيرا .

* * *

ومن هاتين الجولتين فى أغوار الـكون وأغوار التاريخ يردهم إلى الحقيقة التى ينفل

Marfat.com

عنها الغافلون . حقيقة البعث والمآب . وهى طرف من الحق الأكبر الذى يقوم عليه الوجود :

« الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » ..

وهى حقيقة بسيطة واضحة . والترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك. فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان فى سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة فى النهاية إلى رب العالمين ، الذى أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم فى النهاية على ما يعملون .

وعند ما يصل السياق إلى البعث والمآب يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويرسم مصائر المؤمنين والمكذبين حين يرجعون ؛ ويكشف عن عبث اتخاذ الشركاء وسخف عقيدة المشركين :

« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون » ..

فهاهى ذى الساعة التى يغفل عنها الغافلون ، ويكذب بها المكذبون . هاهى ذى تجىء ، أو هاهى ذى تقوم ! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم فى نجاة ، ولا رجاء لهم فى خلاص . ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم فى الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم هاهم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم فى الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين .

ثم هاهو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين :

« فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون » .. ويتلقون فيها مايفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير .

« وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون » ..

وتلك نهاية المطاف . وعاقبة المحسنين والمسيئين .

***

Marfat.com

ومن هذه الجولة فى مشاهد القيامة فى العالم الآخر يعود بهم إلى هذا العالم ، وإلى مشاهد الكون والحياة . وإلى عجائب الخلق وأسرار النفس ، وإلى خوارق الأحداث ومعجزات التكوين . ويبدأ هذه الجولة بتسبيح الله حين تقاب الليل والنهار وحمد الله فى الكون العريض بالعشى والأظهار :

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ـ وهو أهون عليه ـ وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

إنها جولة ضخمة هائلة ، لطيفة عميقة ، بعيدة الآماد والأغوار . جولة تطوّف بالقلب البشرى فى الأمسيات والأصباح ، والسماوات والأرض ، والعشى والأظهار ، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة فى النشوء والدثور . وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى ، وإلى ماركب فى فطرته من ميول ونوازع ، وقوى وطاقات ، ومايقوم بين زوجيه من علائق وروابط ، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات . وتوجهه إلى آيات الله فى خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقا لاختلاف البيئة والمكان . وإلى تدبر مايعترى الكائن البشرى من نوم ويقظة وراحة وكد . وإلى مايعترى الكون من ظواهر البرق والمطر ، وما تثيره فى نفوس البشر من خوف وطمع ، وفى بنية الأرض من حياة وازدهار . وتمضى هذه الجولة العجيبة فى النهاية بالقلب البشرى إلى قيام السماوات والأرض فى هذا كله بأمر الله ؛ وإلى توجه من فى السماوات والأرض كلهم لله . وتنتهى بالحقيقة التى تتجلى

Marfat.com

حينئذ واضحة هينة يسيرة : إن الله هو يبدئ ويعيد. والإعادة أهون عليه . وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم :

* * *

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . .

إن ذلك التسبيح وهذا الحمد يجيئان تعقيبا على مشهد القيامة فى الفقرة السابقة ، وفوز المؤمنين بروضة فيها يحبرون ، وانتهاء الكافرين المكذبين إلى شهود العذاب . ومقدمة لهذه الجولة فى ملكوت السماوات والأرض ، وأغوار النفس وعجائب الخلق . فيتسقان مع التعقيب على المشهد وعلى التقديم للجولة كل الاتساق .

والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات : الإمساء والإصباح والعشى والأظهار ؛ كما يربطهما بآفاق السماوات والأرض . فيتقصى بهما الزمان والمكان ؛ ويربط القلب البشرى بالله فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ ويشعر بتلك الرابطة فى الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك وظواهر الليل والنهار والعشى والأظهار . . ومن ثم يظل هذا القلب مفتوحا يقظا حساسا ، وكل ما حوله من مشاهد وظواهر ، وكل ما يختلف عليه من آونة وأحوال ، يذكره بتسبيح الله وحمده ؛ ويصله بخالقه وخالق المشاهد والظواهر والآونة والأحوال .

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها . . وكذلك تخرجون » . .

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها » . . تلك العملية الدائبة التى لا تكف ولا تنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان ، على سطح الأرض ، وفى أجواز الفضاء ، وفى أعماق البحار . . فى كل لحظة يتم هذا التحول . بل هذه المعجزة الخارقة التى لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار . فى كل لحظة يخرج حى من ميت ويخرج ميت من حى . وفى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة ؛ وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام . ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات ؛ ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للإخصاب . وفى كل لحظة تدب الحياة

Marfat.com

فى جنين . إنسان أو حيوان أو طائر . والجثة التى ترم فى الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات ، فالحيوان والإنسان ! ومثل هذا يتم فى أغوار البحار وفى أجواز الفضاء على السواء .

إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعى والقلب البصير ، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله .

« وكذلك تخرجون » . . فالأمر عادى واقعى لاغرابة فيه وليس بدعا مما يشهده الكون فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان !

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » . .

والتراب ميت ساكن ؛ ومنه نشأ الإنسان . وفى موضع آخر فى القرآن جاء : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [(1)] » فالطين هو الأصل البعيد للإنسان . ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين . للمقابلة فى المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحى المتحرك . وذلك بمدقوله : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » تنسيقا للعرض على طريقة القرآن .

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيحاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التى يعيشون عليها ؛ والتى يلتقون بها فى أصل تكوينهم ، وفى النواميس التى تحكمها وتحكمهم فى نطاق الوجود الكبير .

والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر . . نقلة تثير التأمل فى صنع الله ؛ وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله ؛ وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم .

ومن مجال الخلقة الأولى لنوع البشر ينتقل إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسى البشر :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة .

---

(1) المؤمنون ، آية : ١٢ يراجع تفسيرها فى الجزء الثامن عشر ص ١٤ ـ ١٥ .

Marfat.com

ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجا ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت في تلك الصلة سكنا للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة والمعاش ، وأنسا للأرواح والضمائر ، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء .

والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويرا موحيا ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس : « لتسكنوا إليها » . . « وجعل بينكم مودة ورحمة » . . « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . . فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر . ملبيا لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد . .

« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين » . .

وآية خلق السماوات والأرض كثيرا مايشار إليها في القرآن ، وكثيرا ما نمر عليها سراعا دون أن نتوقف أمامها طويلا . . ولكنها جديرة بطول الوقوف والتدبر العميق .

إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق ؛ الذي لانعرف عنه إلا أقل من القليل . هذا الحشد الذي لايحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات . تلك التي لاتزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لاوزن لها ولاظل ! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات ؛ وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب ؛ وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار .

ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام ، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها ؛ والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها . . فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان ؛ وماعرف عنه إلا أقل من القليل . ودراسة هذا الكوكب الصغير الضئيل الذي نعيش على سطحه لم يتم منها حتى اليوم إلا القليل !

هذه لمحة خاطفة عن آية خلق السماوات والأرض التي نمر عليها سراعا . بينما تتحدث

Marfat.com

طويلا . وطويلا جدا . عن جهاز صغير يركبه علماء الإنسان ؛ ويحتفظون فيه بالتناسق بين أجزائه المختلفة لتعمل كلها فى حركة منتظمة دون تصادم ولاخلل فترة من الزمان ! ثم يستطيع بعض التائهين الضالين المنحرفين أن يزعم أن هذا الكون الهائل النظم الدقيق العجيب وجد واستمر بدون خالق مدبر . ويجد من يستطيع أن يسمع لهذا الهراء ! من العلماء !

ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان . . بين بنى الإنسان . ولابد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشىء من طبيعة وضع الأرض الفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان . مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان .

وعلماء هذا الزمان يرون اختلاف اللغات والألوان ؛ ثم يمرون عليه دون أن يروا فيه يد الله ، وآياته فى خلق السماوات والأرض . وقد يدرسون هذه الظاهرة دراسة موضوعية . ولكنهم لايقفون ليمجدوا الخالق المدبر للظواهر والبواطن . ذلك أن أكثر الناس لايعلمون . «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» . وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لايراها إلا الذين يعلمون : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » . .

« ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . .

وهذه آية كذلك تجمع بين ظواهر كونية وما يتعلق بها من أحوال البشرية ، وتربط بين هذه وتلك . وتنسق بينهما فى صلب هذا الوجود الكبير . . تجمع بين ظاهرتى الليل والنهار ونوم البشر ونشاطهم ابتغاء رزق الله ، الذى يتفضل به على العباد ، بعد أن يبذلوا نشاطهم فى الكد والابتغاء ، وقد خلقهم الله متناسقين مع الكون الذى يعيشون فيه ؛ وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار ؛ وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام . مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة فى هذا ودرجات . وكلها تجد فى نظام الكون العام مايلبى طبيعتها ويسمح لها بالحياة .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . . والنوم والسعى سكون وحركة يدركان بالسمع . ومن ثم يتناسق هذا التعقيب فى الآية القرآنية مع الآية الكونية التى تتحدث عنها على طريقة القرآن الكريم .

Marfat.com

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماءً فيحي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكونى ؛ ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء ، أو بين سحابة وجسم أرضى كقمة جبل مثلا . ينشأ عنها تفريغ فى الهواء يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق . وفى الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم . وأيا ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارىء وقدره تقديرا .

والقرآن الكريم حسب طبيعته لايفصل كثيرا فى ماهية الظواهر الكونية وعللها ؛ إنما يتخذ منها أداة لوصل القلب البشرى بالوجود وخالق الوجود . ومن ثم يقرر هنا أنها آية من آيات الله أن يريهم البرق « خوفا وطمعا » . . وهما الشعوران الفطريان اللذان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة . شعور الخوف من الصواعق التى تحرق الناس والأشياء أحيانا عند مايبرق البرق . أو الخوف الغامض من رؤية البرق وما يوقعه فى الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل . وشعور الطمع فى الخير من وراء المطر الذى يصاحب البرق فى معظم الأحوال ؛ والذى عقب بذكره فى الآية بعد ذكر البرق : « وينزل من السماء ماءً فيحي به الأرض بعد موتها » . .

والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حى ، يحيا ويموت . وإنها لكذلك فى حقيقتها التى يصورها القرآن الكريم . فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة ، مطيعة لربها خاضعة خاشعة ، ملبية لأمره مسبحة عابدة . والإنسان الذى يدب على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله هذه ، يسير معها فى موكب واحد متجه إلى الله رب العالمين .

ذلك كله بالإضافة إلى أن الماء حين يصيب الأرض ، يبعث فيها الخصب ، فتنبت الزرع الحى النامى ؛ وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة فى هذا النبات . ومن ثم فى الحيوان والإنسان . والماء رسول الحياة حيث كان تكون الحياة .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . فهنا للعقل مجال للتدبر والتفكير .

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون »

Marfat.com

وقيام السماوات والأرض منتظمة سليمة مقدورة الحركات لايكون إلا بقدرة من الله وتدبير. وما من مخلوق يملك أن يدعى أنه هو أو سواه يفعل هذا. وما من عاقل يملك أن يقول: إن هذا كله يقع بدون تدبير. وإذن فهى آية من آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره، ملبية لهذا الأمر، طائعة له، دون انحراف ولاتلكؤ ولا اضطراب.

« ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ».

ومن يرى هذا التقدير فى نظام الكون، وهذه السلطة على مقدراته، لايشك فى تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم، بالخروج من القبور!

ثم يأتى الإيقاع الأخير ختاما لهذا التقرير؛ فإذا كل من فى السماوات والأرض من خلائق قانتون لله طائعون.

« وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون » . .

ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لاقانتين لله ولا عابدين. ولكن هذا التقرير إنما يعنى خضوع كل من فى السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التى تصرفهم وفق السنة المرسومة التى لاتتخلف ولاتحيد. فهم محكومون بهذه السنة ولو كانوا عصاة كافرين. إنما تعصى عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنة، يتصرف فيهم خالقهم وفق مايريد تصرفه بباقى العبيد وهم لايملكون إلا الخضوع والقنوت.

ثم يختم تلك الجولة الضخمة الهائلة اللطيفة العميقة بتقرير قضية البعث والقيامة التى يغفل عنها الغافلون:

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده — وهو أهون عليه — وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم » . .

وقد سبق فى السورة تقرير البدء والإعادة، وهو يعاد هنا بعد تلك الجولة العريضة ويضاف إليه جديد: « وهو أهون عليه » . . وليس شئ أهون على الله ولاأصعب. « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن. فيكون » ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم، فى تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله. وهى فى طبيعتها أهون وأيسر؟!

« وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض » . . فهو سبحانه ينفرد فى السماوات والأرض بصفاته لايشاركه فيها أحد، وليس كمثله شىء، إنما هو الفرد الصمد.

Marfat.com

« وهو العزيز الحكيم » . . العزيز القاهر الذى يفعل مايريد . الحكيم الذى يدبر الخلق بإحكام وتقدير .

* * *

وعند ماتنتهى تلك الجولة التى طوف فيها القلب البشرى بتلك الآفاق والآماد ، والأعماق والأغوار ، والظواهر والأحوال ، يواجهه سياق السورة بإيقاع جديد :

« ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » . .

ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقا من خلقه : جنا أو ملائكة أو أصناما وأشجارا . وهم لايرتضون أن يشاركهم مواليهم فى شىء مما تحت أيديهم من مال . ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم فى شىء من الاعتبار . فيبدو أمرهم عجبا . يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده . ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء فى مالهم . ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله . وهو تناقض عجيب فى التصور والتقدير .

وهو يفصل لهم هذا المثل خطوة خطوة : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » ليس بعيدا عنكم ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره . . « هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ؟ » . . وهم لايرضون أن يشاركهم ماملكت أيمانهم فى شىء من الرزق فضلا على أن يساووهم فيه « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » . . أى تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار ، وتخشون أن يجوروا عليكم ، وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم ، لأنهم أكفاء لكم وأنداد ؟ هل يقع شىء من هذا فى محيطكم القريب وشأنكم الخاص ؟ وإذا لم يكن شىء من هذا يقع فكيف ترضونه فى حق الله وله المثل الأعلى ؟

وهو مثل واضح بسيط حاسم لامجال للجدل فيه ، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » . .

وعند هذا الحد من عرض تناقضهم فى دعوى الشرك المتهافتة ، يكشف عن العلة الأصلية فى هذا التناقض المريب : إنه الهوى الذى لايستند على عقل أو تفكير :

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله ؟ ومالهم من ناصرين » . .

Marfat.com

والهوى لاضابط له ولا مقياس . إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ، ورغباتها ومخاوفها . وآمالها ومطامعها التي لاتستند إلى حق ولاتقف عند حد ولا تزن بميزان . وهو الضلال الذي لايرجى معه هدى ، والشرود الذي لاترجى معه أوبة : « فمن يهدى من أضل الله ؟ » نتيجة لاتباعه هواه ؟ « ومالهم من ناصرين » يمنعونهم من سوء المصير .

* * *

وعند هذا الحد يفرغ من أمر هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم المتقلبة المضطربة ؛ ويتجه بالخطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليستقيم على دين الله الثابت المستند على فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ وهو عقيدة واحدة ثابتة لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعا وأحزابا مع الأهواء والنزوات !

« فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون . منيبين إليه واتقوه ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » . .

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده ، وفي موضعه ، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده ، وفي أغوار النفس وفطرتها . . يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله ؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح . . وهذا هو السلطان القوى الذى يصدع به القرآن . السلطان الذي لاتقف له القلوب ولاتملك رده النفوس .

« فأقم وجهك للدين حنيفا » . . واتجه إليه مستقيما . فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق ، ولاتستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ماعداه ، مستقيما على نهجه دون سواه :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » . . وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ؛ وكلاهما من صنع الله ؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود ؛ وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه . والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت : « لاتبديل لخلق الله » . فإذا انحرفت النفوس

Marfat.com

عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة . فطرة البشر وفطرة الوجود .

« ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . . فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم .

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم ، ولو أنه موجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين :

« منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . كل حزب بما لديهم فرحون » . .

فهى الإنابة إلى الله والعودة فى كل أمر إليه . وهى التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله فى السر والعلانية ؛ والشعور به عند كل حركة وكل سكنة . وهى إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله . وهى التوحيد الخالص الذى يميز المؤمنين من المشركين ..

ويصف المشركين بأنهم « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » . . والشرك ألوان وأنماط كثيرة . منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء . ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين . ومنهم من يشركون الكهان والأحبار . ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار . ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم . ومنهم من يشركون النار . ومنهم من يشركون الليل والنهار . ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع . ولا تنتهى أنماط الشرك وأشكاله . . و « كل حزب بما لديهم فرحون » بينما الدين القيم واحد لايتبدل ولايتفرق ، ولايقود أهله إلا إلى الله الواحد ، الذى تقوم السماوات والأرض بأمره ، وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون .

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا

Marfat.com

أنّ اللهَ يبسُطُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاءُ ويقْدِرُ ؟ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ .

« فآتِ ذا القُربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السّبيلِ ، ذلكَ خيرٌ للّذينَ يُريدونَ وجهَ اللهِ ، وأولئكَ هُمُ المُفلحونَ * وما آتيتُمْ مِنْ رِباً ليَرْبُوَ في أموالِ النّاسِ فلا يَرْبُو عندَ اللهِ ، وما آتيتُمْ مِنْ زكاةٍ تُريدونَ وجهَ اللهِ فأولئكَ هُمُ المُضعِفونَ .

« اللهُ الّذي خلقكُمْ ثُمَّ رزقكُمْ ، ثُمَّ يُميتُكُمْ ، ثُمَّ يُحييكُمْ . هلْ مِنْ شُركائِكُمْ مَنْ يفعلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شيْءٍ ؟ سُبحانهُ وتعالى عمّا يُشرِكونَ * ظهرَ الفسادُ في البَرِّ والبحرِ بما كسبَتْ أيدي النّاسِ ليُذيقَهُمْ بعضَ الّذي عمِلوا لعلَّهُمْ يرْجِعونَ * قُلْ : سيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الّذينَ مِنْ قبلُ كانَ أكثرُهُمْ مُشرِكينَ .

« فأقِمْ وجهَكَ للدِّينِ القيِّمِ مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ لهُ مِنَ اللهِ ، يومئذٍ يَصَّدَّعونَ * مَنْ كفرَ فعليهِ كُفرُهُ ، ومَنْ عمِلَ صالحاً فلأنفُسِهِمْ يَمْهَدونَ * ليَجزيَ الّذينَ آمنوا وعمِلوا الصّالحاتِ مِنْ فضلِهِ ، إنّهُ لا يُحِبُّ الكافرينَ .

« ومِنْ آياتِهِ أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبشِّراتٍ ، وليُذيقَكُمْ مِنْ رحمتِهِ ، ولِتجريَ الفُلْكُ بأمرِهِ ، ولِتبتغوا مِنْ فضلِهِ ، ولعلَّكُمْ تشكُرونَ .

« ولقدْ أرسلْنا مِنْ قبلِكَ رُسُلاً إلى قومِهِمْ فجاءوهُمْ بالبيِّناتِ ؛ فانتقمْنا مِنَ الّذينَ أجرَموا ، وكانَ حقّاً علينا نصرُ المُؤمنينَ .

« اللهُ الّذي يُرسِلُ الرِّياحَ فتُثيرُ سحاباً ، فيبسُطُهُ في السّماءِ كيفَ يشاءُ ، ويجعلُهُ كِسَفاً ، فترى الوَدْقَ يخرُجُ مِنْ خِلالِهِ فإذا أصابَ بهِ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ إذا هُمْ يستبشِرونَ * وإنْ كانوا مِنْ قبلِ أنْ يُنزَّلَ عليهِمْ مِنْ قبلِهِ لمُبلِسينَ * فانظُرْ إلى آثارِ رحمةِ اللهِ كيفَ يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها . إنَّ ذلكَ لمُحيي الموتى ، وهُوَ على كُلِّ شيْءٍ قديرٌ * ولئنْ أرسلْنا ريحاً فرأوهُ مُصفرّاً لظلّوا مِنْ بعدِهِ يكفُرونَ .

Marfat.com

« فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » ⑥

يمضي هـذا الشوط من السورة في مجالها الأصيل . المجال الكوني العام الذي ترتبط به أقدار الناس وأقدار الأحداث ؛ والذي تتناسق فيـه سنن الحياة وسنن الكون وسنن الدين القيم بلا تعارض ولا اصطدام .

وفي هذا الشوط يرسم صورة لتقلب الأهواء البشرية أمام ثبات السنن ؛ ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم . ويصور نفوس البشر في السراء والضراء وعند قبض الرزق وبسطه ، وهي تضطرب في تقديراتها وتصوراتها مالم تستند إلى ميزان الله الذي لايضطرب أبدا ؛ ومالم ترجع إلى قدر الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وبمناسبة الرزق يوجههم إلى الطريقة التي تنمي المال وتزكيه . الطريقة المتفقة مع النهج القيم والطريق الواصل . ويردهم بهـذا إلى معرفة الخالق الرازق الذي يميت ويحيي . أما الشركاء الذين يتخذونهم من دون الله فماذا يفعلون ؟ وينبههم إلى الفساد الذي تنشئه عقيدة الشرك في كل مكان . كما يوجه الرسول ـ

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين إلى الاستقامة على منهجهم القيم . قبل أن يأتي اليوم الذى لاعمل فيه ولا كسب ، ولكن حساب وجزاء عما كانوا يعملون . وفى معرض الحديث عن رزق الله يوجه قلوبهم إلى أنماط من هذا الرزق . منها مايتعلق بحياتهم المادية كالماء النازل من السماء الذى يحي الأرض بعد موتها . وتجرى الفلك فيه بأمره . ومنها تلك الآيات البينات التى تنزل على الرسول لإحياء موات القلوب والنفوس ، ولكنهم لايهتدون ولايسمعون . ويطوف بهم فى جولة مع أطوار نشأتهم وحياتهم حتى ينتهوا إلى خالقهم ، فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون . . ويختم هذا الشوط بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوجيهه إلى الصبر حتى يتحقق وعد الله الحق اليقين .

* * *

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . .

إنها صورة للنفس البشرية التى لاتستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح . صورة لها وهى تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التى لاعاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه : « إذا فريق منهم بربهم يشركون » . . وهو الفريق الذى لايستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم . ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذى ألجأهم إلى الله ؛ وينسيهم الشدة التى ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما آتاهم من الرحمة ، بدلا من الشكر والاستقامة على الإنابة .

وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد فى أشخاص المشركين الذين كانوا يواجهون الرسالة المحمدية ، فيوجه إليهم الخطاب ؛ ويحدد أنهم من هذا الفريق الذى يعنيه :

« فتمتعوا فسوف تعلمون » ..

Marfat.com

وهو تهديد ملفوف ، هائل مخيف . وإن الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل ، الذى أنشأه كله بقولة : كن !

« فتمتعوا فسوف تعلمون » !

وبعد هذه المعاجلة بالتهديد الرعيب يعود فيسأل فى استنكار عن سندهم فى هذا الشرك الذى يجازون به نعمة الله ورحمته ؛ وهذا الكفر الذى ينتهون إليه :

« أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ » . .

فإنه لاينبغى لبشر أن يتلقى شيئا فى أمر عقيدته إلا من الله . فهل أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذى يتخذونه ؟ وهو سؤال استنكارى تهكمى ، يكشف عن تهافت عقيدة الشرك ، التى لاتستند إلى حجة ولا تقوم على دليل . ثم هو سؤال تقريرى من جانب آخر ، يقرر أنه لاعقيدة إلا ماينزل من عند الله . وما يأتى بسلطان من عنده . وإلا فهو واهن ضعيف .

ثم يعرض صفحة أخرى من صفحات النفس البشرية فى الفرح بالرحمة فرح الخفة والاغترار؛ والقنوط من الشدة واليأس من رحمة الله :

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذاهم يقنطون » . .

وهى كذلك صورة للنفس التى لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها فى جميع الأحوال ؛ وميزان دقيق لايضطرب مع التقلبات . والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لايرتبطون بذلك الخط ولايزنون بهذا الميزان . فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذى ينسيهم مصدرها وحكمتها ، فيطيرون بها ، ويستغرقون فيها ، ولايشكرون المنعم ، ولايستيقظون إلى مافى النعمة من امتحان وابتلاء . حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة « سيئة » عموا كذلك عن حكمة الله فى الابتلاء بالشدة ، وفقدوا كل رجاء فى أن يكشف الله عنهم الغمة ؛ وقنطوا من رحمته ويئسوا من فرجه . . وذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله ، التى لاتدرك سننه ولاتعرف حكمته . أولئك الذين لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا !

ويعقب على هذه الصورة بسؤال استنكارى يعجب فيه من أمرهم ، وقصر نظرهم وعمى بصرتهم . فالأمر فى السراء والضراء يتبع قانونا ثابتا ، ويرجع إلى مشيئة الله سبحانه ، فهو الذى

Marfat.com

ينعم بالرحمة ، ويبتلى بالشدة ؛ ويبسط الرزق ويضيقه وفق سنته ، وبمقتضى حكمته . وهـذا مايقع كل آن ، ولـكنهم هم لايبصرون :

« أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ » . .

فلا داعى للفرح والبطر عند البسط ، ولا لليأس والقنوط عند القبض ؛ فإنما هى أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله ، وفيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله ، ودلالة على اطراد السنة ، وثبات النظام ، رغم تقلب الأحوال :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . .

* * *

وإذا كان الله هو الذى يبسط الرزق ويقبضه ؛ وهو الذى يعطى ويمنع وفق مشيئته ؛ فهو يبين للناس الطريق الذى تربو أموالهم فيه وترجح . لا كما يظنون هم ، بل كما يهديهم الله :

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل . ذلك خـير للذين يريدون وجه الله ؛ وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عنـد الله ؛ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . .

وما دام المال مال الله ، أعطاه رزقا لبعض عباده ، فالله صاحب المال الأول قد قرر قسما منه لفئات من عباده ، يؤديها إليهم من يضع يده على ذلك المال . ومن ثم سماها حقا . ويذكر هنا من هذه الفئات « ذا القربى والمسكين وابن السبيل » . ولم تكن الزكاة بعـد قد حددت ولامستحقوها قد حصروا . ولـكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المال مال الله ، بما أنه هو الرازق به ، وأن لفئات من المحتاجين حقا فيه مقررا لهم من صاحب المال الحقيقى ، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذا المال . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية فى المـال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات فى النظرية الاقتصادية للإسلام . فما دام المال مال الله ، فهو خاضع إذن لـكل مايقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول ، سواء فى طريقة تملـكه أو فى طريقة تنميته ، أو فى طريقة إنفاقه . وليس واضع اليد حرا فى أن يفعل به ما يشاء .

وهو هنا يوجه أصحاب المال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهى إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة فى سبيل الله :

Marfat.com

« ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » .

وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كى ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هـذا ليس الطريق للنماء الحقيق : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » . . هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التى يريد بهـا أصحابها أن ينموا أموالهم بطريقة ربوية فى أى شكل من الأشكال [1] . . ويبين لهم فى الوقت ذاته وسيلة النمـاء الحقيقية :

« وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . .

هذه هى الوسيلة المضمونة لمضاعفة المـال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولاعوض من الناس . إنمـا هى إرادة وجـه الله . أليس هو الذى يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذى يعطى الناس ويمنع ؟ فهو الذى يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه ؛ وهو الذى ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس . . ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهى التجارة الرابحة هنا وهناك !

* * *

ومن زاوية الرزق والكسب يعالج قضية الشرك ، وآثارها فى حياتهم وفى حياة من قبلهم ، ويعرض نهاية المشركين من قبل وعاقبتهم التى تشهد بها آثارهم :

« الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم . هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون . ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون . قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » . .

وهو يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التى لا يملكون أن يماروا فى أن الله وحده هو موجدها ؛ أو التى لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها . يواجههم بأن الله هو الذى خلقهم . وأنه هو الذى رزقهم . وأنه هو يميتهم . وأنه هو يحييهم . فأما الخلق فهم يقرون به . وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئا . وأما الإماتة فلا حجة لهم على غير ما يقرره القرآن فيها . بقى الإحياء وكانوا يمارون فى وقوعه .

(١) غير أن هذه الطريقة لا حرمة فيها كحرمة الربا المعروف . غير أنها ليست طريقة النماء الزكى الكريم .

Marfat.com

وهو يسوقه إليهم ضمن هذه المسلمات ليقرره فى وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة، التى تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذى أصابهم. وما تملك الفطرة أن تنكر أمر البعث والإعادة.

ثم يسألهم: « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ » ولا ينتظر جوابا منهم، فهو سؤال للنفى فى صورة التقريع غير محتاج إلى جواب! إنما يعقب عليه بتنزيه الله: « سبحانه وتعالى عما يشركون ».

ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم؛ وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع فى الأرض الفساد، ويملؤها براً وبحرا بهذا الفساد، ويجعله مسيطرا على أقدارها، غالبا عليها:

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » ..

فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لايتم عبثا، ولايقع مصادفة؛ إنما هو تدبير الله وسنته.. « ليذيقهم بعض الذى عملوا » من الشر والفساد، حينما يكتوون بناره، ويتألمون لما يصيبهم منه: « لعلهم يرجعون » فيعزمون على مقاومة الفساد، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم.

ويحذرهم فى نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم، ويرونها فى آثارهم حين يسيرون فى الأرض، ويمرون بهذه الآثار فى الطريق:

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين».

وكانت عاقبتهم ما يرون حين يسيرون فى الأرض؛ وهى عاقبة لاتشجع أحدا على سلوك ذلك الطريق!

* * *

وعند هذا المقطع يشير إلى الطريق الآخر الذى لايضل سالكوه، وإلى الأفق الآخر الذى لا يخيب قاصدوه..

« فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله. يومئذ يصدعون. من

Marfat.com

كفر فعليه كفره ؛ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لايحب الكافرين » . .

والصورة التي يعبر بها عن الاتجاه إلى الدين القيم صورة موحية معبرة عن كمال الاتجاه، وجديته ، واستقامته : « فأقم وجهك للدين القيم » . . وفيها الاهتمام والانتباه والتطلع ، واستشراف الوجهة السامية والأفق العالى والاتجاه السديد .

وقد جاء هذا التوجيه أول مرة فى السورة بمناسبة الكلام عن الأهواء المتفرقة والأحزاب المختلفة . أما هنا فيجىء بمناسبة الشركاء ، والرزق ومضاعفته ، والفساد الناشئ من الشرك ، ومايذوقه الناس فى الأرض من ظهور الفساد واستعلائه ، وعاقبة المشركين فى الأرض . يجىء بهذه المناسبة فيبين جزاء الآخرة ونصيب المؤمنين والكافرين فيها ؛ ويحذرهم من يوم لامرد له من الله . يوم يتفرقون فريقين : « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » . .

ويمهد معناها يُمهّد ويُمبّد ، ويعد المهد الذى فيه يستريح ، ويهيئ الطريق أو المضجع المريح . وكلها ظلال تتجمع وتتناسق ، لتصور طبيعة العمل الصالح ووظيفته . فالذى يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيئ أسباب الراحة فى ذات اللحظة التى يقوم فيها بالعمل الصالح لابعدها . وهذا هو الظل الذى يلقيه التعبير . وذلك : « ليجزى الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . « من فضله » . . فما يستحق أحد من بنى آدم الجنة بعمله . وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله . إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين . وكراهيته سبحانه للكافرين : « إنه لايحب الكافرين » . .

* * *

بعد ذلك يأخذ معهم فى جولة أخرى تكشف عن بعض آيات الله ، وما فيها من فضل الله ورحمته ، فيما يهبهم من رزق وهدى ينزل عليهم ، فيعرفون بعضه وينكرون بعضه . ثم لايشكرون ولايهتدون .

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين . الله الذى يرسل الرياح ،

Marfat.com

فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحي الموتى ، وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون » .

إنه يجمع فى هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات ، وإرسال الرسل بالبينات ، ونصر المؤمنين بالرسل ، وإنزال المطر المحيي ، وإحياء الموتى وبعثهم . . وهو جمع له مغزاه . . إنها كلها من رحمة الله ، وكلها تتبع سنة الله . وبين نظام الكون ، ورسالات الرسل بالهدى ، ونصر المؤمنين ، صلة وثيقة . وكلها من آيات الله ، ومن نعمته ورحمته ، وبها تتعلق حياتهم ، وهى مرتبطة كلها بنظام الكون الأصيل .

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » . . تبشر بالمطر . وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها . « وليذيقكم من رحمته » بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء « ولتجرى الفلك بأمره » سواء بدفع الرياح لها ؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجرى السفن فيها . وهى تجرى - مع هذا - بأمر الله . ووفق سنته التى فطر عليها الكون ؛ وتقديره الذى أودع كل شيء خاصيته ووظيفته ، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء فتسير ، وأن تدفعها الرياح فتجرى مع التيار وضد التيار . وكل شيء عنده بمقدار . . « ولتبتغوا من فضله » فى الرحلات التجارية ، وفى الزرع والحصاد ، وفى الأخذ والعطاء . وكله من فضل الله الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا . « ولعلكم تشكرون » على نعمة الله فى هذا كله . . وهذا توجيه إلى ماينبغى أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب .

ومثل إرسال الرياح مبشرات إرسال الرسل بالبينات :

« ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات » . .

ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه - وهى أجل وأعظم - استقبالهم للرياح المبشرات . ولا انتفعوا بها - وهى أنفع وأدوم - انتفاعهم بالمطر والماء ! ووقفوا تجاه الرسل فريقين : مجرمين لايؤمنون ولايتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله . ومؤمنين يدركون آيات الله ، ويشكرون رحمته ، ويثقون بوعده ، ويحتملون من

Marfat.com

المجرمين ما يحتملون . . ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعده الوثيق .

« فانتقمنا من الذين أجرموا . وكان حقا علينا نصر المؤمنين » . .

وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين ؛ وجعله لهم حقا ، فضلا وكرما . وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكا ولا ريبا . وكيف والقائل هو الله القوي العزيز الجبار المتكبر القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . يقولها سبحانه معبرة عن إرادته التي لا ترد ، وسنته التي لا تتخلف ، وناموسه الذي يحكم الوجود .

وقد يبطىء هذا النصر أحيانا ـ في تقدير البشر ـ لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله . والله هو الحكيم الخبير . يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه ، وفق مشيئته وسنته . وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف . ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح . ووعده القاطع واقع عن يقين ، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين .

بعد ذلك يمضي السياق يقرر أن الله هو الذي يرسل الرياح ، وينزل المطر ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون . . سنة واحدة ، وطريقة واحدة ، وحلقات في سلسلة الناموس الكبير :

« الله الذي يرسل الرياح » . . وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتصريفه . « فتثير سحابا » . بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض . « فيبسطه في السماء » . . ويفرشه ويمده . « ويجعله كسفا » . . بتجميعه وتكثيفه وتراكمه بعضه فوق بعض ، أو يصطدم بعضه ببعض ، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة متوطبقة ، أو كسفةمنه وكسفة . « فترى الودق يخرج من خلاله » وهو المطر يتساقط من خلال السحاب . « فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » . . ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر . والعرب أعرف الناس بهذه الإشارة . وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء ، وقد تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم في لهفة وحب وإعزاز !

« وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » . .

وهذا تقرير لحالهم قبل أن ينزل عليهم المطر : حالهم من اليأس والقنوط والهمود . . ثم

Marfat.com

هم يستبشرون . . « فانظر إلى آثار رحمة الله » . . ! انظر إليها فى النفوس المستبشرة بعد القنوط ، وفى الأرض المستبشرة بعد الهمود ؛ وفى الحياة التى تدب فى التربة وتدب فى القلوب.

«فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » .. إنها حقيقة واقعة منظورة ، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر . ومن ثم يتخذها برهانا على قضية البعث والإحياء فى الآخرة . على طريقة الجدل القرآنى ، الذى يتخذ من مشاهد الكون المنظورة ، وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه ؛ ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه :

« إن ذلك لمحيي الموتى » . . « وهو على كل شيء قدير » . .

وهذه آثار رحمة الله فى الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير .

وبعد تقرير هذه الحقيقة يمضى فى تصوير حال القوم الذين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء ؛ ويستروحون بآثار رحمة الله عند نزوله من السماء . . يمضى فى تصوير حالهم لوكانت الريح التى رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب — وهى الريح المهلكة للزرع والضرع — أو التى يصفر منها الزرع فيصير حطاما :

« ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون » ..

يكفرون سخطا ويأسا ، بدلا من أن يستسلموا لقضاء الله ، ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء. وهى حال من لايؤمن بقدرالله ، ولا يهتدى ببصيرته إلى حكمة اللهفى تدبيره ، ولا يرى من وراء الأحداث يد الله التى تنسق هذا الكون كله ؛ وتقدر كل أمر وكل حادث . وفق ذلكالتنسيق الشامل للوجود المترابط الأجزاء . .

* * *

وعند هذا الحد من تصوير تقلبات البشر وفق أهوائهم ، وعدم انتفاعهم بآيات الله التى يرونها ماثلة فى الكون منحولهم ؛ وعدم إدراكهم لحكمة الله من وراءما يشهدونه من وقائع وأحداث . . عند هذا يتوجه بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعزيه عن إخفاق جهوده فىهداية الكثير منهم ؛ ويرد هذا إلى طبيعتهم التى لا حيلة له فيها ، وانطماس بصيرتهم وعماها :

« فإنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . :

Marfat.com

وهو يصورهم موتى لا حياة فيهم ، صما لاسمع لهم ، عميا لايهتدون إلى طريق . . والذى ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لاحياة فيه . إنما هى حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدى بفطرته التى قلما تخونه ! والذى لايستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ فى القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذى لايبصر آيات الله المبثوثة فى صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان !

« إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

وهؤلاء هم الذين يسمعون الدعوة ، لأن قلوبهم حية ، وبصائرهم مفتوحة ، وإدراكهم سليم . فهم يسمعون فيسلمون . ولاتزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب .

* * *

بعد ذلك يعود السياق ليجول بهم جولة جديدة ، لا فى مشاهد الكون من حولهم ، ولكن فى ذوات أنفسهم ، وفى أطوار نشأتهم على هذه الأرض ؛ ويمتد بالجولة إلى نهايتها هنالك فى الحياة الأخرى . فى ترابط بين الحياتين وثيق :

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة — يخلق ما يشاء — وهو العليم القدير . ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة . كذلك كانوا يؤفكون : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون » . .

إنها جولة مديدة ، يرون أوائلها فى مشهود حياتهم ؛ ويرون أواخرها مصورة تصويرا مؤثرا كأنها حاضرة أمامهم . وهى جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

« الله الذى خلقكم من ضعف » . . ولم يقل خلقكم ضعافا أو فى حالة ضعف ؛ إنما قال : « خلقكم من ضعف » كأن الضعف مادتهم الأولى التى صيغ منها كيانهم .. والضعف الذى تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى فى تكوين هذا الإنسان .

إنه ضعف البنية الجسدية الممثل فى تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التى ينشأ منها الجنين . ثم فى الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف . ثم فى الطفل والصبى حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين .

Marfat.com

ثم هو ضعف المادة التى ذرأ منها الإنسان . الطين . الذى لولا نفخة من روح الله لظل فى صورته المادية أو فى صورته الحيوانية ، وهى بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة .

ثم هو ضعف الكيان النفسى أمام النوازع والدفعات ، والميول والشهوات ، التى لولا النفخة العلوية وماخلقت فى تلك البنية من عزائم واستعدادات ، لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام .

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة » . . قوة بكل تلك المعانى التى جاءت فى الحديث عن الضعف . قوة فى الكيان الجسدى ، وفى البناء الإنسانى ، وفى التكوين النفسى والعقلى .

« ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » . . ضعفا فى الكيان الإنسانى كله . فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها . وقد يصاحبها انحدار نفسى ناشىء من ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل ، ولايجد من إرادته عاصما . ومع الشيخوخة الشيب ، يذكر تجسيما وتشخيصا لهيئة الشيخوخة ومنظرها .

وإن هذه الأطوار التى لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، والتى لا تتخلف مرة فيمن يعد له فى العمر،ولا تبطىء مرة فلا تجىء فى موعدها المضروب . إن هذه الأطوار التى تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنها فى قبضة مدبرة ، تخلق ما تشاء ، وتقدر ما تشاء ، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره ، وفق علم وثيق وتقدير دقيق : « يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

ولابد لهذه النشأة المحكمة المقدرة من نهاية كذلك مرسومة مقدرة . هذه النهاية يرسمها فى مشهد من مشاهد القيامة ، حافل بالحركة والحوار على طريقة القرآن :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة » . .

فهكذا يتضاءل فى حسهم كل ماوراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون : مالبثوا غير ساعة . ويحتمل أن يكون قسمهم منصبا على مدة لبثهم فى القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم فى الأرض أحياء وأمواتا . « كذلك كانوا يؤفكون » ويصرفون عن الحق والتقدير الصحيح. حتى يردهم أولو العلم الصحيح إلى التقدير الصحيح :

Marfat.com

« وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث . فهذا يوم البعث . ولكنكم كنتم لاتعلمون » . .

وأولو العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون ، الذين آمنوا بالساعة ، وأدركوا ماوراء ظاهر الحياة الدنيا . فهم أهل العلم الصحيح وأهل الإيمان البصير . وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه « لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث » . . فهذا هو الأجل المقدور ، ولابهم طويلا كان أم كان قصيرا . فقد كان ذلك هو الموعد ، وقد تحقق :

« فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون » .

ثم يختم المشهد بالنتيجة الكلية فى إجمال يصور ماوراءه مما لحق بالظالمين الذين كانوا يكذبون بيوم الدين :

« فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون » . .

فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم أحد فيما فعلوه ، أو يطلب إليهم الاعتذار . فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب !

* * *

ومن هذا المشهد البائس اليائس يردهم إلى ماهم فيه من عناد وتكذيب ، وتلك كانت عاقبة العناد والتكذيب :

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ؛ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون » . .

وهى نقلة بعيدة فى الزمان والمكان ؛ ولكنها تجىء فى السياق ، وكأنها قريب من قريب . وينطوى الزمان والمكان ، فإذا هم مرة أخرى أمام القرآن ، وفيه من كل مثل ؛ وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب ؛ وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول ؛ وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير. وهو يخاطب كل قلب وكل عقل فى كل بيئة وكل محيط . وهو يخاطب النفس البشرية فى كل حالة من حالاتها ، وفى كل طور من أطوارها . ولكنهم — بعد هذا كله — يكذبون بكل آية ، ولايكتفون بالتكذيب ، بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح ، فيقولون عنهم : إنهم مبطلون :

Marfat.com

« ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون » ..

ويعقب على هذا الكفر والتطاول :

« كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون » . .

كذلك . بمثل هذه الطريقة ، ولمثل هـذا السبب . فهؤلاء الذين لايعلمون مطموسو القلوب ، لاتتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله ، متطاولون على أهل العلم والهـدى . ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم ، وأن يطبع على قلوبهم ، لمـا يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب !

* * *

ثم يأتى الإيقاع الأخير فى السورة بعد تلك الجولات مع المشركين فى الكون والتاريخ وفى ذوات أنفسهم وفى أطوار حياتهم ، ثم هم بعد ذلك كله يكفرون ويتطاولون . . يأتى الإيقاع الأخير فى صورة توجيه لقلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين :

« فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لايوقنون » . .

إنه الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية ! والثقة بوعد الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حـيرة ولا شكوك . . الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تـكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله . ذلك أنهم محجوبون عن العـلم محرومون من أسباب اليقين . فأما المؤمنون الواصلون المسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين . مهما يطل هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم !

* * *

وهكذا تختم السورة التى بدأت بوعد الله فى نصر الروم بعد بضع سنين ، ونصر المؤمنين . تختم بالصبر حتى يأتى وعد الله ؛ والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لايوقنون .

فيتناسق البدء والختام . وتنتهى السورة وفى القلب منها إيقاع التثبيت القوى بالوعـد الصادق الذى لا يكذب ، واليقين الثابت الذى لايخون . .

Marfat.com

سورة لقمان مكية وآياتها ٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم ① تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون .

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعد الله حقاً ، وهو العزيز الحكيم * خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ،

Marfat.com

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ . إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » ⑲

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذي خلق هذه الفطرة ، والذي يعلم ما يصلح لها وما يصلحها ، ويعلم كيف يخاطبها ، ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ؛ والتي تعرفها قبل أن تخاطب بهذا القرآن ، لأنها قائمة عليها أصلا في تكوينها الأول . . تلك هي حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده ، والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح . . إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض ؛ وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم ؛ وتنحرف بها عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة . هنا يجيء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذي تعرفه ؛ ويعرض عليها الحقيقة التي غفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه ؛ ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله ، مستقيما مع العقيدة ، مستقيما مع الفطرة ، مستقيما على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير . .

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري . وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة . إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى ، ومن زوايا منوعة ، تتناول القلب البشري من جميع أقطاره ؛ وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها . .

Marfat.com

هذه القضية الواحدة ـ قضية العقيدة ـ تتلخص هنا فى توحيـد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه . وفى اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . وفى اتباع ما أنزل الله والتخلى عما عداه من مألوفات ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هـذه القضية بطريقة تستدعى التدبر لإدراك الأسلوب القرآنى العجيب فى مخاطبة الفطر والقلوب . وكل داع إلى الله فى حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب .

إنها تعرض هذه القضية فى مجال العرض القرآنى . وهو هذا الكون الكبير . سماؤه وأرضه . شمسه وقمره . نهاره وليله . أجواؤه وبحاره ، أمواجه وأمطاره . نباته وأشجاره . . وهـذا المجال الكونى يتكرر فى القرآن الكريم . فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة ، وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل ، تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحيها ، وتأخذ عليها المسالك والدروب .

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحـد . فإنها تعرض فى السورة أربع مرات فى أربع جولات ، تطوف كل منها بالقلب البشرى فى ذلك المجـال الفسيح ، مستصحبة فى كل مرة مؤثرات جديدة ، ومتبعة أسلوبا كذلك جـديدا فى العرض والتناول . وتتبع هـذه الجولات وهى تبدأ وتنتهى بطريقة عجيبة فيـه متاع للقلب والعقل . إلى جانب ما فيه من دواعى التأثر والاستجابة .

* * *

تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ؛ فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هى آيات الكتاب الحكيم ، وهى هـدى ورحمـة للمحسنين . وهؤلاء المحسنون هم : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » فتقرر قضية اليقين بالآخرة وقضية العبادة لله . ومعها مؤثر نفسى ملحوظ هو أن « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ومن ذا الذى لا يريد أن يكون من المفلحين ؟ . . وفى الجانب الآخر فريق من الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسى مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله : « أولئك لهم عذاب مهين » . . ثم يمضى فى وصف حركات هذا الفريق : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا

Marfat.com

كأن لم يسمعها » . . ومع الوصف مؤثر نفسي يحقر هـذا الفريق : « كأن في أذنيه وقرا » ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح في التعبير : « فبشره بعذاب أليم » والبشارة هنـا فيها مافيها من التهكم الملحوظ ! . . ثم يعود إلى المؤمنـين يفصل شيئا من فلاحهم الذى أجمله فى أول السورة ؛ ويبين جزاءهم فى الآخرة ، كما كشف عن جزاء المستهزئين المستكبرين : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحـات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعـد الله حقا ، وهو العزيز الحـكيم » . . وهنا يعرض صفحة الـكون الـكبير مجـالا للبرهان الذى يطالع الفطرة من كل جانب ، ويخاطبها بكل لسان ، ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين : « خلق السماوات بغير عمـد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . . وأمام هـذه الأدلة الـكونية التى تهول الحس وتبده الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة ، التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه الهائل العظيم : « هذا خلق الله . فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين » . .

وعند هذا الإيقاع الـكونى الضخم العميق تنتهى الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة فى ساحة الـكون الـكبير .

فأما الجولة الثانية فتبدأ من خـلال نفوس آدمية . وتتناول القضية ذاتها فى المجـال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة .. « ولقد آتينا لقمان الحـكمة » فمـا طبيعة هذه الحـكمة وما مظهرها الفريد ؟ إنها تتلخص فى الاتجاه لله بالشكر : « أن اشكر لله » فهذه هى الحكمة وهذا هو الاتجاه الحـكيم . . والخطوة التالية هى اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة : نصيحة حكيم لابنه . فهى نصيحة مبرأة من العيب ، صاحبها قد أوتى الحـكمة . وهى نصيحة غير متهمة ، فما يمكن أن تتهم نصيحة والد لولده . هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التى قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسـية ومعها مؤثرات جديدة : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » . . ويؤكـد هـذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ويقرن قضية الشكر لله بالشكر لهـذين الوالدين ، فيقدمها عليهـا : « أن اشكرلى ولوالديك » . . ثم يقرر القاعدة الأولى فى قضية

Marfat.com

العقيدة ، وهى أن وشيجة العقيدة هى الوشيجة الأولى ، المقدمة على وشيجة النسب والدم . وعلى مافى هذه الوشيجة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيجة الأولى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى » . ويتقرر معها قضية الآخرة : « ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . . ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهو يصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته ، تصويراً يرتعش له الوجدان البشرى وهو يتابعه فى المجال الكونى الرحيب : « يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » . . ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على مايستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التى لابد أن تواجه صاحب العقيدة ، وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية ، فيتجاوز بها نفسه إلى غيره : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . . ومع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب . أدب الداعى إلى الله . ألا يتطاول على الناس ، فيفسد بالقدوة مايصلح بالكلام : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . . والمؤثر النفسى بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ فى التعبير . وبه تنتهى هذه الجولة الثانية ، وقد عالجت القضية ذاتها فى مجالها المعهود ، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد .

ثم تبدأ الجولة الثالثة . . تبدأ بعرض القضية المعهودة فى مجال السماوات والأرض ، مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسماوات والأرض وما فيها من نعم سخرها الله للناس وهم لايشكرون : « ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . . وفى ظل هذا المؤثر يبدو الجدل فى الله مستنكرا من الفطرة ، تمجه القلوب المستقيمة . . ثم يتابع استنكار موقف الكفر والجحود : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » . . وهو موقف سخيف مطموس ، يتبعه بمؤثر عنيف : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . . ومن ثم يعرض قضية الجزاء فى الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكفر : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة

Marfat.com

الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا » . .
ويشير إلى علم الله الواسع الدقيق : « إن الله عليم بذات الصدور » . ويصحب ذلك العرض بتهديد مخيف : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » . . وقرب ختام الجولة يقفهم وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهي تواجه هذا الكون ، فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لايعلمون » . . ويختم الجولة بمشهد كوني يصور امتداد علم الله بلا نهاية ، وانطلاق مشيئته في الخلق والإنشاء بلا حدود ؛ ويجعل من هذا دليلا كونيا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء : « ولوأن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كوني ذي إيقاع خاص في القلب البشري . مشهد الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار ويمتد ؛ والنهار وهو يطول فيدخل في جسم الليل ويمتد . ومشهد الشمس والقمر مسخرين في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لايعلمه إلا خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعملون : « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير » . . ويتخذ من هذا المشهد الكوني دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة : « ذلك أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير » . . ويلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس في صورة الفلك التي تجري في البحر : « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ » ويعقب على هذا بوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذي يبعدها عن بارئها ؛ ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ؛ ومايجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . . وبمناسبة موج البحر وهوله يذكرهم بالهول الأكبر ، وهو يقرر قضية الآخرة . الهول الذي يفصم وشائج الدم التي لايفصلها في الدنيا هول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم . واخشوا يوما لايجزي والد عن ولده ، ولامولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور » . .

Marfat.com

وعند هذا المقطع وهـذا المؤثر الذى يرتجف له الكيان يختم السورة بآية تقرر القضايا التى عالجتها جميعـا ، فى إيقاع قوى عميق مرهوب : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام . وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » . .

هـذه الجولات الأربع بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم فى معالجة القلوب . هذا الأسلوب المختار من خالق هـذه القلوب العليم بمداخلها . الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذا الإجمال . فنعرض هذه الجولات الأربع فى درسين لما بين كل اثنين منها من ترابط واتساق . .

* * *

« ألم . تلك آيات الكتاب الحكيم . هـدى ورحمـة للمحسنين ، الذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . .

الافتتاح بالأحرف المقطعة . « ألف . لام . ميم » والإخبار عنهـا بأنها : « تلك آيات الكتاب الحكيم » للتنبيه إلى أن آيات الكتاب من جنس تلك الأحرف ـ على نحو ماتقدم فى السور المبدوءة بالأحرف ـ واختيار وصف الكتاب هنا بالحكمة ، لأن موضوع الحكمة مكرر فى هذه السورة ، فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب فى جوه المناسب على طريقة القرآن الكريم . ووصف الكتاب بالحكمة يلقى عليه ظلال الحياة والإرادة ، فكأنما هو كائن حى متصف بالحكمة فى قوله وتوجيهه ، قاصد لما يقول ، مريد لما يهدف إليه . وإنه لكذلك فى صميمه . فيه روح . وفيه حياة . وفيه حركة . وله شخصية ذاتية مميزة . وفيه إيناس . وله صحبة يحس بها من يعيشون معه ويحيون فى ظلاله ، ويشعرون له بحنين وتجاوب كالتجاوب بين الحى والحى ، وبين الصديق والصديق !

هذا الكتاب الحكيم. أو آياته . «هدى ورحمة للمحسنين » فهذه حاله الأصيلة الدائمة . . أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذى لايضل سالكوه .

Marfat.com

ورحمة بما يسكبه الهدى فى القلب من راحة وطمأنينة وقرار ؛ وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ؛ وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به ؛ ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذى تعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التى تتعارف عليها القلوب المهتدية ، وتتعارف الفطر التى لا تزيغ . .

* * *

والمحسنون هم : « الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » . . وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفى وقتها أداء كاملا تتحقق به حكمتها وأثرها فى الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هـذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التى تعلق القلوب بالصلاة . . وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطرى ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التى لم يفسدها الترف ولا الحرمان . . واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشرى ، وتطلعه إلى ماعند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله فى السر والعلن وفى الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التى سئل عنها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1] » . .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما فى قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون فى صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ؛ ويتصلون بما فى طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . وإن هذا القرآن ليعطى كل قلب بمقدار مافى هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ؛ وبقدر مايقبل عليه فى حب وتطلع وإعزاز . إنه كائن حى يعاطف القلوب الصديقة ، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين !

وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة . . « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . ومن هدى فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، وواصل

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان .

Marfat.com

إلى الغاية ، ناج من الضلال فى الدنيا ، ومن عواقب الضلال فى الآخرة ؛ وهو مطمئن فى رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن فى الوجود .

* * *

أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون فى الدنيا والآخرة . . أولئك فريق . . وفى مقابلهم فريق :

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا . فبشره بعذاب أليم » . .

ولهو الحديث كل كلام يلهى القلب ويأكل الوقت ، ولايثمر خيرا ولايؤتى حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التى يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ، ويرسم لها الطريق . والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود فى كل زمان وفى كل مكان . وبعض الروايات تشير إلى أنه كان تصويرا لحادث معين فى الجماعة الإسلامية الأولى . وقد كان النضر ابن الحارث يشترى الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ؛ ثم يجلس فى طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — محاولا أن يجذبهم إلى سماع تلك الأساطير والاستغناء بها عن قصص القرآن الكريم . ولكن النص أعم من هذا الحادث الخاص إذا صح أنه وارد فيه . وهو يصور فريقا من الناس واضح السمات ، قائما فى كل حين . وقد كان قائما على عهد الدعوة الأولى فى الوسط المكى الذى نزلت فيه هذه الآيات .

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث » . . يشتريه بماله ويشتريه بوقته ، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى فيه عمره المحدود ، الذى لايعاد ولايعود ، يشترى هذا اللهو « ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا » فهو جاهل محجوب ، لايتصرف عن علم ، ولايرمى عن حكمة ؛ وهو سيء النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة . وهو سيء الأدب يتخذ سبيل الله

Marfat.com

هزوا ، ويسخر من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : « أولئك لهم عذاب مهين » . . ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم .

ثم يمضى فى استكمال صورة ذلك الفريق : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها» وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المتكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة : « كأن فى أذنيه وقرا » وكأن هذا الثقل فى أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ : « فبشره بعذاب أليم » فما البشارة فى هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين !

* * *

وبمناسبة الحديث عن جزاء الكافرين المستكبرين المعرضين يتحدث عن جزاء المؤمنين العاملين ، الذين تحدث عنهم فى صدر السورة ؛ ويفصل شيئا من أمر فلاحهم الذى أجمله هناك :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا ، وهو العزيز الحكيم » . .

وحينما ذكر الجزاء فى القرآن الكريم ذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان . فطبيعة هذه العقيدة تقتضى ألا يظل الإيمان فى القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ؛ إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر فى القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقق ذاتها فى العمل والحركة والسلوك ؛ ولتترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة فى عالم الواقع ، المنبثة عما هو كائن منها فى عالم الضمير .

وهؤلاء الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح « لهم جنات النعيم خالدين فيها » . . لهم هذه الجنات وهذا الخلود تحقيقا لوعد الله الحق . « وعد الله حقا » فقد بلغ من فضل الخالق على العباد أن يوجب على نفسه الإحسان إليهم جزاء إحسانهم لأنفسهم لا له سبحانه ! وهو الغنى عن الجميع !

Marfat.com

« وهو العزيز الحكيم » . . القادر على تحقيق وعده ، الحكيم فى الخلق والوعد والتحقيق .

* * *

وآية القدرة ، وآية الحكمة ، وبرهان تلك القضايا السابقة فى سياق السورة . . آية ذلك كله وبرهانه هو هذا الكون الكبير الهائل ، الذى لايدعى أحد من البشر أنه خلقه ، ولا أن أحدا آخر خلقه من دون الله ؛ وهو ضخم هائل دقيق النظام ، متناسق التكوين ، يأخذ بالقلب ، ويبهر اللب ، ويواجه الفطرة مواجهة جاهرة لا تملك الإفلات منها أو الإعراض عنها ؛ ولا تملك إلا التسليم بوحدانية الخالق العظيم ، وضلال من يشرك به آلهة أخرى ظلما للحق الواضح المبين :

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين » . .

وهذه السماوات ـ بظاهر مدلولها ودون تعمق فى أية بحوث علمية معقدة ـ تواجه النظر والحس ، هائلة فسيحة سامقة . وسواء أكانت السماوات هى هذه الكواكب والنجوم والمجرات والسدم السابحة فى الفضاء الذى لايعلم سره ومداه إلا الله ؛ أو كانت هى هذه القبة التى تراها العين ولايعرف أحد ماهى على وجه التحقيق . سواء أكانت السماوات هذه أو تلك فهناك خلائق ضخمة هائلة معلقة بغير عمد تسندها ؛ والناس يرونها حيثما امتدت أبصارهم بالليل والنهار ، ومهما نأت بهم الأبعاد والأسفار على ظهر كوكبهم السيار . ومجرد تأملها بالعين المجردة ، ودون إدراك حقيقة ضخامتها التى تدير الرؤوس ، كاف وحده لرعشة الكيان الإنسانى وارتجافه أمام الضخامة الهائلة التى لانهاية لها ولاحدود . وأمام النظام العجيب الذى يمسك بهذه الخلائق كلها فى مثل هذا التناسق . وأمام هذا الجمال البديع الذى يجتذب العين للنظر فلا تمل ، ويجتذب القلب للتأمل فلا يكل ؛ ويستغرق الحس فلا يكاد يؤوب من ذلك التأمل الطويل المديد ! فكيف إذا عرف الإنسان أن كل نقطة من هذه النقط الصغيرة المضيئة السابحة فى هذا الفضاء الهائل قد تبلغ كتلتها أضعاف كتلة الأرض التى تقله ملايين المرات ؟

Marfat.com

ومن هذه الرحلة الهائلة في أجواز الفضاء على إيقاع تلك الإشارة السريعة : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » يرتد السياق بالقلب البشري إلى الأرض فيستقر عليها وما يكاد ! إلى الأرض الصغيرة . الذرة ، التي لا تبلغ أن تكون هباءة في كتلة الكون الضخمة . يرتد إلى هذه الأرض التي يراها الإنسان فسيحة لا يبلغ أطرافها فرد واحد في عمره القصير ، ولو قضاه في رحلة دائمة على هذا الكوكب الصغير ! يرتد بالقلب إلى هذه الأرض ليعيد النظر إليها بحس مفتوح يقظ ، وليجلو عنه ملالة التكرار والألفة لمشاهد هذه الأرض العجيبة :

« وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » . . .

والرواسي الجبال . ويقول علماء طبقات الأرض : إنها تضاريس في قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض وتجمد الغازات فيه ، ونقص حجمها ، فتنكمش القشرة الأرضية وتتجمد ، وتقع فيها المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية في حجم الغازات حين تبرد ويصغر حجمها هنا وهناك . وسواء أصحت هذه النظرية أم لم تصح ، فهذا كتاب الله يقرر أن وجود هذه الجبال يحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تتأرجح ولا تهتز . وقد تكون نظرية علماء الأرض صحيحة ويكون بروز الجبال على هذا النحو حافظا لتوازن الأرض عند انكماش الغازات وتقبض القشرة الأرضية هنا وهناك ، ويكون نتوء الجبال هنا موازنا لانخفاض في قشرة الأرض هناك . وكلمة الله هي العليا على كل حال . والله هو أصدق القائلين .

« وبث فيها من كل دابة » . .

وهذه إحدى عجائب الوجود الكبيرة . فوجود الحياة على هذه الأرض سر لا يدعي أحد - حتى اليوم - إدراكه ولا تفسيره . الحياة في أول صورها . في الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة . فكيف بضخامة هذا السر والحياة تتنوع وتتركب وتتعدد أنواعها وأجناسها وفصائلها وأنماطها إلى غير حد يعلمه الإنسان أو يحصيه ؟ ومع هذا فإن أكثر الناس يمرون بهذه العجائب مغمضي العيون مطموسي القلوب وكأنما يمرون على شيء عادي لا يستلفت النظر . بينما هم يقفون مدهوشين منهولين أمام جهاز من صنع الإنسان ساذج صغير بسيط التكوين حين يقاس إلى خلية واحدة من الخلايا الحية ، وتصرفها الدقيق المنظم العجيب . ودعك من الأحياء المعقدة . فضلا على الإنسان ، الذي يحوي جسمه مئات المعامل الكيماوية العجيبة ومئات

Marfat.com

المخازن للإبداع والتوزيع ، ومئات المحطات اللاسلكية للإرسال والاستقبال ؟ ومئات الوظائف المعقدة التي لايعرف سرها إلا العليم الخبير ! ! !

« وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . .

وإنزال الماء من السماء إحدى العجائب الكونية التي نمر عليها كذلك غافلين . هذا الماء الذي تفيض به مجارى الأنهار ، والذي تمتلئ به البحيرات ، والذي تتفجر به العيون . . هذا كله ينزل من السماء وفق نظام دقيق ، مرتبط بنظام السماوات والأرض ، وما بينهما من نسب وأبعاد ، ومن طبيعة وتكوين . . وإنبات النبات من الأرض بعد نزول الماء عجيبة أخرى لاينقضى منها العجب . عجيبة الحياة ، وعجيبة التنوع ، وعجيبة الوراثة للخصائص الكامنة فى البذرة الصغيرة ، لتعيد نفسها فى النبتة وفى الشجرة الكبيرة . وإن دراسة توزيع الألوان فى زهرة واحدة من نبتة واحدة لتقود القلب المفتوح إلى أعماق الحياة وأعماق الإيمان بالله مبدع هذه الحياة . .

والنص القرآنى يقرر أن الله أنبت النبات أزواجا : « من كل زوج كريم » وهى حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم بالاستقراء قريبا جدا . فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة فى زهرة واحدة ، أوفى زهرتين فى العود الواحد ، وإما منفصلة فى عودين أو شجرتين ، ولاتوجد الثمرة إلا بعد عملية التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن فى الحيوان والإنسان سواء .

ووصف الزوج بأنه « كريم » يلقى ظلا خاصا مقصودا فى هذا الموضع ليصبح لائقا بأن يكون « خلق الله » وليرفعه أمام الأنظار مشيرا إليه . . « هـذا خلق الله » وليتحداهم به ويتحدى دعواهم المتهافتة .. « فأرونى ماذاخلق الذين من دونه ؟ » . وليعقب على هذا التحدى فى أنسب وقت : « بل الظالمون فى ضلال مبين » . . وأى ضلال وأى ظلم بعد هذا الشرك ، فى هذا المعرض الكونى الباهر الجليل ؟

وعند هذا الإيقاع القوى يختم الجولة الأولى فى السورة ذلك الختام المؤثر العميق .

* * *

بعد ذلك يبدأ الجولة الثانية . يبدؤها فى نسق جديد . نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر .

Marfat.com

ويعالج قضية الشكر لله وحده ، وتنزيهه عن الشرك كله ، وقضية الآخرة والعمل والجزاء فى خلال الحكاية .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ؛ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد » .

ولقمان الذى اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف فى حقيقته الروايات : فمن قائل : إنه كان نبيا ، ومن قائل : إنه كان عبدا صالحا من غير نبوة - والأكثرون على هذا القول الثانى - ثم يقال : إنه كان عبدا حبشيا ، ويقال : إنه كان نوبيا . كما قيل : إنه كان فى بنى إسرائيل قاضيا من قضاتهم .. وأيا من كان لقمان فقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة . الحكمة التى مضمونها ومقتضاها الشكر لله : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » .. وهذا توجيه قرآنى ضمنى إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذى يعرض قصته وقوله . وإلى جوار هذا التوجيه الضمنى توجيه آخر ، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو ، والله غنى عنه . فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غنى حميد » .. وإذن فأحمق الحمق هو من يخالف عن الحكمة ؛ ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد .

* * *

ثم تجىء قضية التوحيد فى صورة موعظة من لقمان الحكيم لابنه :

« وإذ قال لقمان لابنه - وهو يعظه - : يابنى لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم » ..

وإنها لعظة غير متهمة ؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير ؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا . وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ؛ ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهى وفصل علته . ومرة بإنّ واللام .. وهذه هى الحقيقة التى يعرضها محمد - صلى الله عليه وسلم - على قومه ، فيجادلونه فيها ؛ ويشكون فى غرضه من وراء عرضها ؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة بعيدة من كل ظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة

Marfat.com

من الناس ؛ يراد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه . . وهـذا هو المؤثر النفسى المقصود .

***

وفى ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة . ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة :

« ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علـم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى . ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بمـا كنتم تعملون » . .

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم ، وفى وصايا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا . ومعظمها فى حالة الوأد ـ وهى حالة خاصة فى ظروف خاصة ـ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه . فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشىء لضمان امتداد الحياة ، كما يريدها الله ؛ وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال ، فى غير تأفف ولا شكوى ؛ بل فى غير انتباه ولا شعور بمـا يبذلان ! بل فى نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة ! فأما الوليد فهو فى حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيـل المضحى المدبر المولى الذاهب فى أدبار الحياة ، بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه ، ولو وقف عمره عليهما . وهذه الصورة الموحية : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ترسم ظلال هذا البذل النبيل . والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر ؛ وتجود به فى انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق . . روى الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده ـ بإسناده ـ عن بريد عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل أديت حقها ؟ قال : « لا . ولا بزفرة واحدة » . هكذا . . ولا بزفرة واحدة . . فى حمل أو فى وضع ، وهى تحمله وهنا على وهن .

Marfat.com

وفى ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول ، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ؛ ويرتب الواجبات ، فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين . . « أن اشكر لى ولوالديك » . . ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة : « إلىّ المصير » حيث ينفع رصيد الشكر المذخور .

ولكن رابطة الوالدين بالوليد ـ على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة ـ إنما تأتى فى ترتيبها بعد وشيجة العقيدة . فبقية الوصية للإنسان فى علاقته بوالديه : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » . . فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة ، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة . فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن اقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته ـ وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم ! ـ فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول فى الطاعة .

ولكن الاختلاف فى العقيدة ، والأمر بعدم الطاعة فى خلافها ، لايسقط حق الوالدين فى المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة : « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » فهى رحلة قصيرة على الأرض لاتؤثر فى الحقيقة الأصيلة : « واتبع سبيل من أناب إلىّ » من المؤمنين « ثم إلى مرجعكم » بعد رحلة الأرض المحدودة « فأنبئكم بما كنتم تعملون » ولكل جزاء ماعمل من كفران أو شكران ، ومن شرك أو توحيد .

روى أن هذه الآية نزلت هى وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك فى سعد ابن أبى وقاص وأمه (كما قلت فى تفسيرها فى الجزء العشرين فى سورة العنكبوت) . وروى أنها نزلت فى سعد ابن مالك . ورواه الطبرانى فى كتاب العشرة ـ بإسناده ـ عن داوود ابن أبى هند . والقصة فى صحيح مسلم من حديث سعد ابن أبى وقاص . وهو الأرجح . أما مدلولها فهو عام فى كل حال مماثلة ، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتكاليف . فتجيء الرابطة فى الله هى الوشيجة الأولى ، ويجيء التكليف بحق الله هو الواجب الأول . والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكدها فى كل مناسبة وفى صور شتى لتستقر فى وجدان المؤمن واضحة حاسمة لاشبهة فيها ولا غموض .

* * *

وبعد هذا الاستطراد المعترض فى سياق وصية لقمان لابنه ، تجيء الفقرة التالية فى الوصية ،

Marfat.com

لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض فى المجال الكونى الفسيح ، وفى صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان ، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف :

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السماوات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » . .

ما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان مايبلغه هذا التعبير المصور . وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع . . (١) حبة من خردل . صغيرة ضائعة لاوزن لها ولا قيمة . « فتكن فى صخرة » . . صلبة محشورة فيها لاتظهر ولايتوصل إليها . « أو فى السماوات » . . فى ذلك الكيان الهائل الشاسع الذى يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . « أو فى الأرض » ضائعة فى ثراها وحصاها لاتبين . « يأت بها الله » . . فعلمه يلاحقها ، وقدرته لاتفلتها . « إن الله لطيف خبير » . . تعقيب يناسب المشهد الخفى اللطيف .

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل فى مكامنها تلك العميقة الوسيعة ؛ ويتملى علم الله الذى يتابعها . حتى يخشع القلب وينيب ، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب . وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التى يريد القرآن إقرارها فى القلب . بهذا الأسلوب العجيب .

* * *

ويمضى السياق فى حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه . فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها فى الضمير . بعد الإيمان بالله لاشريك له ؛ واليقين بالآخرة لاريب فيها ؛ والثقة بعدالة الجزاء لايفلت منه مثقال حبة من خردل . . فأما الخطوة التالية فهى التوجه إلى الله بالصلاة ، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله ، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التى لابد أن تكون :

« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور » . .

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . .

Marfat.com

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم . . توحيد لله ، وشعور برقابته ، وتطلع إلى ماعنده ، وثقة فى عدله ، وخشية من عقابه . ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر ، بالزاد الأصيل . زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة . ثم الصبر على مايصيب الداعية إلى الله ، من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها . ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدى . ومن الابتلاء فى المال والابتلاء فى النفس عند الاقتضاء . . « إن ذلك من عزم الأمور » . . وعزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

* * *

ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله . فالدعوة إلى الخير لاتجيز التعالى على الناس ؛ والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير . ومن باب أولى يكون التعالى والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل :

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا . إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . .

والصعر داء يصيب الإبل فيلوى أعناقها . والأسلوب القرآنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر . حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس فى تعال واستكبار !

والمشى فى الأرض مرحا هو المشى فى تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس . وهى حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق . وهى تعبير عن شعور مريض بالذات ، يتنفس فى مشية الخيلاء ! « إن الله لايحب كل مختال فخور » . .

ومع النهى عن مشية المرح ، بيان للمشية المعتدلة القاصدة : « واقصد فى مشيك » . . والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثنى والاختيال . ومن القصد كذلك . لأن المشية القاصدة إلى هدف ، لاتتلكأ ولاتتخايل ولاتتبختر ، إنما تمضى لقصدها فى بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . ومازعق أو يغلظ فى الخطاب إلا سيء الأدب ، أوشاك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق !

Marfat.com

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . . فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية ، مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ، ثم يحاول . . شيئا من صوت هذا الحمير . . !

وهكذا تنتهي الجولة الثانية ، بعد ما عالجت القضية الأولى ، بهذا التنويع في العرض ، والتجديد في الأسلوب .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ؟

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ـ وَهُوَ مُحْسِنٌ ـ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

« وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ؟ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ

Marfat.com

ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ؟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَٱخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ .

«إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ،وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (٣٤).

تبدأ الجولة الثالثة بنسق جديد . تبدأ بعرض الدليل الكونى مرتبطا بالناس ، متلبسا بمصالحهم وحياتهم ومعاشهم ، متعلقا بنعم الله عليهم ، نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، تلك التى يستمتعون بها ، ولا يستحيون معها أن يجادلوا فى الله المنعم المتفضل الوهاب . . ثم تسير على هذا النسق فى تقرير القضية الأولى التى عالجتها الجولتان الأولى والثانية . .

« ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض ؛ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . .

وهذه اللفتة المكررة فى القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة فى كل مرة ، لأن هذا الكون لايزال يتجدد فى الحس كلما نظر إليه القلب ، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التى لاتنفد ؛ ولا يبلغ الإنسان فى عمره المحدود أن يتقصاها ؛ وهى تبدو فى كل نظرة بلون جديد ، وإيقاع جديد .

Marfat.com

والسياق يعرضها هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون ! مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة ، التي تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل . . الأرض . . !

إن الأرض كلها لا تبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون . والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض ، وبالقياس إلى مافيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية ، لا يعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئا إلى جوارها . ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه . . هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب . وأن يهيء الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته . وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية ، في معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهي أعم من تسخير مافي السماوات ومافي الأرض . فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ؛ وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه هذه نعمة من الله وفضل ؛ وإرسال رسله وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ؛ ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ؛ وكل نفس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه ، وكل صوت تلتقطه أذنه ، وكل خاطر يهجس في ضميره ، وكل فكرة يتدبرها عقله . . . إن هي إلا نعمة ما كان لينالها لولا فضل الله .

وقد سخر الله لهذا المخلوق الإنساني مافي السماوات ، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهدى النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخر له مافي الأرض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبرا . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكنه من كل ماتذخر به الأرض من كنوز . ومنه ماهو ظاهر ومنه ماهو مستتر ومنه ما يعرفه الإنسان ومنه ما لا يدرك إلا آثاره ؛ ومنه مالم يعرفه أصلا من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وإنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ، ولا يحصى أنماطها . . ومع هذا كله فإن فريقا من الناس لا يشكرون ولا يذكرون ولا يتدبرون ماحولهم ، ولا يوقنون بالنعم المتفضل الكريم .

Marfat.com

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . .

وتبدو هذه المجادلة مستغربة مستنكرة فى ظل ذلك البرهان الكونى ، وفى جوار هذه النعمة السابغة . ويبدو الجحود والإنكار بشعا شنيعا قبيحا ، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير . ويبدو هذا الفريق من الناس الذى يجادل فى حقيقة الله ، وعلاقة الخلق بهذه الحقيقة . . يبدو منحرف الفطرة ولا يستجيب لداعى الكون كله من حوله ؛ جاحداً النعمة لايستحي أن يجادل فى المنعم بكل هذه النعم السابغة . ويزيد موقفه بشاعة أنه لايرتكن فى هذا الجدال إلى علم ، ولايهتدى بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل .

« وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » . .

فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ! التقليد الجامد المتحجر الذى لايقوم على علم ولايعتمد على تفكير . التقليد الذى يريد الإسلام أن يحررهم منه ؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبر ، ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضى المنحرف ، ويتمسكوا بالأغلال والقيود .

إن الإسلام حرية فى الضمير ، وحركة فى الشعور ، وتطلع إلى النور ، ومنهج جديد للحياة طليق من إسار التقليد والجمود . ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس ، ويدفعون عن أرواحهم هداه ، ويجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . ومن ثم يسخر منهم ويتهكم عليهم ، ويشير من طرف خفى إلى عاقبة هذا الموقف المريب :

« أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . .

فهذا الموقف إنما هو دعوة من الشيطان لهم ، لينتهى بهم إلى عذاب السعير . فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلى ذلك المصير ؟ . . لمسة موقظة ومؤثر مخيف ، بعد ذلك الدليل الكونى العظيم اللطيف .

وبمناسبة ذلك الجدال المتعنت الذى لايستند إلى علم ، ولايهتدى بهدى ، ولايستمد من كتاب . يشير إلى السلوك الواجب تجاه الدليل الكونى والنعمة السابغة :

« ومن يسلم وجهه إلى الله ـ وهو محسن ـ فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور » . .

Marfat.com

إنه الاستسلام المطلق لله - مع إحسان العمل والسلوك - الاستسلام بكامل معناه ، والطمأنينة لقدر الله . والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة ، والاسترواح للرعاية ، والرضى الوجدانى ، رضى السكون والارتياح . . كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله . والوجه أكرم وأعلى مافى الإنسان . .

« ومن يسلم وجهه إلى الله - وهو محسن - فقد استمسك بالعروة الوثقى » . . العروة التى لاتنقطع ولا تهن ولا تخون ممسكا بها فى سراء أوضراء ، ولايضل من يشد عليها فى الطريق الوعر والليلة المظلمة ، بين العواصف والأنواء !

هذه العروة الوثقى هى الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه . هى الطمأنينه إلى كل مايأتى به قدر الله فى رضى وفى ثقة وفى قبول ، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها فى مواجهة الأحداث ، وفى الاستعلاء على السراء فلا تبطر ، وعلى الضراء فلا تصغر ؛ وعلى المفاجآت فلا تذهل ؛ وعلى اللأواء فى طريق الإيمان ، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك .

إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار . وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء . وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء . والحاجة إلى السند الذى لايهن ، والحبل الذى لا ينقطع ، حاجة ماسة دائمة . والعروة الوثقى هى عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان . « وإلى الله عاقبة الأمور » . . وإليه المرجع والمصير . فخير أن يسلم الإنسان وجهه إليه منذ البداية ؛ وأن يسلك إليه الطريق على ثقة وهدى ونور . .

« ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور. نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » . .

تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن . وهذه نهاية من يكفر ويخدعه متاع الحياة. نهايته فى الدنيا تهوين شأنه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين . « ومن كفر فلا يحزنك كفره » . . فشأنه أهون من أن يحزنك ، وأصغر من أن يهمك . ونهايته فى الأخرى التهوين من شأنه كذلك . وهو فى قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله ، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه فى صدره من نوايا : « إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم

Marfat.com

بذات الصدور » . . ومتاع الحياة الذى يخدعه قليل ، قصير الأجل ، زهيد القيمة .. « نمتعهم قليلا » . . والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعا لا يملك لها ردا : « ثم نضطره إلى عذاب غليظ » . . ووصف العذاب بالغلظ يجسمه ـ على طريقة القرآن ـ والتعبير بالاضطرار يلقى ظل الهول الذى يحاول الكافر ألا يواجهه ، مع العجز عن دفعه ، أو التلكؤ دونه ! فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى ، ويصير إلى ربه فى النهاية هادىء النفس مطمئن الضمير ؟

* * *

ثم يقفهم أمام منطق فطرتهم ، حين تواجه الكون ، فلا تجد مناصا من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيها وفى فطرة الكون على السواء ؛ ولكنهم يزيغون عنها وينحرفون ، ويغفلون منطقها القويم :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله . بل أكثرهم لايعلمون . لله مافى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد » . .

وما يملك الإنسان حين يستفتى فطرته ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة . فهذه السماوات والأرض قائمة . مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها ، وخواصها وصفاتها . مقدرة تقديرا يبدو فيه القصد ، كما يبدو فيه التناسق . وهى قبل ذلك خلائق لايدعى أحد أنه خلقها ؛ ولايدعى أحد أن خالقا آخر غير الله شارك فيها ؛ ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها . ثم لا يمكن أن تنتظم وتتسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير ، وبدون مدبر . والقول بأنها وجدت وقامت تلقائيا أو فلتة أو مصادفة لايستحق احترام المناقشة . فضلا على أن الفطرة من أعماقها تنكره وترده .

وأولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك ؛ ويقابلون دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجدال العنيف ؛ لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكونى الممثل فى وجود السماوات والأرض ، وقيامهما أمام العين ، لاتحتاجان إلى أكثر من النظر !

ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون فى الجواب : لو سئلوا : « من خلق السماوات والأرض ؟ »

Marfat.com

وجوابهم : « الله » . . لذلك يوجه الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله : « قل : الحمد لله » . . الحمد لله على وضوح الحق فى الفطرة ، والحمد الله على هذا الإقرار القهرى أمام الدليل الكونى . والحمد لله على كل حال . ثم يضرب عن الجدل والتعقيب بتعقيب آخر: « بل أكثرهم لايعلمون » .. ومن ثم يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم .

وبمناسبة إقرار فطرتهم بخلق الله للسماوات والأرض يقرر كذلك ملكية الله المطلقة لكل ما فى السماوات والأرض . ماسخره للإنسان ومالم يسخره . وهو مع ذلك الغنى عن كل ما فى السماوات والأرض ، المحمود بذاته ولو لم يتوجه إليه الناس بالحمد :

« لله مافى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد » . .

* * *

والآن تختم هذه الجولة بمشهد كونى يرمز إلى غنى الله الذى لاينفد ، وعلمه الذى لا يحد ، وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير مانهاية ، ومشيئته المطلقة التى لانهاية لما تريد :

«ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، مانفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ، ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد للمشيئة الذى ليس له حدود ؛ والذى لا يكاد تصورهم البشرى يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل .

إن البشر يكتبون علمهم ، ويسجلون قولهم ، ويمضون أوامرهم ، عن طريق كتابتها بأقلام ـ كانت تتخذ من الغاب والبوص ـ يمدونها بمداد من الحبر ونحوه . لايزيد هذا الحبر على ملء دواة أو ملء زجاجة ! فهاهوذا يمثل لهم أن جميع مافى الأرض من شجر تحول أقلاما . وجميع مافى الأرض من بحر تحول مدادا . بل إن هـذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك . . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة ، الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته . . فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد . نفدت الأشجار ونفدت البحار . . وكلمات الله باقية لم تنفد ، ولم تأت لها نهاية . . إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهى ؛ ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق . . إن كلمات الله لاتنفد ، لأن علمه لا يحد ، ولأن إرادته لاتكف ، ولأن مشيئته ـ سبحانه ـ ماضية ليس لها حدود ولا قيود .

Marfat.com

وتتوارى الأشجار والبحار ، وتنزوى الأحياء والأشياء ؛ وتتوارى الأشكال والأحوال . ويقف القلب البشرى خاشعا أمام جلال الخالق الباقى الذى لايتحول ولايتبدل ولايغيب ؛ وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم : « إن الله عزيز حكيم » . .

وأمام هذا المشهد الخاشع يلقى بالإيقاع الأخير فى هذه الجولة ؛ متخذا من ذلك المشهد دليلا كونيا على يسر الخلق وسهولة البعث :

« ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

والإرادة التى تخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق ، يستوى عندها الواحد والكثير ؛ فهى لاتبذل جهدا محدودا فى خلق كل فرد ، ولا تكرر الجهد مع كل فرد . وعندئذ يستوى خلق الواحد وخلق الملايين . وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين . إنما هى الكلمة . هى المشيئة : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . .

ومع القدرة العلم والخبرة مصاحبين للخلق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء دقيق : « إن الله سميع بصير » . .

* * *

وتأتى الجولة الأخيرة تعالج القضية التى عالجتها الجولات الثلاث من قبل . فتقرر أن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل . وتقرر إخلاص العبادة لله وحده . وتقرر قضية اليوم الآخر الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا .. وتستصحب مع هذه القضايا مؤثرات منوعة جديدة . وتعرضها فى المجال الكونى الفسيح . .

« ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ؟ وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » . .

ومشهد دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، مشهد عجيب حقا ، ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس الحساسية تجاهه فلا يلحظون هذه العجيبة ، التى تتكرر بانتظام دقيق ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ؛ ولاتنحرف تلك الدورة الدائبة التى لاتكل ولاتحيد . . والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ؛ ولايحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التى لاتكل ولاتحيد .

Marfat.com

وعلاقة تلك الدورة بالشمس والقمر وجريانهما المنتظم علاقة واضحة . وتسخير الشمس والقمر عجيبة أضخم من عجيبة الليل والنهار ونقصهما وزيادتهما . وما يقدر على هذا التسخير إلا الله القدير الخبير . وهو الذى يقدر ويعلم أمد جريانهما إلى الوقت المعلوم . ومع حقيقة إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ؛ وحقيقة تسخير الشمس والقمر ـ وهما حقيقتان كونيتان بارزتان ـ حقيقة أخرى مثلهما يقررها معهما فى آية واحدة : « وأن الله بما تعملون خبير » . . وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية ، إلى جانب الحقائق الكونية . حقيقة مثلها ، ذات ارتباط بها وثيق .

ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التى تقوم عليها الحقائق جميعا . الحقيقة الأولى التى تنبثق منها الحقائق جميعا . وهى الحقيقة التى تعالجها الجولة ؛ وتقدم لها بهذا الدليل :

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » . .

ذلك . . ذلك النظام الكونى الثابت الدائم المنسق الدقيق . . ذلك النظام قائم بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل . قائم بهذه الحقيقة الكبرى التى تعتمد عليها كل حقيقة ، والتى يقوم بها هذا الوجود . فكون الله هو الحق . سبحانه . هو الذى يقيم هذا الكون ، وهو الذى يحفظه ، وهو الذى يدبره ، وهو الذى يضمن له الثبات والاستقرار والتماسك والتناسق ، ماشاء الله له أن يكون . .

« ذلك بأن الله هو الحق » . . كل شىء غيره يتبدل . وكل شىء غيره يتحول . وكل شىء غيره تلحقه الزيادة والنقصان ؛ وتتعاوره القوة والضعف ، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار . وكل شىء غيره يوجد بعد أن لم يكن ، ويزول بعد أن يكون . وهو وحده ـ سبحانه ـ الدائم الباقى الذى لايتغير ولايتبدل ولا يحول ولايزول . .

ثم تبقى فى النفس بقية من قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق » . . : بقية لاتنقلها الألفاظ ولا يستقل بها التعبير البشرى الذى أملك . بقية يتمثلها القلب ويستشعرها الضمير ؛ ويحسها الكيان الإنسانى كله ويقصر عنها التعبير ! . . وكذلك : « وأن الله هو العلى الكبير » . . الذى ليس غيره « علىّ » ولا « كبير » ! ! ! ترى قلت شيئا يفصح عما يخالج كيانى كله أمام التعبير القرآنى العجيب ؟ أحس أن كل تعبير بشرى عن مثل هذه الحقائق العليا ينقص

Marfat.com

منها ولا يزيد ؛ وأن التعبير القرآني - كما هو - هو وحده التعبير الموحى الفريد ! ! !

* * *

ويعقب السياق على ذلك المشهد الكوني ، وهذه اللمسة الوجدانية ، بمشهد آخر من مألوف حياة البشر . مشهد الفلك تجري في البحر بفضل الله . ويقفهم في هذا المشهد أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر وخطره ، مجردة من القوة والبأس والبطر والغرور :

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . .

والفلك تجري في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء . . فخاصة هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف . ولو اختلت تلك الخواص أي اختلال ماجرت الفلك في البحر . لو اختلت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك . لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر . او اختلت التيارات المائية والهوائية . لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذي يبقى الماء ماء ، ويبقى تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة . . لو اختلت نسبة واحدة أي اختلال ماجرت الفلك في الماء ، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الأمواج وسط العواصف والأنواء ، حيث لا عاصم لها إلا الله . فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال . ثم هي تجري حاملة نعمة الله وفضله كذلك . والتعبير يشمل هذا المعنى وذاك : « ليريكم من آياته » . . وهي معروضة للرؤية ، يراها من يريد أن يرى ؛ وليس بها من غموض ولا خفاء . . « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . صبار في الضراء ، شكور في السراء ؛ وهما الحالتان اللتان تتعاوران الإنسان .

ولكن الناس لا يصبرون ، ولا يشكرون ، إنما يصيبهم الضر فيجأرون ، وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلا القليل :

« وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » . .

فأمام مثل هذا الخطر ، والموج يغشاهم كالظلل والفلك كالريشة الحائرة في الخضم الهائل . . تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التي تحجب عنها في ساعات الرخاء حقيقة فطرتها ، وتقطع مابين هذه الفطرة وخالقها . حتى إذا سقطت

Marfat.com

هـذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربهـا ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل . ودعوا الله مخلصين له الدين .

« فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد » . .

لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار ؛ إنما يظل ذاكرا شاكرا ، وإن لم يوف حق الله فى الذكر والشكر ؛ فأقصى ما يبلغه ذاكر شاكر أن يكون مقتصدا فى الأداء .

ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . . والختار الشديد الغدر ، والـكفور الشديد الـكفر ؛ وهذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هـذه المشاهد الـكونية ، ومنطق الفطرة الخالص الواضح للبين .

* * *

وبمناسبة هول البحر وخطره الذى يعرى النفوس من غرور القوة والعلم والقدرة ، ويسقط عنها هـذه الحواجز الباطلة ، ويقفها وجها لوجه أمام منطق الفطرة . . بمناسبة هذا الهول يذكرهم بالهول الأكبر ، الذى يبدو هول البحر فى ظله صغيرا هزيلا . هول اليوم الذى يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » . .

إن الهول هنا هول نفسى ، يقاس بمداه فى المشاعر والقلوب [1] . وما تتقطع أواصر القربى والدم ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد . وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزى أحد عن أحد ، ولا ينفع أحدا إلا عمله وكسبه . ما يكون هـذا كله إلا لهول لا نظير له فى مألوف الناس . . فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجىء فى موضعها الذى فيه تستجاب ؛ وقضية الآخرة تعرض فى ظلال هـذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب .

(١) يراجع فصل العالم الآخر فى القرآن « فى كتاب : مشاهد القيامة فى القرآن » ص ٤٢ ــ ٤٤ .

Marfat.com

« إن وعد الله حق » . . فلا يخلف ولا يتخلف ؛ ولا مفر من مواجهة هـذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذى لا يغنى فيـه والد عن ولد ولا مولود عن والد .

« فلا تغرنـكم الحياة الدنيا » . . وما فيهـا من متاع ولهو ومشغلة ؛ فهى مهلة محدودة وهى ابتلاء واستحقاق للجزاء .

« ولا يغرنـكم بالله الغرور » . . من متاع يُلهى ، أو شغل يُنسى ، أو شيطان يوسوس فى الصدور . والشياطين كثير . الغرور بالمال شيطان . والغرور بالعـلم شيطان . والغرور بالعمر شيطان . والغرور بالقوة شيطان . والغرور بالسلطان شيطان . ودفعة الهوى شيطان . ونزوة الشهوة شيطان . وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور !

* * *

وفى ختام الجولة الرابعة وختام السورة ، وفى ظل هـذا المشهد المرهوب يجىء الإيقاع الأخير فى السورة قويا عميقا مرهوبا ، يصور علم الله الشامل وتصور الإنسان المحجوب عن الغيوب ، ويقرر القضية التى تعالجها السورة بكل أجزائها ، ويخرج هـذا كله فى مشهد من مشاهد التصور القرآنى العجيب .

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » ..

والله ـ سبحانه ـ قد جعل الساعة غيبا لا يعلمه سواه ؛ ليبقى الناس على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها ، وهم لا يعلمون متى تأتى ، فقد تأتيهم بغتة فى أية لحظة ، ولا مجال للتأجيل فى اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد .

والله ينزل الغيث وفق حكمته ، بالقدر الذى يريده ؛ وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله ؛ ولـكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التى تنشئه . والنص يقرر أن الله هو الذى ينزل الغيث ، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الـكونيـة التى تـكونه والتى تنظمه . فاختصاص الله فى الغيث هو اختصاص القدرة . كما هو ظاهر من النص . وقد وهم الذين عدوه فى الغيبيات المختصة بعلم الله . وإن كان علم الله وحده هو العلم فى كل أمر وشأن . فهو وحده العلم الصحيح الـكامل الشامل الدائم الذى لا يلحق به زيادة ولا نقصان .

« ويعلم ما فى الأرحام » . . اختصاص بالعلم كالاختصاص فى أمر « الساعة » فهو سبحانه

Marfat.com

الذى يعلم وحده . علم يقين. ما ذا فى الأرحام فى كل لحظة وفى كل طور . من فيض وغيض . ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم . ونوع هذا الحمل ذكرا أم أنثى ، حين لا تملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئا فى اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة . وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته . . . فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى .

« وما تدرى نفس ما ذا تكسب غدا » . . ماذا تكسب من خير وشر ، ومن نفع وضر ، ومن يسر وعسر ، ومن صحة ومرض ، ومن طاعة ومعصية . فالكسب أعم من الربح المالى وما فى معناه ؛ وهو كل ما تصيبه النفس فى الغداة . وهو غيب مغلق ، عليه الأستار . والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب ، لا تملك أن ترى شيئا مما وراء الستار .

وكذلك : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذى لا تنفذ منه الأسماع والأبصار .

وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة ، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود ، وعجزها الواضح ، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة . وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ؛ وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس . ولو علموا كل شىء آخر فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ما ذا يكون غدا ! بل ماذا يكون اللحظة التالية . وعندئذ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله .

والسياق القرآنى يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير فى القلب البشرى فى رقعة فسيحة هائلة . .

رقعة فسيحة فى الزمان والمكان ، وفى الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق . وفى خواطر النفس ، ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى عن العيان . والكسب فى الغد ، وهو قريب فى الزمان ومغيب فى المجهول . وموضع الموت والدفن ، وهو مبعد فى الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء . ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها تدق فى أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ؛ وتقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ، ولانكشف القاصى منها والدان (١) . . ولكنها تظل مغلقة فى وجه الإنسان ،

(١) مقتطف من كتاب : التصوير الفنى فى القرآن . فصل : التناسق الفنى .

Marfat.com

لأنها فوق مقدور الإنسان ، ووراء علم الإنسان . تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره ، إلا بإذن منه وإلا بمقدار . « إن الله عليم خبير » وليس غيره بالعليم ولا بالخبير . .

* * *

وهكذا تنتهى السورة ، كما لو كانت رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد . ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة ، الشاملة الشاسعة ، وئيد الخطى لكثرة ما طوّف ، ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر ، فى تلك العوالم والمشاهد والحيوات !

وهى بعد سورة لا تتجاوز الأربع والثلاثين آية . فتبارك الله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . .

Marfat.com

سُورة السجدة مكية
وآياتها ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم ① تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه ؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون .

« الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ، أفلا تتذكرون ؟ * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه ، في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون .

« وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون * قل : يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون .

« ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون * ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق

Marfat.com

ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝

« وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ؟ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

« أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ؟ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ » ۝

Marfat.com

هـذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر ، ويركزها في القلوب : عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ، ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله . والتصديق برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – الموحى إليه بهـذا القرآن لهداية البشر إلى الله . والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

هـذه هي القضية التي تعالجها السورة ؛ وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية . كل منها تعالجها بأسلوب خاص ، ومؤثرات خاصة ؛ تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب البشري خطاب العليم الخبير ، المطلع على أسرار هـذه القلوب وخفاياها ، ومنحنياتهـا ودروبها ، العارف بطبيعتها وتكوينها ، وما يستكن فيها من مشاعر ، وما يعتريها من تأثرات واستجابات في جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة . فهي تعرضها في آياتها الأولى ؛ ثم تمضي بقيتها تقـدم مؤثرات موقظة للقلب ، منيرة للروح ، مثيرة للتأمل والتـدبر ؛ كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده ؛ وفي نشأة الإنسان وأطواره ؛ وفي مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة ؛ وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها !

كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها . وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ؛ وتعرض صورا للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده كل قارىء لهذا القرآن .

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالإطماع ، وتارة بالإقناع . . ثم تدعه في النهاية تحت هـذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك القضية في أربعة مقاطع أو خمسة متلاحقة متصلة : يبدأ بالأحرف المقطعة « ألف . لام . ميم » منبها بها إلى تنزيل الكتاب من جنس هـذه الأحرف . ونفي الريب عن تنزيله والوحي به : « من رب العالمين » . . ويسأل سـؤال استنكار عما إذا كانوا يقولون : افتراه . ويؤكد أنه الحق من ربه لينذر قومـه « لعلهم يهتدون » . .

Marfat.com

وهذه هى القضية الأولى من قضايا العقيدة : قضية الوحى وصدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التبليغ عن رب العالمين .

ثم يعرض قضية الألوهية وصفتها فى صفحة الوجود : فى خلق السماوات والأرض ومابينهما ، وفى الهيمنة على الكون وتدبير الأمر فى السماوات والأرض ، ورفع الأمر إليه فى اليوم الآخر . . ثم فى نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك . والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون .

وهذه هى القضية الثانية : قضية الألوهية وصفتها : صفة الخلق ، وصفة التدبير ، وصفة الإحسان ، وصفة الإنعام ، وصفة العلم . وصفة الرحمة . . وكلها مذكورة فى سياق آيات الخلق والتكوين .

ثم يعرض قضية البعث ، وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم فى التراب : « وقالوا : أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ؟ » ويرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين .

وهذه هى القضية الثالثة : قضية البعث والمصير .

ومن ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة : « إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » يعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذى جاءتهم به الدعوة . ويقولون الكلمة التى لوقالوها فى الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ؛ ولكنها فى موقفهم ذاك لاتجدى شيئا ولاتفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم ـ قبل فوات الأوان ـ لقول الكلمة التى سيقولونها فى الموقف العصيب . فيقولوها الآن فى وقتها المطلوب .

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب يعرض مشهد المؤمنين فى هذه الأرض : إذا ذكروا بآيات ربهم : « خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » . . وهى صورة موحية شفيفة ترف حولها القلوب . يعرض إلى جوارها ما أعده الله لهذه النفوس الخاشعة الخائفة الطامعة من نعيم يعلو على تصور البشر الفانين : « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . . ويعقب عليه بمشهد سريع لمصائر المؤمنين والفاسقين فى جنة المأوى وفى نار الجحيم . وبتهديد المجرمين بالانتقام منهم فى الأرض أيضا قبل أن يلاقوا مصيرهم الأليم .

ثم ترد إشارة إلى موسى ـ عليه السلام ـ ووحدة رسالته ورسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهتدين من قومه ، وصبرهم على الدعوة ، وجزائهم على هذا الصبر بأن جعلهم الله

Marfat.com

أئمة . وفى هـذه الإشارة إيحاء بالصبر على مايلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيد ومن تـكذيب .

وتعقب هذه الإشارة جولة فى مصارع الغابرين من القرون ، وهم يمشون فى مسا كنهم غافلين . . ثم جولة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء ؛ فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة فى سطور .

وتختم السورة بحكاية قولهم : « متى هذا الفتح ؟ » وهم يتساءلون فى شك عن يوم الفتح الذى يتحقق فيه الوعيد . والجواب بالتخويف من هـذا اليوم والتهديد . وتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعرض عنهم ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

والآن نأخذ فى عرض السورة بالتفصيل :

* * *

« ألم . تنزيل الـكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون : افتراه ؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » . .

« ألف . لام . ميم » .. هذه الأحرف التى يعرفها العرب المخاطبون بهذا الـكتاب ؛ ويعرفون ما يملـكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين مايملـكون أن يصوغوه منها وبين هذا القرآن ؛ وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعانى والأفـكار . كما يدرك أن فى النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصرا مستكنا ، يجعل لهـا سلطانا وإيقاعا فى القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقوله البشر فى جميع الأعصار . وهى ظاهرة ملحوظة لاسبيل إلى الجدال فيها ؛ لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لهـا ، من بين سائر القول ، ولولم يعلم سلفا أن هـذا قرآن ! والتجارب الـكثيرة تؤكد هذه الظاهرة فى شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هـذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر فى سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة ، لاتبلغ إليها صنعة البشر فى أصغر الأشياء . وإن توزيع الألوان فى زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين فى جميع العصور . . وكذلك صنع الله فى القرآن وصنع البشر فيما يصوغون من هـذه الحروف من كلام !

ألف . لام . ميم . . « تنزيل الـكتاب ـ لاريب فيه ـ من رب العالمين » . . قضية مقطوع بها ، لاسبيل إلى الشك فيها . قضية تنزيل الـكتاب من رب العالمين . . ويسجل السياق

Marfat.com

بنفى الريب فى منتصف الآية ، بين المبتدأ فيها والخبر ، لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة فى النص . والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجها لوجه أمام واقع الأمر ، الذى لاسبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التى يعرفون ؛ ونمطه هو هذا النمط المعجز الذى لا يمارون فى إعجازه ، أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التى يقر بها الجميع .

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز فى هـذا القرآن ؛ وتشى بالقوة الخفية المودعة فى هذا الكلام . وإن الكيان الإنسانى ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتقت حساسية التلقى والاستجابة . وإن هـذه الظاهرة لتزداد وضوحا كلما اتسعت ثقافة الإنسان ، ومعرفته بهذا الكون ومافيه ومن فيه . فليست هى مجرد وهلة تأثرية وجدانية غامضة . فهى متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطابا مباشرا . وهى متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب ، والعقل المثقف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات . وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، مادامت الفطرة مستقيمة لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء (١) مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين .

« أم يقولون : افتراه ؟ » . .

ولقد قالوها فيما زعموه متعنتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول فى صيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلا : « أم يقولون : افتراه ؟ » . . هذه القولة التى لاينبغى أن تقال ؛ فتاريخ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم ينفى هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلا ، ولاتدع مجالا للريب والتشكك :

« بل هو الحق من ربك » . .

الحق . . بما فى طبيعته من صدق ومطابقة لما فى الفطرة من الحق الأزلى ؛ وما فى طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر فى كيانه ، الملحوظ فى تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام ، وشموله وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف هـذه الأجزاء وتلاقيها .

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ص ١٣ ـ ١٦ جزء ١٩ من الظلال .

Marfat.com

الحق .. بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ؛ وكأنما هو الصورة اللفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة فى هذا الوجود .

الحق .. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذى يعيشون فيه ونواميسه الكلية ، ومايعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم فى صداقة مع كل ماحولهم من هذا الكون الكبير .

الحق .. الذى تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه ، فى يسر وسهولة ، وفى غير مشقة ولا عنت . لأنه يلتقى بما فيها من حق أزلى قديم .

الحق . . الذى لايتفرق ولايتعارض وهو يرسم منهاج الحياة البشرية كاملا ؛ ويلحظ فى هذا المنهاج كل قواها وكل طاقاتها ، وكل نزعاتها وكل حاجاتها ، وكل ما يعتورها من مرض أوضعف أونقص أو آفة ، تدرك النفوس وتفسد القلوب .

الحق . . الذى لايظلم أحدا فى دنيا أو آخرة . ولايظلم قوة فى نفس ولاطاقة. ولايظلم فكرة فى القلب أو حركة فى الحياة ، فيكفها عن الوجود والنشاط ، ما دامت متفقة مع الحق الكبير الأصيل فى صلب الوجود .

« بل هو الحق من ربك » . . فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك . وهو رب العالمين كما قال فى الآية السابقة ؛ إنما هذه الإضافة هنا للتكريم . تكريم الرسول الذى يتهمونه بالافتراء . وإلقاء ظلال القربى بينه وبين ربه رب العالمين . ردا على الاتهام الأثيم . وتقريرا للصلة الوثيقة التى تحمل مع معنى التكريم معنى وثاقة المصدر وصحة التلق . وأمانة النقل والتبليغ .

« لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون » . .

والعرب الذين أرسل إليهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل إليهم أحد قبله ؛ ولايعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل ـ عليه السلام ـ جد العرب الأول وبين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به . « لعلهم يهتدون » فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذى يخاطب الفطر والقلوب .

* * *

هؤلاء القوم الذين نزل الله الكتاب لينذرهم به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى . فهنا يبدأ ببيان صفة الله التى يعرفون بها حق ألوهيته سبحانه ،

Marfat.com

ويميزون بها بين من يستحق هذا الوصف العظيم : « الله » ومن لايستحقونه ولا يجوز أن يقرنوا إلى مقام الله رب العالمين :

« الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع . أفلا تتذكرون ؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا ماتشكرون » . .

ذلك هو الله ، وهذه هى آثار ألوهيته ودلائلها . هذه هى فى صفحة الكون المنظور . وفى ضمير الغيب المتراى وراء إدراك البشر المحدود . وفى نشأة الإنسان وأطواره التى يعرفها الناس ، والتى يطلعهم عليها الله فى كتابه الحق المبين .

« الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . .

والسماوات والأرض وما بينهما هى هذه الخلائق الهائلة التى نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير . . هى هذا الملكوت الطويل العريض الضخم المترامى الأطراف ، الذى يقف الإنسان أمامه مبهورا مدهوشا متحيرا فى الصنعة المتقنة الجميلة المنسقة الدقيقة التنظيم . . هى هذا الخلق الذى يجمع إلى العظمة الباهرة ، الجمال الأخاذ . الجمال الحقيقى الكامل ، الذى لايرى فيه البصر ، ولا الحس ، ولاالقلب ، موضعا للنقص ؛ ولا يمل المتأمل التطلع إليه مهما طالت وقفته ؛ ولايذهب التكرار والألفة بجاذبيته . المتجددة العجيبة . . ثم هى هذه الخلائق المنوعة ، المتعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والخواص والمظاهر والاستعدادات والوظائف ، الخاضعة كلها لناموس واحد ، المتناسقة كلها فى نشاط واحد ، المتجهة كلها إلى مصدر واحد تتلقى منه التوجيه والتدبير ، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام .

والله . . هو الذى خلق السماوات والأرض ومابينهما . . فهو الحقيق - سبحانه - بهذا الوصف العظيم . .

« خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . .

وليست هى قطعا من أيام هذه الأرض التى نعرفها . فأيام هذه الأرض مقياس زمنى ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض

Marfat.com

الصغيرة الضئيلة ، التى لاتزيد على أن تكون هباءة منثورة فى فضاء الكون الرحيب ! وقد وجد هذا المقياس الزمنى بعد وجود الأرض والشمس . وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة !

أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن فعلمها عند الله ؟ ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها . فهى من أيام الله التى يقول عنها : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . .

تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ماهى عليه . أو ستة مراحل فى النشأة والتكوين . أو ستة أدهار لايعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله . . وهى على أية حال شىء آخر غير الأيام الأرضية التى تعارف عليها أبناء الفناء . فلنأخذها كما هى غيبا من غيب الله لاسبيل إلى معرفته على وجه التحديد . إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير فى الخلق ، وفق حكمة الله وعلمه . وإحسانه لكل شىء خلقه فى الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم .

« ثم استوى على العرش » . .

والاستواء على العرش رمز لاستعلائه على الخلق كله . أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شىء عنه ، ولابد من الوقوف عند لفظه . وليس كذلك الاستواء . فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء . ولفظ . . ثم ، لايمكن قطعا أن يكون للترتيب الزمنى ، لأن الله سبحانه ـ لاتتغير عليه الأحوال . ولا يكون فى حال أو وضع ـ سبحانه ـ ثم يكون فى حال أو وضع تال . إنما هو الترتيب المعنوى . فالاستعلاء درجة فوق الخلق ، يعبر عنها هذا التعبير .

وفى ظلال الاستعلاء المطلق يلمس قلوبهم بالحقيقة التى تمسهم :

« مالكم من دونه من ولى ولاشفيع » . .

وأين ؟ ومن ؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينهما ؟ وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما ؟ فأين هو الولى من دونه ؟ وأين هو الشفيع الخارج على سلطانه ؟

« أفلا تتذكرون ؟ » . .

وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله ، والاتجاه إليه وحده دون سواه . ومع الخلق والاستعلاء . . التدبير والتقدير . . فى الدنيا والآخرة . . فكل أمر يدبر

Marfat.com

فى السماوات والأرض وما بينهما يرفع إليه سبحانه فى يوم القيامة ، ويرجع إليه مآله فى ذلك اليوم الطويل :

« يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » . .

والتعبير يرسم مجال التدبير منظورا واسعا شاملا : « من السماء إلى الأرض » ليلقى على الحس البشرى الظلال التى يطيقها ويملك تصورها ويخشع لها . وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ولكن الحس البشرى حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح . ومتابعة التدبير شاملا لهذه الرقعة الهائلة التى لا يعرف حتى الأرقام التى تحدد مداها !

ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه . يرتفع إليه سبحانه فى علاه فى اليوم الذى قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال ، والأشياء والأحياء « فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » . . وليس شىء من هذا كله متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا ، إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم . . يرتفع . فكل شىء وكل أمر وكل تدبير وكل مآل هو دون مقام الله ذى الجلال ، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء .

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » . .

ذلك . . الذى خلق السماوات والأرض . والذى استوى على العرش . والذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . . « ذلك عالم الغيب والشهادة » . . المطلع على ما يغيب وما يحضر . وهو الخالق المسيطر المدبر . « وهو العزيز الرحيم » . . القوى القادر على ما يريد . الرحيم فى إرادته وتدبيره للمخاليق .

« الذى أحسن كل شىء خلقه » . .

. . واللهم إن هذا هو الحق الذى تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل . الحق المتمثل فى أشكال الأشياء ، ووظائفها . وفى طبيعتها منفردة وفى تناسقها مجتمعة . وفى هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها . وفى كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد .

سبحانه ! هذه صنعته فى كل شىء . هذه يده ظاهرة الآثار فى الخلائق . هذا كل شىء خلقه يتجلى فيه الإحسان والإتقان ؛ فلا تجاوز ولا قصور ، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط ، فى حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة . كل شىء مقدر لا يزيد عن

Marfat.com

حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص . ولا يتقدم عن موعده ولا يتأخر . ولا يتجاوز مداه ولا يقصر . . كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام . ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام . كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان . . وكذلك الأعمال والأطوار والحركات والأحداث . وكلها من خلق الله . مقدرة تقديرا دقيقا في موعدها وفي مجالها وفي مآلها ، وفق الخطة الشاملة لسير هذا الوجود من الأزل إلى الأبد مع تدبير الله .

كل شيء ، وكل خلق ، مصنوع ليؤدي دوره المقسوم له في رواية الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعدادا دقيقا ، مزود بالاستعدادات والخصائص التي تؤهله لدوره تمام التأهيل . هذه الخلية الواحدة المجهزة بشتى الوظائف . هذه الدودة السابحة المجهزة بالأرجل أو الشعيرات وبالملاسة والمرونة والقدرة على شق طريقها كأحسن ما يكون . هذه السمكة . هذا الطائر . هذه الزاحفة . هذا الحيوان . . ثم هذا الإنسان . . وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت . وهذه الأفلاك والعوالم ؛ وهذه الدورات المنتظمة الدقيقة المنسقة العجيبة المضبوطة التوقيت والحركة على الدوام . . كل شيء . كل شيء . حيثما امتد البصر متقن الصنع . بديع التكوين . يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

والعين المفتوحة والحس المتوفز والقلب البصير ، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه ؛ وتراه في كل أجزائه وأفراده . والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن ، يمنح الإنسان رصيدا ضخما من ذخائر الحسن والجمال ، ومن إيقاعات التناسق والكمال ، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق ؛ وتسكبها في القلب البشري ؛ وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن ، يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه في رحلته على هذا الكوكب . ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة .

ولا يدرك القلب شيئا من هذا النعيم في رحلته الأرضية إلا حين يستيقظ من همود العادة ، ومن ملالة الألفة . وإلا حين يتسمع لإيقاعات الكون من حوله ، ويتطلع إلى إيحاءاته . وإلا حين يبصر بنور الله فتتكشف له الأشياء عن جواهرها الجميلة كما خرجت من يد الله المبدعة . وإلا حين يتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شيء من بدائعه ؛ فيحس بالصلة بين المبدع وما أبدع ؛ فيزيد شعوره بجمال ما يرى وما يحس ، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله .

Marfat.com

إن هـذا الوجود جميل . وإن جماله لاينفد . وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غيرماحدود . قدر مايريد . وفق مايريده له مبدع الوجود .

وإن عنصر الجمال لمقصود قصدا في هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء ، يصل إلى حد الجمـال . وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو ، وفي كل خلق . . انظر . . هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية في الوجود كله . هذا التناسق الذي لاعوج فيه ولا فطور !

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ؛ يلفتنا القرآن إليها لنتملاها، ونستمتع بها ؛ وهو يقول : « الذي أحسن كل شيء خلقه » . . فيوقظ القلب لتتبع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير . .

« الذي أحسن كل شيء خلقه » . . « وبدأ خلق الإنسان من طين » . .

ومن إحسانه في الخلق بدء خلق هـذا الإنسان من طين . فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بداءة ، وكان في المرحلة الأولى . ولم يحدد عدد الأطوار التي تلت مرحلة الطين ولامداها ولازمنها ، فالباب فيها مفتوح لأي تحقيق صحيح . وبخاصة حين يضم هـذا النص إلى النص الآخر الذي في سورة « المؤمنون » . . « خلق الإنسان من سلالة من طين » . . فيمكن أن يفهم منـه أنه إشارة إلى تسلسل في مراحل النشأة الإنسانية يرجع أصلا إلى مرحلة الطين .

وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هـذه الأرض ؛ وأنهـا نشأت من الطين . وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله . وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد . لاماهو . ولا كيف كان . ومن الخلية الحية نشأ الإنسان . ولايذكر القرآن كيف تم هـذا ، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار . فالأمر في تحقيق هـذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح ؛ وليس في هذا البحث مايصادم النص القرآني القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كانت من الطين . وهـذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول مايسفر عنه أي تحقيق صحيح .

غير أنه يحسن – بهذه المناسبة – تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة : بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية ؛ وأن هناك حلقات نشوء

Marfat.com

وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيوانا فوق القردة العليا ودون الإنسان . . أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة وأن كشف عوامل الوراثة ـ التي لم يكن دارون قد عرفها ـ تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضربا من المستحيل . فهناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه ؛ وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منـه ، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جـديد . فالقط أصله قط وسيظل قطا على توالي القرون . والـكلب كذلك . والثور . والحصـان . والقرد . والإنسان . وكل ما يمكن أن يقع ـ حسب نظريات الوراثة ـ هو الارتقاء في حدود النوع نفسه . دون الانتقال إلى نوع آخر . وهذا يبطل القسم الرئيسي في نظرية دارون التي فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام (١) !

ثم نعود إلى ظلال القرآن !

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » . .

من ماء النطفة الذي هو المرحلة الأولى في تطور الجنين : من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كمال التكوين الجنيني ، في هـذه السلالة التي تبدأ بالمـاء المهين . وإنها لرحلة هائلة حين ينظر إلى طبيعة التطورات التي تمر بها تلك النقطة الضائعة من ذلك المـاء المهين . حتى تصل إلى الإنسان المعقد البديع التـكوين ! وإنها لمسافة شاسعة ضخمة بين الطور الأول والطور الأخير .

وذلك ما يعبر عنه القرآن في آية واحدة تصور هذه الرحلة المديدة :

« ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لـكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

يا لله . ما أضخم الرحلة ! وما أبعد الشقة ! وما أعظم المعجزة التي يمر عليها الناس غافلين !

أين تلك النقطة الصغيرة المهينة من ذلك الإنسان الذي تصير إليـه في النهاية ، لولا أنها يد الله المبدعة التي تصنع هذه الخارقة . والتي تهدي تلك النقطة الصغيرة الضعيفة إلى اتخاذ طريقها في النمو والتطور والتحول من هيئتها السـاذجة إلى ذلك الخلق المعقد المركب العجيب ؟

هذا الانقسام في تلك الخلية الواحدة والتكاثر . ثم التنويع في أصناف الخـلايا المتعددة ذات الطبيعة المختلفة ، والوظيفة المختلفة ؛ التي تتـكاثر هي بدورها لتقوم كل مجموعة منهـا بتكوين عضو خاص ذي وظيفة خاصة . وهذا العضو الذي تـكونه خلايا معينة من نوع خاص ،

---

(١) يراجع كتاب العلم يدعو إلى الإيمان . وص ٥٠ جزء ١٩ من الظلال .

Marfat.com

يحتوى بدوره على أجزاء ذات وظائف خاصة وطبيعة خاصة ، تكونها خلايا أكثر تخصصا فى داخل العضو الواحد . . هذا الانقسام والتكاثر مع هـذا التنويع كيف يتم فى الخلية الأولى وهى خلية واحدة ؟ وأين كانت تكمن تلك الخصائص كلها التى تظهر فيما بعد فى كل مجموعة من الخلايا المتخصصة الناشئة من تلك الخلية الأولى ؟ ثم أين كانت تكمن الخصائص المميزة لجنين الإنسان من سائر الأجنة ؟ ثم المميزة لكل جنين إنسانى من سائر الأجنة الإنسانية ؟ ثم الحافظة لكل مايظهر بعد ذلك فى الجنين من استعدادات خاصة ، ووظائف معينة ، وسمات وشيات طوال حياته ؟ !

ومن ذا الذى كان يمكن أن يتصور إمكان وقوع هذه الخارقة العجيبة لولا أنها وقعت فعلا وتكرر وقوعها ؟

إنها يد الله التى سوت هذا الإنسان ؟ وإنها النفخة من روح الله فى هذا الكيان . . إنها التفسير الوحيد الممكن لهذه العجيبة التى تتكرر فى كل لحظة ، والناس عنها غافلون . . ثم هى النفخة من روح الله التى جعلت من هذا الكائن العضوى إنسانا ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنسانى مميز من سائر الكائنات العضوية الحيوانية : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . . وكل تعليل آخر عاجز عن تفسير تلك العجيبة التى تواجه العقل البشرى بالحيرة الغامرة التى لامخرج منها بغير ذلك التفسير .

ومع كل هـذا الفيض من الفضل . الفضل الذى يجعل من الماء المهين ذلك الإنسان الكريم . الفضل الذى أودع تلك الخلية الصغيرة الضعيفة كل هـذا الرصيد من القدرة على التكاثر والنماء ، والتطور والتحول ، والتجمع والتخصص . ثم أودعها كل تلك الخصائص والاستعدادات والوظائف العليا التى تجعل من الإنسان إنسانا . . مع كل هـذا الفيض فإن الناس لايشكرون إلا فى القليل : « قليلا ماتشكرون » . .

***

وفى ظل مشهد النشأة الأولى للإنسان ، وأطوار هذه النشأة العجيبة ، الخارقة لكل مألوف ، وإن كانت تتكرر فى كل لحظة ، وتقع أمام الأنظار والأسماع . فى ظل هذا المشهد يعرض اعتراضهم على النشأة الآخرة ، وشكهم فى البعث والنشور . فيبدو هـذا الشك وذلك الاعتراض غريبين كل الغرابة :

« وقالوا : أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون » . .

Marfat.com

إنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقا جديدا ، بعد موتهم ودفنهم ، وتحول أجسامهم إلى رفات يغيب فى الأرض ، ويختلط بذراتها ، ويضل فيها ، فماذا فى هذا من غرابة أمام النشأة الأولى ؟ لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين . من هذه الأرض التى يقولون إن رفاتهم سيضل فيها ويختلط بها . فالنشأة الآخرة شبيهة بالنشأة الأولى ، وليس فيها غريب ولاجديد ! « بل هم بلقاء ربهم كافرون » . . ومن ثم يقولون مايقولون . فهذا الكفر بلقاء الله هوالذى يلقى على أنفسهم ظل الشك والاعتراض على الأمر الواضح الذى وقع مرة ، والذى يقع ماهو قريب منه فى كل لحظة .

لذلك يرد على اعتراضهم بتقرير وفاتهم ورجعتهم ، مكتفيا بالبرهان الحى الماثل فى نشأتهم الأولى ولازيادة :

« قل : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

هكذا فى صورة الخبر اليقين . . فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله ، الذى نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد . ولازيادة على ماتتلقاه من هذا المصدر الوحيد .

* * *

وبمناسبة البعث الذى يعترضون عليه والرجعة التى يشكون فيها ، يقفهم وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد القيامة ؛ مشهد حى شاخص حافل بالتأثرات والحركات والحوار كأنه واقع مشهود :

« ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » . .

إنه مشهد الخزى والاعتراف بالخطيئة ، والإقرار بالحق الذى جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح مافات فى الحياة الأولى . . وهم ناكسو رؤوسهم خجلا وخزيا . . « عند ربهم » . . الذى كانوا يكفرون بلقائه فى الدنيا . . ولكن هذا كله يجىء بعد فوات الأوان حيث لايجرى اعتراف ولا إعلان .

وقبل أن يعلن السياق جواب استخذائهم الذليل ، يقرر الحقيقة التى تحكم فى الموقف كله ؛ وتحكم قبل ذلك فى حياة الناس ومصائرهم :

Marfat.com

«ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . .

ولوشاء الله لجعل لجميع النفوس طريقا واحدا . هوطريق الهدى، كما وحد طريق المخلوقات التى تهتدى بإلهام كامن فى فطرتها ، وتسلك طريقة واحدة فى حياتها من الحشرات والطير والدواب ؛ أوالخلائق التى لاتعرف إلا الطاعات كالملائكة . لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة ، علك معها الهدى والضلال ؛ ويختار الهداية أو يحيد عنها ؛ ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة ، التى فطره الله عليها لغرض ولحكمة فى تصميم هذا الوجود . ومن ثم كتب الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ، ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم .

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسو رؤوسهم . هؤلاء ممن حق عليهم هذا القول . ومن ثم يقال لهم :

« فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » . .

يومكم هذا الحاضر . فنحن فى المشهد فى اليوم الآخر . . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم فى فسحة من الوقت . ذوقوا « إنا نسيناكم » . . والله لاينسى أحدا . ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة وفيها إهمال وفيها ازدراء .

« فذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » . .

ويسدل الستار على المشهد . وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه . وترك المجرمون لمصيرهم المهين. ويحس قارىء القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك ، وكأنهم شاخصون حيث تركهم ! وهذه إحدى خصائص التصوير القرآنى الحي للمشاهد الموحى للقلوب .

* * *

يسدل الستار على ذلك المشهد ليرفعه عن مشهد آخر ، فى ظل آخر ، وفى جو آخر ، له عطر آخر تستروح له الأرواح وتخفق له القلوب . إنه مشهد المؤمنين . مشهدهم خاشعين مخبتين عابدين ، داعين إلى ربهم وقلوبهم راجفة من خشية الله، طامعة راجية فى فضل الله . وقد ذخر لهم ربهم من الجزاء ما لايبلغ إلى تصوره خيال :

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم »

Marfat.com

وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون » . .

وهى صورة وضيئة للأرواح المؤمنة ، اللطيفة ، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه ، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء ، فى غير ما استعلاء ولا استكبار . هذه الأرواح هى التى تؤمن بآيات الله ، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير .

هؤلاء « إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدا » تأثرا بما ذكروا به ، وتعظيما لله الذى ذكروا بآياته ، وشعورا بجلاله الذى يقابل بالسجود أول ما يقابل ، تعبيرا عن الإحساس الذى لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب « وسبحوا بحمد ربهم » . مع حركة الجسد بالسجود . « وهم لا يستكبرون » . . فهى استجابة الطائع الخاشع المنيب الشاعر بجلال الله الكبير المتعال .

ثم مشهدهم المصور لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية فى لمحة واحدة . فى التعبير العجيب الذى يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » .

إنهم يقومون لصلاة الليل . صلاة العشاء الآخرة . الوتر . ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله . ولكن التعبير القرآنى يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » . . فيرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ النام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب . وإن كانت تبذل جهدا فى مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلا عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ . شغلا بربها . شغلا بالوقوف فى حضرته . وبالتوجه إليه فى خشية وفى طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته . والخوف من غضبه والطمع فى رضاه . والخوف من معصيته والطمع فى توفيقه . والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة فى الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسمة ملموسة : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » . . وهم إلى جانب هذه الحساسية المرهفة ، والصلاة الخاشعة ، والدعاء الحار يؤدون واجبهم للجماعة المسلمة طاعة لله وزكاة . . « ومما رزقناهم ينفقون » . .

هذه الصورة المشرقة الوضيئة الحساسة الشفيفة ترافقها صورة للجزاء الرفيع الخاص الفريد . الجزاء الذى تتجلى فيه ظلال الرعاية الخاصة ، والإعزاز الذاتى ، والإكرام الإلهى والحفاوة الربانية بهذه النفوس :

Marfat.com

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ..

تعبير عجيب يشى بحفاوة الله ـ سبحانه ـ بالقوم ؛ وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة مما تقر به العيون . هذا المذخور الذى لا يطلع عليه أحد سواه . والذى يظل عنده خاصة مستورا حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقياه ! وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم فى حضرة الله .

يا لله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله ! ومن هم ـ كائنا ما كان عملهم وعبادتهم وطاعتهم وتطلعهم ـ حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، فى عناية ورعاية وود واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان ؟ !

***

وأمام مشهد المجرمين البائس الذليل ؛ ومشهد المؤمنين الناعم الكريم ، يعقب بتلخيص مبدأ الجزاء العادل ، الذى يفرق بين المسيئين والمحسنين فى الدنيا أو الآخرة ؛ والذى يعلق الجزاء بالعمل ، على أساس العدل الدقيق :

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ إنا من المجرمين منتقمون » . .

وما يستوى المؤمنون والفاسقون فى طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا فى الجزاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء . والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون فى الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل . فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين فى الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذى يناسب رصيده وما قدمت يداه .

« أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى » التى تؤويهم وتضمهم « نزلا » ينزلون فيه ويثوون ، جزاء « بما كانوا يعملون » ..

« وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » . . يصيرون إليها ويأوون . وبا سوءها من مأوى خير منه التشريد ! « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » وهو مشهد فيه حركة المحاولة

Marfat.com

للفرار والدفع للنار . « وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » . فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب .

ذلك مصير الفاسقين فى الآخرة . وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد . فالله يتوعدهم بالعذاب فى هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » . .

لكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ؛ فالله سبحانه وتعالى لايحب أن يعذب عباده إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجبات العذاب . فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب فى الأرض « لعلهم يرجعون » . . وتستيقظ فطرتهم ، ويردهم ألم العذاب إلى الصواب . ولو فعلوا لما صاروا إلى مصير الفاسقين الذى رأيناه فى مشهدهم الأليم . فأما إذا ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وجاءهم العذاب الأدنى فلم يرجعوا ولم يعتبروا فإنهم إذن ظالمون « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ؟ » وإنهم إذن يستحقون الانتقام فى الدنيا والآخرة : « إنا من المجرمين منتقمون » . . وياهوله من تهديد . والجبار المتكبر هو الذى يتوعد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب !

* * *

وتنتهى تلك الجولة مع مصائر المجرمين والصالحين ، وعواقب المؤمنين والفاسقين ، ومشاهد هؤلاء وهؤلاء فى اليوم الذى يشكون فيه ويسترييون . ثم يأخذ سياق السورة فى جولة جديدة مع موسى وقومه ورسالته . جولة مختصرة لاتزيد على إشارة إلى كتاب موسى — عليه السلام — الذى جعله الله هدى لبنى إسرائيل ؛ كما جعل القرآن كتاب محمد — صلى الله عليه وسلم — هدى للمؤمنين . وإلى التقاء صاحب القرآن مع صاحب التوراة على الأصل الواحد والعقيدة الثابتة . وإلى اصطفاء الصابرين الموقنين من قوم موسى ليكونوا أئمة لقومهم إيحاء للمسلمين فى ذلك الحين بالصبر واليقين ، وبيانا للصفة التى تستحق بها الإمامة فى الأرض والتمكين :

« ولقد آتينا موسى الكتاب — فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

وتفسير هذه العبارة المعترضة : « فلا تكن فى مرية من لقائه » على معنى تثبيت الرسول

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الحق الذى جاء به ؛ وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذى جاء به موسى فى كتابه ؛ والذى يلتقى عليه الرسولان ويلتقى عليه الكتابان . . هـذا التفسير أرجح عندى مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لموسى عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج . فإن اللقاء على الحق الثابت ، والعقيدة الواحدة ، هو الذى يستحق الذكر ، والذى ينسلك فى سياق التثبيت على مايلقاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التكذيب والإعراض ، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء . وكذلك هو الذى يتسق مع ماجاء بعده فى الآية : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » . . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك فى مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بنى إسرائيل ، وتوقن كما أيقنوا ، ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبنى إسرائيل . ولتقرير طريق الإمامة والقيادة ، وهو الصبر واليقين .

أما اختلاف بنى إسرائيل بعد ذلك فأمرهم فيه متروك إلى الله :

« إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

***

وبعد هذه الإشارة يأخذ السياق المكذبين فى جولة مع مصارع الغابرين :

«أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟ إن فى ذلك لآيات . أفلا يسمعون » ؟

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله فى المكذبين ، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابى . وهـذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة فى نشوئها ودثورها ، وضعفها وقوتها . والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هـذه القوانين ، واطراد تلك السنن ، ويتخذ من مصارع القرون ، وآثار الماضين ، الدارسة الخربة ، أوالباقية بعد سكانها موحشة . يتخذ منها معارض للعبرة ، وإيقاظ القلوب ، وإثارة الحساسية ، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين . كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس . ويرفع بهـذا مدارك البشر ومقاييسهم ، فـلا ينعزل شعب أو جيل فى حدود الزمان والمكان ؛ وينسى النظام الثابت فى حياة البشر ، المطرد على توالى القرون . وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير !

وإن للآثار الخاوية لحديثا رهيبا عميقا ، للقلب الشاعر ، والحس المبصر ، وإن له لرجفة

Marfat.com

فى الأوصال ، ورعشة فى الضمائر ، وهزة فى القلوب . ولقد كان العرب المخاطبون بهذه الآية ابتداء يمشــون فى مسا كن عاد وثمود ويرون الآثار الباقية من قرى قوم لوط . والقرآن يستنكر أن تــكون مصارع هذه القرون معروضة لهم ؛ وأن تــكون مسا كن القوم أمامهم يمرون عليها ويمشون فيها ؛ ثم لا يستجيش هذا قلوبهم ، ولا يهز مشاعرهم ، ولا يستثير حساسيتهم بخشية الله ، وتوقى مثل هذا المصير ؛ ولا يهدى لهم ويبصرهم بالتصرف المنجى من استحقاق كلمة الله بالأخذ والتدمير :

« إن فى ذلك لآيات . أفلا يسمعون ؟ » . .

يسمعون قصص الغابرين الذين يمشون فى مسا كنهم ، أو يسمعون هذا التحذير ، قبل أن يصدق فيهم النذير ، ويأخذهم النــكير !

* * *

وبعد لمسة البلى والدثور ، وما توقعه فى الحس من رهبة وروعة ، وما تثيره فى القلب من رجفة ورعشة . يلمس قلوبهم بريشة الحياة النابضة فى الموات ؛ ويجول بهم جولة فى الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، كما جال بهم من قبل فى الأرض التى كانت حية فأدركها البلى والممات :

« أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأ كل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ أفلا يبصرون ؟ » . .

فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها الماء المحيى ؛ فإذا هى خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة . الزرع الذى تأ كل منه أنعامهم وتأ كل منه أنفسهم . وإن مشهد الأرض الجدبة والحيا يصيبها فإذا هى خضراء . . إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها ؛ والشعور بحلاوة الحياة ونداوتها ؛ والإحساس بواهب هــذه الحياة الجميــلة الناضرة ؛ إحساس حب وقربى وانعطاف ؛ مع الشعور بالقدرة المبدعة واليد الصناع ، التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود .

وهكذا يطوّف القرآن بالقلب البشرى فى مجالى الحياة والنماء ، بعد ما طوّف به فى مجالى البلى والدثور ، لاستجاشة مشاعره هنا وهناك ، وإيقاظه من بلادة الألفة ، وهمــود العادة ؛ ولرفع الحواجز بينه وبين مشاهد الوجود ، وأسرار الحياة ، وعــبر الأحــداث ، وشواهد التاريخ .

* * *

Marfat.com

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة بعد هذا المطاف الطويل . فيحكى استعجالهم بالعذاب الذى يوعدون ؛ وشكهم فى صدق الإنذار والتحذير . ويرد عليهم مخوفا محذرا من تحقيق مايستعجلون به ، يوم لاينفعهم إيمان ، ولايمهلون لإصلاح مافات . ويختم السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإعراض عنهم ، وتركهم لمصيرهم المحتوم :

« ويقولون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل : يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » . .

والفتح هو الفصل فيما بين الفريقين من خلاف ؛ وتحقق الوعيد الذى كان يخدعهم أنه لايجيئهم من قريب ؛ وهم غافلون عن حكمة الله فى تأخيره إلى أجله الذى قدره ، والذى لايقدمه استعجالهم ولايؤخره . وماهم بقادرين على دفعه ولا الإفلات منه .

« قل : يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون » . .

سواء كان هذا اليوم فى الدنيا . إذ يأخذهم الله وهم كافرون ، فلا يمهلهم بعده ، ولاينفعهم إيمانهم فيه . أو كان هذا اليوم فى الآخرة إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون :

وهذا الرد يخلخل المفاصل ، ويزعزع القلوب . . ثم يعقبه الإيقاع الأخير فى السورة :

« فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » :

وفى طياته تهديد خفى بعاقبة الانتظار ، بعد أن ينفض الرسول - صلى الله عليه وسلم - يده من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

* * *

وتختم السورة على هذا الإيقاع العميق ، بعد تلك الجولات والإيحاءات والمشاهد والمؤثرات ، وخطاب القلب البشرى بشتى الإيقاعات التى تأخذه من كل جانب ، وتأخذ عليه كل طريق . .

Marfat.com

سورة الأحزاب مدنية
آياتها ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها النبيُّ اتقِ اللهَ ، ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً ① واتبعْ ما يُوحَى إليكَ مِن ربِّكَ ، إنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً * وتوكَّلْ على اللهِ ، وكفى باللهِ وكيلا .

« ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ في جوفِهِ ؛ وما جعلَ أزواجَكُم اللائي تُظاهِرونَ منهنَّ أمهاتِكُم ؛ وما جعلَ أدعياءَكُم أبناءَكُم . ذلكُم قولُكُم بأفواهِكُم ؛ واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدِي السبيلَ * ادعوهُم لآبائِهِم هو أقسطُ عندَ اللهِ ؛ فإن لم تعلموا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدينِ ومواليكُم ؛ وليسَ عليكُم جناحٌ فيما أخطأتُم بهِ ؛ ولكن ما تعمدتْ قلوبُكُم ؛ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً .

« النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفسِهِم ، وأزواجُهُ أمهاتُهُم ، وأولو الأرحامِ بعضُهُم أولى ببعضٍ في كتابِ اللهِ منَ المؤمنينَ والمهاجرينَ ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائِكُم معروفاً ، كانَ ذلكَ في الكتابِ مسطوراً .

« وإذ أخذنا منَ النبيينَ ميثاقَهُم ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابنِ مريمَ ، وأخذنا منهُم ميثاقاً غليظاً * ليسألَ الصادقينَ عن صدقِهِم ، وأعدَّ للكافرينَ عذاباً أليماً » ⑧

Marfat.com

هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ماقبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة تصورا واقعيا مباشرا . وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشئ .

والتوجيهات والتعقيبات على هذه الأحداث والتنظيمات قليلة نسبيا ؛ ولاتشغل من جسم السورة إلا حيزا محدودا ، يربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير . أصل العقيدة فى الله والاستسلام لقدره . ذلك كافتتاح السورة : « ياأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ... » .. وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية فى أول السورة : « كان ذلك فى الكتاب مسطورا . وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما » .. والتعقيب على موقف المرجفين « يوم الأحزاب » التى سميت السورة باسمها . « قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لاتمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .. ومثل قوله فى صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة ، المخالفة لمألوف النفوس فى الجاهلية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .. وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا » ..

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة ، فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ؛ ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة . كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية ، وللنظام الإسلامى .

والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ؛ وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ؛ كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ؛ وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد .

Marfat.com

وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة ، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ؛ وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة . سواء عن طريق الهجوم الحربى والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ؛ أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . . ثم ما نشأ من الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة تقتضى تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية والتصورات الشعورية ؛ وإقامتها على أساس ثابت يناسب تلك الآثار التى خلفتها الغزوات والغنائم فى واقع الجماعة المسلمة .

ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التى تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة .

* * *

تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده . وهو البدء الذى يربط سائر ما ورد فى السورة من تنظيمات وأحداث بالأصل الكبير الذى تقوم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته ، ونظمه وأوضاعه ، وآدابه وأخلاقه . . أصل استشعار القلب لجلال الله ، والاستسلام المطلق لإرادته ؛ واتباع المنهج الذى اختاره ، والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

وبعد ذلك يلق بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية . مبتدئا بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » .. يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد ، وإلا نافق ، واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا ، فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ؛ وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

Marfat.com

ومن ثم يأخذ فى إبطال عادة الظهار ـ وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه : « وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم » . ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام (١) . . ويثنى بإبطال عادة التبنى وآثاره : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون ، ولا تترتب على هذا التبنى آثاره الأخرى (التى سنفصل الحديث عنها فيما بعد) . ويستبقى بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المؤمنين جميعا ؛ ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ، كما ينشىء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجميع المؤمنين : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . . ثم يبطل آثار المؤاخاة التى تمت فى أول الهجرة ؛ ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية فى الإرث والدية وما إليها : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » . وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ماعداها من التنظيمات الوقتية .

ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، الذى يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ، بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين ، وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات ، والمبادىء والتوجيهات ، لتقر فى الضمائر والأخلاد .

وهذا هو إجمال الشوط الأول فى السورة .

* * *

ويتناول الشوط الثانى بيان نعمة الله على المؤمنين ، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين . ثم يأخذ فى تصوير وقعتى الأحزاب وبنى قريظة تصويرا حيا ، فى مشاهد متماقبة ، ترسم المشاعر الباطنة ، والحركات الظاهرة ، والحوار بين الجماعات والأفراد . وفى خلال رسم المعركة وتطوراتها تجىء التوجيهات فى موضعها المناسب ؛ وتجىء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآنى فى إنشاء القيم الثابتة التى يقررها للحياة ، من خلال ماوقع فعلا ، وما جاش فى الأخلاد والضمائر .

وطريقة القرآن الدائمة فى مثل هذه الوقائع التى يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس ، وتقرير القيم ، ووضع الموازين وإنشاء التصورات التى يريد لها أن تسود . طريقة القرآن فى مثل

(١) وسنبين مايتبع فى هذه الحالة عند الكلام التفصيلى عن نص الآية .

Marfat.com

هذه الوقائع أن يرسم الحركة التى وقعت ، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التى تكشف زواياها وخباياها . ثم يقول للمؤمنين حكمه على ماوقع ، وتقديره لما فيه من خطأ وانحراف ، وثناءه على مافيه من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف ، وتنمية الصواب والاستقامة . وربط هـذا كله بقدر الله وإرادته وعمله ونهجه المستقيم ، وبفطرة النفس ، ونواميس الوجود .

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » . . ويتوسطها قوله : « قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لاتمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . . وبقوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » . . ويختمها بقوله : « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما » . .

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف ، وتصورات المنافقين والذين فى قلوبهم مرض عرضا يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة من خلال تلك التصورات : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . . « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما » .. ثم تجىء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين : «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » . .

* * *

بعد ذلك يجىء قرار تخيير أزواج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللواتى طالبنه بالتوسعة فى النفقة عليهن بعد ماوسع الله عليه وعلى المسلمين من فىء بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم . تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله وعند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وآثرنه على متاع الحياة . ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف فى الأجر إن اتقين وفى العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هـذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونزول القرآن فى بيوتهن وتلاوته ، والحكمة

Marfat.com

التي يسمعنها من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستطرد في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .
وكان هذا هو الشوط الثالث .

* * *

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زيد ابن حارثة مولاه . وما نزل في شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شيء ، وليس لهم في أنفسهم خيرة . إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شيء ، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح : « وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . .

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ؛ وما وراءه من إبطال آثار التبني ، الذي سبق الكلام عليه في أول السورة . إبطاله بسابقة عملية ؛ يختار لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها . فيقع الابتلاء على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع ، بعد تقريرها في أعماق الضمير : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لايكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » . .

وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين كافة : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . .

ويختم هذا الشوط بتوجيهات للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين . .
« ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

* * *

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه .
ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي وزوجاته ، في حياته وبعد وفاته . وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن . وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أزواجه وبيوته

Marfat.com

وشعوره ؛ وبلمزهم فى الدنيا والآخرة . مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » . . وبتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة بإغراء النبي – صلى الله عليه وسلم – بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة أخيرا . وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى فى المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

* * *

والشوط السادس والأخير فى السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة ، والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله ، والتلويح بأنها قد تكون قريبا . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » . . ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » . .

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما » . .

وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ؛ وهى التى تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى . أمانة العقيدة والاستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها ، والشريعة والقيام على تنفيذها فى أنفسهم وفى الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة ، وجوها ؛ وطبيعة المنهج الإلهى الذى تولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامى على أساسه .

والآن نتناول السورة بالتفصيل بعد هذا الإجمال السريع .

* * *

« يا أيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » . .

Marfat.com

. هذا هو ابتداء السورة التى تتولى تنظيم جوانب من الحياة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع الإسلامى الوليد . وهو ابتداء يكشف عن طبيعة النظام الإسلامى والقواعد التى يقوم عليها فى عالم الواقع وعالم الضمير .

إن الإسلام ليس مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مجموعة آداب وأخلاق ، ولا مجموعة شرائع وقوانين ، ولا مجموعة أوضاع وتقاليد . إنه يشتمل على هذا كله. ولكن هذا كله ليس هو الإسلام.. إنما الإسلام الاستسلام . الاستسلام لمشيئة الله وقدره ؛ والاستعداد ابتداء لطاعة أمره ونهيه ؛ ولاتباع المنهج الذى يقرره دون التلفت إلى أى توجيه آخر وإلى أى اتجاه . ودون اعتماد كذلك على سواه . وهو الشعور ابتداء بأن البشر فى هذه الأرض خاضعون للناموس الإلهى الواحد الذى يصرّفهم ويصرّف الأرض ، كما يصرّف الكواكب والأفلاك ؛ ويدبر أمر الوجود كله ماخفى منه وما ظهر ، وما غاب منه وما حضر ، وما تدركه منه العقول وما يقصر عنه إدراك البشر . وهو اليقين بأنهم ليس لهم من الأمر شىء إلا اتباع مايأمرهم به الله والانتهاء عما ينهاهم عنه ؛ والأخذ بالأسباب التى يسرها لهم ، وارتقاب النتائج التى يقدرها الله . . هذه هى القاعدة . ثم تقوم عليها الشرائع والقوانين ، والتقاليد والأوضاع ، والآداب والأخلاق . بوصفها الترجمة العملية لمقتضيات العقيدة المستكنة فى الضمير ؛ والآثار الواقعية لاستسلام النفس لله ، والسير على منهجه فى الحياة . . إن الإسلام عقيدة . تنبثق منها شريعة . يقوم على هذه الشريعة نظام . وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هى الإسلام . .

ومن ثم كان التوجيه الأول فى السورة التى تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة ، هو التوجيه إلى تقوى الله . وكان القول موجها إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — القائم على تلك التشريعات والتنظيمات . . « يا أيها النبى اتق الله » . . فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هى القاعدة الأولى ، وهى الحارس القائم فى أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ . وهى التى يناط بها كل تكليف فى الإسلام وكل توجيه .

وكان التوجيه الثانى هو النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع توجيههم أو اقتراحهم ، والاستماع إلى رأيهم أو تحريضهم : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » . . وتقديم هذا النهى على الأمر باتباع وحى الله يوحى بأن ضغط الكافرين والمنافقين فى المدينة وما حولها كان فى ذلك الوقت عنيفا ، فاقتضى هذا النهى عن اتباع آرائهم وتوجيهاتهم ، والخضوع لدفعهم وضغطهم . ثم يبقى ذلك النهى قائما فى كل بيئة وكل زمان ، يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا ، وفى أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعى بصفة خاصة . ليبقى منهجهم خالصا لله ، غير مشوب بتوجيه من سواه .

Marfat.com

ولاينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة ـ كما يسوغ بعض المسلمين لأنفسهم فى فترات الضعف والانحراف ـ فإن الله هو العليم الحكيم ؛ وهوالذى اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته : « إن الله كان عليما حكيما » .. وما عند البشر إلا قشور ، وإلا قليل !

والتوجيه الثالث المباشر : « واتبع مايوحى إليك من ربك » . فهذه هى الجهة التى تجىء منها التوجيهات ، وهذا هو المصدر الحقيق بالاتباع . والنص يتضمن لمسات موحية تكمن فى صياغة التعبير : « واتبع مايوحى إليك من ربك » . فالوحى « إليك » بهذا التخصيص . والمصدر « من ربك » بهذه الإضافة . فالاتباع هنا متعين بحكم هذه الموحيات الحساسة ، فوق ماهو متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع . . والتعقيب : « إن الله كان بما تعملون خبيرا » . . فهو الذى يوحى عن خبرة بكم وبما تعملون ؛ وهو الذى يعلم حقيقة ماتعملون ، ودوافعكم إلى العمل من نوازع الضمير .

والتوجيه الأخير : « وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » . . فلا يهمنك أكانوا معك أم كانوا عليك ؛ ولاتحفل كيدهم ومكرهم ؛ وألق بأمرك كله إلى الله ، يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته . . ورد الأمر إلى الله فى النهاية والتوكل عليه وحده ، هو القاعدة الثابتة المطمئنة التى يفىء إليها القلب ؛ فيعرف عندها حدوده ، وينتهى إليها ؛ ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير ، فى ثقة وفى طمأنينة وفى يقين .

وهذه العناصر الثلاثة : تقوى الله . واتباع وحيه . والتوكل عليه ـ مع مخالفة الكافرين والمنافقين ـ هى العناصر التى تزود الداعية بالرصيد ؛ وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص . من الله ، وإلى الله ، وعلى الله . « وكفى بالله وكيلا » .

ويختم هذه التوجيهات بإيقاع حاسم مستمد من مشاهدة حسية :

« ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . .

إنه قلب واحد ، فلابد له من منهج واحد يسير عليه . ولابد له من تصور كلى واحد للحياة وللوجود يستمد منه . ولابد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوّم به الأحداث والأشياء . وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه .

ولايملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ؛ ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ؛ ويستمد أوضاعه الاجتماعية أوالاقتصادية من معين ثالث ؛ ويستمدفنونه وتصوراته

Marfat.com

من معين رابع . . فهـذا الخليط لا يكوّن إنسانا له قلب . إنمـا يكون مزقا وأشلاء ليس لها قوام !

وصاحب العقيدة لايملك أن تكون له عقيدة حقا ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة فى موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيرا كان هذا الموقف أم كبيرا . لايملك أن يقول كلمة ، أو يتحرك حركة ، أو ينوى نية ، أو يتصور تصورا ، غير محكوم فى هذا كله بعقيدته ـ إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة فى كيانه ـ لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحـد ، يخضع لناموس واحد ، ويستمد من تصور واحد ، ويزن بميزان واحد .

لايملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله : فعلت كذا بصفتى الشخصية . وفعلت كذا بصفتى الإسـلامية ! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات . أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها فى هذه الأيام ! إنه شخص واحد له قلب واحد ، تعمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة ، وميزان واحد للقيم . وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل مايصدر عنه ، فى كل حالة من حالاته على السواء .

وبهذا القلب الواحد يعيش فردا ، ويعيش فى الأسرة ، ويعيش فى الجماعة ، ويعيش فى الدولة . ويعيش فى العالم . ويعيش سرا وعلانية . ويعيش عاملا وصاحب عمل . ويعيش حاكما ومحكوما . ويعيش فى السراء والضراء . . فلا تتبدل موازينه ، ولا تتبدل قيمه ، ولاتتبدل تصوراته . . « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . .

ومن ثم فهو منهج واحد ، وطريق واحد ، ووحى واحد ، واتجاه واحد . وهو استسلام لله وحـده . فالقلب الواحد لايعبد إلهين ، ولا يخدم سيدين ، ولاينهج نهجين ، ولا يتجه اتجاهين . ومايفعل شيئا من هذا إلا أن يتمزق ويتفرق ويتحول إلى أشلاء وركام !

* * *

وبعد هذا الإيقاع الحاسم فى تعيين المنهج والطريق يأخذ فى إبطال عادة الظهار وعادة التبنى . ليقيم المجتمع على أساس الأسرة الواضح السليم المستقيم :

« وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتـكم . وماجعل أدعياءكم أبناءكم . ذلـكم قولـكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانـكم فى الدين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولـكن ماتعمدت قلوبكم . وكان الله غفورا رحيما » .

Marfat.com

كان الرجل في الجاهلية يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . أي حرام محرمة كما تحرم عليّ أمي . ومن ساعتئذ يحرم عليه وطؤها ؛ ثم تبقى معلقة ، لاهي مطلقة فتتزوج غيره ، ولاهي زوجة فتحل له . وكان في هذا من القسوة مافيه ؛ وكان طرفا من سوء معاملة المرأة في الجاهلية والاستبداد بها ، وسومها كل مشقة وعنت .

فلما أخذ الإسلام يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة ؛ ويعتبر الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى ؛ ويوليها من عنايته ما يليق بالمحضن الذي تنشأ فيه الأجيال . . جعل يرفع عن المرأة هذا الخسف ؛ وجعل يصرف تلك العلاقات بالعدل واليسر . وكان مما شرعه هذه القاعدة : « وماجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » . . فإن قولة باللسان لاتغير الحقيقة الواقعة ، وهي أن الأم أم والزوجة زوجة ؛ ولا تتحول طبيعة العلاقة بكلمة ؛ ومن ثم لم يعد الظهار تحريما أبديا كتحريم الأم كما كان في الجاهلية .

وقد روى أن إبطال عادة الظهار شرع فيما نزل من « سورة المجادلة » عندما ظاهر أوس ابن الصامت من زوجه خولة بنت ثعلبة ، فجاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشكو تقول : يارسول الله ، أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني . حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ، ظاهر مني . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما أراك إلا قد حرمت عليه » . فأعادت ذلك مرارا . فأنزل الله : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا . وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ـ من قبل أن يتماسا ـ ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ؛ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا . ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » .. فجعل الظهار تحريما مؤقتا للوطء ـ لا مؤبدا ولا طلاقا ـ كفارته عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا . وبذلك تحل الزوجة مرة أخرى ، وتعود الحياة الزوجية لسابق عهدها . ويستقر الحكم الثابت المستقيم على الحقيقة الواقعة : «وماجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » . . وتسلم الأسرة من التصدع بسبب تلك العادة الجاهلية ، التي كانت تمثل طرفا من سوم المرأة الخسف والعنت ، ومن اضطراب علاقات الأسرة وتعقيدها وفوضاها ، تحت نزوات الرجال وعنجهيتهم في المجتمع الجاهلي .

Marfat.com

هذه مسألة الظهار . فأما مسألة التبنى ، ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم ، فقد كانت كذلك تنشأ من التخلخل فى بناء الأسرة ، وفى بناء المجتمع كله .

ومع ماهو مشهور من الاعتزاز بالعفة فى المجتمع العربى ، والاعتزاز بالنسب ، فإنه كانت توجد إلى جانب هذا الاعتزاز ظواهر أخرى مناقضة فى المجتمع ، فى غير البيوت المعدودة ذات النسب المشهور .

كان يوجد فى المجتمع أبناء لايعرف لهن آباء ! وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه . يدعوه ابنه ، ويلحقه بنسبه ، فيتوارث وإياه توارث النسب .

وكان هناك أبناء لهم آباء معروفون . ولكن كان الرجل يعجب بأحد هؤلاء فيأخذه لنفسه ، ويتبناه ، ويلحقه بنسبه ، فيعرف بين الناس باسم الرجل الذى تبناه ، ويدخل فى أسرته . وكان هذا يقع بخاصة فى السبى ، حين يؤخذ الأطفال والفتيان فى الحروب والغارات ؛ فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدا من هؤلاء دعاه ابنه ، وأطلق عليه اسمه ، وعرف به ، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها .

ومن هؤلاء زيد ابن حارثة الكلبى . وهو من قبيلة عربية . سبى صغيرا فى غارة أيام الجاهلية ؛ فاشتراه حكيم ابن حزام لعمته خديجة ـ رضى الله عنها ـ فلما تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهبته له . ثم طلبه أبوه وعمه فخيره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاختار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعتقه ، وتبناه ، وكانوا يقولون عنه : زيد ابن محمد . وكان أول من آمن به من الموالى .

فلما شرع الإسلام ينظم علاقات الأسرة على الأساس الطبيعى لها ، ويحكم روابطها ، ويجعلها صريحة لاخلط فيها ولا تشويه .. أبطل عادة التبنى هذه ؛ ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية . . علاقات الدم والأبوة والبنوة الواقعية . وقال : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم » .. « ذلكم قولكم بأفواهكم » .. والكلام لايغير واقعا ، ولاينشئ علاقة غير علاقة الدم ، وعلاقة الوراثة للخصائص التى تحملها النطفة ، وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحى !

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . .

يقول الحق المطلق الذى لايلابسه باطل . ومن الحق إقامة العلاقات على تلك الرابطة الثقة المستمدة من اللحم والدم ، لاعلى كلمة تقال بالفم . « وهو يهدى السبيل » المستقيم ، المتصل

Marfat.com

بناموس الفطرة الأصيل ، الذى لايغنى غناءه سبيل آخر من صنع البشر ، يصنعونه بأفواههم. بكلمات لامدلول لها من الواقع . فتعلبها كلمة الحق والفطرة التى يقولها الله ويهدى بها السبيل.

« ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . .

وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه . عدل للوالد الذى نشأ هذا الولد من بضعة منه حية . وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه ، ويرثه ويورثه ، ويتعاون معه ويكون امتدادا له بوراثاته الكامنة ، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده . وعدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شىء فى مكانه ؛ ويقيم كل علاقة على أصلها الفطرى ، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد ؛ كما أنه لايحمل غير الوالد الحقيقى تبعة البنوة ، ولا يعطيه مزاياها . ولا يحمل غير الولد الحقيقى تبعة البنوة ولايحابيه بخيراتها !

وهذا هو النظام الذى يجعل التبعات فى الأسرة متوازنة . ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع . وهو فى الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطرى العميق . . وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشل ، ضعيف ، مزور الأسس ، لايمكن أن يعيش ! (١)

ونظرا للفوضى فى علاقات الأسرة فى الجاهلية والفوضى الجنسية كذلك ، التى تخلف عنها أن تختلط الأنساب ، وأن يجهل الآباء فى بعض الأحيان ، فقد يسر الإسلام الأمر ــ وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة ، وإقامة النظام الاجتماعى على أساسها ــ فقرر فى حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين مكانا للأدعياء فى الجماعة الإسلامية ، قائما على الأخوة فى الدين والموالاة فيه :

« فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . .

وهى علاقة أدبية شعورية ؛ لاتترتب عليها التزامات محددة ، كالتزام التوارث والتكافل فى دفع الديات ــ وهى التزامات النسب بالدم ، التى كانت تلتزم كذلك بالتبنى ــ وذلك كى لايترك هؤلاء الأدعياء بغير رابطة فى الجماعة بعد إلغاء رابطة التبنى . .

وهذا النص : « فإن لم تعلموا آباءهم » . . يصور لنا حقيقة الخلخلة فى المجتمع

(١) ولقد حاول النظام الشيوعى أن يتنكر لقاعدة الأسرة فى بناء المجتمع ، فتخبط ومايزال يتخبط . وعلى الرغم من قاعدة النظام المذهبية الفلسفية فإن الفطرة أخذت تكافح فى روسيا وتعود شيئا فشيئا إلى السيطرة والبروز !

Marfat.com

الجاهلي . وحقيقة الفوضى فى العلاقات الجنسية . هـذه الفوضى وتلك الخلخلة التى عالجها الإسـلام بإقامة نظـام الأسرة على أساس الأبوة . وإقامة نظام المجتمع على أساس الأسرة السليمة .

وبعد الاجتهاد فى رد الأنساب إلى حقائقها فليس على المؤمنين من مؤاخذة فى الحالات التى يعجزون عن الاهتداء فيها إلى النسب الصحيح :

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ؛ ولـكن ما تعمدت قلوبكم » . .

وهذه السماحة مردها إلى أن الله سبحانه وتعالى يتصف بالغفران والرحمة ، فـلا يعنت الناس بما لايستطيعون :

« وكان الله غفورا رحيما » . .

ولقد شدد رسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ فى التثبت والتأكد من النسب لتوكيد جدية التنظيم الجديد الذى يلغى كل أثر للتخلخل الاجتماعى الجاهلى . وتوعد الذين يكتمون الحقيقة فى الأنساب بوصمة الـكفر . قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ابن ابراهيم . حـدثنا ابن علية . عن عيينة ابن عبد الرحمان عن أبيه قال : قال أبو بكرة ـ رضى الله عنه ـ قال الله عز وجل : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنـد الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانـكم فى الدين ومواليكم » . . فأنا ممن لايعرف أبوه ، فأنا من إخوانـكم فى الدين . . قال أبى (من كلام عيينة ابن عبد الرحمان) : والله إنى لأظنه لوعلم أن أباه كان حمارا لانتمى إليه . وقد جاء فى الحديث : « من ادعى إلى غـير أبيه ـ وهو يعلم ـ إلا كفر » . . وهـذا التشديد يتمشى مع عناية الإسـلام بصيانة الأسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل دخل ؛ وحياطتها بكل أسباب السلامة والاستقامة والقوة والثبوت . ليقيم عليها بناء المجتمع المتماسك السليم النظيف العفيف .

* * *

بعد ذلك يقرر إبطال نظام المؤاخاة كما أبطل نظام التبنى . ونظام المؤاخاة لم يكن جاهليا ؛ إنمـا هو نظام استحدثه الإسلام بعد الهجرة ، لمواجهة حالة المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأهليهم فى مكة ؛ ومواجهة الحالة كذلك بين المسلمين فى المدينة ممن انفصلت علاقاتهم بأسرهم نتيجة لإسـلامهم . . وذلك مع تقرير الولاية العامة للنبي ـ صـلى الله عليه وسلم ـ وتقديمها

Marfat.com

على جميع ولايات النسب ؛ وتقرير الأمومة الروحية بين أزواجه - صلى الله عليه وسلم - وجميع المؤمنين :

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ؛ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك في الكتاب مسطورا » ..

لقد هاجر المهاجرون من مكة إلى المدينة ، تاركين وراءهم كل شيء ، فارين إلى الله بدينهم ، مؤثرين عقيدتهم على وشائج القربى ، وذخائر المال ، وأسباب الحياة ، وذكريات الطفولة والصبا ، ومودات الصحبة والرفقة ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، متخلين عن كل ماعداها . وكانوا بهذه الهجرة على هذا النحو ، وعلى هذا الانسلاخ من كل عزيز على النفس ، بما في ذلك الأهل والزوج والولد - المثل الحي الواقع في الأرض على تحقق العقيدة في صورتها الكاملة ، واستيلائها على القلب ، بحيث لاتبقى فيه بقية لغير العقيدة . وعلى توحيد الشخصية الإنسانية لتصدق قول الله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ..

كذلك وقع في المدينة شيء من هذا في صورة أخرى . فقد دخل في الإسلام أفراد من بيوت ، وظل آخرون فيها على الشرك . فانبتت العلاقة بينهم وبين قرابتهم . ووقع على أية حال تخلخل في الروابط العائلية ؛ وتخلخل أوسع منه في الارتباطات الاجتماعية .

وكان المجتمع الإسلامي لايزال وليدا ، والدولة الإسلامية الناشئة أقرب إلى أن تكون فكرة مسيطرة على النفس ، من أن تكون نظاما مستندا إلى أوضاع مقررة .

هنا ارتفعت موجة من المد الشعوري للعقيدة الجديدة ، تغطى على كل العواطف والمشاعر ، وكل الأوضاع والتقاليد ، وكل الصلات والروابط . لتجعل العقيدة وحدها هي الوشيجة التي تربط القلوب ، وتربط - في الوقت ذاته - الوحدات التي انفصلت عن أصولها الطبيعية في الأسرة والقبيلة ؛ فتقوم بينها مقام الدم والنسب ، والمصلحة والصداقة والجنس واللغة . وتمزج بين هذه الوحدات الداخلة في الإسلام ، فتجعل منها كتلة حقيقية متماسكة متجانسة متعاونة متكافلة . لابنصوص التشريع ، ولا بأوامر الدولة ؛ ولكن بدافع داخلي ومد شعوري . يتجاوز كل ما ألفه البشر في حياتهم العادية . وقامت الجماعة الإسلامية على هذا الأساس ، حيث لم يكن مستطاعا أن تقوم على تنظيم الدولة وقوة الأوضاع .

نزل المهاجرون على إخوانهم الأنصار ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ؛ فاستقبلوهم

Marfat.com

فى دورهم وفى قلوبهم ، وفى أمـوالهم . وتسابقوا إلى إيوائهم ؛ وتنافسوا فيهم حتى لم ينزل مهاجرى فى دار أنصارى إلا بقرعة . إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الراغبين فى إيوائهم من الأنصار . وشاركوهم كل شىء عن رضى نفس ، وطيب خاطر ، وفرح حقيق ، مبرأ من الشح الفطرى ، كما هو مبرأ من الخيلاء والمراءاة !

وآخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار . وكان هذا الإخاء صلة فريدة فى تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد . وقام هـذا الإخاء مقام أخوة الدم . فـكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها .

وارتفع المد الشعورى فى هذا إلى ذروة عالية ؛ وأخذ المسلمون هذه العلاقة الجديدة مأخذ الجد – شأنهم فيها شأنهم فى كل ماجاءهم به الإسلام – وقام هذا المد فى إنشاء المجتمع الإسلامى وحياطته مقام الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة . بل بمـا هو أكثر . وكان ضروريا لحفظ هـذه الجماعة الوليدة وتماسكها فى مثل تلك الظروف الاستثنائية المتشابكة التى قامت فيها .

وإن مثل هـذا المد الشعورى لضرورى لنشأة كل جماعة تواجه مثل تلك الظروف ، حتى توجد الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة ، التى توفر الضمانات الاستثنائية لحياة تلك الجماعة ونموها وحمايتها . وذلك إلى أن تنشأ الأحوال والأوضاع الطبيعية .

وإن الإسلام – مع حفاوته بذلك المـد الشعورى ، واستبقاء ينابيعه فى القلب مفتوحة دائمـا فوارة دائما ، مستعدة للفيضان . لحريص على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية ، للنفس البشرية لا على أساس الفورات الاستثنائية ، التى تؤدى دورها فى الفترات الاستثنائية ؛ ثم تترك مكانها للمستوى الطبيعى ، وللنظام العادى ، متى انقضت فترة الضرورة الخاصة .

ومن ثم عاد القرآن الكريم – بمجرد استقرار الأحوال فى المدينة شيئا مابعد غزوة بدر ، واستتباب الأمر للدولة الإسـلامية ، وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار ، ووجود أسباب معقولة للارتزاق ، وتوفر قدر من الكفاية للجميع على إثر السرايا التى جاءت بعـد غزوة بدر الـكبرى ، وبخاصة ماغنمه المسلمون من أموال بنى قينقاع بعـد إجلائهم . . عاد القرآن الكريم بمجرد توفر هـذه الضمانات إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب ، مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر ، ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة . ورد الأمور إلى حالتها الطبيعية فى الجماعة الإسلامية . فرد الإرث والتـكافل

Marfat.com

فى الديات إلى قرابة الدم والنسب ـ كما هى أصلا فى كتاب الله القديم وناموسه الطبيعى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . .

وقرر فى الوقت ذاته الولاية العامة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم ، بل على قرابة النفس ! : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . وقرر الأمومة الشعورية لأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لجميع المؤمنين : « وأزواجه أمهاتهم » . .

وولاية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاية عامة تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها ، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وتشمل مشاعرهم فيكون شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب إليهم من أنفسهم . فلا يرغبون بأنفسهم عنه ؛ ولا يكون فى قلوبهم شخص أو شيء مقدم على ذاته ! جاء فى الصحيح : « والذى نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » . وفى الصحيح أيضا أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال : يارسول الله والله لأنت أحب إلىّ من كل شيء حتى من نفسي . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الآن ياعمر » .

وليست هذه كلمة تقال ، ولكنها مرتقى عال ، لايصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية مباشرة تفتحه على هذا الأفق السامى الوضيء ؛ الذى يخلص فيه من جاذبية الذات وحبها المتوشج بالحنايا والشعاب . فإن الإنسان ليحب ذاته ويحب كل مايتعلق بها حبا فوق مايتصور ، وفوق مايدرك ! وإنه ليخيل إليه أحيانا أنه طوّع مشاعره ، وراض نفسه ، وخفض من غلوائه فى حب ذاته ، ثم مايكاد يمس فى شخصيته بما يخدش اعتزازه بها ، حتى ينتفض فجأة كما لو كانت قد لدغته أفعى ! ويحس لهذه المسة لذعا لايملك انفعاله معه ، فإن ملكه كمن فى مشاعره ، وغار فى أعماقه ! ولقد يروض نفسه على التضحية بحياته كلها ؛ ولكنه يصعب عليه أن يروضها على تقبل المساس بشخصيته فيما يعده تصغيرا لها ، أو عيبا لشيء من خصائصها ، أو نقدا لسمة من

Marfat.com

مماتها ، أو تنقصا لصفة من صفاتها . وذلك رغم مايزعمه صاحبها من عدم احتفاله أو تأثره ؛ والتغلب على هذا الحب العميق للذات ليس كلمة تقال باللسان ، إنما هو كما قلنا مرتقى عال لايصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية ؛ أو بمحاولة طويلة ومرانة دائمة ، ويقظة مستمرة ورغبة مخلصة تستنزل عون الله ومساعدته . وهى الجهاد الأكبر كما سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويكفى أن عمر - وهو من هو - قد احتاج فيها إلى لفتة من النبى - صلى الله عليه وسلم - كانت هى اللمسة التى فتحت هذا القلب الصافى .

وتشمل الولاية العامة كذلك التزاماتهم . جاء فى الصحيح . . « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرأوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . وإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » . والمعنى أنه يؤدى عنه دينه إن مات وليس له مال يفى بدينه ؛ ويعول عياله من بعده إن كانوا صغارا .

وفيما عدا هذا فإن الحياة تقوم على أصولها الطبيعية التى لاتحتاج إلى مد شعورى عال ، ولا إلى فورة شعورية استثنائية . مع الإبقاء على صلات المودة بين الأولياء بعد إلغاء نظام الإخاء . فلا يمتنع أن يوصى الولى لوليه بعد مماته ؛ أو أن يهبه فى حياته . . « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا » . .

ويشد هذه الإجراءات كلها إلى العروة الأولى ، ويقرر أن هذه إرادة الله التى سبق بها كتابه الأزلى : « كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . . فتقر القلوب وتطمئن ؛ وتستمسك بالأصل الكبير الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم .

بذلك تستوى الحياة على أصولها الطبيعية ؛ وتسير فى يسر وهوادة ؛ ولا تظل معلقة مشدودة إلى آفاق لاتبلغها عادة إلا فى فترات استثنائية محدودة فى حياة الجماعات والأفراد .

ثم يستبقى الإسلام ذلك الينبوع الفياض على استعداد للتفجر والفيضان ، كلما اقتضت ذلك ضرورة طارئة فى حياة الجماعة المسلمة .

* * *

وبمناسبة ماسطر فى كتاب الله ، وماسبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقى ، والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - وأولى العزم من الرسل خاصة ، فى حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه فى الأمم التى أرسلوا إليها ؛ وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم

Marfat.com

وكفرهم ، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه :

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم؛ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما » . .

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى خاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها .

وقد عمم النص أولا : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » . . ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين : « ومنك » . . ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات ـ قبل الرسالة الأخيرة ـ « ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم » . .

وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه : « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . . ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوى للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذى استعير للعهد والرابطة . وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوى يزيد إيحاءه للمشاعر . . وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده ، ليتلقوا وحيه ، ويبلغوا عنه ، ويقوموا على منهجه فى أمانة واستقامة .

« ليسأل الصادقين عن صدقهم » . . والصادقون هم المؤمنون . فهم الذين قالوا كلمة الصدق ، واعتنقوا عقيدة الصدق . ومن سواهم كاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل . ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه . وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التى استحق بها النجاح والتفوق ، أمام المدعوين لحفل النتائج : سؤال للتكريم ، وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد ، وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم فى يوم الحشر العظيم !

فأما غير الصادقين ، الذين دانوا بعقيدة الباطل ، وقالوا كلمة الكذب فى أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب . قضية العقيدة . فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيأ ، يقف لهم فى الانتظار : « وأعد للكافرين عذابا أليما » . .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ

Marfat.com

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ؛ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ – وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

« وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا .

« قُلْ : لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ – إِنْ فَرَرْتُمْ – مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ . وَإِذَنْ لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ : مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ؟ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً .

« قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنَا ؛ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ . أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً .

« وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً »

Marfat.com

« مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ،
وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

« وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا . وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ . فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » ٢٧

فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ . ويوما بعد يوم وحدثا بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو ، وتتضح سماتها . وكانت الجماعة المسلمة التى تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة . وقيمها الخاصة . وطابعها المميز بين سائر الجماعات .

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ؛ وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ، فلا تعود خليطا مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم يتنزل فى إبان الابتلاء أو بعد انقضائه ، يصور الأحداث ، ويلقى الأضواء على منحنياته وزواياه ، فتنكشف المواقف والمشاعر ، والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهى مكشوفة فى النور ، عارية من كل رداء وستار ؛ ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة ؛ ويربيها يوما بعد يوم ، وحادثا بعد حادث ؛ ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذى يريد .

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن ، يتنزل بالأوامر والنواهى ، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة ؛ إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات ، والفتن والامتحانات ؛ فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لاتصاغ صياغة سليمة ، ولاتنضج نضجا صحيحا ، ولاتصح وتستقيم على منهج إلا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية ، التى تحفر فى القلوب ، وتنقش فى الأعصاب ؛

Marfat.com

وتأخذ من النفوس وتعطى فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث . أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة مايقع ودلالته ؛ وليوجه تلك القلوب وهى منصهرة بنار الفتنة ، ساخنة بحرارة الابتلاء ، قابلة للطرق ، مطاوعة للصياغة !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا تلك التى قضاها المسلمون فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا ، مبلورا فى أحداث و كلمات . ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه ، وأن سمع الله إليه ؛ وأن كل كلمة منه وكل حركة ، بل كل خاطر وكل نية ، قد يصبح مكشوفا للناس ، يتنزل فى شأنه قرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وحين كان كل مسلم يحس الصلة المباشرة بينه وبين ربه ؛ فإذا حزبه أمر ، أو واجهته معضلة ، انتظر أن تفتح أبواب السماء غدا أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته ، وفتوى فى أمره ، وقضاء فى شأنه . وحين كان الله سبحانه بذاته العلية ، يقول : أنت يافلان بذاتك قلت كذا ، وعملت كذا وأضمرت كذا وأعلنت كذا وكن كذا ، ولاتكن كذا . . وياله من أمر هائل عجيب ! ياله من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه العين إلى شخص معين . . هو وكل من على هذه الأرض ، وكل مافى هذه الأرض ، وكل هذه الأرض . ذرة صغيرة فى ملك الله الكبير !

لقد كانت فترة عجيبة حقا ، يتملاها الإنسان اليوم ، ويتصور حوادثها ومواقفها ، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع ، الأضخم من كل خيال !

ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم ، وتنضج شخصيتهم المسلمة . بل أخذهم بالتجارب الواقعية ، والابتلاءات التى تأخذ منهم وتعطى ؛ وكل ذلك لحكمة يعلمها ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلا ، ندركها ونتدبرها ؛ ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبر .

* * *

وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وفى تاريخ الجماعة المسلمة ؛ ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة ، وهو غزوة الأحزاب ، فى السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة ، الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ، ولكل قيمها وتصوراتها . ومن تدبر هذا النص القرآنى ، وطريقة عرضه للحادث ، وأسلوبه

Marfat.com

فى الوصف والتعقيب ووقوفه أمام بعض الشاهد والحوادث ، والحركات والخوالج ، وإبرازه للقيم والسنن .. من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربى هذه الأمة بالأحداث والقرآن فى آن .

ولكى ندرك طريقة القرآن الخاصة فى العرض والتوجيه فإننا قبل البدء فى شرح النص القرآنى ، نثبت رواية الحادث كما عرضتها كتب السيرة - مع الاختصار المناسب - ليظهر الفارق بين سرد الله سبحانه ، وسرد البشر للوقائع والأحداث .

* * *

عن محمد ابن إسحاق قال - بإسناده عن جماعة :

إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام ابن أبى الحقيق النضرى ، وحيى ابن أخطب النضرى ، وكنانة ابن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة ابن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى ، فى نفر من بنى النضير ، ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرجوا حتى قدموا على قريش فى مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » إلى قوله : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان - من قيس عيلان - فدعوهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان ابن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حصن فى بنى فزارة ، والحارث ابن عوف من بنى مرة ، ومسعر ابن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

Marfat.com

فلما سمع بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أجمعوا لهم من الأمر ضرب الخندق على المدينة ؛ فعمل فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعمل معه المسلمون فيه . فدأب فيه ودأبوا . وأبطأ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله فى أولئك المؤمنين . . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم » . . ثم قال تعالى يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . .

ولما فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد . وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذرارى والنساء فجعلوا فى الآطام (أى الحصون) .

وخرج عدو الله حيي ابن أخطب النضرى حتى أتى كعب ابن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده . . فلم يزل حيي بكعب يفتله فى الذروة والغارب (أى ما زال يروضه و يخاتله) حتى سمح له ـ على أن أعطاه عهدا وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب ابن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ؛ وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب ابن قشير

Marfat.com

أخو بنى عمرو ابن عوف : كان محمد يعدنا أننا كل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وحتى قال أوس ابن قيظى أحد بنى حارثة ابن الحارث : يارسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو – وذلك عن ملأ من رجال قومه – فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة .

فأقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة ، قريبا من شهر . لم تكن بينه وبينهم حرب إلا الرميا بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عيينة ابن حصن وإلى الحارث ابن العوف – وهما قائدا غطفان – فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه (١) ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتابة ؛ ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يفعل ، بعث إلى سعد ابن معاذ (سيد الأوس) وسعد ابن عبادة (سيد الخزرج) فذكر ذلك لهما . واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أمرا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا : قال : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » . فقال سعد ابن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : فأنت وذاك . فتناول سعد ابن معاذ الصحيفة ، فمحا مافيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

وأقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، لتظاهر عدوهم عليهم ، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم (٢)

---

(١) وكان اليهود قد وعدوهم تمر خيبر سنة إن نصروهم (عن إمتاع الأسماع للمقريزى)

(٢) قالت أم سلمة – رضى الله عنها – شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف : المريسيع ، وخيبر ، وكنا بالحديبية ، وفى الفتح ، وحنين . لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا أخوف عندنا من الخندق . وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحرجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، فالمدينة تحرس حتى الصباح ، نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفا . حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا .

Marfat.com

ثم إن نعيم ابن مسعود ابن عامر (من غطفان) أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

(وقد فعل حتى أفقد الأحزاب الثقة بينهم وبين بنى قريظة فى تفصيل مطول تحدثت عنه روايات السيرة ونختصره نحن خوف الإطالة) ...

وخذل الله بينهم ـ وبعث الله عليهم الريح فى ليلة شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم (يعنى خيامهم وما يتخذونه للطبخ من مواقد ... الخ) .

فلما انتهى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة ابن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر مافعله القوم ليلا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى زيد ابن زياد عن محمد ابن كعب القرظى قال :

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان : يا أبا عبد الله . أرأيتم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخى . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : فقال حذيفة : يا ابن أخى . والله لقد رأيتنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخندق ، وصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هويا من الليل ؛ ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ، ثم يرجع ، يشرط له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى . فقال : « ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئا حتى تأتينا » قال : فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل ، ولاتقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه . قال حذيفة : فأخذت الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان ! ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف (يعنى الخيل والجمال) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون . ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ،

Marfat.com

ولا يستمسك لنا بناء . . فارتحلوا فإنى مرتحل .. ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث . فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ألا تحدث شيئا حتى تأتينى ، ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قائم يصلى فى مرط (أى كساء) لبعض نسائه مرجل (من وشى اليمن) فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح على طرف المرط ؛ ثم ركع وسجد وإنى لفيه . فلما سلم أخبرته الخبر . . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

* * *

إن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التى لاتنتهى بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ، ولاتنقضى بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل . ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة فى المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير .

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها ، وشهدوا أحداثها ، فإنه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها مالم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ! ويلقى الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ؛ ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة فى أعماق الصدور .

ذلك إلى جمال التصوير ، وقوته ، وحرارته ، مع التهكم القاصم ، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع ! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحى للإيمان والشجاعة والصبر والثقة فى نفوس المؤمنين .

إن النص القرآنى معد للعمل - لا فى وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب. ولكن كذلك للعمل فى كل وسط بعد ذلك وفى كل تاريخ . معد للعمل فى النفس البشرية إطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه فى الآماد الطويلة ، والبيئات المنوعة . بنفس القوة التى عمل بها فى الجماعة الأولى .

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التى واجهتها أول مرة .

Marfat.com

هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة . وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات . وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها . تنتفض خلائق حية ، موحية ، دافعة ، دافقة ، تعمل فى واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، فى عالم الواقع وعالم الضمير .

إن القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة . . وكفى . . إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة ؛ وإيحاء متجدد فى المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل فى كل لحظة ، متى وجد القلب الذى يتعاطف معه ويتجاوب ، ووجد الظرف الذى يطلق الطاقة المكنونة فى تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآنى مئات المرات ؛ ثم يقف الموقف ، أو يواجه الحادث ، فإذا النص القرآنى جديد ، يوحى إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر ، ويفتى فى المشكلة المعقدة ، ويكشف الطريق الخافى ، ويرسم الاتجاه القاصد ، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم فى الأمر الذى يواجهه ، وإلى الاطمئنان العميق .

وليس ذلك لغير القرآن فى قديم ولا حديث .

* * *

يبدأ السياق القرآنى الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذى هم أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف . ومن ثم يجمل فى الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث ، وبدأه ونهايته ، قبل تفصيله وعرض مواقفه . لتبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها ؛ وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائمين على دعوته ومنهجه ، من عدوان الكافرين والمنافقين :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

وهكذا يرسم فى هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها ، والعناصر الحاسمة فيها . . مجيء جنود الأعداء . وإرسال ريح الله وجنوده التى لم يرها المؤمنون . ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم ، وبصره بعملهم .

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال فى التفصيل والتصوير :

Marfat.com

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ؛ وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون : إن بيوتنا عورة ـ وماهى بعورة . إن يريدون إلا فرارا » . .

إنها صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها . وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب . من أعلاها ومن أسفلها . فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب ؛ وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج . ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا . والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لاتردد فيه .

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وكل خلجاته ، وكل حركاته ، ماثلا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير .

ننظر فنرى الموقف من خارجه : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم » . .

ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » . . وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب .

« وتظنون بالله الظنونا » . . ولايفصل هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات فى شتى القلوب .

ثم تزيد سمات الموقف بروزا ، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . . والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولا مروعا رعيبا .

قال محمد ابن مسلمة وغيره : كان ليلنا بالخندق نهارا ؛ وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبوسفيان ابن حرب فى أصحابه يوما ، ويغدو خالد ابن الوليد يوما ، ويغدو عمرو ابن العاص يوما ، ويغدو هبيرة ابن أبى وهب يوما ، ويغدو عكرمة ابن أبى جهل يوما . ويغدو ضرار ابن الخطاب يوما . حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفا شديدا .

ويصور حال المسلمين مارواه المقريزى فى إمتاع الأسماع . قال :

Marfat.com

ثم وافى المشركون سحرا ، وعبأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوىّ من الليل ، ومايقدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم . وما قدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء ؛ فجعل أصحابه يقولون : يارسول الله ماصلينا ! فيقول . ولا أنا والله ماصليت ! حتى كشف الله المشركين ، ورجع كل من الفريقين إلى منزله ، وقام أسيد ابن حضير فى مئتين على شفير الخندق ، فكرت خيل للمشركين يطلبون غرة ـ وعليها خالد ابن الوليد ـ فناوشهم ساعة ، فزرق وحشى الطفيل ابن النعمان ابن خنساء الأنصارى السلمى بمزراق ، فقتله كما قتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ بأحد . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ : « شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى صلاة العصر . ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا [(١)] » . .

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا فالتقتا ـ ولايشعر بعضهم ببعض ، ولايظنون إلا أنهم العدو . فكانت بينهم جراحة وقتل . ثم نادوا بشعار الإسلام ! « حم . لاينصرون » فكف بعضهم عن بعض . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جراحكم فى سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » . .

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين ، وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق ، ذلك الذى كان يجيئهم من انتقاض بنى قريظة عليهم من خلفهم . فلم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق ، وأن تميل عليهم يهود ، وهم قلة بين هذه الجموع ، التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة .

ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف :

« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . .

لقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ؛ وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون . فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك . وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعا لايثبت له إيمانهم المهلهل ! فجهروا بحقيقة مايشعرون غير مبقين ولامتجملين !

---

(١) فى حديث جابر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما شغل يومئذ عن صلاة العصر . والظاهر أن ذلك تكرر . فمرة شغل عن العصر فقال ذلك الدعاء . ومرة شغل عن تلك الصلوات كلها . .

Marfat.com

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ؛ وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء . فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان !

« وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا » . .

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف ، والعودة إلى بيوتهم ، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا ، لاموضع لها ولا محل ، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم . . وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ، ثغرة الخوف على النساء والذرارى . والخطر محدق والهول جامح ، والظنون لاتثبت ولا تستقر !

« ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة » . .

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو . متروكة بلا حماية .

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة :

« وماهى بعورة » . .

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار :

« إن يريدون إلا فرارا » . .

وقد روى أن بنى حارثة بعثت بأوس ابن قيظى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولون : « إن بيوتنا عورة » ، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا . ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبلغ سعد ابن معاذ ذلك فقال : يارسول الله لاتأذن لهم . إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا . . فردهم . .

فهكذا كان أولئك الذين يجبههم القرآن بأنهم : « إن يريدون إلا فرارا » . .

* * *

ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والراوغة . يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شىء ولا متجملين لشىء :

« ولو دخلت عليهم من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا » . .

Marfat.com

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة ؛ ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الكرب والفزع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ،فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها .. «ثم سئلوا الفتنة » وطلبت إليهم الردة عن دينهم « لآتوها » سراعا غير متلبثين ، ولا مترددين « إلا قليلا » من الوقت ، أو إلا قليلا منهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا ! فهي عقيدة واهنة لا تثبت ؛ وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة !

هكذا يكشفهم القرآن ؛ ويقف نفوسهم عارية من كل ستار .. ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد . ومع من ؟ مع الله الذي عاهدوه من قبل على غير هذا ؛ ثم لم يرعوا مع الله عهدا :

« ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار . وكان عهد الله مسؤولا »

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة : هم بنو حارثة ، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها . ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدا . فذكر لهم الذي أعطوا من أنفسهم .

فأما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته ، وثبتهم ، وعصمهم من عواقب الفشل . وكان ذلك درسا من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد . فأما اليوم ، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الكافية ، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

* * *

وعند هذا المقطع ــ وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع ــ يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها ؛ ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهد والفرار :

« قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ؛ وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ؛ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » ..

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها في الطريق المرسوم ، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه ، في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارّ . فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، في موعده القريب . وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم

Marfat.com

من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته : سواء أراد بهم سوءا أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير ، من دون الله ، يحميهم ويمنعهم من قدر الله .

فالاستسلامَ الاستسلامَ . والطاعة الطاعة . والوفاء الوفاء بالعهد مع الله ، في السراء والضراء . ورجع الأمر إليه ، والتوكل الكامل عليه . ثم يفعل الله مايشاء .

* * *

ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوقين ، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود . ويقولون لهم : « لامقام لكم فارجعوا » .. ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة . وهي - على صدقها - تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس . صورة للجبن والانزواء ، والفزع والهلع . في ساعة الشدة . والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء . والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه . والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد .. والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لاسبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز :

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم . فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت. فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . أشحة على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم . ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا » ..

ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة . الذين يدعون إخوانهم إلى القعود « ولا يأتون البأس إلا قليلا » ولايشهدون الجهاد إلا لماما . فهم مكشوفون لعلم الله ، ومكرهم مكشوف .

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج :

« أشحة عليكم » ففي نفوسهم كزازة على المسلمين . كزازة بالجهد وكزازة بالمال ، وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء .

« فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت » .. وهي صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهي في الوقت ذاته مضحكة ، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار !

Marfat.com

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن :

« فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » . .

خرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ، ما شاء لهم الادعاء ، من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال ، والشجاعة والاستبسال . .

ثم هم : « أشحة على الخير » . .

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم ؛ مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان !

وهذا النموذج من الناس لاينقطع فى جيل ولا فى قبيل . فهو موجود دائما . وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء . وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف . وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لاينالهم منهم إلا سلاطة اللسان !

« أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » . .

فهذه هى العلة الأولى . العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه . « فأحبط الله أعمالهم » .. ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك .

« وكان ذلك على الله يسيرا » . .

وليس هنالك عسير على الله ، وكان أمر الله مفعولا . .

فأما يوم الأحزاب فيمضى النص فى تصويرهم صورة مضحكة زرية :

« يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » . .

فهم مايزالون يرتعشون ، ويتخاذلون ، ويخذّلون ! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت ، وأنه قد ذهب الخوف ، وجاء الأمان !

« وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم » . .

يا للسخرية ! ويا للتصوير الزرى ! ويا للصورة المضحكة ! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام . ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية ، لايشاركون أهل المدينة فى حياة ولا فى مصير . ولا يعلمون - حتى - مايجرى عند

Marfat.com

أهلها . إنما هم يجهلونه ، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب ! مبالغة فى البعد والانفصال ، والنجاة من الأهوال !

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة ، مع أنهم قاعدون ، بعيدون عن المركة ، لا يتعرضون لها مباشرة ؛ إنما هو الخوف من بعيد ! والفزع والهلع من بعيد ! « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » . .

وبهذا الخط ينتهى رسم الصورة . صورة ذلك النموذج الذى كان عائشا فى الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة ؛ والذى مازال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل . بنفس الملامح ، وذات السمات . . ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج ، والسخرية منه ، والابتعاد عنه ، وهوانه على الله وعلى الناس .

***

ذلك كان حال المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى الصفوف ؛ وتلك كانت صورتهم الرديئة . ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعا إلى هذه الصورة الرديئة . . كانت هنالك صورة وضيئة فى وسط الظلام ، مطمئنة فى وسط الزلزال ، واثقة بالله ، راضية بقضاء الله ، مستيقنة من نصر الله ، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب .

ويبدأ السياق هذه الصورة الوضيئة برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » . .

وقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد ، مثابة الأمان للمسلمين ، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان . وإن دراسة موقفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم ؛ وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ وتطلب نفسه القدوة الطيبة ؛ ويذكر الله ولا ينساه .

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال . إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل .

خرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعمل فى الخندق مع المسلمين . يضرب بالفأس ، ويجرف التراب بالمسحاة ، ويحمل التراب فى المكتل . ويرفع صوته مع المرتجزين ، وهم يرفعون

Marfat.com

أصواتهم بالرجز فى أثناء العمل ، فيشاركهم الترجيع ! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجةمن وحى الحوادث الجارية : كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اسمه ، وسماه عمرا . فراح العاملون فى الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج :

سماه من بعد جعيل عمرا * وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا فى ترجيعهم بكلمة « عمرو » ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « عمرا » . وإذا مروا بكلمة « ظهر » قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ظهرا » .

ولنا أن نتصور هذا الجو الذى يعمل فيه المسلمون ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – بينهم ، يضرب بالفأس ، ويجرف بالمسحاة ، ويحمل فى المكتل ، ويرجع معهم هذا الغناء . ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو فى أرواحهم ؟ وأى ينبوع يتفجر فى كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز .

وكان زيد ابن ثابت فيمن ينقل التراب . فقال – صلى الله عليه وسلم – أما إنه نعم الغلام ! وغلبته عيناه فنام فى الخندق . وكان القر شديدا . فأخذ عمارة ابن حزم سلاحه ، وهو لايشعر . فلما قام فزع . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك » ! ثم قال : « من له علم بسلاح هذا الغلام » ؟ فقال عمارة : يارسول الله هو عندى . قال : فرده عليه . ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا !

وهو حادث كذلك يصور يقظة العين والقلب ، لكل من فى الصف ، صغيرا أو كبيرا . كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة : « يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك ! » ويصور فى النهاية ذلك الجو الذى كان المسلمون يعيشون فيه فى كنف نبيهم ، فى أحرج الظروف . .

ثم كانت روحه – صلى الله عليه وسلم – تستشرف النصر من بعيد ، وتراه رأى العين فى ومضات الصخور على ضرب المعاول ؛ فيحدث بها المسلمين ، ويبث فيهم الثقة واليقين .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن سلمان الفارسى أنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت علىّ صخرة ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – قريب منى . فلما رآنى أضرب ، ورأى شدة المكان علىّ ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة . قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! ماهذا الذى رأيت ، لمع

Marfat.com

الهول وأنت تضرب ؟ قال : « أو قد رأيت ذلك ياسلمان » ؟ قال : قلت . نعم : قال : « أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن . وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب . وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق » .

وجاء فى « إمتاع الأسماع للمقريزى » أن هـذا الحادث وقع لعمر ابن الخطاب بحضور سلمان . رضى الله عنهما .

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول فى القلوب ، والخطر محدق بها محيط .

ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة عائدا من استطلاع خبر الأحزاب ؛ وقد أخذه القر الشديد ؛ ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — قائم يصلى فى ثوب لإحـدى أزواجه . فإذا هو فى صلاته واتصاله بربه ، لايترك حذيفة يرتعش حتى ينتهى من صلاته . بل يأخذه — صلوات الله وسلامه عليه — بين رجليه ، ويلقى عليه طرف الثوب ليدفئه فى حنو . ويمضى فى صلاته . حتى ينتهى ، فينبئه حذيفة النبأ ، ويلقى إليه بالبشرى التى عرفها قلبه — صلى الله عليه وسلم — فبعث حذيفة يبصر أخبارها !

أما أخبار شجاعته — صلى الله عليه وسلم — فى الهول ، وثباته ويقينه ، فهى بارزة فى القصة كلها ، ولا حاجة بنا إلى نقلها ، فهى مستفيضة معروفة .

وصدق الله العظيم : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » . .

* * *

ثم تأتى صورة الإيمان الواثق المطمئن ؛ وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة ، فى مواجهة الهول ، وفى لقاء الخطر . الخطر الذى يزلزل القلوب المؤمنة ، فتتخذ من هـذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

لقد كان الهول الذى واجهه المسلمون فى هذا الحادث من الضخامة ؛ وكان الكرب الذى واجهوه من الشدة ؛ وكان الفزع الذى لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . .

لقـد كانوا ناسا من البشر . وللبشر طاقة . لايكلفهم الله مافوقها . وعلى الرغم من ثقتهم

Marfat.com

بنصر الله فى النهاية ؛ وبشارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ، تلك البشارة التى تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . . على الرغم من هـذا كله ، فإن الهول الذى كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم .

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : « من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع . يشرط له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » . . ومع هذا الشرط بالرجعة ، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله فى الجنة ، فإن أحدا لا يلبى النداء . فإذا عين بالاسم حذيفة قال : فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ! . . ألا إن هذا لايقع إلا فى أقصى درجات الزلزلة . .

ولكن كان إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس . . كان إلى جانب هذا كله الصلة التى لاتنقطع بالله ؛ والإدراك الذى لايضل عن سنن الله ؛ والثقة التى لاتتزعزع بثبات هذه السنن ؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا فى انتظار النصر . ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » . . وهاهم أولاء يزلزلون . فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا : « هذا ماوعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله » . . « ومازادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

« هذا ماوعدنا الله ورسوله » . . هذا الهول ، وهذا الكرب ، وهذه الزلزلة ، وهذا الضيق . وعدنا عليه النصر . . فلا بد أن يجىء النصر : « وصدق الله ورسوله » . صدق الله ورسوله فى الأمارة وصدق الله ورسوله فى دلالتها . . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله : « وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

لقد كانوا ناسا من البشر ، لايملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر ، وضعف البشر . وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشرى ؛ ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ؛ ويفقدوا خصائصه ومميزاته . فلهذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشرا ، ولا يتحولوا جنسا آخر . لاملائكة ولاشياطين ، ولابهيمة ولاحجرا . . كانوا ناسا من البشر يفزعون ، ويضيقون بالشدة ، ويزلزلون للخطر الذى يتجاوز الطاقة . ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعروة الوثقى التى تشدهم إلى الله ؛ وتمنعهم من السقوط ؛ وتجدد فيهم الأمل ،

Marfat.com

وتحرسهم من القنوط .. وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا فى تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد فى تاريخ العصور . علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا ، لم يتخلوا عن طبيعة البشر ، بما فيها من قوة وضعف . وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا فى بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبنى الإنسان ، فى الاحتفاظ بخصائص البشر فى الأرض مع الاستمساك بعروة السماء .

وحين نرانا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق .. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا ؛ أو أننا لم نعد نصلح لشىء عظيم أبدا ! ولكن علينا فى الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا نمجده لأنه من فطرتنا البشرية ! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا ! هنالك العروة الوثقى . عروة السماء . وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة ، ونسترد الثقة والطمأنينة ، ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر . فنثبت ونستقر ، ونقوى ونطمئن ، ونسير فى الطريق ..

وهذا هو التوازن الذى صاغ ذلك النموذج الفريد فى صدر الإسلام . النموذج الذى يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده ، وثباته على عهده مع الله ، فمنهم من لقيه ، ومنهم من ينتظر أن يلقاه :

« من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا » ..

هذا فى مقابل ذلك النموذج الكريه . نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار . ثم لم يوفوا بعهد الله : « وكان عهد الله مسؤولا » ..

روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن ثابت قال : « عمى أنس ابن النضر ـ رضى الله عنه ـ سميت به ـ لم يشهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غبت عنه ! لئن أرانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فقال له أنس ـ رضى الله عنه ـ يا أبا عمرو . أين واهاً لريح الجنة ! إنى أجده دون أحد . قال : فقاتلهم حتى قتل ـ رضى الله عنه ـ قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته ـ عمتى الرُّبيِّع ابنة النضر ـ : فما عرفت أخى إلا ببنانه .

Marfat.com

قال : نزلت هذه الآية : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه . . . الخ » قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه رضى الله عنهم . (ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان ابن المغيرة) .

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان ، فى مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق . لتتم المقابلة فى معرض التربية بالأحداث وبالقرآن .

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة النقض والوفاء ؛ وتفويض الأمر فى هذا كله لمشيئة الله :

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين ـ إن شاء ـ أو يتوب عليهم . إن الله كان غفورا رحيما » . .

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد ـ ليرد الأمر كله إلى الله ، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع . فليس شىء منها عبثا ولامصادفة . إنما تقع وفق حكمة مقدرة ، وتدبير قاصد . وتنتهى إلى ماشاء الله من العواقب . وفيها تتجلى رحمة الله بعباده . ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر : « إن الله كان غفورا رحيما » . .

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التى تصدق ظن المؤمنين بربهم ؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم ؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية :

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » . .

وقد بدأت المعركة ، وسارت فى طريقها ، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها فى يد الله ، يصرفها كيف يشاء . وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره . فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ماتم من الأحداث والعواقب ، تقريرا لهذه الحقيقة ، وتثبيتا لها فى القلوب ؛ وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح .

• • •

ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم . بل دارت كذلك على بنى قريظة حلفاء المشركين من يهود :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ،

Marfat.com

فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شيء قديرا» . .

فأما قصة هذا فتحتاج إلى شيء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين . .

إن اليهود فى المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة . وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشترطا عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ، ولا يمدوا يدا بأذى .

ولكن اليهود مالبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول . وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة . كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذى جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا فى المدينة . فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذى كانوا يصطادون بين الفريقين فيه !

وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير إسلام حبرهم وعالمهم عبد الله ابن سلام . ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه . ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود . فطلب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه ! فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فخرج عندئذ عبد الله بن سلام إليهم ، وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به . فوقعوا فيه ، وقالوا قالة السوء ، وحذروا منه أحياء اليهود . وأحسوا بالخطر الحقيقى على كيانهم الدينى والسياسى . فاعتزموا الكيد لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيدا لا هوادة فيه .

ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التى لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود !

لقد بدأت فى أول الأمر حربا باردة ، بتعبير أيامنا هذه . بدأت حرب دعاية ضد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وضد الإسلام . واتخذوا فى الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود فى تاريخهم كله . اتخذوا خطة التشكيك فى رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة . واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض . بين الأوس والخزرج مرة ، وبين الأنصار والمهاجرين مرة . واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين . واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون

Marfat.com

بواسطتهم الفتنة فى صفوف المسلمين . . وأخيرا أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين ، كالذى حدث فى غزوة الأحزاب . .

وكانت أهم طوائفهم بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . وكان لكل منها شأن مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومع المسلمين .

فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود ، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم ببدر ؛ وأخذوا يتحرشون بهم ويتنكرون للعهد الذى بينهم وبين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته ، بعد ما انتصر على قريش فى أول اشتباك بينه وبينهم .

وقد ذكر ابن هشام فى السيرة عن طريق ابن إسحاق ما كان من أمرهم قال :

وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال : « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » قالوا : يامحمد ، إنك ترى أنا قومك ! لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وذكر ابن هشام عن طريق عبد الله ابن جعفر قال :

كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت يهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأكمل ابن إسحاق سياق الحادث قال :

فحاصرهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى نزلوا على حكمه ، فقام عبد الله ابن أبى ابن سلول [1] ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يامحمد ، أحسن فى موالىّ ــ وكانوا حلفاء

---

(١) رأس المنافقين .

Marfat.com

الخزرج ـ قال : فأبطأ عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسلنى . وغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رأوا لوجهه ظللا . ثم قال : ويحك ! أرسلنى قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ . أربع مئة حاسر . وثلاث مئة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود . تحصدهم فى غداة واحدة . إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم لك .

وكان عبد الله ابن أبى لا يزال صاحب شأن فى قومه . فقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شفاعته فى بنى قينقاع على أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح . وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودى ذى قوة عظيمة .

وأما بنو النضير ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إليهم فى سنة أربع بعد غزوة أحد يطلب مشاركتهم فى دية قتيلين حسب المعاهدة التى كانت بينه وبينهم . فلما أتاهم قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

ثم أخذوا فى تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة ، فألهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان من أمرهم فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، وأمر بالتهيؤ لحربهم . فتحصنوا منه فى الحصون . وأرسل إليهم عبد الله ابن أبى ابن سلول (رأس النفاق) أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . ولكن المنافقين لم يفوا بعهدهم . وقذف الله الرعب فى قلوب بنى النضير فاستسلموا بلا حرب ولا قتال . وسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . ففعل . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . ومن أشرافهم ـ ممن سار إلى خيبر ـ سلام ابن أبى الحقيق ، وكنانة ابن الربيع ابن أبى الحقيق ، وحيى ابن أخطب . . هؤلاء الذين كان لهم ذكر فى تأليب مشركى قريش وغطفان فى غزوة الأحزاب .

* * *

والآن نجىء إلى غزوة بنى قريظة . وقد مر من شأنهم فى غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلبا

Marfat.com

على المسلمين مع المشركين ، بتحريض من زعماء بنى النضير ، وحي ابن أخطب على رأسهم . وكان نقض بنى قريظة لعهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج المدينة .

ومما يصور جسامة الخطر الذى كان يتهدد المسلمين ، والفزع الذى أحدثه نقض قريظة للعهد ماروى من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين انتهى إليه الخبر ، بعث سعد ابن معاذ سيد الأوس ، وسعد ابن عبادة سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخوات ابن جبير ـ رضى الله عنهم ـ فقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس . وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » . . (مما يصور ما كان يتوقعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وقع الخبر فى النفوس) .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم . نالوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولاعقد ! . . ثم رجع الوفد فأبلغوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتلميح لا بالتصريح . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله أكبر . أبشروا يامعشر المسلمين ».. (تثبيتا للمسلمين من وقع الخبر السيء أن يشيع فى الصفوف) .

ويقول ابن إسحاق : وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ... الخ .

فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب .

فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره ، ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيرا ؛ وكفى الله المؤمنين القتال . . رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة منصورا ، ووضع الناس السلاح ، فبينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغتسل من وعثاء المرابطة ، فى بيت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ إذ تبدى له جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : « أوضعت السلاح يارسول الله ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم » . قال : « ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها ! وهذا أوان رجوعى من طلب القوم » . ثم قال : « إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة » ـ وكانت على أميال من المدينة ـ . وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ـ صلى الله عليه وسلم :

Marfat.com

« لايصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس فى الطريق ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق ، وقالوا : لم يرد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا تعجيل المسير . وقال آخرون : لانصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يعنف واحدا من الفريقين .

وتبعهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم (صاحب عبس وتولى أن جاءه الأعمى ...) رضى الله عنه ــ وأعطى الراية لعلى ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ ثم نازلهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة . فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد ابن معاذ سيد الأوس ــ رضى الله عنه ــ لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية . واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك كما فعل عبد الله ابن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع حتى استطلقهم من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك . ولم يعلموا أن سعدا ــ رضى الله عنه ــ كان قد أصابه سهم فى أكحله (وهو عرق رئيسى فى الذراع لايرقأ إذا قطع) أيام الخندق ، فكواه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب ؛ وقال سعد ــ رضى الله عنه ــ فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنا لها ؛ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ؛ ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه . وقدر عليهم أن ينزلوا على حكمه باختيارهم ، طلبا من تلقاء أنفسهم .

فعند ذلك استدعاه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من المدينة ليحكم فيهم . فلما أقبل ــ وهو راكب على حمار قد وطأوا له عليه ــ جعل الأوس يلوذون به ، يقولون : ياسعد إنهم مواليك ، فأحسن عليهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه . وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال ــ رضى الله عنه ــ : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم !

فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون فأنزلوه ، إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس قال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن هؤلاء ــ وأشار إليهم ــ قد نزلوا على حكمك . فاحكم فيهم بما شئت » فقال ــ رضى الله عنه ــ : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم » . قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال: « نعم » . قال: وعلى من هاهنا (وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إجلالا وإكراما وإعظاما) . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم » . فقال ـ رضى الله عنه ـ : إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبي ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » (أى سماوات) .

ثم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأخاديد فخدت فى الأرض ، وجيء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم . وكانوا مابين السبع مئة ، والثمانى مئة . وسبي من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال . وفيهم حيي ابن أخطب . وكان قد دخل معهم فى حصنهم كما عاهدهم .

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود ، وضعفت حركة النفاق فى المدينة ؛ وطأطأ المنافقون رؤوسهم ، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون . وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون فى غزو المسلمين ، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم . حتى كان فتح مكة والطائف . ويمكن أن يقال : إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين . وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم ، وإنه كان فارقا واضحا بين عهدين فى نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها .

* * *

فهذا مصداق قول الله سبحانه :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شيء قديرا » .

والصياصي : الحصون . والأرض التى ورثها المسلمون ولم يطؤوها ، ربما كانت أرضا مملوكة لبنى قريظة خارج محلتهم . وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم . وربما كانت إشارة إلى تسليم بنى قريظة أرضهم بغير قتال . ويكون الوطء معناه الحرب التى توطأ فيها الأرض .
« وكان الله على كل شيء قديرا » . .

Marfat.com

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع ؛ وهو التعقيب الذى يرد الأمر كله إلى الله . وقد مضى السياق فى عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله . ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة . تثبيتا لهذه الحقيقة الكبيرة ، التى يثبتها الله فى قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة ، وبالقرآن بعد الأحداث ، ليقوم عليها التصور الإسلامى فى النفوس .

* * *

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم . وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التى جاء القرآن ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة وفى حياتها على السواء .

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية ؛ ويصبح القرآن دليلا وترجمانا للحياة وأحداثها ، ولاتجاهها وتصوراتها . وتستقر القيم ، وتطمئن القلوب ، بالابتلاء وبالقرآن سواء !

انتهى الجزء الواحد والعشرون ويليه الجزء
الثانى والعشرون مبدوءاً بقوله تعالى :
« يا أيها النبى قل لأزواجك »

Marfat.com

في ظلال القرآن

الجزء الثاني والعشرون

بقلم

سيد قطب

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الأحزاب وسبأ وفاطر

Marfat.com

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

« يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ . وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

« يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ : إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا .

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ﴿٣٥﴾

هذا الدرس الثالث فى سورة الأحزاب خاص بأزواج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما عدا الاستطراد الأخير لبيان جزاء المسلمين كافة والمسلمات ــ ولقد سبق فى أوائل السورة تسميتهن « أمهات المؤمنين » . ولهذه الأمومة تكاليفها . وللمرتبة السامية التى استحققن بها هذه الصفة

Marfat.com

تكاليفها ولمكانتهن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكاليفها . وفى هذا الدرس بيان لشيء من هذه التكاليف ؛ وإقرار للقيم التى أراد الله لبيت النبوة الطاهر أن يمثلها ، وأن يقوم عليها ، وأن يكون فيها منارة يهتدى بها السالكون .

* * *

« يا أيها النبى ، قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » . .

لقد اختار النبى - صلى الله عليه وسلم - لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لاعجزا عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضى ولا توقد فى بيوته نار . مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختيارا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذى يملك ولكنه يعف ويستعلى ويختار . . ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكلفا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التى أخذ بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة فى عقيدته وشريعته ؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقا ، لاجريا وراءها ولا تشهيا لها ، ولا انغماسا فيها ولا انشغالا بها . . ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التى اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع ، وانطلاقا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها .

ولكن نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - كن نساء ، من البشر ، لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية فى متاع الحياة ظلت حية فى نفوسهن . فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أمر النفقة . فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى ؛ إذ كانت نفسه - صلى الله عليه وسلم - ترغب فى أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى ؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ؛ وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضىء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها . لا بوصفه حلالا وحراما - فقد تبين الحلال والحرام - ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة !

Marfat.com

ولقد بلغ الأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه . وكان احتجابه عنهم أمرا صعبا عليهم يهون كل شيء دونه . وجاءوا فلم يؤذن لهم . روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : أقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس ببابه جلوس ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر ـ رضي الله عنه ـ فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فدخلا ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس وحوله نساؤه ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساكت . فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : لأكلمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعله يضحك . فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ يارسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها ! فضحك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماليس عنده ؟ ! فنهاهما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذا المجلس ماليس عنده . . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال : «إني أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها (يا أيها النبي قل لأزواجك) .. الآية . قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله تعالى لم يبعثني معنفا ، ولكن بعثني معلما ميسرا . لاتسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها [1] » .

وفي رواية البخاري ـ بإسناده ـ عن أبي سلمة ابن عبد الرحمان : أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرته أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه . قالت : فبدأ بي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » ـ وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ـ قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : (يا أيها النبي قل لأزواجك) إلى تمام الآيتين فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

---

(١) وأخرجه مسلم من حديث زكريا ابن إسحاق .

Marfat.com

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية فى تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التى ينبغى أن تجد ترجمتها الحية فى بيت النبى – صلى الله عليه وسلم – وحياته الخاصة ؛ وأن تتحقق فى أدق صورة وأوضحها فى هذا البيت الذى كان – وسيبقى – منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق . فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . فالقلب الواحد لايسع تصورين للحياة . وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

وقد كانت نساء النبى – صلى الله عليه وسلم – قد قلن : والله لا نسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد هذا المجلس ماليس عنده . فنزل القرآن ليقرر أصل القضية . فليست المسألة أن يكون عنده أو لا يكون . إنما المسألة هى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية ، أو اختيار الزينة والمتاع . سواء كانت خزائن الأرض كلها تحت أيديهن أم كانت بيوتهن خاوية من الزاد . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا مطلقا بعد هذا التخيير الحاسم . وكن حيث تؤهلهن مكانتهن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفى ذلك الأفق العالى الكريم اللائق ببيت الرسول العظيم . وفى بعض الروايات أن النبى – صلى الله عليه وسلم – فرح بهذا الاختيار .

ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه .

إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم ؛ ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة . ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة ؛ بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء . ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه .

هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل مافى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ؛ لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ؛ ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد عما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت فى تلك النفوس . ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب . ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيرا مانخطىء نحن حين نتصور للنبى – صلى الله عليه وسلم – ولصحابته – رضوان الله

Marfat.com

عليهم ـ صورة غير حقيقية ، أو غير كاملة ، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية ، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصا وضعفا !

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية ، صورة ملفعة بهالات غامضة لانتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة . ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم . وتبقى شخوصهم فى حسنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التى لاتلمس ولاتتماسك فى الأيدى ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر غيرنا . . ملائكة أو خلقا مثلهم مجردا من مشاعر البشر وعواطفهم على كل حال ! ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر . يأسا من إمكان التشبه بهم أو الاقتداء العملى فى الحياة الواقعية . وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك ، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد . وتحل محلها الروعة والانبهار ، اللذان لاينتجان إلا شعورا مبهما غامضا سحريا ليس له أثر عملى فى حياتنا الواقعية . . ثم نفقد كذلك التجاوب الحى بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة . لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون ، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التى نعانيها نحن . ولكنهم هم ارتقوا بها وصفوها من الشوائب التى تخالج مشاعرنا .

وحكمة الله واضحة فى أن يختار رسله من البشر ، لامن الملائكة ولا من أى خلق آخر غير البشر . كى تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة ؛ وكى يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمرها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم ، وإن صفت ورفت وارتقت . فيحبوهم حب الإنسان للإنسان ؛ ويطمعوا فى تقليدهم تقليد الإنسان الصغير للإنسان الكبير .

وفى حادث التخيير نقف أمام الرغبة الطبيعية فى نفوس نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المتاع ؛ كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونسائه ـ رضى الله عنهن ـ وهن أزواج يراجعن زوجهن فى أمر النفقة ! فيؤذيه هذا ، ولكنه لا يقبل من أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة . فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية ، تصفى وترفع ، ولكنها لا تخمد ولا تكبت ! ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه . فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، اختيارا لا إكراه فيه ولا كبت ولا ضغط ؛ فيفرح قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامى الوضيء .

Marfat.com

ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة فى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحب عائشة حبا ظاهرا ؛ ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التى يريدها الله له ولأهل بيته فيبدأ بها فى التخيير ؛ ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد ؛ فيطلب إليها ألا تعجل فى الأمر حتى تستشير أبويها ـ وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه كما قالت ـ وهذه العاطفة الحلوة فى قلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تخطىء عائشة ـ رضى الله عنها ـ من جانبها فى إدراكها ؛ فتسرها وتحفل بتسجيلها فى حديثها . ومن خلال هذا الحديث يبدو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنسانا يحب زوجه الصغيرة ، فيحب لها أن ترتفع إلى أفقه الذى يعيش فيه ؛ وتبقى معه على هذا الأفق ، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة فى حسه ، والتى يريدها له ربه ولأهل بيته . كذلك تبدو عائشة ـ رضى الله عنها ـ إنسانة يسرها أن تكون مكينة فى قلب زوجها ؛ فتسجل بفرح حرصه عليها . وحبه لها ، ورغبته فى أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى فتبقى معه على هـذا الأفق الوضىء . ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك ، وهى تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن ! وما فى هذا الطلب من رغبة فى أن يظهر تفردها فى هـذا الاختيار ، وميزتها على بقية نسائه ، أو على بعضهن فى هـذا المقام ! .. وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر فى رد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول لهـا : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا . لاتسألنى واحدة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » . . فهو لايود أن يحجب عن إحدى نسائه ماقد يعينها على الخير ؛ ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير ؛ بل يقدم العون لكل من تريد العون . كى ترتفع على نفسها ، وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع !

هذه الملامح البشرية العزيزة ينبغى لنا ـ ونحن نعرض السيرة ـ ألا نطمسها ، وألا نهملها ، وألا نقلل من قيمتها . فإدراكها على حقيقتها هو الذى يربط بيننا وبين شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشخصيات أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ برباط حى ، فيه من التعاطف والتجاوب ما يستجيش القلب إلى التأسى العملى والاقتداء الواقعى .

* * *

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى النص القرآنى . فنجده ـ بعد تحديد القيم فى أمر الدنيا والآخرة ؛ وتحقيق قوله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فى صورة عملية فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته . . نجده بعد هذا البيان يأخذ فى بيان الجزاء

Marfat.com

الدخر لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيه خصوصية لهن وعليهن، تناسب مقامهن الكريم، ومكانهن من رسول الله المختار :

« يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين، وأعتدنا لهـا رزقا كريمـا » . .

إنها تبعة المكان الكريم الذي هن فيه . وهن أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهن أمهات المؤمنين . وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة ، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة . فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لاخفاء فيها ، كانت مستحقة لضعفين من العذاب . وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذي هن فيه .. « وكان ذلك على الله يسيرا » . . لا تمنعه ولا تعصمه مكانتهن من رسول الله المختار . كما قد يتبادر إلى الأذهان !

« ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا » . . والقنوت الطاعة والخضوع . والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع . . « نؤتها أجرها مرتين » . . كما أن العذاب يضاعف للمقارفة ضعفين . « وأعتدنا لهـا رزقا كريما » . . فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر . فضلا من الله ومنة .

* * *

ثم يبين لأمهات المؤمنين اختصاصهن بما ليس لغيرهن من النساء ؛ ويقرر واجباتهن في معاملة الناس ، وواجبهن في عبادة الله ، وواجبهن في بيوتهن ؛ ويحدثهن عن رعاية الله الخاصة لهذا البيت الكريم ، وحياطته وصيانته من الرجس ؛ ويذكرهن بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة ، مما يلقي عليهن تبعات خاصة ، ويفردهن بين نساء العالمين :

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ؛ وقلن قولا معروفا . وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهليـة الأولى ؛ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنمـا يريد الله ليذهب عنكم الرجس - أهل البيت - ويطهركم تطهيرا . واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا » . .

لقد جاء الإسلام فوجد المجتمع العربي - كغيره من المجتمعات في ذلك الحين - ينظر إلى

Marfat.com

المرأة على أنها أداة للمتاع ، وإشباع الغريزة . ومن ثم ينظر إليها من الناحية الإنسانية نظرة هابطة .

كذلك وجد في المجتمع نوعا من الفوضى في العلاقات الجنسية . ووجد نظام الأسرة مخلخلا على نحو ماسبق بيانه في السورة .

هذا وذلك إلى هبوط النظرة إلى الجنس ؛ وانحطاط الذوق الجمالي ؛ والاحتفال بالجسديات العارمة ، وعدم الالتفات إلى الجمال الرفيع الهادئ النظيف .. يبدو هذا في أشعار الجاهليين حول جسد المرأة ، والتفاتاتهم إلى أغلظ المواضع فيه ، وإلى أغلظ معانيه !

فلما أن جاء الإسلام أخذ يرفع من نظرة المجتمع إلى المرأة ؛ ويؤكد الجانب الإنساني في علاقات الجنسين ؛ فليست هي مجرد إشباع لجوعة الجسد ، وإطفاء لفورة اللحم والدم ، إنما هي اتصال بين كائنين إنسانيين من نفس واحدة ، بينهما مودة ورحمة ، وفي اتصالهما سكن وراحة ؛ ولهذا الاتصال هدف مرتبط بإرادة الله في خلق الإنسان ، وعمارة الأرض ، وخلافة هذا الإنسان فيها بسنة الله .

كذلك أخذ يعنى بروابط الأسرة ؛ ويتخذ منها قاعدة للتنظيم الاجتماعي ؛ ويعدها المحضن الذي تنشأ فيه الأجيال وتدرج ؛ ويوفر الضمانات لحماية هذا المحضن وصيانته ، ولتطهيره كذلك من كل مايلوث جوه من المشاعر والتصورات .

والتشريع للأسرة يشغل جانبا كبيرا من تشريعات الإسلام ، وحيزا ملحوظا من آيات القرآن . وإلى جوار التشريع كان التوجيه المستمر إلى تقوية هذه القاعدة الرئيسية التي يقوم عليها المجتمع ؛ وبخاصة فيما يتعلق بالتطهر الروحي ، وبالنظافة في علاقات الجنسين ، وصيانتها من كل تبذل ، وتصفيتها من عرامة الشهوة ، حتى في العلاقات الجسدية المحضة .

وفي هذه السورة يشغل التنظيم الاجتماعي وشؤون الأسرة حيزا كبيرا . وفي هذه الآيات التي نحن بصددها حديث إلى نساء النبي — صلى الله عليه وسلم — وتوجيه لهن في علاقتهن بالناس ، وفي خاصة أنفسهن ، وفي علاقتهن بالله . توجيه يقول لهن الله فيه : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس — أهل البيت — ويطهركم تطهيرا » .

فلننظر في وسائل إذهاب الرجس ، ووسائل التطهر ، التي يحدثهن الله — سبحانه — عنها ، ويأخذهن بها . وهن أهل البيت ، وزوجات النبي — صلى الله عليه وسلم — وأطهر من عرفت الأرض من النساء . ومن عداهن من النساء أحوج إلى هذه الوسائل من عشن في كنف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبيته الرفيع .

Marfat.com

إنه يبدأ بإشعار نفوسهن بعظيم مكانهن، ورفيع مقامهن، وفضلهن على النساء كافة، وتفردهن بذلك المكان بين نساء العالمين. على أن يوفين هذا المكان حقه، ويقمن فيه بما يقتضيه:

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » ..

لستن كأحد من النساء إن اتقيتن .. فأنتن في مكان لايشارككن فيه أحد، ولا تشاركن فيه أحدا. ولكن ذلك إنما يكون بالتقوى. فليست المسألة مجرد قرابة من النبي - صلى الله عليه وسلم - بل لابد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسكن.

وذلك هو الحق الصارم الحاسم الذي يقوم عليه هذا الدين؛ والذي يقرره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ينادي أهله ألا يغرهم مكانهم من قرابته، فإنه لايملك لهم من الله شيئا: « يافاطمة ابنة محمد. ياصفية ابنة عبد المطلب. يابني عبد المطلب. لا أملك لكم من الله شيئا. سلوني من مالي ماشئتم (1) ».

وفي رواية أخرى: « يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار. يامعشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار. يامعشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يامعشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار. يافاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار. فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها (2) ».

وبعد أن يبين لهن منزلتهن التي ينلنها بحقها، وهو التقوى، يأخذ في بيان الوسائل التي يريد الله أن يذهب بها الرجس عن أهل البيت ويطهرهم تطهيرا:

« فلا تخضعن بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض » ..

ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال، ويحرك غرائزهم، ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغائبهم!

ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟ إنهن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمهات المؤمنين، اللواتي لايطمع فيهن طامع، ولايرف عليهن خاطر مريض، فيما يبدو للعقل أول مرة. وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار.. ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول، وترقق في اللفظ، مايثير الطمع في قلوب، ويهيج

---

(1) أخرجه مسلم (2) رواه مسلم والترمذي

Marfat.com

الفتنة فى قلوب . وأن القلوب المريضة التى تثار وتطمع موجودة فى كل عهد ، وفى كل بيئة ، وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هى زوج النبي الكريم ، وأم المؤمنين . وأنه لاطهارة من الدنس ، ولا تخلص من الرجس ، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس .

فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش اليوم فيه . فى عصرنا المريض الدنس الهابط ، الذى تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟ كيف بنا فى هذا الجو الذى كل شىء فيه يثير الفتنة ، ويهيج الشهوة وينبه الغريزة ، ويوقظ السعار الجنسى المحموم ؟ كيف بنا فى هذا المجتمع ، فى هذا العصر ، فى هذا الجو ، ونساء يتخنثن فى نبراتهن ، ويتميعن فى أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ؛ ثم يطلقنه فى نبرات ونغمات ؟ ! وأين هن من الطهارة ؟ وكيف يمكن أن يرف الطهر فى هذا الجو الملوث . وهن بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن ذلك الرجس الذى يريد الله أن يذهبه عن عباده المختارين ؟ !

« وقلن قولا معروفا » . .

نهاهن من قبل عن النبرة اللينة واللهجة الخاضعة ؛ وأمرهن فى هذه أن يكون حديثهن فى أمور معروفة غير منكرة ؛ فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث . فلا ينبغى أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ، ولاهذر ولا هزل ، ولادعابة ولا مزاح . كى لا يكون مدخلا إلى شىء آخر وراءه من قريب أو من بعيد .

والله سبحانه الخالق العليم بخلقه وطبيعة تكوينهم هو الذى يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات . كى يراعينه فى خطاب أهل زمانهن خير الأزمنة على الإطلاق !

« وقرن فى بيوتكن » . .

من وقر . يقر . أى ثقل واستقر . وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا . إنما هى إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، وهو المقر . وما عداه استثناء طارئا لايثقلن فيه ولا يستقررن . إنما هى الحاجة تقضى . وبقدرها .

والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى . غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة فى غير وظيفتها التى هيأها الله لها بالفطرة .

« ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ، ومن هدوء البال ، ماتشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها . فالأم المكدودة

Marfat.com

بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المستغرقة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ماتزيد على جو الفنادق والخانات ؟ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت . فحقيقة البيت لاتوجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لايفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لايشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

« وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة . أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال [1] » .

فأما خروج المرأة لغير العمل . خروجها للاختلاط ومزاولة للملاهى . والتسكع فى النوادى والمجتمعات ... فذلك هو الارتكاس فى الحمأة الذى يرد البشر إلى مراتع الحيوان !

ولقد كان النساء على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا . ولكنه كان زمان فيه عفة ، وفيه تقوى ، وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لايعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شىء . ومع هذا فقد كرهت عائشة لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم !

فى الصحيحين عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم يرجعن متلفعات بمروطهن مايعرفن من الغلس .

وفى الصحيحين أيضا أنها قالت : لو أدرك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل !

فماذا أحدث النساء فى حياة عائشة — رضى الله عنها — ؟ وماذا كان يمكن أن يحدث حتى ترى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان مانعهن من الصلاة ؟ ! ماذا بالقياس إلى مانراه فى هذه الأيام ؟ !

« ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ..

ذلك حين الاضطرار إلى الخروج ، بعد الأمر بالقرار فى البيوت . ولقد كانت المرأة فى

---

(١) من كتاب : « السلام العالمى والإسلام » فصل : « سلام البيت » ص ٥٤ — ٥٥

Marfat.com

الجاهلية تتبرج . ولـكن جميع الصـور التى تروى عن تبرج الجاهلية الأولى تبدو ساذجة أو محتشمة حين تقاس إلى تبرج أيامنا هذه فى جاهليتنا الحاضرة !

قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين الرجال . فذلك تبرج الجاهلية !

وقال قتادة : وكانت لهن مشية تـكسر وتغنج . فنهى الله تعالى عن ذلك !

وقال مقاتل ابن حيان : والتبرج أنهـا تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيدارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها . وذلك التبرج !

وقال ابن كثير فى التفسير : كانت المرأة منهن تمـر بين الرجال مسفحة بصدرها لايواريه شىء ؛ وربمـا أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن .

هذه هى صور التبرج فى الجاهلية التى عالجها القرآن الـكريم . ليطهر المجتمع الإسلامى من آثارها ويبعد عنـه عوامل الفتنة ، ودواعى الغواية ؛ ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك !

ونقول : ذوقه .. فالذوق الإنسانى الذى يعجب بمفاتن الجسد العارى ذوق بدائى غليظ . وهو من غير شك أحط من الذوق الذى يعجب بجمال الحشمة الهادىء ، ومايشى به من جمال الروح ، وجمال العفة ، وجمال المشاعر .

وهذا المقياس لايخطىء فى معرفة ارتفاع المستوى الإنسانى وتقدمه . فالحشمة جميلة جمالا حقيقيا رفيعا . ولـكن هذا الجمال الراقى لايدركه أصحاب الذوق الجاهلى الغليظ ، الذى لايرى إلا جمال اللحم العارى ، ولايسمع إلا هتاف اللحم الجاهر !

ويشير النص القرآنى إلى تبرج الجاهلية ، فيوحى بأن هذا التبرج من مخلفات الجاهلية . التى يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية ، وارتفعت تصوراته ومثله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومثلها ومشاعرها .

والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان . إنمـا هى حالة اجتماعية معينة ، ذات تصورات معينة للحياة . ويمـكن أن توجد هذه الحالة ، وأن يوجد هذا التصور فى أى زمان وفى أى مكان ، فيكون دليلا على الجاهلية حيث كان !

وبهذا القياس نجد أننا نعيش الآن فى فترة جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة فى درك البشرية إلى حضيض مهـين . وندرك أنه لاطهارة ولا زكاة ولابركة فى مجتمع

Marfat.com

يحيا هذه الحياة ؛ ولايأخذ بوسائل التطهر والنظافة التي جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس ، والتخلص من الجاهلية الأولى ؛ وأخذ بها ، أول من أخذ ، أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - على طهارته ووضاءته ونظافته .

والقرآن الكريم يوجه نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تلك الوسائل ؛ ثم يربط قلوبهن بالله ، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضيء الذي يستمددن منه النور ، والعون على التدرج في مراقي ذلك الأفق الوضيء :

« وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله » . .

وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعي أو الأخلاق في الحياة ؛ إنما هي الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى ؛ والزاد الذي يقطع به السالك الطريق . فلابد من صلة بالله يأتي منها المدد والزاد . ولابد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه . ولابد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة ؛ ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة . وأنه حري أن يقود الآخرين إلى النور الذي يراه ؛ لا أن يقوده الآخرون إلى الظلمات وإلى الجاهلية التي تغرق فيها الحياة ، كلما انحرفت عن طريق الله .

والإسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم . . كلها في نطاق العقيدة . ولكل منها دور تؤديه في تحقيق هذه العقيدة ؛ وتتناسق كلها في اتجاه واحد ؛ ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين . وبدونهما لايقوم هذا الكيان .

ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله ، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم . لأنه لايقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة . . وكل ذلك لحكمة وقصد وهدف :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . .

وفي التعبير إيحاءات كثيرة ، كلها رفاف ، رفيق ، حنون . .

فهو يسميهم « أهل البيت » بدون وصف للبيت ولا إضافة . كأنما هذا البيت هو « البيت » الواحد في هذا العالم ، المستحق لهذه الصفة . فإذا قيل « البيت » فقد عرف وحدد ووصف . ومثل هذا قيل عن الكعبة . بيت الله . فسميت البيت . والبيت الحرام . فالتعبير عن بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم .

Marfat.com

وهو يقول : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ـ أهل البيت ـ ويطهركم تطهيرا » .. وفى العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته . تلطف يشى بأن الله سبحانه ـ يشعرهم بأنه بذاته العلية ـ يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم . وهى رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت . وحين نتصور من هو القائل ـ سبحانه وتعالى ـ رب هذا الكون . الذى قال للكون : كن . فكان . الله ذو الجلال والإكرام . المهيمن العزيز الجبار المتكبر . . حين نتصور من هو القائل ـ جل وعلا ـ ندرك مدى هذا التكريم العظيم .

وهو ـ سبحانه ـ يقول هذا فى كتابه الذى يتلى فى الملأ الأعلى ، ويتلى فى هذه الأرض ، فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ وتتعبد به ملايين القلوب ، وتتحرك به ملايين الشفاه .

وأخيرا فإنه يجعل تلك الأوامر والتوجيهات وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت . فالتطهير من التطهر ، وإذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم ، ويحققونها فى واقع الحياة العملى . وهذا هو طريق الإسلام .. شعور وتقوى فى الضمير . وسلوك وعمل فى الحياة . يتم بهما معا تمام الإسلام ، وتتحقق بهما أهدافه واتجاهاته فى الحياة .

ويختم هذه التوجيهات لنساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل مابدأها به .. بتذكيرهن بعلو مكانتهن ، وامتيازهن على النساء ، بمكانهن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط القرآن ومنزل الحكمة ، ومشرق النور والهدى والإيمان :

« واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفا خبيرا » ..

وإنه لحظ عظيم يكفى التذكير به ، لتحس النفس جلالة قدره ، ولطيف صنع الله فيه ، وجزالة النعمة التى لا يعدلها نعيم .

وهذا التذكير يجىء كذلك فى ختام الخطاب الذى بدأ بتخيير نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . فتبدو جزالة النعمة التى ميزهن الله بها ؛ وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها ..

* * *

وفى صدد تطهير الجماعة الإسلامية ، وإقامة حياتها على القيم التى جاء بها الإسلام . الرجال والنساء فى هذا سواء . لأنهم فى هذا المجال سواء .. يذكر الصفات التى تحقق تلك القيم فى دقة وإسهاب وتفصيل :

Marfat.com

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات .. أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » ..

وهذه الصفات الكثيرة التى جمعت فى هذه الآية تتعاون فى تكوين النفس المسلمة . فهى الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصوم ، وحفظ الفروج ، وذكر الله كثيرا .. ولكل منها قيمته فى بناء الشخصية المسلمة .

والإسلام : الاستسلام ، والإيمان التصديق . وبينهما صلة وثيقة أو أن أحدهما هو الوجه الثانى للآخر . فالاستسلام إنما هو مقتضى التصديق . والتصديق الحق ينشأ عنه الاستسلام .

والقنوت : الطاعة الناشئة من الإسلام والإيمان ، عن رضى داخلى لا عن إكراه خارجى .

والصدق : هو الصفة التى يخرج من لايتصف بها من صفوف الأمة المسلمة لقوله تعالى : « إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله » فالكاذب مطرود من الصف . صف هذه الأمة الصادقة .

والصبر . هو الصفة التى لايستطيع المسلم حمل عقيدته والقيام بتكاليفها إلا بها . وهى تحتاج إلى الصبر فى كل خطوة من خطواتها . الصبر على شهوات النفس ، وعلى مشاق الدعوة ، وعلى أذى الناس . وعلى التواء النفوس وضعفها وانحرافها وتلونها . وعلى الابتلاء والامتحان والفتنة . وعلى السراء والضراء ، والصبر على كلتيهما شاق عسير .

والخشوع : صفة القلب والجوارح ، الدالة على تأثر القلب بجلال الله ، واستشعار هيبته وتقواه .

والتصدق : وهو دلالة التطهر من شح النفس ، والشعور برحمة الناس ، والتكافل فى الجماعة المسلمة . والوفاء بحق المال . وشكر المنعم على العطاء .

والصوم : والنص يجعله صفة من الصفات إشارة إلى اطراده وانتظامه . وهو استعلاء على الضرورات ، وصبر عن الحاجات الأولية للحياة . وتقرير للإرادة ، وتوكيد لغلبة الإنسان فى هذا الكائن البشرى على الحيوان .

وحفظ الفرج : ومافيه من تطهر ، وضبط لأعنف ميل وأعمقه فى تركيب كيان الإنسان ، وسيطرة على الدفعة التى لا يسيطر عليها إلا تقى يدركه عون الله . وتنظيم للعلاقات ،

Marfat.com

واستهداف لما هو أرفع من فورة اللحم والدم فى التقاء الرجل والمرأة ، وإخضاع هذا الالتقاء لشريعة الله ، وللحكمة العليا من خلق الجنسين فى عمارة الأرض وترقية الحياة .

وذكر الله كثيرا : وهو حلقة الاتصال بين نشاط الإنسان كله وعقيدته فى الله . واستشعار القلب لله فى كل لحظة ؛ فلا ينفصل بخاطر ولا حركة عن العروة الوثقى . وإشراق القلب ببشاشة الذكر ، الذى يسكب فيه النور والحياة .

هؤلاء الذين تتجمع فيهم هذه الصفات ، المتعاونة فى بناء الشخصية المسلمة الكاملة . . هؤلاء « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

وهكذا يعمم النص فى الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما ، بعد ما خصص نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أول هذا الشوط من السورة . وتذكر المرأة فى الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام فى رفع قيمة المرأة ، وترقية النظرة إليها فى المجتمع ، وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ؛ ومن تكاليف هذه العقيدة فى التطهر والعبادة والسلوك القويم فى الحياة . .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ؛ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ؛ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا .

« مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ ، وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ، وَكَفَى بِٱللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَٰكِنْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا » ﴿٤٨﴾

هذا الدرس شوط جديد فى إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامى . وهو يختص ابتداء بإبطال نظام التبنى الذى ورد الحديث عنه فى أول السورة . وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبنى حرمة مطلقة الابن من النسب ؛ وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة . فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة . وسنرى من موقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ! وسنرى كذلك أن التعقيب على الحادث كان تعقيبا طويلا لربط النفوس بالله ولبيان علاقة المسلمين بالله وعلاقتهم بنبيهم ، ووظيفة النبى بينهم .. كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس ، وتطييب القلوب لتقبل أمر الله فى هذا التنظيم بالرضى والتسليم .

ولقد سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الأمر لله ورسوله ، وأنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . مما يوحى كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم المنيفة .

* * *

« وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . .

روى أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ حينما أراد النبى

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة ؛ فيرد الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وكان الموالي [1] ـ وهم الرقيق المحرر ـ طبقة أدنى من طبقة السادة . ومن هؤلاء كان زيد ابن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي تبناه . فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم ، قريبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش ؛ ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه . في أسرته . وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق .

روى ابن كثير في التفسير قال : قال العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » . الآية . وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انطلق ليخطب على فتاه زيد ابن حارثة ـ رضي الله عنه ـ فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضي الله عنها ـ فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بلى فانكحيه » . قالت : يارسول الله . أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا » .. الآية . قالت : قد رضيته لي يارسول الله منكحا ؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم » ! قالت : إذن لا أعصي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أنكحته نفسي !

وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة ـ رضي الله عنه ـ فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... » الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ حين خطبها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مولاه زيد ابن حارثة ـ رضي الله عنه ـ فامتنعت ثم أجابت .

وروى ابن كثير في التفسير كذلك رواية أخرى قال : وقال عبد الرحمان ابن زيد ابن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط ـ رضي الله عنها ـ وكانت أول من هاجر

---

(١) قد تطلق هذه الكلمة على غير هذه الطبقة . فقد كانت قبيلة تكون موالي قبيلة ، تنصرها، وتتكافل معها في الديات والتعويضات . على غير معنى الرق والعتق .

Marfat.com

من النساء ـ يعني بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « قد قبلت » . فزوجها زيد ابن حارثة ـ رضي الله عنه ـ (يعني والله أعلم بعد فراقه زينب) فسخطت هي وأخوها ، وقال : إنما أردنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزوجنا عبده ! قال : فنزل القرآن : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا » إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وفي رواية ثالثة : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البناني ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جليبيب [1] امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فنعم إذن » . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فقالت : لاها الله ! إذن ما وجد رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إلا جليبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال : والجارية في سترها تسمع . قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بذلك . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها . وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن كنت قد رضيته فقد رضيناه . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فإني قد رضيته » . قال : فزوجها .. ثم فزع أهل المدينة ، فركب جليبيب ، فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس ـ رضي الله عنه ـ فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة ..

فهذه الروايات ـ إن صحت ـ تعلق هذه الآية بحادث زواج زينب من زيد ـ رضي الله عنهما ـ أو زواجه من أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط .

وقد أثبتنا الرواية الثالثة عن جليبيب لأنها تدل على منطق البيئة الذي توكل الإسلام بتحطيمه ، وتولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تغييره بفعله وسنته . وهو جزء من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس منطق الإسلام الجديد ، وتصوره للقيم في هذه الأرض ، وانطلاق النزعة التحررية القائمة على منهج الإسلام ، المستمدة من روحه المظيم .

ولكن نص الآية أعم من أي حادث خاص . وقد تكون له علاقة كذلك بإبطال آثار التبني ، وإحلال مطلقات الأدعياء ، وحادث زواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من

(١) وهو من الموالي .

Marfat.com

زينب – رضى الله عنها – بعد طلاقها من زيد . الأمر الذى كانت له ضجة عظيمة فى حينه . والذى مازال يتخذه بعض أعداء الإسلام تكأة للطعن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى اليوم ، ويلفقون حوله الأساطير !

وسواء كان سبب نزول الآية ماجاء فى تلك الروايات ، أو كانت بصدد زواج الرسول – صلى الله عليه وسلم – من زينب – رضى الله عنها – فإن القاعدة التى تقررها الآية أعم وأشمل ، وأعمق جدا فى نفوس المسلمين وحياتهم وتصورهم الأصيل .

فهذا المقوّم من مقومات العقيدة هو الذى استقر فى قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقرارا حقيقيا ؛ واستيقنته أنفسهم ، وتكيفت به مشاعرهم .. هذا المقوم يتلخص فى أنه ليس لهم فى أنفسهم شىء ؛ وليس لهم من أمرهم شىء . إنما هم وماملكت أيديهم لله . يصرفهم كيف يشاء ، ويختار لهم مايريد . وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذى يسير وفق الناموس العام . وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ؛ ويقسم لهم دورهم فى رواية الوجود الكبيرة ؛ ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم . وليس لهم أن يختاروا الدور الذى يقومون به ، لأنهم لايعرفون الرواية كاملة ؛ وليس لهم أن يختاروا الحركة التى يحبونها لأن مايحبونه قد لايستقيم مع الدور الذى خصص لهم ! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولاالمسرح ؛ وإن هم إلا أجراء ، لهم أجرهم على العمل ، وليس لهم ولاعليهم فى النتيجة !

عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله . أسلموها بكل مافيها ؛ فلم يعد لهم منها شىء . وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله ؛ واستقامت حركاتهم مع دورته العامة ؛ وساروا فى فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم فى أفلاكها ، لاتحاول أن تخرج عنها ، ولا أن تسرع أو تبطئ فى دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله .

وعندئذ رضيت نفوسهم بكل مايأتى به قدر الله، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذى يصرف كل شىء ، وكل أحد ، وكل حادث ، وكل حالة . واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة .

وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم ، ولابالجزع الذى يعالج بالتجمل ؛ أو بالألم الذى يعالج بالصبر . إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف فى حسه ، معروف فى ضميره ، ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولاغرابة !

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمراً هم يريدون قضاءه ، ولم يعودوا

Marfat.com

يستبطئون الأحداث لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه ، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها ! إنما ساروا فى طريقهم مع قدر الله ، ينتهى بهم إلى حيث ينتهى ، وهم راضون مستروحون ، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال فى غير عجلة ولا ضيق ، وفى غير من ولا غرور ، وفى غير حسرة ولا أسف . وهم على يقين أنهم يفعلون ماقدر الله لهم أن يفعلوه ؛ وأن مايريده الله هو الذى يكون ، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم .

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ؛ وهم مطمئنون لليد التى تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين ، سائرون معها فى بساطة ويسر ولين .

وهم - مع هذا - يعملون مايقدرون عليه ، ويبذلون مايملكون كله ، ولا يضيعون وقتا ولا جهدا ، ولايتركون حيلة ولا وسيلة . ثم لايتكلفون مالا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم ومافيها من خصائص ، ومن ضعف وقوة ؛ ولايدعون مالا يجدونه فى أنفسهم من مشاعر وطاقات ، ولايحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ولا أن يقولوا غير مايفعلون .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل مافى الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون .. هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها ؛ وهى التى أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التى تنوء بالجبال !

واستقرار ذلك المقوم الأول فى أعماق الضمائر هو الذى كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التى حققتها فى حياتها الخاصة ، وفى حياة المجتمع الإنسانى إذ ذاك . وهو الذى جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك ، وخطوات الزمان ، ولا تحتك بها أو تصطدم ، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام . وهو الذى بارك تلك الجهود ، فإذا هى تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير المعظم فى فترة قصيرة من الزمان .

ولقد كان ذلك التحول فى نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود ، وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود . كان هذا التحول فى تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التى لا يقدر عليها بشر ؛ إنما تتم بإرادة الله المباشرة التى أنشأت الأرض والسماوات ، والكواكب والأفلاك؛ ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهى الخاص .

وإلى هذه الحقيقة تشير هذه الآيات الكثيرة فى القرآن .. حيث يقول الله تبارك وتعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . . أو يقول : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » . . أو يقول : « إن الهدى هدى الله » . . فذلك هو الهدى

Marfat.com

بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع . هدى الإنسان إلى مكانه فى هيكل هـذا الوجود ؛ وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود .

ولن يؤتى الجهد كامل ثماره إلا حـين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه ؛ وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود ؛ ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذى لايكون فى الوجود أمر إلا وفق مقتضاه .

ومن هـذا البيان يتجلى أن هذا النص القرآنى : « وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . أشمـل وأوسع وأبعد مدى من أى حادث خاص يكون قد نزل فيه . وأنه يقرر كلية أساسية . أو الكلية الأساسية . فى منهج الإسلام !

* * *

ثم يجىء الحديث عن حادث زواج النبى – صلى الله عليه وسلم – من زينب بنت جحش ، وماسبقه وماتلاه من أحكام وتوجيهات :

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ؛ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا . ماكان على النبى من حرج فيما فرض الله له . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله . وكفى بالله حسيبا . ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » ..

مضى فى أول السورة إبطال تقليد التبنى ؛ ورد الأدعياء إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم . ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ... » .

ولكن نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ؛ ولم يكن إبطال هـذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته . فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرا فى النفوس . ولابد من سوابق عملية مضادة . ولابد أن تستقبل

Marfat.com

هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ؛ وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين .

وقد مضى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوج زيد ابن حارثة ـ الذى كان متبناه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ثم دعى إلى أبيه ـ من زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، ويحقق معنى قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك ـ فيما يحمل من أعباء الرسالة ـ مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد ابن حارثة . ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذى لايستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى فى ذاتها !

وألهم الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن زيدا سيطلق زينب ؛ وأنه هو سيتزوجها ، للحكمة التى قضى الله بها . وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلا .

وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اضطراب حياته مع زينب ؛ وعدم استطاعته المضى معها . والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية ـ يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ؛ ويتردد فى مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق ؛ فيقول لزيد (الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله وبحب الرسول له ، ذلك الحب الذى يتقدم به فى قلبه على كل أحد بلا استثناء . والذى أنعم عليه الرسول بالعتق والتربية والحب) .. يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .. ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس . كما قال الله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ! » .. وهذا الذى أخفاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به . حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب ، فيما سيكون بعد . لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها . ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زواج النبى بها فيما

Marfat.com

بعد هو الذى قرر هذه القاعدة . بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا مايهدم كل الروايات التى رويت عنهذا الحادث ؛ والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات !

إنما كان الأمر كما قال الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . . وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما حمل ؛ وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية . حتى ليتردد فى مواجهته بها وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء ؛ وتخطئة الآباء والأجداد !

« وكان أمر الله مفعولا » . . لامرد له ، ولا مفر منه . واقعا محققا لاسبيل إلى تخلفه ولا إلى الحيدة عنه .

وكان زواجه - صلى الله عليه وسلم - من زينب - رضى الله عنها - بعد انقضاء عدتها . أرسل إليها زيدا زوجها السابق . وأحب خلق الله إليه . أرسله إليها ليخطبها عليه .

عن أنس - رضى الله عنه - قال : لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لزيد ابن حارثة . « اذهب فاذكرها علىّ » فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكرها ! فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى ، وقلت : يازينب . أبشرى . أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليها بغير إذن (١) ...

وقد روى البخارى - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : إن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله - تعالى - من فوق سبع سماوات .

ولم تمر المسألة سهلة ، فلقد فوجئ بها المجتمع الإسلامى كله ؛ كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه !

---

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم والنسائى من طرق عن سليمان ابن المغيرة ..

Marfat.com

ولما كانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن يؤكدها ؛ ويزيل عنصر الغرابة فيها ، ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية :

« ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » . .

فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يبطل عادة العرب فى تحريم أزواج الأدعياء . وإذن فلا حرج فى هذا الأمر ، وليس النبي – صلى الله عليه وسلم – فيه بدعا من الرسل .

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل » . .

فهو أمر يمضى وفق سنة الله التى لاتتبدل . والتى تتعلق بحقائق الأشياء ، لابما يحوطها من تصورات وتقاليد مصطنعة لاتقوم على أساس .

« وكان أمر الله قدرا مقدورا » . .

فهو نافذ مفعول ، لايقف فى وجهه شيء ولاأحد . وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن ، منظور فيه إلى الغاية التى يريدها الله منه . ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها . وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عمليا ، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية . ولم يكن بد من نفاذ أمر الله .

وسنة الله هذه قد مضت فى الذين خلوا من قبل من الرسل :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله » . .

فلا يحسبون للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ، ولا يخشون أحدا إلا الله الذى أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ .

« وكفى بالله حسيبا » . .

فهو وحده الذى يحاسبهم ، وليس للناس عليهم من حساب .

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » فزينب ليست حليلة ابنه ، وزيد ليس ابن محمد . إنما هو ابن حارثة . ولا حرج إذن فى الأمر حين ينظر إليه بعين الحقيقة الواقعة .

والعلاقة بين محمد – صلى الله عليه وسلم – وبين جميع المسلمين – ومنهم زيد ابن حارثة – هى علاقة النبي بقومه ، وليس هو أبا لأحد منهم :

« ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . .

Marfat.com

ومن ثم فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها البشرية ؛ وفق آخر رسالة السماء إلى الأرض ، التي لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير .

« وكان الله بكل شيء عليما » . .

فهو الذي يعلم مايصلح لهذه البشرية ، وما يصلحها ؛ وهو الذي فرض على النبي مافرض ، واختار له ما اختار . ليحل للناس أزواج أدعيائهم ، إذا ماقضوا منهن وطرا ، وانتهت حاجتهم منهن ، وأطلقوا سراحهن .. قضى الله هذا وفق علمه بكل شيء . ومعرفته بالأصلح والأوفق من النظم والشرائع والقوانين ؛ ووفق رحمته وخيره للمؤمنين .

* * *

ثم يمضي السياق القرآني في ربط القلوب بهذا المعنى الأخير ، ووصلهم بالله الذي فرض على رسوله مافرض ، واختار للأمة المسلمة ما اختار ؛ يريد بها الخير ، والخروج من الظلمات إلى النور :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام . وأعد لهم أجرا كريما » . .

وذكر الله اتصال القلب به ، والاشتغال بمراقبته ؛ وليس هو مجرد تحريك اللسان . وإقامة الصلاة ذكر لله . بل إنه وردت آثار تكاد تخصص الذكر بالصلاة :

روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش عن الأغر أبي مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين ، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » . .

وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة . فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه ، ويتصل به قلبه . سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر . والمقصود هو الاتصال المحرك الموحى على أية حال .

وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به . فإذا هو مليء جاد ، قار ، يعرف طريقه ، ويعرف منهجه ، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه !

ومن هنا يحض القرآن كثيرا ، وتحض السنة كثيرا ، على ذكر الله . ويربط القرآن بين

Marfat.com

هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان ، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى :

« وسبحوه بكرة وأصيلا » ..

وفي البكرة والأصيل خاصة ما يستجيش القلوب إلى الاتصال بالله ، مغير الأحوال ، ومبدل الظلال ؛ وهو باق لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يحول ولا يزول . وكل شيء سواه يتغير ويتبدل ، ويدركه التحول والزوال .

وإلى جانب الأمر بذكر الله وتسبيحه ، إشعار القلوب برحمة الله ورعايته ، وعنايته بأمر الخلق وإرادة الخير لهم ؛ وهو الغني عنهم ، وهم الفقراء المحاويج ، لرعايته وفضله :

« هو الذي يصلي عليكم وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وكان بالمؤمنين رحيما » ..

وتعالى الله ، وجلت نعمته ، وعظم فضله ، وتضاعفت منته ؛ وهو يذكر هؤلاء العباد الضعاف المحاويج الفانين ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا بقاء لهم ولا قرار . يذكرهم ، ويعني بهم ، ويصلي عليهم هو وملائكته ، ويذكرهم بالخير في الملأ الأعلى فيتجاوب الوجود كله بذكرهم ، كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه (١) » ..

ألا إنها لعظيمة لا يكاد الإدراك يتصورها . وهو يعلم أن هذه الأرض ومن عليها وما عليها إن هي إلا ذرة صغيرة زهيدة بالقياس إلى تلك الأفلاك الهائلة . وما الأفلاك وما فيها ومن فيها إلا بعض ملك الله الذي قال له : كن . فكان !

« هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » ..

ونور الله واحد متصل شامل ؛ وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف . وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات ، أو في الظلمات مجتمعة ؛ وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم ، ويغمر أرواحهم ، ويهديهم إلى فطرتهم . وهي فطرة هذا الوجود . ورحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم ، هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان : « وكان بالمؤمنين رحيما » ..

---

(١) أخرجه البخاري .

Marfat.com

ذلك أمرهم فى الدنيا دار العمل . فأما أمرهم فى الآخرة دار الجزاء ، فإن فضل الله لايتخلى عنهم ، ورحمته لاتتركهم ؛ ولهم فيها الكرامة والحفاوة والأجر الكريم :

« تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما » ..

سلام من كل خوف ، ومن كل تعب ، ومن كل كد .. سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة . وهم يدخلون عليهم من كل باب ، يبلغونهم التحية العلوية . إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم .. فياله من تكريم !

فهذا هو ربهم الذى يشرع لهم ويختار . فمن ذا الذى يكره هذا الاختيار ؟ !

* * *

فأما النبى الذى يبلغهم اختيار الله لهم ؛ ويحقق بسنته العملية ما اختاره الله وشرعه للعباد ، فيلتفت السياق التفاتة كذلك إلى بيان وظيفته وفضله على المؤمنين فى هذا المقام :

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » ..

فوظيفة النبى — صلى الله عليه وسلم — فيهم أن يكون « شاهدا » عليهم ؛ فليعملوا بما يحسن هذه الشهادة التى لاتكذب ولاتزور ، ولاتبدل ، ولاتغير . وأن يكون « مبشرا» لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران ، ومن فضل وتكريم . وأن يكون « نذيرا » للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال ، فلا يؤخذوا على غرة ، ولايعذبوا إلا بعد إنذار . « وداعيا إلى الله» .. لا إلى دنيا ، ولا إلى مجد ، ولا إلى عزة قومية ، ولا إلى عصبية جاهلية ، ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطان أو جاه . ولكن داعيا إلى الله . فى طريق واحد يصل إلى الله « بإذنه» .. فما هو بمبتدع ، ولا بمتطوع ، ولا بقائل من عنده شيئا . إنما هو إذن الله له وأمره لايتعداه . « وسراجا منيرا » .. يجلو الظلمات ، ويكشف الشبهات ، وينير الطريق ، نورا هادئا هاديا كالسراج المنير فى الظلمات .

وهكذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وماجاء به من النور . جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود ، ولعلاقة الوجود بالخالق ، ولمكان الكائن الإنسانى من هذا الوجود وخالقه ، وللقيم التى يقوم عليها الوجود كله ، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه ؛ وللمنشأ والمصير ، والهدف والغاية ، والطريق والوسيلة . فى قول فصل لاشبهة فيه ولا غموض .

Marfat.com

وفي أسلوب يخاطب الفطرة خطابا مباشرا وينفذ إليها من أقرب السبل وأوسع الأبواب وأعمق المسالك والدروب!

ويكرر ويفصل في وظيفة الرسول مسألة تبشير المؤمنين: «وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» .. بعدما أجملها في قوله: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» .. زيادة في بيان فضل الله ومنته على المؤمنين، الذين يشرع لهم على يدي هذا النبي، مايؤول بهم إلى البشرى والفضل الكبير.

وينهي هذا الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - بألا يطيع الكافرين والمنافقين، وألا يحفل أذاهم له وللمؤمنين، وأن يتوكل على الله وحده وهو بنصره كفيل:

«ولا تطع الكافرين والمنافقين، ودع أذاهم، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» ..

وهو ذات الخطاب الوارد في أول السورة، قبل ابتداء التشريع والتوجيه، والتنظيم الاجتماعي الجديد. بزيادة توجيه النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا يحفل أذى الكافرين والمنافقين؛ وألا يتقيه بطاعتهم في شيء أو الاعتماد عليهم في شيء. فالله وحده هو الوكيل «وكفى بالله وكيلا» ..

* * *

وهكذا يطول التقديم والتعقيب على حادث زينب وزيد، وإحلال أزواج الأدعياء، والمثل الواقعي الذي كلفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يشي بصعوبة هذا الأمر، وحاجة النفوس فيه إلى تثبيت الله وبيانه، وإلى الصلة بالله والشعور بما في توجيهه من رحمة ورعاية. كي تتلقى ذلك الأمر بالرضى والقبول والتسليم ..

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ، فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49)

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ، وَبَنَاتِ

Marfat.com

خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ، إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ، خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ ؛ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ؛ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ . إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ؛ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً * إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَائِهِنَّ ، وَلَا إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ، وَلَا نِسَائِهِنَّ ، وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ؛ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً .

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً .

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » ﴿٦٢﴾

هذا الشوط من السورة يتضمن فى أوله حكما عاما من أحكام القرآن التشريعية فى تنظيم شؤون الأسرة . ذلك حكم المطلقات قبل الدخول . يجيء بعده أحكام خاصة لتنظيم حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - حياته الزوجية الخاصة مع نسائه وعلاقات نسائه كذلك ببقية الرجال ، وعلاقة المسلمين ببيت الرسول . وكرامة الرسول وبيته على الله وعلى ملائكته والملأ الأعلى .. وينتهى بحكم عام يشترك فيه نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين ، يأمرهن فيه بإرخاء جلابيبهن عند الخروج لقضاء الحاجة حتى يتميزن بهذا الزى السابغ ويعرفن ، فلا يتعرض لهن ذوو السيرة السيئة من المنافقين والمرجفين والفساق الذين كانوا يتعرضون للنساء فى المدينة ! ويختم بتهديد هؤلاء المنافقين والمرجفين بالإجلاء عن المدينة مالم ينتهوا عن إيذاء المؤمنات وإشاعة الفساد ..

وهذه التشريعات والتوجيهات طرف من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامى . فأما ما يختص بحياة الرسول الشخصية ، فقد شاء الله أن يجعل حياة هذا البيت صفحة معروضة للأجيال ، فضمنها هذا القرآن الباقى ، المتلو فى كل زمان ومكان ؛ وهى فى الوقت ذاته آية تكريم الله - سبحانه - لهذا البيت ، الذى يتولى بذاته العلية أمره ، ويعرضه للبشرية كافة فى قرآنه الخالد على الزمان ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » ..

ولقد سبق فى سورة البقرة بيان حكم المطلقات قبل الدخول فى قوله تعالى :

« لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أوتفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على

Marfat.com

الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف حقا على المتقين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح . وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير » ..

فالمطلقة قبل الدخول إن كان قد فرض لها مهر ، فلها نصف ذلك المهر المسمى . وإن لم يذكر لها مهر فلها متاع يتبع قدرة المطلق سعة وضيقا . . وقد زاد هنا فى آية الأحزاب بيان حكم العدة لهذه المطلقة وهو مالم يذكر فى آيتى البقرة . فقرر أن لاعدة عليها . إذ أنه لم يكن دخول بها . والعدة إنما هى استبراء للرحم من الحمل ، وتأكد من أنها خالية من آثار الزواج السابق ، كى لاتختلط الأنساب ، ولا ينسب إلى رجل ماليس منه ، ويسلب رجل ما هو منه فى رحم المطلقة . فأما فى حالة عدم الدخول فالرحم بريئة ، ولا عدة إذن ولا انتظار : « فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » . . « فمتعوهن » إن كان هناك مهر مسمى فبنصف هذا المهر ، وإن لم يكن فمتاع مطلق يتبع حالة الزوج المالية . « وسرحوهن سراحا جميلا » .. لاعضل فيه ولا أذى . ولاتعنت ولارغبة فى تعويقهن عن استئناف حياة أخرى جديدة .

وهذا حكم عام جاء فى سياق السورة فى صدد تنظيم الحياة العامة للجماعة المسلمة .

* * *

بعد ذلك يبين الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايحل له من النساء ، وما فى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعدما نزلت آية سورة النساء التى تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعا : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . .

وكان فى عصمة النبى فى هذا الوقت تسع نساء ، تزوج بكل منهن لمعنى خاص . عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبى بكر وعمر . وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتى فقدن أزواجهن وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكريمهن ، ولم يكن ذوات جمال ولاشباب ، إنما كان معنى التكريم لهن خالصا فى هذا الزواج . وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها ، وقد كان هناك تعويض لها كذلك عن طلاقها من زيد الذى زوجها رسول الله منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى ، وعرفناه فى قصتها . ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى ابن أخطب . وكانتا من السبى فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، توثيقا لعلاقته بالقبائل ، وتكريما لهما ، وقد أسلمتا بعدما نزل بأهلهما من الشدة .

Marfat.com

وكن قد أصبحن « أمهات المؤمنين » ونلن شرف القرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتي التخيير . فكان صعبا على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء . وقد نظر الله إليهن ، فاستثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك القيد ، وأحل له استبقاء نسائه جميعا في عصمته ، وجعلهن كلهن حلا له ، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحدا ، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى . فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتي ارتبطن به وحدهن ، كي لا يحرمن شرف النسبة إليه ، بعدما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .. وحول هذه المبادئ تدور هذه الآيات :

«يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ، لكي لا يكون عليك حرج ، وكان الله غفورا رحيما . ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن - إلا ما ملكت يمينك - وكان الله على كل شيء رقيبا » ..

ففي الآية يحل الله للنبي - صلى الله عليه وسلم - أنواع النساء المذكورات فيها - ولو كن فوق الأربع - مما هو محرم على غيره . وهذه الأنواع هي : الأزواج اللواتي أمهرهن . وما ملكت يمينه إطلاقا من الفيء ، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرن - إكراما للمهاجرات - وأيما امرأة وهبت نفسها للنبي بلا مهر ولا ولي . إن أراد النبي نكاحها (وقد تضاربت الروايات حول ما إذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد تزوج واحدة من هذا الصنف من النساء أم لم يتزوج ، والأرجح أنه زوّج اللواتي عرضن أنفسهن عليه من رجال آخرين) وقد جعل الله هذه خصوصية للنبي - صلى الله عليه وسلم - بما أنه ولي المؤمنين والمؤمنات جميعا . فأما الآخرون فهم خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم . ذلك كي لا يكون على النبي حرج في استبقاء أزواجه وفي الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه .

ثم ترك الخيار له - صلى الله عليه وسلم - في أن يضم إلى عصمته من شاء ممن يعرضن أنفسهن

Marfat.com

عليه ، أو يؤجل ذلك . ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء .. وله أن يباشر من نسائه من يريد ويرجىء من يريد . ثم يعود .. « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » . فهي مراعاة الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرغبات الموجهة إليه ، والحرص على شرف الاتصال به ، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه . « والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما » .

ثم أنزل الله تحريم من عدا نسائه اللواتى فى عصمته فعلا ، لا من ناحية العدد ، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن ؛ ولم يعرف أن رسول الله قد زاد عليهن قبل التحريم :

« لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج - ولو أعجبك حسنهن » لا يستثنى من ذلك - « إلا ماملكت يمينك » .. فله منهن مايشاء .. « وكان الله على كل شيء رقيبا » .. والأمر موكول إلى هذه الرقابة واستقرارها فى القلوب .

وقد روت عائشة - رضى الله عنها - أن هذا التحريم قد ألغى قبل وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وترك له حرية الزواج . ولكنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة . فكن هن أمهات المؤمنين ..

* * *

بعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبى - صلى الله عليه وسلم - وبنسائه - أمهات المؤمنين - فى حياته وبعد وفاته كذلك . ويواجه حالة كانت واقعة ، إذ كان بعض المنافقين والذين فى قلوبهم مرض يؤذون النبى - صلى الله عليه وسلم - فى بيوته وفى نسائه . فيحذرهم تحذيرا شديدا ، ويريهم شناعة جرمهم عند الله وبشاعته . ويهددهم بعلم الله لما يخفون فى صدورهم من كيد وشر :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام - غير ناظرين إناه - ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا . ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما » ..

روى البخارى - بإسناده - عن أنس ابن مالك قال : بنى النبى - صلى الله عليه وسلم -

Marfat.com

بزينب بنت جحش بخبز ولحم . فأرسلت على الطعام داعيا . فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه . فقلت : يارسول الله ما أجد أحدا أدعوه . قال : « ارفعوا طعامكم » . وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت . فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق إلى حجرة عائشة - رضي الله عنها - فقال : « السلام عليكم - أهل البيت - ورحمة الله وبركاته » . قالت : وعليك السلام ورحمة الله . كيف وجدت أهلك يارسول الله ؟ بارك الله لك . فتقرى حجر نسائه ،كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن كما قالت عائشة . ثم رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون . وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - شديد الحياء . فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة . فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا . فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه ، أرخى الستر بيني وبينه ، وأنزلت آية الحجاب .

والآية تتضمن آدابا لم تكن تعرفها الجاهلية في دخول البيوت ، حتى بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها - كما جاء في شرح آيات سورة النور الخاصة بالاستئذان - وربما كان هذا الحال أظهر في بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم بعد أن أصبحت هذه البيوت مهبط العلم والحكمة . وكان بعضهم يدخل وحين يرى طعاما يوقد عليه يجلس في انتظار نضج هذا الطعام ليأكل بدون دعوة إلى الطعام ! وكان بعضهم يجلس بعد الطعام - سواء كان قد دعى إليه أوهجم هو عليه دون دعوة - ويأخذ في الحديث والسمر غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأهله . وفي رواية أن أولئك الثلاثة الرهط الذين كانوا يسمرون كانوا يفعلون هذا وعروس النبي - زينب بنت جحش - جالسة وجهها إلى الحائط ! والنبي - صلى الله عليه وسلم - يستحي أن ينبههم إلى ثقلة مقامهم عنده حياء منه، ورغبة في ألا يواجه زواره بما يخجلهم ! حتى تولى الله - سبحانه - عنه الجهر بالحق « والله لا يستحي من الحق » .

ومما يذكر أن عمر - رضي الله عنه - بحساسيته المرهفة كان يقترح على النبي - صلى الله عليه وسلم - الحجاب ؛ وكان يتمناه على ربه . حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيبا لحساسيته .

من رواية للبخاري - بإسناده - عن أنس ابن مالك . قال : قال عمر ابن الخطاب : يارسول الله . يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله آية الحجاب ... »

Marfat.com

وجاءت هذه الآية تعلم الناس ألا يدخلوا بيوت النبي بغير إذن . فإذا دعوا إلى الطعام دخلوا . فأما إذا لم يدعوا فلا يدخلون يرتقبون نضجه ! ثم إذا طعموا خرجوا ، ولم يبقوا بعد الطعام للسمر والأخذ بأطراف الحديث . . وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذى يجافيه الكثيرون . فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده ، بل إنهم ليتخلفون على المائدة ، ويطول بهم الحديث ؛ وأهل البيت ـ الذين يحتفظون بقية من أمر الإسلام بالاحتجاب ـ متأذون محتبسون ، والأضياف ماضون فى حديثهم وفى سمرهم لايشعرون ! وفى الأدب الإسلامى غناء وكفاء لكل حالة ، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهى القويم .

ثم تقرر الآية الحجاب بين نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرجال :

« وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » . .

وتقرر أن هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع :

« ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . .

فلا يقل أحد غير ماقال الله . لايقل أحد إن الاختلاط ، وإزالة الحجب ، والترخص فى الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب ، وأعف للضمائر ، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك . . . إلى آخر مايقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين . لايقل أحد شيئا من هذا والله يقول : « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . . يقول هذا عن نساء النبى الطاهرات . أمهات المؤمنين . وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق ! وحين يقول الله قولا . ويقول خلق من خلقه قولا . فالقول لله ـ سبحانه ـ وكل قول آخر هراء ، لايردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقى الذى خلق هؤلاء العبيد !

والواقع العملى الملموس يهتف بصدق الله ، وكذب المدعين غير مايقوله الله . والتجارب المعروضة اليوم فى العالم مصدقة لما نقول . وهى فى البلاد التى بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر فى هذا وأقطع من كل دليل . (وأمريكا أول هذه البلاد التى آتى الاختلاط فيها أبشع الثمار) (١)

---

(١) راجع بتوسع فصل « سلام البيت » فى كتاب : « السلام العالمى والإسلام » . .

Marfat.com

وقد ذكرت الآية أن مجيئهم للطعام منتظرين نضجه من غير دعوة ؛ وبقاءهم بعد الطعام مستأنسين الحديث .. كان يؤذي النبي فيستحي منهم . وفي ختامها تقرر أنه ما يكون للمسلمين أن يؤذوا رسول الله . وكذلك ما يكون لهم أن يتزوجوا أزواجه من بعده ؛ وهن بمنزلة أمهاتهم . ومكانهن الخاص من رسول الله يحرم أن ينكحهن أحد من بعده ، احتفاظا بحرمة هذا البيت وجلاله وتفرده :

« وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » . .

وقد ورد أن بعض المنافقين قال : إنه ينتظر أن يتزوج من عائشة !

« إن ذلكم كان عند الله عظيما » . .

وما أهول ما يكون عند الله عظيما !

ولا يقف السياق عند هذا الإنذار الهائل ، بل يستطرد إلى تهديد آخر هائل :

« إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شيء عليما » . .

وإذن فالله هو الذي يتولى الأمر . وهو عالم بما يبدو وما يخفى . مطلع على كل تفكير وكل تدبير . والأمر عنده عظيم . ومن شاء فليتعرض . فإنما يتعرض لبأس الله الساحق الهائل العظيم .

وبعد الإنذار والتهديد يعود السياق إلى استثناء بعض المحارم الذين لاحرج على نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - في أن يظهرن عليهم :

« لاجناح عليهن في آبائهن ، ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ،ولا نسائهن، ولا ما ملكت أيمانهن . واتقين الله . إن الله كان على كل شيء شهيدا » . .

وهؤلاء المحارم هم الذين أبيح لنساء المسلمين عامة أن يظهرن عليهم . . ولم أستطع أن أتحقق أي الآيات كان أسبق في النزول ؛ الآية الخاصة بنساء النبي - صلى الله عليه وسلم - هنا، أم الآية العامة لنساء المسلمين جميعا في سورة النور . والأرجح أن الأمر كان خاصا بنساء النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم عمم . فذلك هو الأقرب إلى طبيعة التكليف .

ولا يفوتنا أن نلحظ هذا التوجيه إلى تقوى الله ، والإشارة إلى اطلاعه على كل شيء : « واتقين الله ، إن الله كان على كل شيء شهيدا » . فالإيحاء بالتقوى ومراقبة الله يطرد في مثل هذه المواضع ، لأن التقوى هي الضمان الأول والأخير ، وهي الرقيب اليقظ الساهر على القلوب.

* * *

Marfat.com

ويستمر السياق في تحذير الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم - في نفسه أو في أهله ؛ وفي تفظيع الفعلة التي يقدمون عليها .. وذلك عن طريقين : الطريق الأولى تمجيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبيان مكانته عند ربه وفي الملأ الأعلى . والطريق الثانية تقرير أن إيذاءه إيذاء لله - سبحانه - وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته في الدنيا والآخرة ، والعذاب الذي يناسب الفعلة الشنيعة :

« إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا » ..

وصلاة الله على النبي ذكره بالثناء في الملأ الأعلى ؛ وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى . . ويالها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه ؛ ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه . ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدي الباقي . وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم . وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه ، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم ؛ إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته وتسليمهم إلى تسليمه ؛ وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم الأزلي القديم .

وفي ظل هذا التمجيد الإلهي يبدو إيذاء الناس للنبي - صلى الله عليه وسلم - بشعا شنيعا ملعونا قبيحا : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا » . . ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخاليقه . وهم لايبلغون أن يؤذوا الله . إنما هذا التعبير يصور الحساسية بإيذاء رسوله ، وكأنما هو إيذاء لذاته جل وعلا . فما أفظع ! وما أبشع ! وما أشنع !

ويستطرد كذلك إلى إيذاء المؤمنين والمؤمنات عامة . إيذاؤهم كذبا وبهتانا ، بنسبة ماليس فيهم إليهم من النقائص والعيوب :

«والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » ..

وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومئذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر قالة السوء عنهم ، وتدبير المؤامرات لهم ، وإشاعة التهم ضدهم . وهو عام في كل زمان وفي كل مكان . والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار المنحرفين،

Marfat.com

والمنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض . والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد ، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان . وهو أصدق القائلين .

* * *

ثم أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة – إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ورؤوسهن وجيوبهن – وهى فتحة الصدر من الثوب – بجلباب كاس . فيميزهن هذا الزى ، ويجعلهن فى مأمن من معابثة الفساق . فإن معرفتهن وحشمتهن معا تلقيان الخجل والتحرج فى نفوس الذين كانوا يتتبعون النساء لمعابثتهن :

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . وكان الله غفورا رحيما » ..

قال السدى فى هذه الآية : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء . وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطريق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن . فإذا رأوا المرأة عليها جلباب . قالوا : هذه حرة . فكفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا : هذه أمة فوثبوا عليها ..

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . وقوله تعالى : « وكان الله غفورا رحيما » أى لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ومن ذلك نرى الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية ، والتوجيه المطرد لإزالة كل أسباب الفتنة والفوضى ، وحصرها فى أضيق نطاق ، ريثما تسيطر التقاليد الإسلامية على الجماعة كلها وتحكمها .

* * *

وفى النهاية يأتى تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة فى صفوف الجماعة المسلمة .. تهديدهم القوى الحاسم ، بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله ، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، والجماعة المسلمة كلها ، أن يسلط الله عليهم نبيه ، كما سلطه على اليهود من قبل ، فيطهر منهم جو المدينة ، ويطاردهم من الأرض ؛ ويبيح دمهم حيثما وجدوا أخذوا وقتلوا . كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبى – صلى الله عليه وسلم – وغير اليهود من المفسدين فى الأرض فى القرون الخالية :

Marfat.com

« لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا ؛ ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

ومن هذا التهديد الحاسم ندرك مدى قوة المسلمين فى المدينة بعد بنى قريظة ، ومدى سيطرة الدولة الإسلامية عليها . وانزواء المنافقين إلا فيما يدبرونه من كيد خفى ، لايقدرون على الظهور ؛ إلا وهم مهددون خائفون .

« يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ . قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ⁽⁶³⁾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ، يَقُولُونَ : يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا * وَقَالُوا : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ، فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ، وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ، فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؛ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

« إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ ، وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » ⁽⁷³⁾

فى هذا الدرس الأخير من السورة حديث عن سؤال الناس عن الساعة ، واستعجالهم بها ،

Marfat.com

وشكهم فيها . وجواب عن هذا السؤال يدع أمرها إلى الله ، مع تحذيرهم من قربها ، واحتمال أن تأخذهم على غرة أخذا سريعا . ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الساعة لايسر المستعجلين بها ، يوم تقلب وجوهم فى النار . ويوم يندمون على عدم طاعة الله ورسوله . ويوم يطلبون لسادتهم وكبرائهم ضعفين من العذاب . وهو مشهد مفجع لايستعجل به مستعجل . . ثم يعود بهم من هذا المشهد فى الآخرة إلى هذه الأرض مرة أخرى ! يعود ليحذر الذين آمنوا أن يكونوا كقوم موسى الذين آذوه واتهموه فبرأه الله مما قالوا ـ ويبدو أن هذا كان ردا على أمر واقع . ربما كان هو حديث بعضهم عن زواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بزينب ، ومخالفته لمألوف العرب ـ ويدعو المؤمنين أن يقولوا قولا سديدا بعيدا عن اللمز والعيب . ليصلح الله لهم أعمالهم ويغفر لهم ذنوبهم . ويحببهم فى طاعة الله ورسوله ويعدهم عليها الفوز العظيم .

ويختم السورة بالإيقاع الهائل العميق . عن الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال ، وحملها الإنسان ، وهى ضخمة هائلة ساحقة . ذلك ليتم تدبير الله فى ترتيب الجزاء على العمل ، ومحاسبة الإنسان على مارضى لنفسه واختار : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » . .

* * *

« يسألك الناس عن الساعة . قل : إنما علمها عند الله . وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » . .

وقد كانوا ما يفتأون يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة التى حدثهم عنها طويلا ؛ وخوفهم بها طويلا ؛ ووصف القرآن مشاهدها حتى لكأن قارئه يراها . يسألونه عن موعدها ؛ ويستعجلون هذا الموعد ؛ ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، أو السخرية منها ، بحسب النفوس السائلة ، وقربها من الإيمان أو بعدها .

والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه احدا من خلقه جميعا ، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون . وفى حديث حقيقة الإيمان والإسلام : عن عبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : حدثنى أبى عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولايعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ؛ وقال : يامحمد

Marfat.com

أخبرنى عن الإسلام . فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ! فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ! قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ... الخ . ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم[1] » .

فالمسؤول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والسائل — جبريل عليه السلام — كلاهما لا يعلم علم الساعة ؛ « قل : إنما علمها عند الله » .. على وجه الاختصاص والتفرد من دون عباد الله .

قدر الله هذا لحكمة يعلمها ، نلمح طرفا منها ، فى ترك الناس على حذر من أمرها ، وفى توقع دائم لها ، وفى استعداد مستمر لفجأتها . ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون فى كل لحظة على أهبة للقائها ، فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار . وقد بين الله لهم وحذرهم وأنذرهم ؛ وجعل الساعة غيبا مجهولا متوقعا فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » . .

* * *

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » ..

إنهم يسألون عن الساعة . فهذا مشهد من مشاهد الساعة :

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا » . .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيأ لهم نارا مسعرة متوقدة ، فهى معدة جاهزة حاضرة .

« خالدين فيها أبدا » ..

باقين فيها عهدا طويلا ، لا يعلم مداه إلا الله ؛ ولا نهاية له إلا فى علم الله ، حيث يشاء الله .

---

(١) أخرجه مسلم وأبوداود والترمذى والنسائى .

Marfat.com

وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير :

« لايجدون وليا ولا نصيرا » . .

أما مشهدهم في هذا العذاب فهو مشهد بائس أليم :

« يوم تقلب وجوههم في النار » ..

والنار تغشاهم من كل جهة ، فالتعبير على هـذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها ، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال !

« يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » ..

وهي أمنية ضائعة ، لاموضع لها ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنمـا هي الحسرة على ما كان !

ثم تنطلق من نفوسهم النقمة على سادتهم وكبرائهم ، الذين أضلوهم ، وبالإنابة إلى الله وحده ، حيث لاتنفع الإنابة :

« وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » ..

هذه هي الساعة . ففيم السؤال عنها ؟ إن العمل لها هو المخلص الوحيد من هـذا المصير المشؤوم فيها !

* * *

ويبدو أن زواج الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ من زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ مخالفا في ذلك عرف الجاهلية الذي تعمد الإسلام أن يبطله بهذه السابقة العملية . يبدو أن هذا الزواج لم يمـر بسهولة ويسر ؛ وأنه قد انطلقت ألسنة كثيرة من المنافقين ومرضى القلوب ، وغير المتثبتين الذين لم يتضح في نفوسهم التصور الإسلامي الناصع البسيط ، انطلقت تغمز وتلمز ، وتؤول وتعترض ، وتهمس وتوسوس . وتقول قولا عظيما !

والمنافقون والمرجفون لم يكونوا يسكتون . فقد كانوا ينتهزون كل فرصة لبث سمومهم . كالذي رأينا في غزوة الأحزاب . وفي حديث الإفك . وفي قسمة الفيء . وفي كل مناسبة تعرض لإيذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير حق .

Marfat.com

وفى هذا الوقت - بعد إجلاء بنى قريظة وسائر اليهود من قبل - لم يكن فى المدينة من هو ظاهر بالكفر . فقد أصبح أهلها كلهم مسلمين . إما صادقين فى إسلامهم وإما منافقين . وكان المنافقون هم الذين يروجون الشائعات ، وينشرون الأكاذيب ، وكان بعض المؤمنين يقع فى حبائلهم ، ويسايرهم فى بعض مايروجون . فجاء القرآن يحذرهم إيذاء النبى - صلى الله عليه وسلم - كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى - عليه السلام - ويوجههم إلى تسديد القول ، وعدم إلقائه على عواهنه ، بغير ضبط ولادقة ؛ ويحببهم فى طاعة الله ورسوله وما وراءها من فوز عظيم :

« يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا . وكان عند الله وجيها . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم . ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » ..

ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى ؛ ولكن وردت روايات تعينه . ونحن لانرى بنا من حاجة للخوض فى هذا الذى أجمله القرآن . فإنما أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل مايؤذى النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد ضرب بنى إسرائيل مثلا للالتواء والانحراف فى مواضع من القرآن كثيرة . فيكفى أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم ، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه ، لينفر حس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخا للانحراف والالتواء .

وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه ، « وكان عند الله وجيها » ذا وجاهة وذا مكانة . والله مبرئ رسله من كل مايرمون به كذبا وبهتانا . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل الرسل أولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه .

ويوجه القرآن المؤمنين إلى تسديد القول وإحكامه والتدقيق فيه ، ومعرفة هدفه واتجاهه ؛ قبل أن يتابعوا المنافقين والمرجفين فيه ؛ وقبل أن يستمعوا فى نبيهم ومرشدهم ووليهم إلى قول طائش ضال أو مغرض خبيث . ويوجههم إلى القول الصالح الذى يقود إلى العمل الصالح . فالله يرعى المسددين ويقود خطاهم ويصلح لهم أعمالهم جزاء التصويب والتسديد . والله يغفر لذوى الكلمة الطيبة والعمل الصالح ؛ ويكفر عن السيئة التى لاينجو منها الآدميون الخطاءون . ولاينقذهم منها إلا المغفرة والتكفير .

« ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » ..

والطاعة بذاتها فوز عظيم . فهى استقامة على نهج الله . والاستقامة على نهج الله مريحة

Marfat.com

مطمئنة . والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته ، ولولم يكن وراءه جزاء سواه . وليس الذى يسير فى الطريق المعهود النير وكل ماحوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذى يسير فى الطريق المقلقل المظلم وكل ماحوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه ! فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها ؛ وهى الفوز العظيم ، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم . أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة . فضل من كرم الله وفيضه بلامقابل. والله يرزق من يشاء بغير حساب .

* * *

ولعله فضل نظر الله فيه إلى ضعف هذا الإنسان ، وإلى ضخامة التبعة التى يحملها على عاتقه. وإلى حمله للأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . والتى أخذها على عاتقه ، وتعهد بحملها وحده ، وهو على ماهو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤية ماوراء الحواجز والآماد :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ؛ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » ..

إن السماوات والأرض والجبال ـ التى اختارها القرآن ليحدث عنها ـ هذه الخلائق الضخمة الهائلة ، التى يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئاً صغيرا ضئيلا . هذه الخلائق تعرف بارئها بلا محاولة ، وتهتدى إلى ناموسه الذى يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها ؛ وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبر ولاواسطة . وتجرى وفق هذا الناموس دائبة لاتنى ولا تتخلف دورتها جزءا من ثانية ؛ وتؤدى وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولامختارة .

هذه الشمس تدور فى فلكها دورتها المنتظمة التى لاتختل أبدا . وترسل بأشعتها فتؤدى وظيفتها التى قدرها الله لها ؛ وتجذب توابعها بلا إرادة منها ؛ فتؤدى دورها الكونى أداء كاملا . .

وهذه الأرض تدور دورتها ، وتخرج زرعها ، وتقوت أبناءها ، وتوارى موتاها ، وتتفجر ينابيعها . وفق سنة الله بلا إرادة منها .

وهذا القمر . وهذه النجوم والكواكب . وهذه الرياح والسحب . وهذا الهواء وهذا

Marfat.com

الماء .. وهذه الجبال . وهذه الوهاد .. كلها .. كلها .. تمضى لشأنها ، بإذن ربها ، وتعرف بارئها ، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة .. لقد أشفقت من أمانة التبعة . أمانة الإرادة . أمانة المعرفة الذاتية . أمانة المحاولة الخاصة .

« وحملها الإنسان » ..

الإنسان الذى يعرف الله بإدراكه وشعوره . ويهتدى إلى ناموسه بتدبره وبصره . ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده . ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ، ومقاومة انحرافاته ونزغاته ، ومجاهدة ميوله وشهواته .. وهو فى كل خطوة من هذه الخطوات مريد . مدرك . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدى به هذا الطريق !

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم ، القليل القوة ، الضعيف الحول ، المحدود العمر ؛ الذى تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع ..

وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة . ومن ثم « كان ظلوما » لنفسه « جهولا » لطاقته . هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة . حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه ، والاهتداء المباشر لناموسه ، والطاعة الكاملة لإرادة ربه . المعرفة والاهتداء والطاعة التى تصل فى طبيعتها وفى آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال فى السماوات والأرض والجبال .. الخلائق التى تعرف مباشرة ، وتهتدى مباشرة ، وتطيع مباشرة ، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل . ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، وهو واع مدرك مريد . فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ، ومكان بين خلق الله فريد .

إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هى هى ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله . وهى هى مناط التكريم الذى أعلنه الله فى الملأ الأعلى ، وهو يسجد الملائكة لآدم . وأعلنه فى قرآنه الباقى وهو يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » .. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله . ولينهض بالأمانة التى اختارها ؛ والتى عرضت على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ... !

ذلك كان .. « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما » ..

فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة ؛ وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ، ويهتدى بنفسه ،

Marfat.com

ويعمل بنفسه ، ويصل بنفسه .. هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره ، وليكون جزاؤه من عمله . وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات . وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات ، فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط مار كب فيهم من نقص وضعف ، ومايقف فى طريقهم من حواجز وموانع ، ومايشدهم من جواذب وأثقال .. فذلك فضل الله وعونه . وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده : « وكان الله غفورا رحيما » ..

* * *

وبهذا الإيقاع الهائل العميق تختم السورة التى بدأت بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى طاعة الله وعصيان الكافرين والمنافقين ، واتباع وحى الله ، والتوكل عليه وحده دون سواه . والتى تضمنت توجيهات وتشريعات يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامى ، خالصا لله ، متوجها له ، مطيعا لتوجيهاته .

بهذا الإيقاع الذى يصور جسامة التبعة وضخامة الأمانة . ويحدد موضع الجسامة ومنشأ الضخامة . ويحصرها كلها فى نهوض الإنسان بمعرفة الله والاهتداء إلى ناموسه ، والخضوع لمشيئته . .

بهذا الإيقاع تختم السورة ، فيتناسق بدؤها وختامها ، مع موضوعها واتجاهها . ذلك التناسق المعجز ، الدال بذاته على مصدر هذا الكتاب !

Marfat.com

سورة سبأ مكية
وآياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ . قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ، عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » ⑨

Marfat.com

موضوعات هذه السورة المكية هي موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله ، والإيمان بالوحي ، والاعتقاد بالبعث . وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية . وبيان أن الإيمان والعمل الصالح ـ لا الأموال ولا الأولاد ـ هما قوام الحكم والجزاء عند الله . وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله ؛ وما من شفاعة عنده إلا بإذنه .

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء ؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه . وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوعة ، وأساليب شتى ؛ وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث يقول : « وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة . قل : بلى وربي لتأتينكم » . .

وعن قضية الجزاء يقول : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

وفي موضع آخر قريب في سياق السورة : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » .

ويورد عدة مشاهد للقيامة ، وما فيها من تأنيب للمكذبين بها ، ومن صور العذاب الذي كانوا يكذبون به ، أو يشكون في وقوعه كهذا المشهد : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

وتتكرر هذه المشاهد وتتوزع في السورة وتختم بها كذلك : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل . إنهم كانوا في شك مريب » .

وعن قضية العلم الإلهي الشامل يرد في مطلع السورة : « يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها ، وماينزل من السماء وما يعرج فيها » . .

Marfat.com

وبرد تعقيبا على التكذيب بمجئ الساعة : « قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

ويرد قرب ختام السورة : « قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب » . .

وفى موضوع التوحيد تبدأ السورة بالحمد لله « الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير » . .

ويتحداهم مرات فى شأن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير » . .

وتشير الآيات إلى عبادتهم للملائكة وللجن وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » .

وينفى ماكانوا يظنونه من شفاعة الملائكة لهم عند ربهم : « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير » . .

وبمناسبة عبادتهم للشياطين ترد قصة سليمان وتسخير الجن له ، وعجزهم عن معرفة موته : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » . .

وفى موضوع الوحى والرسالة يرد قوله : « وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » .. وقوله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ماهذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلاسحر مبين » . .

ويرد عليهم بتقرير الوحى والرسالة : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » . . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

وفى موضوع تقرير القيم يرد قوله : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها :

Marfat.com

إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين . قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون » . .

ويضرب على هذا أمثلة من الواقع التاريخي فى هذه الأرض : قصة آل داود الشاكرين على نعمة الله . وقصة سبأ المتبطرين الذين لايشكرون . وما وقع لهؤلاء وهؤلاء . وفيه مصداق مشهود للوعد والوعيد .

* * *

هذه القضايا التى تعالجها السور المكية فى صور شتى ، تعرض فى كل سورة فى مجال كونى ، مصحوبة بمؤثرات منوعة ، جديدة على القلب فى كل مرة . ومجال عرضها فى سورة سبأ هذه هو ذلك المجال ، ممثلا فى رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفى عالم الغيب المجهول المرهوب . وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة . وفى أعماق النفس المطوية اللطيفة . وفى صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة . وفى كل منها مؤثر موح للقلب البشرى ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح على هذا الكون الهائل ؟ وعلى صحائفه ومافيها من آيات الله ، وعلى مجالى علمه اللطيف الشامل الدقيق الهائل : « يعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء وما يعرج فيها » . . « وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة . قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

والذين يكذبون بالآخرة يتهددهم بأحداث كونية ضخمة : « أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أونسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » . .

والذين يعبدون من دون الله ملائكة أو جنا يقفهم وجهاً لوجه أمام الغيب المرهوب فى الملأ الأعلى : « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . وهو العلى الكبير » . .

أو يواجههم بالملائكة فى ساحة الحشر حيث لامجال للمواربة والمجادلة : « ويوم يحشرهم

Marfat.com

جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . . . الخ » .

والمكذبون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذين يتهمونه بالافتراء أو أن به جنة يقفهم أمام فطرتهم ، وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشي والمؤثرات المصطنعة : « قل : إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ..

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى تلك المجالات المتنوعة ، وتواجهه بتلك المؤثرات الموحية الموقظة . حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة كما أسلفنا . .

* * *

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى تلك المجالات وتحت تلك المؤثرات فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ؛ يمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط ؛ لتيسير عرضها وشرحها . وإلا فإنه ليس بينها فواصل تحددها تحديداً دقيقاً . . وهذا هو طابع السورة الذى يميزها . .

تبدأ السورة بالحمد لله ، المالك لما فى السماوات والأرض المحمود فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . وتقرر علمه الشامل الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وتحكى إنكار الذين كفروا لمجىء الساعة ورد الله عليهم بتوكيد مجيئها ، وعلم الله الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . ليتم جزاء المؤمنين وجزاء الذين يسعون فى آيات الله معاجزين ، عن علم دقيق . وتثبت رأى أولى العلم الحقيقى الذين يشهدون أن ما أنزل الله لنبيه هو الحق . وتحكى عجب الذين كفروا من قضية البعث ، وترد عليهم بأنهم فى العذاب والضلال البعيد ؛ وتهددهم بخسف الأرض من تحتهم أو إسقاط السماء كسفاً عليهم . .

وبذلك ينتهى الشوط الأول .

فأما الشوط الثانى فيتناول طرفاً من قصة آل داود الشاكرين لله على نعمته ، بتسخير قوى كثيرة لداود وسليمان بإذن الله . غير متبطرين ولا مستكبرين ، ومن هذه القوى المسخرة الجن الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، ويستفتونهم فى أمر الغيب . وهم لايعلمون الغيب . وقد ظلوا يعملون لسليمان عملا شاقا مهينا بعد موته وهم لايعلمون . . . وفى مقابل قصة الشكر تجىء قصة البطر . قصة سبأ . وماكانوا فيه من نعيم لم يشكروه : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم

Marfat.com

كل ممزق » .. وذلك أنهم اتبعوا الشيطان ، وما كان له عليهم من سلطان ، لولا أنهم أعطوه قيادهم مختارين !

ويبدأ الشوط الثالث بتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمونهم آلهة من دون الله . وهم« لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير » .. وهم لايملكون لهم شفاعة عند الله ـ ولو كانوا من الملائكة ـ فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع الراجف ؛ ولايتحدثون حتى يزول عنهم الفزع والارتجاف العميق .. ويسألهم عمن يرزقهم من السماوات والأرض . والله مالك السماوات والأرض ، وهو الذى يرزقهم بلا شريك .. ثم يفوض أمره وأمرهم إلى الله ، وهو الذى يفصل فيما هم مختلفون .. ويختم هذا الشوط بالتحدى كما بدأه ، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء . « كلا بل هو الله العزيز الحكيم » ..

والشوط الرابع والشوط الخامس يعالجان معاً قضية الوحى والرسالة ، وموقفهم منها ، وموقف المترفين من كل دعوة ، واعتزازهم بأموالهم وأولادهم ؛ ويقرران القيم الحقيقية التى يكون عليها الحساب والجزاء ، وهى قيم الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد . ويعرضان مصائر المؤمنين والمكذبين فى عدة مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ، يتبرأ فيها التابعون من المتبوعين . كما يتبرأ فيها الملائكة من عبادة الضالين المشركين .. ويدعوهم بين هذه المشاهد إلى أن يرجعوا إلى فطرتهم يستلهمونها مجردة عن الهوى وعن الضجيج فى أمر هذا الرسول الذى يندفعون فى تكذيبه بلا دليل . وهو لايطلب إليهم أجرا على الهدى ، وليس بكاذب ولا مجنون .. ويختم كل من الشوطين بمشهد من مشاهد القيامة . وتنتهى السورة بإيقاعات قصيرة قوية : « قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل : جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد . قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب » .. ويختم بمشهد من مشاهد القيامة قصير الخطى قوى عنيف .

والآن نأخذ بعد هذا العرض الإجمالى فى التفصيل ..

* * *

« الحمد لله ، الذى له ما فى السماوات ، وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير . يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وما ينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » ..

Marfat.com

ابتداء السورة التي تتعرض إشراك المشركين بالله، وتكذيبهم لرسوله، وشكهم في الآخرة، واستبعادهم للبعث والنشور. ابتداء بالحمد لله. والله محمود لذاته ـ ولو لم يقم بحمده أحد من هؤلاء البشر ـ وهو محمود في هذا الوجود الذي يسبح بحمده، ومحمود من شتى الخلائق ولو شذ البشر عن سائر خلائق الله.

ومع الحمد صفة الملك لما في السماوات ومافي الأرض؛ فليس لأحد معه شيء، وما لأحد في السماوات والأرض من شرك، فله ـ سبحانه ـ كل شيء فيهما.. وهذه هي القضية الأولى في العقيدة. قضية التوحيد. والمالك لكل شيء هو الله الذي لامالك لشيء سواه في هذا الكون العريض.

« وله الحمد في الآخرة ».. الحمد الذاتي. والحمد المرتفع من عباده. حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا، أو يشركون معه غيره عن ضلالة، تتكشف في الآخرة، فيتمحض له الحمد والثناء.

« وهو الحكيم الخبير ».. الحكيم الذي يفعل كل ما يفعل بحكمة؛ ويصرف الدنيا والآخرة بحكمة؛ ويدبر أمر الوجود كله بحكمة.. الخبير الذي يعلم بكل شيء، وبكل أمر، وبكل تدبير علما كاملا شاملا عميقاً يحيط بالأمور.

ثم يكشف صفحة من صحائف علم الله، بمجالها الأرض والسماء:

« يعلم مايلج في الأرض، ومايخرج منها، وما ينزل من السماء، ومايعرج فيها »..

ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء، والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، لايصمد لها الخيال!

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون مايقع في لحظة واحدة، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين!

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها؟

كم من شيء يلج في الأرض؟ كم من حبة تختبئ أو تخبأ في جنبات هذه الأرض؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية؟ كم من قطرة ماء

Marfat.com

ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس فى الأرض فى أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج فى الأرض وعين الله عليه ساهرة لاتنام ؟

وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور ينكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ، وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد . وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر . . وكم وكم مما لايحصيه إلا الله .

وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لايعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله فى علاه .

وكم من روح من أرواح الخلائق التى نعلمها أو نجهلها متوفاة . وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله . وكم من روح يرف فى هذا الملكوت لايعلمه إلا الله .

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟ !

كم فى لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما فى اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال فى العد والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله فى كل مكان وفى كل زمان . . وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر . . « وهو الرحيم الغفور » . .

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لما يوحى بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكونى لايخطر بطبيعته على قلب بشر ؛ ومثل هذا التصور الكونى لادافع إليه من طبيعة تصور البشر ، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارئ هذا الوجود ! التى لا تشبهها صنعة العبيد !

* * *

وبعد تقرير تلك الحقيقة فى تلك الصورة الرائعة الواسعة المدى الفسيحة المجال يحكى إنكار الذين كفروا بمجئ الساعة ؛ وهم القاصرون الذين لايعلمون ماذا يأتيهم به الغد ؛ والله هو

Marfat.com

العلم بالغيب ؛ الذى لايند عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض ؛ والساعة لابد منها ليلاق المحسن والمسىء جزاء ماقدما فى هذه الأرض :

«وقال الذين كفروا : لاتأتينا الساعة : قل : بلى وربى لتأتينكم ، عالم الغيب ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشىء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لاتترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسىء منهم من يسىء ؛ ثم لايلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولايلقى المسىء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على لسان رسله : أنه يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة . فكل من يدرك حكمة الله فى خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره . . ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة . ومن ثم يقولون قولتهم هذه : «لاتأتينا الساعة » . . فيرد عليهم مؤكداً جازماً : «قل : بلى وربى لتأتينكم » . . وصدق الله تعالى وصدق رسول الله ــ عليه صلوات الله ــ وهم لايعلمون الغيب ومع ذلك يتألون على الله ، ويجزمون بما لاعلم لهم به . والله الذى يؤكد مجىء الساعة هو : « عالم الغيب » . . فقوله الحق عن علم بما هنالك وعن يقين .

ثم يعرض هذا العلم فى صورة كونية كالتى سبقت فى مطلع السورة ، تشهد هى الاخرى بأن هذا القرآن لايكون من صنع بشر ، لأن خيال البشر لا تخطر له عادة مثل هذه الصور :

« لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ؛ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

ومرة أخرى نقول : إن طبيعة هذا التصور ليست بشرية . وإنه ليست لها سابقة فى كلام البشر شعره ونثره على السواء . فعندما يتحدث البشر عن شمول العلم ودقته وإحاطته لايخطر على بالهم أن يصوروه فى هذه الصورة الكونية العجيبة : « لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ... » . . ولست أعرف فى كلام البشر اتجاها إلى مثل هذا التصور للعلم الدقيق الشامل . فهو الله . سبحانه . الذى يصف نفسه ، ويصف علمه ، بما يعلم من الأوصاف التى لاتخطر للبشر ! وبذلك يرفع تصور المسلمين لإلههم الذى يعبدونه فيعرفونه بصفته فى حدود طاقتهم البشرية المحدودة على كل حال .

Marfat.com

وأقرب تفسير لقوله تعالى : « إلا في كتاب مبين » أنه علم الله الذي يقيد كل شيء ، ولا يند عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

ونقف أمام لفتة في قوله تعالى : « مثقال ذرة . . . ولا أصغر من ذلك » . والذرة كان معروفا – إلى عهد قريب – أنها أصغر الأجسام . فالآن يعرف البشر – بعد تحطيم الذرة – أن هناك ماهو أصغر من الذرة ، وهو جزيئاتها التي لم تكن في حسبان أحد يومذاك ! وتبارك الله الذي يعلم عباده مايشاء من أسرار صنعته ومن أسرار خلقه عند مايشاء .

مجيء الساعة حتما وجزما ، وعلمه الذي لاتند عنه صغيرة ولا كبيرة :

« ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات . أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين ، أولئك لهم عذاب من رجز أليم » . .

فهناك حكمة وقصد وتدبير . وهناك تقدير في الخلق لتحقيق الجزاء الحق للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وللذين سعوا في آيات الله معاجزين . .

فأما الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح فلهم « مغفرة » لما يقع منهم من خطايا ولهم « رزق كريم » والرزق يجيء ذكره كثيرا في هذه السورة ، فناسب أن يعبر عن نعيم الآخرة بهذا الوصف ، وهو رزق من رزق الله على كل حال .

وأما الذين سعوا باذلين جهدهم للصد عن آيات الله ، فلهم عذاب من أليم العذاب وسيئه . والرجز هو العذاب السيء . جزاء اجتهادهم ومعاجزتهم وكدهم في سبيل السوء !

وبهذا وذلك تتحقق حكمة الله وتدبيره ، وحكمة الساعة التي يجزمون بأنها لاتأتيهم ؛ وهي لا بد أن تجيء . .

* * *

وبمناسبة جزمهم بأن الساعة لاتأتيهم – وهي غيب من غيب الله – وتأكيد الله لمجيئها – وهو عالم الغيب – وتبليغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما أمره ربه بتبليغه من أمرها يقرر أن « الذين أوتوا العلم » يدركون ويشهدون بأن ماجاءه من ربه هو الحق وأنه يهدي إلى طريق العزيز الحميد :

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » . .

Marfat.com

وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب ، الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق ، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد .

ومجال الآية أكبر وأشمل . فالذين أوتوا العلم فى أى زمان وفى أى مكان ، من أى جيل ومن أى قبيل ، يرون هذا متى صح علمهم واستقام ؛ واستحق أن يوصف بأنه « العلم » ! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال . وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذى علم صحيح . وهو يكشف عن الحق المستكن فى كيان هذا الوجود كله . وهو أصدق ترجمة وصفية لهذا الوجود ومافيه من حق أصيل .

« ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » ..

وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذى أراده للوجود ؛ واختاره للبشر لينسق خطاهم مع خطى هذا الكون الذى يعيشون فيه . وهو الناموس الذى يهيمن على أقدار هذا الكون كله ، بما فيه من الحياة البشرية التى لاتنفصل فى أصلها ونشأتها ، ولافى نظامها وحركتها عن هذا الكون ومافيه ومن فيه .

يهدى إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه فى إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه ؛ ومكان هذا الإنسان منه ، ودوره فيه ؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله — وهو معها — فى تحقيق مشيئة الله وحكمته فى خلقه ؛ وتناسق حركات الجميع وتوافقها فى الاتجاه إلى بارىء الوجود .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بتصحيح منهج التفكير ، وإقامته على أسس سليمة ، متفقة مع الإيقاعات الكونية على الفطرة البشرية ؛ بحيث يؤدى هذا المنهج بالفكر البشرى إلى إدراك طبيعة هذا الكون وخواصه وقوانينه ، والاستعانة بها ، والتجاوب معها بلا عداء ولا اصطدام ولاتعويق .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوى الذى يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية . ويعد الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق — أفرادا وجماعات — مع مجموعة الخلائق التى تعمر هذا الكون ! ويعد هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذى تعيش فيه .. كل ذلك فى بساطة ويسر ولين .

ويهدى إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه الأصيلة ، متناسقة مع القوانين الكلية التى تحكم بقية الأحياء ، وسائر

Marfat.com

الخلائق ؛ فلا يشذ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته . وهو أمة من هذه الأمم فى نطاق هذا الكون الكبير .

إن هذا الكتاب هو الدليل إلى هذا الصراط . الدليل الذى وضعه خالق الإنسان وخالق الصراط ، العارف بطبيعة هذا وذاك . وإنك لتكون حسن الطالع وأنت تقوم برحلة فى طريق لوحصلت على دليل من وضع المهندس الذى أنشأ هذا الطريق . فكيف بمنشئ الطريق ومنشئ السالك فى الطريق ؟ !

***

وبعد هذه اللمسة الموقظة الموجهة يستأنف حكاية حديثهم عن البعث ، ودهشتهم البالغة لهذا الأمر ، الذى يرونه عجيباً غريباً ، لايتحدث به إلا من أصابه طائف من الجن ، فهو يتفوه بكل غريب عجيب ، أو يفترى الكذب ويقول بما لا يمكن أن يكون .

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ! أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . .

إلى هذا الحد من الاستغراب والدهش كانوا يقابلون قضية البعث . فيعجبون الناس من أمر القائل بها فى أسلوب حاد من التهكم والتشهير : « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ » هل ندلكم على رجل عجيب غريب ، ينطق بقول مستنكر بعيد ، حتى ليقول : إنكم بعد الموت والبلى والتمزق الشديد تخلقون من جديد ، وتعودون للوجود ؟ !

ويمضون فى العجب والتعجيب ، والاستنكار والتشهير : « أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ » . . فما يقول مثل هذا الكلام ـ بزعمهم ـ إلا كاذب يفترى على الله مالم يقله ، أو مسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب !

ولم هذا كله ؟ لأنه يقول لهم : إنكم ستخلقون خلقاً جديداً ! وفيم العجب وهم قد خلقوا ابتداء ؟ إنهم لاينظرون هذه العجيبة الواقعة . عجيبة خلقهم الأول. ولو قد نظروها وتدبروها ماعجبوا أدنى عجب للخلق الجديد . ولكنهم ضالون لايهتدون . ومن ثم يعقب على تشهيرهم وتعجيبهم تعقيباً شديداً مرهوباً :

« بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . .

Marfat.com

وقد يكون المقصود بالعذاب الذى هم فيه عذاب الآخرة ، فهو لتحققه كأنهم واقعون فيه ، وقوعهم فى الضلال البعيد الذى لايرجى معه اهتداء . . وقد يكون هذا تعبيراً عن معنى آخر . معنى أن الذين لايؤمنون بالآخرة يعيشون فى عـذاب كما يعيشون فى ضـلال . وهى حقيقة عميقة . فالذى يعيش بلا عقيدة فى الآخرة يعيش فى عذاب نفسى . لاأمل له ولا رجاء فى نصفة ولا عـدل ولا جزاء ولاعوض عما يلقاه فى الحياة . وفى الحياة مواقف وابتلاءات لايقوى الإنسـان على مواجهتها إلا وفى نفسـه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء . وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه فى ذلك العالم الآخر ، الذى لاتضيع فيـه صغيرة ولا كبيرة ؛ وإن تـكن مثقال حبة من خردل فتـكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بهـا الله . والذى يحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولاريب فى العذاب كما يعيش فى الضلال . يعيش فيهما وهو حى على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذى لقيه فى دنياه !

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبهما الله لمن يستحقهما من عباده بإخـلاص القلب ، وتحرى الحق ، والرغبة فى الهـدى . وأرجح أن هذا هو الذى تشير إليه الآية ، وهى تجمع على الذين لايؤمنون بالآخرة بين العذاب والضلال البعيد .

* * *

هؤلاء المـكذبون بالآخرة يوقظهم بعنف على مشهد كونى يصور لهم أنه واقع بهم ــ لوشاء الله ــ وظلوا هم فى ضلالهم البعيد . مشهد الأرض تخسف بهم والسماء تتسـاقط قطعا عليهم :

« أفلم يروا إلى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . إن فى ذلك لآية لـكل عبد منيب . .

وهو مشهد كونى عنيف ، منتزع فى الوقت ذاته من مشاهداتهم أو من مدركاتهم المشهودة على كل حال . فخسف الأرض يقع ويشهده الناس . وترويه القصص والروايات أيضاً . وسقوط قطع من السماء يقع كذلك عند سقوط الشهب وحدوث الصواعق . وهم رأوا شيئاً من هذا أو سمعوا عنه . فهذه اللمسـة توقظ الغفاة الغافلين ، الذين يستبعدون مجيء السـاعة . والعذاب أقرب إليهم لوأراد الله أن يأخذهم به فى هذه الأرض قبل قيام السـاعة . يمكن أن يقع بهم من هذه الأرض وهذه السماء التى يجدونها من بين أيديهم ومن خلفهم ، محيطة بهم ، وليست ببعيدة عنهم بعد السـاعة المغيبة فى علم الله . ولايأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون .

Marfat.com

وفى هذا الذى يشهدونه من السماء والأرض ، والذى يتوقع من خسف الأرض فى أية لحظة أو سقوط قطع من السماء . فى هذا آية للقلب الذى يرجع ويثوب :

« إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .. لا يضل ذلك الضلال البعيد ..

« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً . يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⊙ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ . اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَادَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ . جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ . كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ . بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ؟ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ . سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُوا : رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

Marfat.com

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » (٢١)

يحوى هذا الشوط صورا من الشكر والبطر ؛ وصورا من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقا لا تسخر عادة للبشر. ولكن قدرة الله ومشيئته لا يقيدهما مألوف البشر. وتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين ، أو يطلبون عندهم علم الغيب وهم عن الغيب محجوبون . وعن أسباب الغواية التي يتسلط بها الشيطان على الإنسان ، وماله عليه من سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره . وعن تدبير الله في كشف ما هو مكنون من عمل الناس وبروزه في صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء في الآخرة. وبذكر الآخرة ينتهى هذا الشوط كما انتهى الشوط الأول في السورة ..

* * *

« ولقد آتينا داود منا فضلا . ياجبال أوبي معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل سابغات ، وقدر في السرد ، واعملوا صالحا . إني بما تعملون بصير » ..

وداود عبد منيب ، كالذي ختم بذكره الشوط الأول : « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » .. والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة ؛ ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل . ثم يبين هذا الفضل :

« ياجبال أوبي معه والطير » ..

وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتي صوتا جميلا خارقا في الجمال ؛ كان يرتل به مزاميره ، وهي تسابيح دينية ، ورد منها في كتاب « العهد القديم » ما الله أعلم بصحته . وفي الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سمع صوت أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته . ثم قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لقد أوتي هذا مزمارا من زمامير آل داود » .

والآية تصور من فضل الله على داود ــ عليه السلام ــ أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه و بين الكائنات ؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته ، في تسبيح بارئها

Marfat.com

وبارئه ؛ ورجعت معه الجبال والطير ، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز ، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة ؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع ، وبين كائن من خلق الله وكائن ؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة ، التي كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق ؛ فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق ، وتتلاقى في نغمة واحدة ، وهي درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله ، يزيح عنه حجاب كيانه المادي ، ويرده إلى كينونته اللدنية التي يلتقي فيها بهذا الوجود ، وكل ما فيه وكل من فيه بلا حواجز ولا سدود .

وحين انطلق صوت داود — عليه السلام — يرتل مزاميره ويمجد خالقه ، رجعت معه الجبال والطير ، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية في كيانه الواحد ، المتجهة إلى بارئه الواحد .. وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر ، ومن جرب نوعها ولو في لحظة من حياته !

« وألنا له الحديد » .

وهو طرف آخر من فضل الله عليه . وفي ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر . فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلا للطرق ، إنما كان — والله أعلم — معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة . وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلا من الله يذكر . ولكننا إنما نتأثر جو السياق وظلاله وهو جو معجزات ، وهي ظلال خوارق خارجة على المألوف .

« أن اعمل سابغات وقدر في السرد » .

والسابغات الدروع . روي أنها كانت تعمل قبل داود — عليه السلام — صفائح . الدرع صفيحة واحدة ، فكانت تصلب الجسم وتثقله . فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجه لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم ؛ وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح . وهو التقدير في السرد . وكان الأمر كله إلهاما وتعليما من الله .

وخوطب داود وأهله :

« واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير » ..

Marfat.com

لا فى الدروع وحدها بل فى كل ما تعملون ؟ مراقبين الله الذى يبصر ما تعملون ويجازى عليه ، فلا يفلت منه شىء ، والله به بصير ..

***

ذلك ما آتاه الله داود ـ عليه السلام ـ فأما سليمان فقد آتاه الله أفضالا أخرى :

« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه . ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكرا . وقليل من عبادى الشكور » .

وتسخير الريح لسليمان تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة فى تلك الروايات ـ وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها ـ والتحرج من الخوض فى تلك الروايات أولى . والاكتفاء بالنص القرآنى أسلم . مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه . ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان ، وجعل غدوها أى توجهها غادية إلى بقعة معينة (ذكر فى سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة) يستغرق شهرا ، ورواحها أى انعكاس اتجاهها فى الرواح يستغرق شهراً كذلك . وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان ـ عليه السلام ـ ويحققها بأمر الله .. ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحا حتى لا ندخل فى أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

« وأسلنا له عين القطر » ..

والقطر النحاس . وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود . وقد يكون ذلك بأن فجر الله له عينا بركانيـة من النحاس المذاب من الأرض . أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلا للصب والطرق . وهو فضل من الله كبير .

« ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » ..

وكذلك سخر له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه . والجن كل مستور لا يراه البشر . وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم . وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبيه سليمان ـ عليـه السلام ـ فمن عصى منهم ناله عذاب الله :

Marfat.com

« ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » ..

ولعل هذا التعقيب ـ قبل الانتهاء من قصة التسخير ـ يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله . وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله . وهم مثلهم معرضون للعقاب عند ما يزيغون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان ـ عليه السلام ـ :

« يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » ..

والمحاريب من أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره . والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء . وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي ، وتصنع له قدورا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها . . وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله . وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله . وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوحيد الخطاب إلى آل داود :

« اعملوا آل داود شكرا » ..

سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان ـ عليهما السلام ـ فاعملوا يا آل داود شكراً لله . لا للتباهي والتعالي بما سخره الله . والعمل الصالح شكر لله كبير .

« وقليل من عبادي الشكور » ..

تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصص . يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها . ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله . وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء . فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟!

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة ؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه ، وعن أيمانه وعن شمائله ، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه . وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام !

Marfat.com

كنا نجلس جماعة نتحدث وتتجاوب أفكارنا وتتجاذب ، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال . ذلك حينما جاء قطنا الصغير « سوسو » يدور هنا وهناك من حولنا ، يبحث عن شيء ؛ وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئا ، ولكنه لا يملك أن يقول ؛ ولا نملك نحن أن ندرك . حتى ألهمنا الله أنه يطلب الماء . وكان هذا . وكان فى شدة العطش . وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير . . وأدركنا فى هذه اللحظة شيئا من نعمة الله علينا بالنطق واللسان ، والإدراك والتدبير . وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة . . وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل .

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس . وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحيانا . وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع . ثم يخلى مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال ! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس . لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا ، وفى جوارحه كلها، وهو يقول فى نغمة عميقة مديدة .. الله ! هذه هى الشمس. شمس ربنا وما تزال تطلع .. الحمد لله !

فكم نبعثر فى كل يوم من هذه الأشعة المحيية ، ونحن نستحم فى الضوء والدفء . ونسبح ونغرق فى نعمة الله ؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر التاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة ؟ !

وحين نمضى نستعرض آلاء الله على هذا النحو فإننا ننفق العمر كله ، ونبذل الجهد كله ، ولا نبلغ من هذا شيئا . فنكتفى إذن بهذه الإشارة الموحية ، على طريقة القرآن فى الإشارة والإيماء، ليتدبرها كل قلب ، ويمضى على إثرها ، قدر ما يوفقه الله لنعمة الشكر ، وهى إحدى آلاء الله ، يوفق إليها من يستحقها بالتوجه والتجرد والإخلاص ..

ثم نمضى مع نصوص القصة القرآنية فى المشهد الأخير منها . مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله ؛ وهى لا تعلم نبأ موته ، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه ، التى كان مرتكزا عليها ، وسقوطه :

« فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » ..

وقد روى أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله ؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ؛ فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض . قيل إنها الأرضة ،

Marfat.com

التي تتغذى بالأخشاب ، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، في الأماكن التي تعيش فيها . وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفا من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر . فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض . وحينئذ فقط علمت الجن موته . وعندئذ « تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » ..

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس . هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله . وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !

* * *

وفي قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف في نعمائه . والصفحة المقابلة هي صفحة سبأ . وقد مضى في سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص . وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان . مما يوحي بأن الأحداث التي تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر .

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق . وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم ، وفي خير عميم . ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان : « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين . فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله ؛ وتحكي ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم .

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم ، وما طلب إليهم من شكر النعم بقدر ما يطيقون :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور » ..

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن ؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم . وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق ، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على

Marfat.com

فى الوادى بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم . فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم . وقد عرف باسم : « سد مأرب » .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب . وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين :

« كلوا من رزق ربكم واشكروا له » ..

وذكروا بالنعمة . نعمة البلدالطيب وفوقها نعمةالغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات .

« بلدة طيبة ورب غفور » ..

سماحة فى الأرض بالنعمة والرخاء . وسماحة فى السماء بالعفو والغفران . فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟

ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا :

« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل : خمط وأثل وشيء من سدر قليل » ..

أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذىيعيشون فيه ؛ وأرسل السيلالجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ؛ ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت . وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة:

. « وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل : خمط وأثل وشيء من سدر قليل » ..

والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذى شوك.والأثل شجر يشبه الطرفاء . والسدر النبق . وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل !

« ذلك جزيناهم بما كفروا » ..

والأرجح أنه كفران النعمة ..

« وهل نجازى إلا الكفور » ..

Marfat.com

وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم . ضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهيـة والنعماء خشونة وشدة ؛ ولـكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم . وكان العمران ما يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة : مكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام . فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقرى المباركة . والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون :

« وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدّرنا فيها السير . سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » ..

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام . فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق .

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ؛ ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ماذهب من الرخاء . بل دعوا دعوة الحمق والجهل :

« فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » ..

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ؛ التى لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، التى لا تشبع لذة الرحلات ! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

« وظلموا أنفسهم » ..

واستجيبت دعوتهم ، ولـكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر :

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » ..

شردوا ومزقوا ؛ وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ؛ وعادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه . بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة .

« إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شكور » ..

يذكر الصبر إلى جوار الشكر .. الصبر فى البأساء . والشكر فى النعماء . وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء .

هـذا فهم فى الآية . وهناك فهم آخر . فقد يكون المقصود بقوله : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة » .. أى قرى غالبة ذات سلطان . بينما تحول سبأ إلى

Marfat.com

قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة . وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء . فلم يصبروا على الابتلاء . وقالوا : « ربنا باعد بين أسفارنا » . . أي قلل من أسفارنا فقد تعبنا . ولم يصحبوا هـذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم . وكانوا قد بطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة . ففعل الله بهم مافعل ، ومزقهم كل ممزق ؛ فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى وقصة تحكى . . ويكون التعقيب : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . مناسبا لقلة شكرهم على النعمة ، وقلة صبرهم على المحنة . . وهو وجه رأيته في الآية والله أعلم بمراده .

* * *

وفي ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود ، إلى إطار التدبير الإلهي العام ، والتقدير المحكم الشامل ، والسنة الإلهية العامة ؛ ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها ، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير :

«ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه . إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك . وربك على كل شيء حفيظ » . .

لقد سلك القوم هذا المسلك ، الذي انتهى إلى تلك النهاية ، لأن إبليس صدق عليهم ظنه في قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، « فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » . . كما يقع عادة في الجماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تستعصي على الغواية ؛ وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه من يطلبه ؛ ويمكن لكل من أراد أن يجده وأن يستمسك به ، حتى في أحلك الظروف . وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لايملكون رفعه . فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له . إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لايبتغي الحق ويتحراه . وليظهر في عالم الواقع « من يؤمن بالآخرة » فيعصمه إيمانه من الانحراف ، « ممن هو منها في شك » . . فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية . بلا عاصم من رقابة لله ولاتطلع لليوم الآخر .

والله يعلم مايقع قبل ظهوره للناس . ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلا في دنيا الناس .

وفي هذا المجال الواسع المفتوح . مجال تقدير الله وتدبيره للأمور والأحداث . ومجال غواية إبليس للناس ، بلا سلطان قاهر عليهم ، إلا تسليطه ليظهر المكنون في علم الله من المصائر والنتائج . . في هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم ، في كل مكان وفي كل زمان .

Marfat.com

ويتسع مجال النص القرآني ومجال هـذا التعقيب ، فلا يعود قاصرا على قصة سبأ ، إنما يصلح تقريرا لحال البشر أجمعين . فهي قصة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما وغاياتهما ونتائجهما في كل حال .

« وربك على كل شيء حفيظ » . .

فلا يند شيء ولا يغيب ، ولا يهمل شيء ولا يضيع . .

* * *

وهكذا تنتهي الجولة الثانية في السـورة بالحديث عن الآخرة كما انتهت الجولة الأولى . وبالتركيز على علم الله وحفظه . وهما الموضوعان اللذان يشتد عليهما التركيز في السـورة والتوكيد .

« قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

« قُلْ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلِ : اللَّهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« قُلْ : لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ، وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

« قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ .

« قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ . كَلَّا . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »﴿٢٧﴾

إنها جولة قصيرة حول قضية الشرك والتوحيد . ولكنها جولة تطوف بالقلب البشري في مجال الوجود كله . ظاهره وخافيه . حاضره وغيبه . سمائه وأرضه . دنياه وآخرته . وتقف به

Marfat.com

مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال ؛ ويغشاها الذهول من الجلال . كما تقف به أمام رزقه وكسبه ، وحسابه وجزائه . وفى زحمة التجمع والاختلاط ، وفى موقف الفصل والعزل والتميز والانفراد . . كل أولئك فى إيقاعات قوية ، وفواصل متلاحقة ، وضربات كأنها الطارق : « قل .. قل . . قل . . » كل قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان فى قوة وسلطان .

* * *

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله . لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير » . .

إنه التحدى فى مجال السماوات والأرض على الإطلاق :

« قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله » . .

ادعوهم . فليأتوا . وليظهروا . وليقولوا أو لتقولوا أنتم ماذا يملكون من شيء فى السماوات أو فى الأرض جل أو هان ؟

« لايملكون مثقال ذرة فى السماوات ولافى الأرض » . .

ولاسبيل لأن يدعوا ملكية شيء فى السماوات أو فى الأرض . فالمالك لشيء يتصرف فيه وفق مشيئته . فماذا يملك أولئك المزعومون من دون الله ؟ وفى أى شيء يتصرفون تصرف المالك فى هذا الكون العريض ؟

لايملكون فى السماوات والأرض مثقال ذرة ملكية خالصة ، ولا على سبيل المشاركة :

« ومالهم فيهما من شرك » . .

والله ـ سبحانه ـ لايستعين بهم فى شيء . فما هو فى حاجة إلى معين :

« وماله منهم من ظهير » . .

ويظهر أن الآية هنا تشير إلى نوع خاص من الشركاء المزعومين . وهم الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله ؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله . ولعلهم ممن قالوا عنهم : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . . ومن ثم نفى شفاعتهم لهم فى الآية التالية . وذلك فى مشهد تفزع له الأوصال فى حضرة ذى الجلال :

« ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » . .

فالشفاعة مرهونة بإذن الله . والله لا يأذن فى الشفاعة فى غير المؤمنين به المستحقين لرحمته .

Marfat.com

فأما الذين يشركون به فليسوا أهلا لأن يأذن بالشفاعة فيهم ، لا للملائكة ولا لغيرهم من المأذونين بالشفاعة منذ الابتداء !

ثم صور المشهد الذى تقع فيه الشفاعة ؛ وهو مشهد مذهل مرهوب :

« حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير » ..

إنه مشهد فى اليوم العصيب . يوم يقف الناس ، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن يتالون هذا المقام . ويطول الانتظار . ويطول التوقع . وتعنو الوجوه . وتسكن الأصوات . وتخشع القلوب فى انتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام .

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة ، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم . ويتوقف إدراكهم عن الإدراك .

« حتى إذا فزع عن قلوبهم » .. وكشف الفزع الذى أصابهم ، وأفاقوا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم . « قالوا : ماذا قال ربكم ؟ » يقولها بعضهم لبعض . لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى . « قالوا : الحق » .. ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة : « قالوا الحق » . قال ربكم : الحق . الحق الكلى . الحق الأزلى . الحق اللدنى . فكل قوله الحق . « وهو العلى الكبير » .. وصف فى المقام الذى يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب . .

وهذه الإجابة المجملة تشى بالروعة الغامرة ، التى لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة !

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب . وهذه صورة الملائكة فيه بين يدى ربهم . فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله ، شفعاء فى من يشرك بالله ؟ !

***

ذلك هو الإيقاع الأول ، فى ذلك المشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير . . ويليه الإيقاع الثانى عن الرزق الذى يستمتعون به ، ويغفلون عن مصدره ، الدال على وحدة الخالق الرازق . الباسط القابض ، الذى ليس له شريك :

« قل من يرزقكم من السماوات والأرض .. قل : الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ..

والرزق مسألة واقعة فى حياتهم . رزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور . . ذلك

Marfat.com

فيما كان يعرفه المخاطبون ووراءه كثير من الأصناف والألوان تتكشف آنا بعد آن . . ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز . . وغيرها مما يعرفه القدامى ويتكشف غيره على مدار الزمان . .

« قل : من يرزقكم من السماوات والأرض ؟ » . .

« قل : الله » . .

فما يملكون أن يماروا فى هذا ولا أن يدعوا سواه .

قل : الله . ثم كل أمرهم وأمرك إلى الله . فأحدكما لا بد مهتد وأحدكما لا بد ضال . ولا يمكن أن تكون أنت وهم على طريق واحد من هدى أو من ضلال :

« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . .

وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب فى الجدال . أن يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمشركين : إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى ، والآخر لا بد أن يكون على ضلال . ثم يدع تحديد المهتدى منهما والضال . ليثير التدبر والتفكر فى هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم ، والرغبة فى الجدال والمحال ! فإنما هو هاد ومعلم ، يبتغى هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم ، لمجرد الإذلال والإفحام !

الجدل على هذا النحو المهذب الموحى أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام ، المستكبرين على الإذعان والاستسلام . وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق . وهو نموذج من أدب الجدل ينبغى تدبره من الدعاة . .

* * *

ومنه كذلك الإيقاع الثالث ، الذى يقف كل قلب أمام عمله وتبعته ، فى أدب كذلك وقصد وإنصاف :

« قل : لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون » . .

ولعل هذا كان ردا على اتهام المشركين بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه هم المخطئون المجارمون ! وقد كانوا يسمونهم : « الصابئين » أى المرتدين عن دين الآباء والأجداد . وذلك كما يقع من أهل الباطل أن يتهموا أهل الحق بالضلال ! فى تبجح وفى غير ما استحياء !

« قل : لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون » . .

Marfat.com

فلكل عمله . ولكل تبعته ولكل جزاؤه .. وعلى كل أن يتدبر موقفه ، ويرى إن كان يقوده إلى فلاح أو إلى بوار .

وبهذه اللمسة يوقظهم إلى التأمل والتدبر والتفكر . وهذه هى الخطوة الأولى فى رؤية وجه الحق . ثم فى الاقتناع .

* * *

ثم الإيقاع الرابع :

« قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم » . .

فنى أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل ، ليلتقى الحق بالباطل وجها لوجه ، وليدعوا أهل الحق إلى حقهم ، ويعالج الدعاة دعوتهم . وفى أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك، ويصطرع الحق والباطل ؛ وقد تقوم الشبهات أمام البراهين ؛ وقد يغشى الباطل على الحق . . ولكن ذلك كله إلى حين . . ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق ، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير .. « وهو الفتاح العليم » . . الذى يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين . .

وهذا هو الاطمئنان إلى حكم الله وفصله . فالله لابد حاكم وفاصل ومبين عن وجه الحق . وهو لايترك الأمور مختلطة إلا إلى حين . ولا يجمع بين المحقين والمبطلين إلا ريثما يقوم الحق بدعوته ، ويبذل طاقته ، ويجرب تجربته ؛ ثم يمضى الله أمره ويفصل بفصله .

والله سبحانه هو الذى يعلم ويقدر متى يقول كلمة الفصل . فليس لأحد أن يحدد موعدها ، ولا أن يستعجلها . فالله هو الذى يجمع وهو الذى يفتح . « وهو الفتاح العليم » ..

* * *

ثم يأتى الإيقاع الأخير ، شبيها بالإيقاع الأول فى التحدى عن الشركاء المزعومين :

« قل : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . كلا . بل هو الله العزيز الحكيم » . .

وفى السؤال استنكار واستخفاف : « أرونى الذين ألحقتم به شركاء » . . أرونى إياهم . من هم ؟ وماهم ؟ وما قيمتهم ؟ وما صفتهم ؟ وما مكانهم ؟ وبأى شىء استحقوا منكم هذه الدعوى ؟ .. وكلها تشى بالاستنكار والاستخفاف .

ثم الإنكار فى ردع وتأنيب : « كلا » . . فماهم بشركاء . وماله سبحانه من شركاء . « بل هو الله العزيز الحكيم » . .

Marfat.com

ومن هذه صفاته لايكون هؤلاء شركاء له . ولا يكون له على الإطلاق شريك . .

* * *

بهذا ينتهى ذلك الشوط القصير ، وتلك الإيقاعات العنيفة العميقة . فى هيكل الكون الهائل . وفى موقف الشفاعة المرهوب . وفى مصطرع الحق والباطل . وفى أعماق النفوس وأغوار القلوب .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑱ وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي

Marfat.com

الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟* قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » ٤٢

هذه الجولة تتناول موقف الذين كفروا مما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف المترفين من كل رسالة ، وهم الذين تغرهم أموالهم وأولادهم ، وما يجدون من أعراض هذه الدنيا فى أيديهم ، فيحسبونها دليلا على اختيارهم وتفضيلهم ؛ ويحسبون أنها مانعتهم من العذاب فى الدنيا والآخرة . ومن ثم يعرض عليهم مشاهدهم فى الآخرة ، كأنها واقعة ، ليروا إن كان شيء من ذلك نافعا لهم أو واقيا . وفى هذه المشاهد يتضح كذلك أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويستعينونهم يملكون لهم فى الآخرة شيئا .. وفى خلال الجدل يوضح القرآن حقيقة القيم التى لها ثقل فى ميزان الله ؛ فتنكشف القيم الزائفة التى يعتزون بها فى الحياة ؛ ويتقرر أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليسا دليلا على رضى أو غضب ولا على قربى أو بعد . إنما ذلك ابتلاء . .

* * *

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » . .

يجيء هذا البيان بعد الجولة الماضية ، ومافيها من تقرير فردية التبعة ؛ وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله .

ويتبعه هنا بيان وظيفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجهلهم بحقيقتها ؛ واستعجالهم له بما

Marfat.com

بعدهم ويوعدهم من الجزاء ؛ وتقرير أن ذلك موكول إلى موعده المقدور له فى غيب الله :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » . .

هذه هى حدود الرسالة العامة للناس جميعاً .. التبشير والإنذار . وعند هذا الحد تنتهى ؛ أما تحقيق هذا التبشير وهذا الإنذار فهو من أمر الله :

« ولكن أكثر الناس لايعلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

وهذا السؤال يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول ؛ وعدم إدراكهم لحدود الرسالة . والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد . فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة . وهو قائم فى حدود وظيفته لايتخطاها . والله هو صاحب الأمر . هو الذى أرسله ، وهو الذى حدد له عمله ؛ وليس من عمله أن يتولى – ولا حق أن يعلم – تحقيق الوعد والوعيد . . ذلك موكول إلى ربه ، وهو يعرف حدوده . فلا يسأل مجرد سؤال عن شىء لم يطلعه عليه ربه ، ولم يكل إليه أمره . وربه يكلفه أن يرد عليهم رداً معيناً فيقوم به :

« قل : لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون » . .

وكل ميعاد يجىء فى أجله الذى قدره الله له . لايستأخر لرغبة أحد ، ولايستقدم لرجاء أحد . وليس شىء من هذا عبثا ولامصادفة . فكل شىء مخلوق بقدر . وكل أمر متصل بالآخر . وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التى لايدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له .

والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية . ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون . وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال .

* * *

« وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » . .

فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى فى كل مصادره . لا القرآن ، ولا الكتب التى سبقته ، والتى تدل على صدقه . فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد . ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر ، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا فى دلائل الهدى كائنة ما كانت . فهو العمد إذن وسبق الإصرار !

عندئذ يجبههم بمشهدهم يوم القيامة ، وفيه جزاء هذا الإصرار :

Marfat.com

« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ! قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ! وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ؛ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

ذلك كان قولهم فى الدنيا : « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » . . فلو ترى قولهم فى موقف آخر. لو ترى هؤلاء الظالمين وهم « موقوفون » على غير إرادة منهم ولا اختيار ؛ إنما هم مذنبون بالوقوف فى انتظار الجزاء « عند ربهم » . . ربهم الذى يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه. ثم هاهم أولاء موقوفون عنده ! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضا ، ويؤنب بعضهم بعضا ، ويلقى بعضهم تبعة ماهم فيه على بعض : « يرجع بعضهم إلى بعض القول » . . فماذا يرجعون من القول ؟

« يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين » . .

فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة ، ومايتوقعون بعدها من البلاء ! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ؛ ولم يكونوا فى الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة . كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التى وهبها الله لهم ، والكرامة التى منحها إياهم ، والإدراك الذى أنعم به عليهم . أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة ، وواجهوا العذاب الأليم، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ! « لولا أنتم لكنا مؤمنين » !

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا . فهم فى البلاء سواء . وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذى صار بهم إلى هذا البلاء ! وعندئذ يردون عليهم باستنكار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ :

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين » !

فهو التخلى عن التبعة ، والإقرار بالهدى ، وقد كانوا فى الدنيا لا يقيمون وزنا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأياً ، ولا يعتبرون لهم وجودا ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ! أما اليوم ـ وأمام العذاب ـ فهم يسألونهم فى إنكار : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ » . .

Marfat.com

« بل كنتم مجرمين » . . من ذات أنفسكم ، لاتهتدون ، لأنكم مجرمون !

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لاينبسون ببنت شفة . ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة ؛ وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة. ومن ثم لايسكت المستضعفون ولايخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذى لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى ؛ وللتمكين للباطل ، ولتلبيس الحق ، وللامر بالمنكر ، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء :

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً » . .

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لاينفع هؤلاء ولاهؤلاء ، ولا ينجى المستكبرين ولا المستضعفين . فلكل جريته وإثمه . المستكبرون عليهم وزرهم ، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم . والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين . لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ؛ ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولا ؛ وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين . فاستحقوا العذاب جميعاً ؛ وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب خاضهاً لهم مهياً :

« وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » . .

وهي حالة الكمد الذى يدفن الكلمات في الصدور ، فلا تفوه بها الألسنة ، ولا تتحرك بها الشفاه .

ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد :

« وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا » . .

ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال ، مهملا خطابهم إلى خطاب المتفرجين !

« هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » . .

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين . وكلاهما ظالم . هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله . وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان ، وإدراك الإنسان ، وحرية الإنسان ، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان . . وكلهم في العذاب سواء . لا يجزون إلا ما كانوا يعملون . .

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص . شهدوا أنفسهم

Marfat.com

هناك وهم بعد أحياء فى الأرض . وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم . وفى الوقت متسع لتلافى ذلك الموقف لمن يشاء !

* * *

ذلك الذى قاله المترفون من كبراء قريش قاله قبلهم كل مترف أمام كل رسالة :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون » . .

فهى قصة معادة ، وموقف مكرور ، على مدار الدهور . وهو الترف يغلظ القلوب ، ويفقدها الحساسية ؛ ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية ؛ فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ، ولا تتفتح للنور .

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ، ويغرهم ماهم فيه من ثراء وقوة ، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم ، أو أنهم فى مكان أعلى من الحساب والجزاء :

« وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً ، وما نحن بمعذبين » . .

والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هى عند الله ؛ ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه ، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ؛ ولا يدل على رضى ولا غضب من الله ؛ ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء ، وعن الرضى والغضب ، يتبع قانوناً آخر من سنن الله :

« قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

وهذه المسألة . مسألة بسط الرزق وقبضه ؛ وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها . مسألة يحيك منها شئ فى صدور كثيرة . ذلك حين تتفتح الدنيا أحيانا على أهل الشر والباطل والفساد ، ويحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح ؛ فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام . أو يشك بعض الناس فى قيمة الخير والحق والصلاح ، وهم يرونها محوطة بالحرمان !

ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التى ينظر الله إليها . ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأن هذه مسألة ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما . وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على من هو عليه راض. وقد يضيق الله

Marfat.com

على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير . ولكن العلل والغايات لاتكون واحدة فى جميع هذه الحالات .

لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً ، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة ، ثم يأخذهم فى الدنيا أو فى الآخرة ـ وفق حكمته وتقديره ـ بهذا الرصيد الأثيم ! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة ، وجزعاً وضيقاً ويأساً من رحمة الله ، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال .

ولقد يغدق الله على أهل الخير ، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لولم يبسط لهم فى الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ؛ ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير فى قلوبهم . وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان ، وثقتهم بربهم ، ورجاءهم فيه ، واطمئنانهم إلى قدره ، ورضاهم بربهم وحده ، وهو خير وأبقى ؛ وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان .

وأياً ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس ، ومن حكمة الله ، فهى مسألة منفصلة عن أن تكون دليلا بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله . ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم فى الرزق أو المضيق عليهم فيه . فمن وهبه الله مالا وولداً فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله فى الثواب جزاء ما أحسن فى نعمة الله . وليست الأموال والأولاد بذاتها هى التى تقربهم من الله ؛ ولكن تصرفهم فى الأموال والأولاد هو الذى يضاعف لهم فى الجزاء :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون . والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون » . .

ثم يكرر قاعدة أن بسط الرزق وقبضه أمر آخر يريده الله لحكمة منفصلة ؛ وأن ماينفق منه فى سبيل الله هو الذخر الباقى الذى يفيد ، لتقر هذه الحقيقة واضحة فى القلوب :

« قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . .

* * *

ويختم هذه الجولة بمشهدهم محشورين يوم القيامة ، حيث يواجههم الله سبحانه بالملائكة

Marfat.com

الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ؟ ثم يذوقون عذاب النار الذى كانوا يستعجلون به ، ويقولون متى هـذا الوعد ؟ كما جاء فى أول هذا الشوط :

« ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولاضراً ، ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » . .

فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أو يتخذونهم عنده شفعاء . هؤلاء هم يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيها له من هذا الادعاء ، ويتبرأون من عبادة القوم لهم . فكأنما هذه العبادة كانت باطلا أصلا، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة . إنما هم يتولون الشيطان . إما بعبادته والتوجه إليه ، وإما بطاعته فى اتخاذ شركاء من دون الله . وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب ؛ وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة : « بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » . . ومن هنا تجيء علاقة قصة سليمان والجن بالقضايا والموضوعات التى تعالجها السورة ، على طريقة سياقة القصص فى القرآن الكريم .

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة . ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت :

« فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » . .

لا الملائكة يملكون للناس شيئاً . ولاهؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئاً . والنار التى كذب بها الظالمون ، وكانوا يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، هاهم أولاء يرونها واقعاً لاشك فيه :

« ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون »

وبهـذا تختم الجولة مركزة على قضية البعث والحساب والجزاء كسائر الجولات فى هـذه السورة .

Marfat.com

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا: مَاهٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ؛ وَقَالُوا: مَاهٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى؛ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ: إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ـ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ـ فَكَذَّبُوا رُسُلِي، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ؟

« قُلْ: إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ.. أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا.. مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

« قُلْ: مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

« قُلْ: إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ.

« قُلْ: جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ.

« قُلْ: إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

« وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا: آمَنَّا بِهِ. وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ؟ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » ﴿٥٤﴾

هذا الشوط الأخير فى السورة يبدأ بالحديث عن المشركين، ومقولاتهم عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن القرآن الذى جاء به؛ ويذكرهم بما وقع لأمثالهم، ويريهم مصرع الغابرين الذين أخذهم النكير فى الدنيا. وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى..

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة كأنما هى مطارق متوالية. يدعوهم فى أول إيقاع منها إلى

Marfat.com

أن يقوموا لله متجردين ثم يتفكروا غير متأثرين بالحواجز التى تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفى الإيقاع الثانى يدعوهم إلى التفكير فى حقيقة البواعث التى تحمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجراً ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟ ثم تتوالى الإيقاعات : قل . قل . قل . وكل منها يهز القلب هزاً ولا يتماسك له قلب به بقية من حياة وشعور !

ويختم الشوط ويختم معه السورة بمشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة . يناسب إيقاعه تلك الإيقاعات السريعة العنيفة .

* * *

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا: ماهذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم - وما بلغوا معشار ما آتيناهم - فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير ؟ » . .

لقد قابلوا الحق الواضح البين الذى يتلوه عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برواسب غامضة من آثار الماضى ، وتقاليد لاتقوم على أساس واضح ، وليس لها قوام متماسك . ولقد أحسوا خطورة مايواجههم به القرآن الكريم من الحق البسيط المستقيم المتماسك . أحسوا خطورته على ذلك الخليط المشوش من العقائد والعادات والتقاليد التى وجدوا عليها آباءهم فقالوا قولتهم تلك :

« ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » . .

ولكن هذا وحده لا يكفى . فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس مطعنا مقنعاً لجميع العقول والنفوس . ومن ثم أتبعوا الادعاء الأول بادعاء آخر يمس أمانة المبلغ ، ويرد قوله أنه جاء بما جاء به من عند الله :

« وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى » . .

والإفك هو الكذب والافتراء ؛ ولكنهم يزيدونه توكيداً : « ماهذا إلا إفك مفترى » . .

ذلك ليشككوا فى قيمته ابتداء ، متى أوقعوا الشك فى مصدره الإلهى .

ثم مضوا يصفون القرآن ذاته :

« وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » . .

Marfat.com

فهو كلام مؤثر يزلزل القلوب ، فلا يكفي أن يقولوا : إنه مفترى . فحاولوا إذن أن يعللوا وقعه القاهر فى القلوب . فقالوا : إنه سحر مبين !

فهى سلسلة من الاتهامات ، حلقة بعد حلقة ، يواجهون بها الآيات البينات كى يحولوا بينها وبين القلوب . ولا دليل لهم على دعواهم . ولكنها جملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير . أما الذين كانوا يقولون هذا القول ـ وهم الكبراء والسادة ـ فقد كانوا على يقين أنه قرآن كريم ، فوق مقدور البشر ، وفوق طاقة المتكلمين ! وقد سبق فى الظلال ماحدث به بعض هؤلاء الكبراء بعضا فى أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر القرآن ؛ ومادبروا بينهم من كيد ليصدوا به الجماهير عن هذا القرآن الذى يغلب القلوب ويأسر النفوس ! (١)

وقد كشف القرآن أمرهم ، وهو يقرر أنهم أميون لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ؛ ويعرفون به الوحى ؛ فيفتوا بأن ماجاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً ، وليس من عند الله . ولم يرسل إليهم من قبل رسول . فهم يهرفون إذن بما لاعلم لهم به ويدعون ماليس يعلمون :

« وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » !

ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل . وهم لم يؤتوا معشار ما أوتى أولئك الغابرون . من علم ، ومن مال ، ومن قوة ، ومن تعمير .. فلما كذبوا الرسل أخذهم النكير . أى الهجوم المدوى المنكر الشديد :

« وكذب الذين من قبلهم ـ وما بلغوا معشار ما أوتوا ـ فكذبوا رسلى . فكيف كان نكير ؟ » ..

ولقد كان النكير عليهم مدمراً مهلكا . وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم فى الجزيرة . فهذا التذكير يكفى . وهذا السؤال التهكمى « فكيف كان نكير ؟ » سؤال موح يلمس قلوب المخاطبين . وهم يعرفون كيف كان ذلك النكير !

* * *

وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذى يواجهونه من غير زيف ولا دخل :

---

(١) كحديث الوليد ابن المغيرة وأبى سفيان ابن حرب والأخنس ابن شريق .

Marfat.com

« قل : إنما أعظكم بواحدة . . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . .

إنها دعوة إلى القيام لله . بعيداً عن الهوى . بعيداً عن المصلحة . بعيداً عن ملابسات الأرض . بعيداً عن الهواتف والدوافع التى تشتجر فى القلب ، فتبعد به عن الله . بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة . والمؤثرات الشائعة فى الجماعة .

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط ، لامع القضايا والدعاوى الرائجة ؛ ولامع العبارات المطاطة ، التى تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة فى بساطتها .

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافى ، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس ؛ والرؤية المضطربة والغبش الذى يحجب صفاء الحقيقة .

وهى فى الوقت ذاته منهج فى البحث عن الحقيقة . منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشى والمؤثرات . وعلى مراقبة الله وتقواه .

وهى « واحدة » . . إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق . القيام لله . . لالغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة .. التجرد .. الخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذى يواجهه القائمون لله المتجردون .

« أن تقوموا لله . مثنى وفرادى » .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطى فى غير تأثر بعقلية الجماهير التى تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة فى هدوء . . وفرادى مع النفس وجها لوجه فى تمحيص هادئ عميق .

« ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة » . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوى المبين .

« إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . .

لمسة تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع ، وقد سبقه النذير بخطوة . لينقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق فى دار يوشك أن يلتهم من لايفر من الحريق . وهو تصوير — فوق أنه صادق — بارع موح مثير . .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبونعيم بشير ابن المهاجر ، حدثنى عبد الله ابن بريدة عن أبيه — رضى الله عنه — قال : خرج علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوماً ، فنادى ثلاث

Marfat.com

مرات : « أيها الناس أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم » . .

وروى بهذا الإسناد قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بعثت أنا والساعة جميعاً . إن كادت لتسبقنى » . .

ذلك هو الإيقاع الأول المؤثر الموحى . يتبعه الإيقاع الثانى :

« قل : ماسألتكم من أجرفهو لكم . إن أجرى إلا على الله . وهو على كل شئ شهيد » . .

دعاهم فى المرة الأولى إلى التفكر الهادئ البرئ . . مابصاحبكم من جنة . . ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدى عذاب شديد . مامصلحته ؟ مابواعثه ؟ ماذا يعود عليه ؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة فى صورة موحية :

« قل : ماسألتكم من أجر فهو لكم » !

خذوا أنتم الأجر الذى طلبته منكم ! وهو أسلوب فيه تهكم . وفيه توجيه . وفيه تنبيه .

« إن أجرى إلا على الله » . .

هو الذى كلفنى . وهو الذى يأجرنى . وأجره هو الذى أتطلع إليه . ومن يتطلع إلى ماعند الله فكل ماعند الناس هين عنده هزيل زهيد لايستحق التفكير .

« وهو على كل شىء شهيد » . .

يعلم ويرى ولايخفى عليه شىء . وهو علىّ شهيد . فيما أفعل وفيما أنوى وفيما أقول .

ويشتد الإيقاع الثالث وتقصر خطاه :

« قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب » . .

وهذا الذى جئتكم به هو الحق . الحق القوى الذى يقذف به الله . فمن ذا يقف للحق الذى يقذف به الله ؟ إنه تعبير مصور مجسم متحرك . وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولايقف لها أحد فى طريق . . يقذف بها الله « علام الغيوب » فهو يقذف بها عن علم ، ويوجهها على علم ، ولايخفى عليه هدف ، ولا تغيب عنه غاية ، ولا يقف للحق الذى يقذف به معترض ولاسد يعوق . فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور !

Marfat.com

ويتلوه الإيقاع الرابع فى مثل عنفه وسرعته :

« قل : جاء الحق ، ومايبدىء الباطل ومايعيد » . .

جاء هـذا الحق فى صورة من صوره ، فى الرسالة ، وفى قرآنها ، وفى منهجها المستقيم . قل : جاء الحق . أعلن هذا الإعلان . وقرر هذا الحدث . واصدع بهـذا النبأ . جاء الحق . جاء بقوته . جاء بدفعته . جاء باستعلائه وسيطرته « ومايبدىء الباطل ومايعيد » . . فقـد انتهى أمره . وماعادت له حياة ، وماعاد له مجال ، وقد تقرر مصيره وعرف أنه إلى زوال .

إنه الإيقاع المزلزل ، الذى يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد قضي ، وأنه لم يعد هناك مجال لشىء آخر يقال .

وإنه لـكذلك . فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح . ولم يعد الباطل إلا مماحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم . ومهما يقع من غلبة مادية للباطل فى بعض الأحوال والظروف ، إلا أنها ليست غلبة على الحق . إنمـا هى غلبة على المنتمين إلى الحق . غلبة الناس لا المبادىء . وهذه موقوتة ثم تزول . أما الحق فواضح بين صريح .

والإيقاع الأخير :

« قل : إن ضللت فإنمـا أضل على نفسى . وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى . إنه سميع قريب » . .

فلا عليكم إذن إن ضللت . فإنمـا أضل على نفسى . وإن كنت مهتديا فإن الله هو الذى هدانى بوحيه ، لا أملك لنفسى منه شيئاً إلا بإذنه . وأنا تحت مشيئته أسير فضله .

« إنه سميع قريب » . .

وهكذا كانوا يجدون الله . هكذا كانوا يجدون صفاته هـذه فى نفوسهم . كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقية . كانوا يحسون أن الله يسمع لهم وهو قريب منهم . وأنه معنى بأمرهم عناية مباشرة ؛ وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا واسطة . وأنه لايهملها ولايكلها إلى سواه . ومن ثم كانوا يعيشون فى أنس بربهم . فى كنفه . فى جواره . فى عطفه . فى رعايته . ويجدون هذا كله فى نفوسهم حياً ، واقعاً ، بسيطاً ، وليس معنى ولا فـكرة ولا مجرد تمثيل وتقريب .

« إنه سميع قريب » . . .

* * *

وأخيراً يجيء الختام فى مشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة المترددة بين الدنيا

Marfat.com

والأخرى . كأنما هو مجال واحد ، وهم كرة يتقاذفها السياق فى المشهد السريع العنيف :

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب » ..

« ولو ترى » .. فالمشهد معروض للأنظار . « إذ فزعوا » .. من الهول الذى فوجئوا به . وكأنما أرادوا الإفلات « فلافوت » ولاإفلات « وأخذوا من مكان قريب » .. ولم يبعدوا فى محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة .

« وقالوا : آمنا به » .. الآن بعد فوات الأوان .. « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ » وكيف يتناولون الإيمان من مكانهم هذا . ومكان الإيمان بعيد عنهم فقد كان ذلك فى الدنيا ، فضيعوه !

« وقد كفروا به من قبل » .. فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم !

« ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » .. ذلك حين أنكروا هذا اليوم ، وهوغيب كان ، فلم يكن لهم على إنكاره من دليل ، إنما كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد . واليوم يحاولون تناول الإيمان به من مكان كذلك بعيد !

« وحيل بينهم وبين مايشتهون » . . من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب الذى يشهدونه ، والنجاة من الخطر الذى يواجهونه . « كما فعل بأشياعهم من قبل » . . ممن أخذهم الله ، فطلبوا النجاة بعد نفاذ الأمر ، وبعد أن لم يعد منه مفر .

« إنهم كانوا فى شك مريب » .. فهاهو ذا اليقين بعد الشك المريب !

* * *

وهكذا تختم السورة فى هذا الإيقاع السريع العنيف الشديد . وتختم بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يثبت القضية التى عليها التركيز والتوكيد فى السورة . كما مضى فى نهاية كل شوط فيها وفى ثناياها . وقد بدأت السورة بهذه القضية وختمت بها هذا الختام العنيف .

Marfat.com

سورة فاطر مكية
وآياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① »

« مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② »

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ » ③

هذه السورة المكية نسق خاص فى موضوعها وفى سياقها . أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . فهى تمضى فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها . إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزا ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ؛ وليتدبر آيات الله المبثوثة فى تضاعيفه ، المتناثرة فى صفحاته ؛ وليتذكر آلاء الله ، ويشعر برحمته ورعايته ؛ وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهدهم يوم القيامة ؛ وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده فى أطواء الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى حياة البشر ، وفى أحداث التاريخ . وهو يرى ويلمس فى تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة . . . ذلك كله فى أسلوب وفى إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

Marfat.com

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات . يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات . فهي كلها موضوع واحد . كلها إيقاعات على أوتار القلب البشري ، تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث . فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع ، إلى الإيمان والخشوع والإذعان .

والسمة البارزة الملحوظة في هذه الإيقاعات هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة . وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ؛ وتقبضها وتبسطها ، وتشدها وترخيها . بلا معقب ولا شريك ولا ظهير .

ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة ، وتطرد إلى ختامها . .

هذا الكون الهائل نلمح اليد القادرة القاهرة تبرزه إلى الوجود وفق ماتريد : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » . .

وهذه القبضة القوية تنفرج فترسل بالرحمة تتدفق وتفيض ، وتنقبض فتغلق ينابيعها وتغيض . بلا معقب ولا شريك :

« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . .

والهدى والضلال رحمة تتدفق أو تغيض : « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » . . « إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير » . .

وهذه اليد تصنع الحياة الأولى وتنشر الموتى في الحياة الآخرة : « والله الذي أرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور » . .

والعزة كلها لله ومنه وحده تستمد : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » . .

والخلق والتكوين والنسل والأجل خيوطها كلها في تلك اليد لاتند عنها : « والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ، ولاينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير » :

وفي تلك القبضة تتجمع مقاليد السماوات والأرض وحركات الكواكب والأفلاك : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم

Marfat.com

الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » . .

ويد الله المبدعة تعمل فى هـذا الـكون بطريقتها الملهمة ، وتصبغ وتلون فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

وهذه اليد تنقل خطى البشر ، وتورث الجيل الجيل : « ثم أورثنا الـكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » .. « هو الذى جعلـكم خلائف فى الأرض » ..

وهى تمسك بهذا الـكون الهائل تحفظه من الزوال . « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » ..

وهى القابضة على أزمة الأمور لايعجزها شىء على الإطلاق : « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولافى الأرض » ..

وهو « على كل شىء قدير » .. وهو « العزيز الحـكيم » .. « وإلى الله ترجع الأمور » وهو « عليم بما يصنعون » .. « وله الملك » .. وهو « الغنى الحميد » .. « وإلى الله المصير » .. وهو « عزيز غفور » .. وهو « غفور شكور » .. وإنه بعباده « لخبير بصـير » .. وهو « عـالم غيب السماوات والأرض » .. وهو « عليم بذات الصـدور » .. وكان « حليما غفورا » .. وكان « عليما قديرا » .. وكان « بعباده بصيرا » . .

ومن تلك الآيات وهذه التعقيبات يرتسم جو السـورة ، والسمة الغالبة عليها ، والظل الذى تلقيه فى النفس على وجه العموم .

ونظرا لطبيعة السورة فقد اخترنا تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعانى لتيسير تناولها . وإلا فهى شوط واحد متصل الإيقاعات والحلقات من بدئها إلى نهايتها ...

***

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائـكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير » . .

تبدأ السـورة بتقديم الحمد لله . فهى سورة قوامها توجيه القلب إلى الله ، وإيقاظه لرؤية

Marfat.com

آلائه ، واستثمار رحمته وفضله ، وتملى بدائع صنعه فى خلقه ، وامتلاء الحس بهذه البدائع ، وفيضه بالتسبيح والحمد والابتهال :

« الحمد لله » . .

ويتلو حمد الله ذكر صفته الدالة على الخلق والإبداع :

« فاطر السماوات والأرض » . .

فهو منشىء هذه الخلائق الهائلة التى نرى بعضها من فوقنا ومن تحتنا حيث كنا ، والتى لانعرف إلا القليل عن أصغرها وأقربها إلينا . . أمنا الأرض . . والتى ينتظمها ناموس واحد يحفظها فى تناسق وتوافق ، على ما بينها من أبعاد هائلة لايتصورها خيالنا البشرى إلا بمشقة عظيمة ؛ والتى تحوى - مع ضخامتها وتباعد أفلاكها ومداراتها - من أسرار التناسب فيما بينها مالو اختلت فيه نسبة صغيرة لتحطمت كلها وتناثرت بددا .

وإننا لنمر على مثل هذه الإشارة فى القرآن الكريم إلى خلق السماوات والأرض ، دون أن نقف أمامها طويلا لنتدبر مدلولها الهائل ؛ كما نمر على مشاهد السماوات والأرض ذاتها بمثل هذه البلادة ، لانقف أمامها إلا قليلا . ذلك أن حسنا قد تبلد ، فلم تعد تلك المشاهد توقع على أوتاره تلك الإيقاعات الموقظة الموحية ، التى توقعها على القلوب الموصولة بذكر الله ، المتيقظة لآثار يده المبدعة فى هذا الوجود . وذلك أن الألفة قد أفقدتنا الوهلة والروعة التى يحسها القلب وهو ينظر إلى مثل هذه البدائع للمرة الأولى .

ولايحتاج القلب المفتوح الواعى الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم فى السماء ، وأحجامها ونسبها ، ونسب الفضاء حولها ، وطرق سيرها فى مداراتها ، وعلاقة بعضها ببعض فى أحجامها وأوضاعها وحركاتها ... لايحتاج القلب المفتوح الواعى " ... رب بالله إلى علم دقيق بهذا كله ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجليل العجيب . فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره . حسبه مشهد النجوم المتناثرة فى الليلة الظلماء . حسبه مشهد النور الفائض فى الليلة القمراء . حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحى بالتنفس والانطلاق . حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحى بالوداع والانتهاء .. بل حسبه هذه الأرض ومافيها من مشاهد لاتنتهى ولايستقصيها سائح يقضى عمره فى السياحة والتطلع والتملى .. بل حسبه زهرة واحدة لاينتهى التأمل فى ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها . . .

والقرآن يثير إشاراته الموحية لتدبر هذه الخلائق . . الجليل منها والدقيق . . وحسبه

Marfat.com

القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها ، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال . .

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض » .. « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » .

والحديث في هذه السورة يتردد حول الرسل والوحي وما أنزل الله من الحق .. والملائكة هم رسل الله بالوحي إلى من يختاره من عباده في الأرض . وهذه الرسالة هي أعظم شيء وأجله . ومن ثم يذكر الله الملائكة بصفتهم رسلا عقب ذكره لخلق السماوات والأرض . وهم صلة ما بين السماء والأرض . وهم يقومون بين فاطر السماوات والأرض ، وأنبيائه ورسله إلى الخلق بأعظم وظيفة وأجلها .

ولأول مرة ــ فيما مر بنا من القرآن في هذه الظلال ــ نجد وصفا للملائكة يختص بهيئتهم . وقد ورد وصفهم من قبل من ناحية طبيعتهم ووظيفتهم ، مثل قوله تعالى : « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون [1] » .. وقوله : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون [2] » .. أما هنا فنجد شيئاً يختص بتكوينهم الخلق : « أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » . . وهو وصف لا يمثلهم للتصور . لأننا لا نعرف كيف هم ولا كيف أجنحتهم هذه . ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف ، دون تصور معين له . فكل تصور قد يخطىء . ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد . والذي ورد في القرآن هو هذا ؛ وهو قوله تعالى في وصف جهنم : « عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [3] » . . وهو كذلك لا يحدد شكلا ولا هيئة . والذي ورد في الأثر : « أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى جبريل في صورته مرتين» وفي رواية : «له ست مئة جناح [4]» . . وهو كذلك لا يعين شكلا ولا هيئة . فالأمر إذن مطلق . والعلم لله وحده في هذه الغيبيات .

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع . حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر . يذكر أن الله « يزيد في الخلق ما يشاء » . . فيقرر طلاقة المشيئة ، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق . . وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق . ووراء ما نعلم أكثر وأكثر . . « إن الله على كل شيء قدير » . . وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل .

(1) سورة الأنبياء . آية : ١٩ ــ ٢٠
(2) سورة الأعراف . آية : ٢٠٦
(3) سورة التحريم . آية : ٦
(4) متفق عليه من رواية ابن مسعود .

Marfat.com

فلا تبقى وراءه صورة لا يتداولها مدلوله ، من صور الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل .

* * *

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » ..

فى هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التى ختم بها الآية الأولى . وحين تستقر هذه الصورة فى قلب بشرى يتم فيه تحول كامل فى تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه فى هذه الحياة جميعاً .

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة فى السماوات والأرض وتصله بقوة الله . وتيئسه من مظنة كل رحمة فى السماوات والأرض وتصله برحمة الله . وتوصد أمامه كل باب فى السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله . وتغلق فى وجهه كل طريق فى السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله .

ورحمة الله تتمثل فى مظاهر لا يحصيها العد ؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها فى ذات نفسه وتكوينه ، وتكريمه بما كرمه ؛ وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته ؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير .

ورحمة الله تتمثل فى الممنوع تمثلها فى الممنوح . ويجدها من يفتحها الله له فى كل شىء ، وفى كل وضع ، وفى كل حال ، وفى كل مكان .. يجدها فى نفسه ، وفى مشاعره ؛ ويجدها فيما حوله ، وحيثما كان ، وكيفما كان . ولو فقد كل شىء مما يعد الناس فقده هو الحرمان .. ويفتقدها من يمسكها الله عنه فى كل شىء ، وفى كل وضع ، وفى كل حالة ، وفى كل مكان . ولو وجد كل شىء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان !

وما من نعمة ــ يمسك الله معها رحمته ــ حتى تنقلب هى بذاتها نقمة . وما من محنة ــ تحفها رحمة الله ــ حتى تكون هى بذاتها نعمة .. ينام الإنسان على الشوك ــ مع رحمة الله ــ فإذا هو مهاد . وينام على الحرير ــ وقد أمسكت عنه ــ فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور ــ برحمة الله ــ فإذا هى هوادة ويسر . ويعالج أيسر الأمور ــ وقد تخلت رحمة الله ــ فإذا هى مشقة وعسر . ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هى أمن وسلام . ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هى مهلكة وبوار !

ولا ضيق مع رحمة الله . إنما الضيق فى إمساكها دون سواه . لا ضيق ولو كان صاحبها

Marfat.com

فى غياهب السجن ، أوفى جحيم العذاب أوفى شعاب الهلاك . ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان فى أعطاف النعيم ، وفى مراتع الرخاء . فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والرضى والطمأنينة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة !

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب ، وتوصد جميع النوافذ ، وتسد جميع المسالك .. فلا عليك . فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء .. وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع . وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء !

هذا الفيض يفتح ، ثم يضيق الرزق . ويضيق السكن . ويضيق العيش ، وتخشن الحياة ، ويشوك المضجع .. فلاعليك . فهوالرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة . وهذا الفيض يمسك . ثم يفيض الرزق ويقبل كل شئ . فلا جدوى . وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء !

المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان . . تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

يبسط الله الرزق ـ مع رحمته ـ فإذا هو متاع طيب ورخاء ؛ وإذا هو رغد فى الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ببخل أومرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

ويمنح الله الذرية ـ مع رحمته ـ فإذا هى زينة فى الحياة ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر فى الآخرة بالخلف الصالح الذى يذكر الله . ويمسك رحمتـه فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء ، وسهر بالليل وتعب بالنهار !

ويهب الله الصحة والقوة ـ مع رحمتـه ـ فإذا هى نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة . ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوى ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب !

ويعطى الله السلطان والجاه ـ مع رحمته ـ فإذا هى أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر . ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما ، ومصدر طغيان وبغى بهما ، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لايقر له معهما

Marfat.com

قرار ، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان ، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار !

والعلم الغزير . والعمر الطويل . والمقام الطيب . كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال . . مع الإمساك ومع الإرسال . . وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر يبارك الله فيه . وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد . في كل أمر وفي كل وضع ، وفي كل حال . . ولا يصعب القياس على هذه الأمثال !

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك . ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة . ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة . والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها . وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً . « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النار . ووجدها يوسف ـ عليه السلام ـ في الجب كما وجدها في السجن . ووجدها يونس ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث . ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور . فقال بعضهم لبعض : « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » . ووجدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار . . ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ماسواها . منقطعاً عن كل شبهة في قوة ، وعن كل مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب .

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثم فلا مخافة من أحد . ولا رجاء في أحد . ولا مخافة من شيء ، ولا رجاء في شيء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هي مشيئة الله . مايفتح الله فلا ممسك . ومايمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله . . « وهو العزيز الحكيم » . . يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك . ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك .

« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » . .

ومابين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه ، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام .

Marfat.com

« وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

فلا رجاء فى أحد من خلقه ، ولا خوف لأحد من خلقه . فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله .

أية طمأنينة ؟ وأى قرار ؟ وأى وضوح فى التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية فى الضمير ؟ !

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة ؛ وتنشئ فى الشعور قيما لهذه الحياة ثابتة ؛ وموازين لاتهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها . ذهبت أم جاءت . كبرت أم صغرت . جلت أم هانت . كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء !

صورة واحدة لو استقرت فى قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات . ولو تضافر عليها الإنس والجن . وهم لايفتحون رحمة الله حين يمسكها ، ولا يمسكونها حين يفتحها . . « وهو العزيز الحكيم » . .

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر فى صدر الإسلام . الفئة التى صنعت على عين الله بقرآنه هذا ! لتكون أداة من أدوات القدرة ، تنشئ فى الأرض ماشاء الله أن ينشئ من عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، ونظم وأوضاع . وتقر فى الأرض ماشاء الله أن يقر من نماذج الحياة الواقعة التى تبدو لنا اليوم كالأساطير والأحلام . الفئة التى كانت قدراً من قدر الله يسلطه على من يشاء فى الأرض فيمحو ويثبت فى واقع الحياة والناس ماشاء الله من محو ومن إثبات . ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هذا القرآن ، ولا مع المعانى الجميلة التى تصورها . . وكفى . . ولكنها كانت تتعامل مع الحقيقة التى تمثلها آيات القرآن ، وتعيش فى واقعها بها ، ولها . .

وما يزال هذا القرآن بين أيدى الناس ، قادراً على أن ينشئ بآياته تلك أفراداً وفئات تمحو وتثبت فى الأرض — بإذن الله — ماشاء الله . . ذلك حين تستقر هذه الصور فى القلوب ، فتأخذها جداً ، وتتمثلها حقاً . حقاً تحسه ، كأنها تلمسه بالأيدى وتراه بالأبصار . .

* * *

ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه فى هذه الآية . .

لقد واجهتنى هذه الآية فى هذه اللحظة وأنا فى عسر وجهد وضيق ومشقة . واجهتنى فى لحظة جفاف روحى ، وشقاء نفسى ، وضيق بضائقة ، وعسر من مشقة . . واجهتنى فى ذات

Marfat.com

اللحظة . ويسر الله لى أن أطلع منها على حقيقتها . وأن تسكب حقيقتها فى روحى ؛ كأنما هى رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه فى كيانى . حقيقة أذوقها لامعنى أدركه . فكانت رحمة بذاتها . تقدم نفسها لى تفسيراً واقعيا لحقيقة الآية التى تفتحت لى تفتحها هذا . وقد قرأتها من قبل كثيراً ، ومررت بها من قبل كثيراً . ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها ، وتنزل بحقيقتها المجردة ، وتقول : هأنذا . . نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها . فانظر كيف تكون !

إنه لم يتغير شئ مما حولى . ولكن لقد تغير كل شئ فى حسى ! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ، كالحقيقة الكبرى التى تتضمنها هذه الآية . نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ؛ ولكنه قلما يقدر على تصورها ، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة . وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها . وتم هذا كله فى أشد لحظات الضيق والجفاف التى مرت بى فى حياتى . وهأنذا أجد الفرج والفرح والرى والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق . وأنا فى مكانى ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها فى آية من آياته . آية من القرآن تفتح كوة من النور . وتفجر ينبوعاً من الرحمة . وتشق طريقاً ممهوداً إلى الرضى والثقة والطمأنينة والراحة فى ومضة عين وفى نبضة قلب وفى خفقة جنان . اللهم حمداً لك. اللهم منزل هذا القرآن . هدى ورحمة للمؤمنين ...

* * *

ونعود بعد تسجيل هذه الومضة إلى سياق السورة . . فنجده يؤكد فى الآية الثالثة إيحاء الآيتين الأولى والثانية ؛ فيذكر الناس بنعمة الله عليهم ؛ وهو وحده الخالق وهو وحده الرازق ، الذى لاإله إلا هو ؛ ويعجب كيف يصرفون عن هذا الحق الواضح المبين :

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لاإله إلا هو . فأنى تؤفكون ؟ » . .

ونعمة الله على الناس لاتتطلب إلا مجرد الذكر ؛ فإذا هى واضحة بينة ، يرونها ويحسونها ويلمسونها ، ولكنهم ينسون فلا يذكرون .

وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم ، وتفيضان عليهم بالرزق ؛ وفى كل خطوة ، وفى كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض . يفيضها الخالق على خلقه . فهل من خالق غيره يرزقهم بما فى أيديهم من هذا الفيض العميم ؟ إنهم لايملكون

Marfat.com

أن يقولوا هـذا ، وما كانوا يدعونه وهم فى أغلظ شركهم وأضله . فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله ، فما لهم لايذكرون ولايشكرون ؟ ومالهم ينصرفون عن حمد الله والتوجه إليه وحده بالحمد والابتهال ؟ إنه « لاإله إلا هو » فكيف يصرفون عن الإيمان بهذا الحق الذى لامراء فيه . . « فأنى تؤفكون ؟ » . . وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هـذا الحق ، الذى يواجههم به مابين أيديهم من الرزق . وإنه لعجيب أن ينصرف عن حمـد الله وشكره من لايجد مفراً من الاعتراف بذلك الحق المبين !

* * *

هذه الإيقاعات الثلاثة القوية العميقة هى المقطع الأول فى السورة . وفى كل منها صورة تخلق الإنسان خلقاً جديداً حين تستقر فى ضميره على حقيقتها العميقة . وهى فى مجموعها متكاملة متناسقة فى شتى الاتجاهات . .

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ * الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ⑧

انتهى المقطع الأول من السورة بتلك الإيقاعات الثلاثة العميقة ، بتلك الحقائق الكبيرة الأصيلة : حقيقة وحدانية الخالق المبدع . وحقيقة الاختصاص بالرحمة . وحقيقة الانفراد بالرزق .

وفى المقطع الثانى يتجه أولا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالتسلية والتسرية عن

Marfat.com

تكذيبهم له ، ويرجع الأمر كله إلى الله . ويتجه ثانيا إلى الناس يهتف بهم : إن وعد الله حق ، ويحذرهم لعب الشيطان بهم ليخدعهم عن تلك الحقائق الكبرى ، ويذهب بهم إلى السعير ـ وهو عدوهم الأصيل ـ ويكشف لهم عن جزاء المؤمنين وجزاء المخدوعين بالعدو الأصيل ! ويتجه أخيرا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يأسى عليهم وتذهب نفسه حسرات فإن الهدى والضلال بيد الله . والله عليم بما يصنعون .

* * *

يخاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور » ..

تلك هي الحقائق الكبرى واضحة بارزة ؛ فإن يكذبوك فلا عليك من التكذيب ، فلست بدعا من الرسل : « فقد كذبت رسل من قبلك » والأمر كله لله ، وإليه ترجع الأمور ، وما التبليغ والتكذيب إلا وسائل وأسباب ، والعواقب متروكة لله وحده ، يدبر أمرها كيف يريد .

ويهتف بالناس :

« يا أيها الناس إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ..

إن وعد الله حق .. إنه آت لاريب فيه . إنه واقع لايتخلف . إنه حق والحق لابد أن يقع ، والحق لايضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكنوه من أنفسكم « ولا يغرنكم بالله الغرور » . والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم « فاتخذوه عدوا » لاتركنوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحا لكم ، ولاتتبعوا خطاه ، فالعدو لايتبع خطى عدوه وهو يعقل ! وهو لايدعوكم إلى خير ، ولاينتهي بكم إلى نجاة : « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير ؟ !

إنها لمسة وجدانية صادقة . فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات . يتحفز لدفع الغواية والإغراء ؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ، ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين ، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم !

Marfat.com

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير . حالة التوفز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالغواية ؛ كما يتوفز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية ! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان . حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبدا .

ثم يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبوا دعوة الشيطان ، وحالة المؤمنين الذين طاردوه :

« الذين كفروا لهم عذاب شديد . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » . .

* * *

ويعقب على هذا بتصوير طبيعة الغواية ، وحقيقة عمل الشيطان ، والباب الذي يفتح فيجيء منه الشر كله ؛ ويمتد منه طريق الضلال الذي لا يرجع منه سالك متى أبعدت فيه خطاه :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ... ؟ » . .

هذا هو مفتاح الشر كله . . أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا . أن يعجب بنفسه وبكل مايصدر عنها . ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه ، لأنه واثق من أنه لا يخطىء ! متأكد أنه دائما على صواب ! معجب بكل مايصدر منه ! مفتون بكل مايتعلق بذاته . لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء ، ولا أن يحاسبها على أمر . وبطبيعة الحال لايطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه . لأنه حسن في عين نفسه . مزين لنفسه وحسه . لامجال فيه للنقد ، ولاموضع فيه للنقصان !

هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على إنسان ؛ وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال . فإلى البوار !

إن الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب . فلا يأمن مكر الله . ولا يأمن تقلب القلب . ولا يأمن الخطأ والزلل . ولا يأمن النقص والعجز . فهو دائم التفتيش في عمله . دائم الحساب لنفسه . دائم الحذر من الشيطان . دائم التطلع لعون الله .

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال ، وبين الفلاح والبوار .

Marfat.com

إنها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن فى ألفاظ معدودة :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » ..

إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير . ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين هو هذا الغرور . هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق . ولا يحسن عملا لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء . ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطىء ! ولا يصلح فاسدا لأنه مستيقن أنه لا يفسد ! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح !

إنه باب الشر . ونافذة السوء . ومفتاح الضلال الأخير ..

ويدع السؤال بلا جواب .. « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟ » .. ليشمل كل جواب . كأن يقال : أفهذا يرجى له صلاح ومتاب ؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله ؟ أفهذا يستوى مع المتواضعين الأتقياء ؟ ... إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال . وهو أسلوب كثير التردد فى القرآن .

وتجيب الآية بأحد هذه الأجوبة من بعيد :

« فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » ..

وكأنما يقول : إن مثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة ؛ مستحقاً لها بما زين له الشيطان من سوء عمله ؛ وبما فتح عليه هذا الباب الذى لا يعود منه ضال !

فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ؛ بما تقتضيه طبيعة الضلال فى ذلك وطبيعة الهدى فى هذا . طبيعة الضلال برؤية العمل حسنا وهو سوء . وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى .. وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال .

وما دام الأمر كذلك « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » ..

إن هذا الشأن . شأن الهدى والضلال . ليس من أمر بشر . ولو كان هو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما هو من أمر الله . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان . وهو مقلب القلوب والأبصار .. والله — سبحانه — يعزى رسوله ويسليه بتقرير هذه الحقيقة له . حتى يستقر قلبه الكبير الرحيم المشفق على قومه مما يراه من ضلالهم ، ومصيرهم المحتوم بعد هذا الضلال وحتى يدع ما يجيش فى قلبه البشرى من حرص على هداهم ، ومن رؤية الحق الذى جاء به معروفاً بينهم ! وهو حرص بشرى معروف . يرفق الله سبحانه برسوله من وقعه فى حسه ،

Marfat.com

فيبين له أن هذا ليس من أمره ، إنما هو من أمر الله .

وهى حالة يعانيها الدعاة كلما أخلصوا فى دعوتهم ، وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير . ورأوا الناس فى الوقت ذاته يصدون عنها ويعرضون ؛ ولا يرون مافيها من الخير والجمال . ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال . وأولى أن يدرك الدعاة هذه الحقيقة التى واسى بها الله ـ سبحانه ـ رسوله . فيبلغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد . ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح .

« إن الله عليم بما يصنعون » ..

وهو يقسم لهم الهدى أو الضلال وفق علمه بحقيقة صنعهم . والله يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم ؛ ويعلمها بعد أن تكون . وهو يقسم لهم وفق علمه الأزلى . ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون .

* * *

وبذلك ينتهى المقطع الثانى فى السورة . وهو متصل بالمقطع الأول . ومتسق كذلك مع المقطع الذى يليه ..

« وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ، فَتُثِيرُ سَحَابًا ، فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ⑨

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ؛ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ؛ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ؛ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

Marfat.com

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ، وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ؛ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ ؛ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ ؛ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » ﴿١٤﴾

هـذا المقطع الثالث جولات متتابعة فى المجال الكونى الذى يعرض فيه القرآن دلائل الإيمان ؛ ويتخذ من مشاهده المعروضة للبصائر والأبصار أدلته وبراهينه .

وهذه الجولات المتتابعة تجىء فى السورة عقب الحديث عن الهدى والضلال ، وعن تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن إعراض المعرضين ، وتفويض هـذا الأمر لصاحبه العليم بما يصنعون .. فمن شاء أن يؤمن فهذه أدلة الإيمان معروضة فى صفحة الكون حيث لاخفاء فيها ولا غموض . ومن شاء أن يضل فهو يضل عن بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب .

وفى مشهد الحياة النابضة بعد الموات حجة . وفيه دليل على البعث والنشور . وفى خلق الإنسان من تراب ، ثم صيرورته إلى هذا الخلق الراقى حجة . وكل مرحلة من مراحل خلقه وحياته تمضى وفق قدر مرسوم فى كتاب مبين .

وفى مشهد البحرين المتميزين وتنويعهما حجة . وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضى الشكر والعرفان .

وفى مشهد الليل والنهار يتداخلان ويطولان ويقصران حجة . وفيهما على التقدير والتدبير دليل . وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق العجيب .

هذه كلها حجج ودلائل معروضة فى المجال الكونى الفسيح . وهـذا هو الله خالقها ومالكها . والذين يدعون من دون الله مايملكون من قطمير . ولا يسمعون ولا يستجيبون .

Marfat.com

ويوم القيامة يتبرأون من عبادهم الضلال . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

* * *

« والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور » . .

وهذا المشهد يتردد فى معرض دلائل الإيمان الكونية فى القرآن . مشهد الرياح ، تثير السحب ؛ تثيرها من البحار ، فالرياح الساخنة هى المثيرة للبخار ؛ والرياح الباردة هى المكثفة له حتى يصير سحابا ؛ ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية فى طبقات الجو المختلفة ، فتذهب يمينا وشمالا إلى حيث يريد الله لها أن تذهب ، وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات ، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل .. إلى بلد ميت .. مقدر فى علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب . والماء حياة كل شيء فى هذه الأرض . « فأحيينا به الأرض بعد موتها » .. وتتم الخارقة التى تحدث فى كل لحظة والناس فى غفلة عن العجب العاجب فيها . وهم مع وقوع هذه الخارقة فى كل لحظة يستبعدون النشور فى الآخرة . وهو يقع بين أيديهم فى الدنيا . . « كذلك النشور » . . فى بساطة ويسر ، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد !

هذا المشهد يتردد فى معرض دلائل الإيمان الكونية فى القرآن لأنه دليل واقعى ملموس ، لا سبيل إلى المكابرة فيه . ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقا حين تتملاه وهى يقظى ؛ ويلمس الشاعر لمسا موحيا حين تتجه إلى تأمله . وهو مشهد بهيج جميل مثير . وبخاصة فى الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهى محل جدب جرداء . ثم يمر عليها غدا وهى ممرعة خضراء من آثار الماء . والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين . وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون .

* * *

ومن مشهد الحياة النابضة فى الموات ينتقل نقلة عجيبة ـ شيئا ـ إلى معنى نفسى ومطلب شعورى .

ينتقل إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء . ويربط هذا المعنى بالقول الطيب الذى يصعد إلى الله والعمل الصالح الذى يرفعه الله . كما يعرض الصفحة المقابلة . صفحة التدبير السيء والمكر الخبيث ، وهو يهلك ويبور :

Marfat.com

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » ..

ولعل الرابط الذى يصل بين الحياة النامية فى الموات ، والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، هو الحياة الطيبة فى هذه وفى تلك ؛ وما بينهما من صلة فى طبيعة الكون والحياة . وهى الصلة التى سبقت الإشارة إليها فى سورة إبراهيم . « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » .. وهو شبه حقيقى فى طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة ؛ وما فيهما من حياة ونماء . والكلمة تنمو وتمتد وتثمر كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر سواء بسواء !

وقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية فى مكة ، ومايقوم عليها من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة ، وما تحققه هذه السيادة من مغانم متعددة الألوان . العزة والمنعة فى أولها بطبيعة الحال . مما جعلهم يقولون : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ..

والله يقول لهم :

« من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً » ..

وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر فى القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً !

إن العزة كلها لله . وليس شىء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذى ليس لها مصدر غيره . ليطلبها عند الله ، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد ، ولا فى أى كنف ، ولا بأى سبب « فإن العزة لله جميعاً » ..

إن الناس الذين كانت قريش تبتغى العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة ؛ وتخشى اتباع الهدى - وهى تعترف أنه الهدى - خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى . إن الناس هؤلاء . القبائل والعشائر وما إليها . إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة ، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها « فإن العزة لله جميعاً » .. وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله . وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله. وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول ، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر . ليأخذ من الأصل الذى عنده وحده كل العزة ، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم . وهم مثله طلاب محاويج ضعاف !

Marfat.com

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية . وهى حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل النهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب ! ويكفى أن تستقر هذه الحقيقة وحدها فى أى قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً فى وقفته غير مزعزع ، عارفا طريقه إلى العزة ، طريقه الذى ليس هنالك سواه !

إنه لن يحنى رأسه لمخلوق متجبر . ولا لعاصفة طاغية . ولا لحدث جلل . ولا لوضع ولا لحكم . ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً . وعلام ؟ والعزة لله جميعاً . وليس لأحد منها شئ إلا برضاه ؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح :

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . .

ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله . القول الطيب والعمل الصالح . القول الطيب الذى يصعد إلى الله فى علاه ؛ والعمل الصالح الذى يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع . ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر فى القلب قبل أن يكون لها مظهر فى دنيا الناس . حقيقة تستقر فى القلب فيستعلى بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلى بها على نفسه أول مايستعلى . يستعلى بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس . ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه . فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم ، ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع وعلى كل شئ وعلى كل إنسان . . وهذه هى العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان !

إن العزة ليست عنادا جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل . وليست طغياناً فاجراً يضرب فى عتو وتجبر وإصرار . وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة . وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح . . كلا ! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس ، واستعلاء على القيد والذل ، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله . ثم هى خضوع لله وخشوع ؛ وخشية لله وتقوى ، ومراقبة لله فى السراء والضراء . . ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه . ومن هذه الخشية لله تصمد لكل مايأباه . ومن هذه المراقبة لله لاتعنى إلا برضاه .

Marfat.com

هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة ، وهذه هى الصلة بين هذا المعنى وذاك فى السياق . ثم تكمل بالصفحة المقابلة :

« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون . ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها فى السوء . فهؤلاء لهم عذاب شديد . فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور . فلا يحيا ولا يثمر . من البوار ومن البوران سواء . وذلك تنسيقاً مع إحياء الأرض وإثمارها فى الآية السابقة .

والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلبا للعزة الكاذبة ، والغلبة الموهومة . وقد يبدو فى الظاهر أنهم أعلياء ، وأنهم أعزاء ، وأنهم أقوياء . ولكن القول الطيب هو الذى يصعد إلى الله ، والعمل الصالح هو الذى يرفعه إليه . وبهما تكون العزة فى معناها الواسع الشامل . فأما المكر السيء قولا وعملا فليس سبيلا إلى العزة ولوحقق القوة الطاغية الباغية فى بعض الأحيان . إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد . وعد الله . لا يخلف الله وعده . وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم فى تدبير الله المرسوم .

* * *

ثم يجىء مشهد النشأة الأولى للإنسان بعد الكلام عن نشأة الحياة كلها بالماء . ويذكر مايلابس تلك النشأة من حمل فى البطون ؛ ومن عمر طويل وعمر قصير . وكله فى علم الله المكنون .

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » . .

والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيراً فى القرآن ؛ وكذلك الإشارة إلى أول مراحل الحمل : النطفة . . والتراب عنصر لا حياة فيه ، والنطفة عنصر فيه الحياة . والمعجزة الأولى هى معجزة هذه الحياة التى لا يعلم أحد كيف جاءت ، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول . ومازال هذا سراً مغلقاً على البشر ؛ وهو حقيقة قائمة مشهودة ، لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها . ودلالتها على الخالق المحيى القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها .

هذا والنقلة من غير الحى إلى الحى نقلة بعيدة بعيدة أكبر وأضخم من كل أبعاد الزمان والمكان . وتأمل هذه النقلة لا ينتهى ولا يمله القلب الحى الذى يتدبر أسرار هذا الوجود العجيبة . وكل سر منها أضخم من الآخر وأعجب صنعا .

Marfat.com

والنقلة بعد ذلك من النطفة التي تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين ، حين يتميز الذكر من الأنثى ، وتتحقق الصورة التي يشير إليها القرآن في هذه الآية : « ثم جعلكم أزواجا » .. سواء كان المقصود جعلكم ذكرا وأنثى وأنتم أجنة ، أو كان المقصود جعلكم أزواجا بعد ولادتكم وتزاوج الذكر والأنثى . . هذه النقلة من النطفة إلى هذين النوعين المتميزين نقلة بعيدة كذلك بعيدة ! فأين الخلية الواحدة في النطفة من ذلك الكائن الشديد التركيب والتعقيد ، الكثير الأجهزة المتعدد الوظائف ؟ وأين تلك الخلية المبهمة من ذلك الخلق الحافل بالخصائص المتميزة ؟

إن تتبع هذه الخلية الساذجة وهي تنقسم وتتوالد ؛ وتتركب كل مجموعة خاصة من الخلايا المتولدة منها لتكوين عضو خاص له وظيفة معينة وطبيعة معينة . ثم تعاون هذه الأعضاء وتناسقها وتجمعها لتكون مخلوقا واحدا على هذا النحو العجيب ؛ ومخلوقا متميزا من سائر المخلوقات الأخرى من جنسه ، بل من أقرب الناس إليه ، بحيث لا يتماثل أبدا مخلوقان اثنان .. وكلهم من نطفة لا تميز فيها يمكن إدراكه ! .. ثم تتبع هذه الخلايا حتى تصير أزواجا ، قادرة على إعادة النشأة بنطف جديدة ، تسير في ذات المراحل ، دون انحراف .. إن هذا كله لعجب لا ينقضي منه العجب . ومن ثم هذه الإشارة التي تتردد في القرآن كثيراً عن تلك الخارقة المجهولة السر ؛ بل تلك الخوارق المجهولة الأسرار ! لعل الناس يشغلون قلوبهم بتدبرها ، ولعل أرواحهم تستيقظ على الإيقاع المتكرر عليها !

وإلى جوار هذه الإشارة هنا يعرض صورة كونية لعلم الله (كالصور التي جاء ذكرها في هذا الجزء في سورة سبأ) صورة علم الله المحيط بكل حمل تحمله أنثى في هذه الأرض جميعا :

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » .

والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطير والأسماك والزواحف والحشرات . وسواها مما نعلمه ومما لا نعلمه وكلها تحمل وتضع حتى ما يبيض منها ، فالبيضة حمل من نوع خاص . جنين لا يتم نموه في داخل جسم الأم ؛ بل ينزل بيضة ، ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها هي أو بحضانة صناعية حتى يصبح جنينا كاملا ثم يفقس ويتابع نموه العادي .

وعلم الله على كل حمل وعلى كل وضع في هذا الكون المترامي الأطراف !!!

وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه إليه لا في التصور ولا في التعبير — كما قلنا في سورة سبأ — فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل

Marfat.com

هذا القرآن . وهذه إحدى السمات الدالة على مصدره الإلهى المتفرد .

ومثلها الحديث عن العمر فى الآية ذاتها :

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » ..

فإن الخيال إذا مضى يتدبر ويتتبع جميع الأحياء فى هذا الكون من شجر وطير وحيوان وإنسان وسواه على اختلاف فى الأحجام والأشكال والأنواع والأجناس والمواطن والأزمنة ؛ ثم يتصور أن كل فرد من أفراد هذا الحشد ـ الذى لا يمكن حصره ، ولا يعلم إلا خالقه عدده ـ يعمر فيطول عمره ، أو ينقص من عمره فيقصر وفق قدر مقدور ، ووفق علم متعلق بهذا الفرد ، متابع له ، عمر أم لم يعمر .

بل متعلق بكل جزء من كل فرد . يعمر أو ينقص من عمره . فهذه الورقة من تلك الشجرة يطول عمرها أو تذبل أو تسقط عن قريب . وهذه الريشة من ذلك الطائر يطول مكثها أو تذهب مع الريح . وهذا القرن من ذلك الحيوان يبقى طويلا أو يتحطم فى صراع . وهذه العين فى ذلك الإنسان أو هذه الشعرة تبقى وتسقط وفق تقدير معلوم .

كل ذلك « فى كتاب » .. من علم الله الشامل الدقيق . وأن ذلك لا يكلف جهدا ولا عسرا :

« إن ذلك على الله يسير » ..

إذا مضى الخيال يتدبر هذا ويتتبعه ؛ ثم يتصور ما وراءه .. إنه لأمر عجيب جد عجيب .. وإنه لاتجاه إلى حقيقة لا يتجه إليها التفكير البشرى على هذا النحو . واتجاه إلى تصور هذه الحقيقة وتصويرها على غير مألوف البشر كذلك . وإنما هو التوجيه الإلهى الخاص إلى هذا الأمر العجيب .

والتعمير يكون بطول الأجل وعد الأعوام ؛ كما يكون بالبركة فى العمر ، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقا مثمرا ، واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار . وكذلك يكون نقص العمر بقصره فى عد السنين ؛ أو نزع البركة منه وإنفاقه فى اللهو والعبث والكسل والفراغ .

ورب ساعة تعدل عمرا بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر ، وبما يتم فيها من أعمال وآثار . ورب عام يمر خاويا فارغا لا حساب له فى ميزان الحياة ، ولا وزن له عند الله !

وكل ذلك فى كتاب .. كل ذلك من كل كائن فى هذا الكون الذى لا يعرف حدوده إلا الله . .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد .. كل منها يعمر أو ينقص من عمره . والنص يشمله .

Marfat.com

بل إن الأشياء لكالأحياء . وإنى لأتصور الصخرة المعمرة ، والكهف المعمر ، والنهر المعمر ، والصخرة التي ينتهى أجلها أو يقصر فإذا هى فتات ؛ والكهف الذى ينتهى أجله أو يقصر فإذا هو محطم أو مسدود ؛ والنهر الذى ينتهى أجله أو يقصر فإذا هو غائض أو مبدد !

ومن الأشياء ما تصنعه يد الإنسان . البناء المعمر أو القصير العمر . والجهاز المعمر أو قصير العمر . والثوب المعمر أو قصير العمر .. وكلها ذات آجال وأعمار فى كتاب الله كالإنسان .

وكلها من أمر الله العليم الخبير . .

وإن تصور الأمر على هذا النحو ليوقظ القلب إلى تدبر هذا الكون بحس جديد ، وأسلوب جديد . وإن القلب الذى يستشعر يد الله وعينه على كل شيء بمثل هذه الدقة ليصعب أن ينسى أو يغفل أو يضل . وهو حيثما تلفت وجد يد الله . ووجد عين الله . ووجد عناية الله ، ووجد قدرة الله ، متمثلة ومتعلقة بكل شئ فى هذا الوجود .

وهكذا يصنع القرآن القلوب !

* * *

ويمضى السياق إلى لفتة أخرى فى هذه الجولة الكونية المتعددة اللفتات . يمضى إلى مشهد الماء فى هذه الأرض من زاوية معينة . زاوية تنويع الماء . فهذا عذب سائغ ، وهذا ملح مر . وكلاهما يفترقان ويلتقيان ـ بتسخير الله ـ فى خدمة الإنسان .

« وما يستوى البحران .. هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر . لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » . .

إن إرادة التنويع فى خلق الماء واضحة ؛ ووراءها حكمة ـ فيما نعلم ـ ظاهرة ؛ فأما الجانب العذب السائغ اليسير التناول فنحن نعرف جانبا من حكمة الله فيما نستخدمه وننتفع به ؛ وهو قوام الحياة لكل حى . وأما الجانب الملح المر وهو البحار والمحيطات فيقول أحد العلماء فى بيان التقدير العجيب فى تصميم هذا الكون الضخم :

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ـ ومعظمها سام ـ فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان .

Marfat.com

وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء ـ أى المحيط ـ الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيرا الإنسان نفسه . . »[1] .

وهذا بعض ما تكشف لنا من حكمة الخلق والتنويع ، واضح فيه القصد والتدبير ، ومنظور فيه إلى تناسقات وموازنات يقوم بعضها على بعض فى حياة هذا الكون ونظامه . ولا يصنع هذا إلا الله خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . فإن هذا التنسيق الدقيق لا يجىء مصادفة واتفاقا بحال من الأحوال . والإشارة إلى اختلاف البحرين توحى بمعنى القصد فى هذه التفرقة وفى كل تفرقة أخرى . وستأتى فى السورة إشارات إلى نماذج منها فى عالم المشاعر والاتجاهات والقيم والموازين .

ثم يلتقى البحران المختلفان فى تسخيرهما للإنسان :

« ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر » ..

واللحم الطرى هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها . والحلية من اللؤلؤ والمرجان . واللؤلؤ يوجد فى أنواع من القواقع يتكون فى أجسامها نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء ، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب ، كى لا يؤذى جسم القوقعة الرخو . وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز ، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيوانى يعيش ويكون شعاباً مرجانية تمتد فى البحر أحياناً عدة أميال ، وتتكاثر حتى تصبح خطرا على الملاحة فى بعض الأحيان ؛ وخطرا على كل حى يقع فى براثنها ! وهو يقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى !

والفلك تمخر البحار والأنهار ـ أى تشقها ـ بما أودع الله الأشياء فى هذا الكون من خصائص . ولكثافة الماء وكثافة الأجسام التى تتكون منها السفن دخل فى إمكان طفو السفن على سطح الماء وسيرها فيه . وللرياح كذلك . وللقوى التى سخرها الله للإنسان وعرفه كيف يستخدمها كقوة البخار وقوة الكهرباء وغيرهما من القوى . وكلها من تسخير الله للإنسان .

« لتبتغوا من فضله » . . بالسفر والتجارة ، والانتفاع باللحم الطرى والحلى واستخدام الماء والسفن فى البحار والأنهار .

---

(١) كتاب : الإنسان لا يقوم وحده تأليف (ا . كريسى . موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك) ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

Marfat.com

« ولعلكم تشكرون » . . وقد يسر الله لكم أسباب الشكر ، وجعلها حاضرة بين أيديكم . ليعينكم على الأداء .

* * *

ويختم هذا المقطع بجولة كونية فى مشهد الليل والنهار . ثم فى تسخير الشمس والقمر وفق النظام المرسوم لجريانهما إلى الأجل المعلوم :

« يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل . وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى » . .

وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يعنى ذينك المشهدين الرائعين . مشهد دخول الليل فى النهار ، والضياء يغيب قليلا قليلا ، والظلام يدخل قليلا قليلا حتى يكون الغروب ومايليه من العتمة البطيئة الدبيب . ومشهد دخول النهار فى الليل حينما يتنفس الصبح ، وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً ، حتى تشرق الشمس ويعم الضياء . . كذلك قد يعنى طول الليل وهو يأكل من النهار وكأنما يدخل فيه . وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه . . وقد يعنيهما معا بتعبير واحد . وكلها مشاهد تطوّف بالقلب فى سكون ، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ؛ وهو يرى يد الله تمد هذا الخط ، وتطوى ذاك الخط ، وتشد هـذا الخيط وترخى ذاك الخيط . فى نظام دقيق مطرد لايتخلف مرة ولايضطرب . ولايختل يوماً أوعاماً على توالى القرون . .

وتسخير الشمس والقمر وجريانهما للأجل المرسوم لهما ، والذى لايعلمه إلا خالقهما . . هو الآخر ظاهرة يراها كل إنسان . سواء كان يعلم أحجام هذين الجرمين ، ونوعهما من النجوم والكواكب ومدارهما ودورتهما ومداها . . أم لايعلم من هـذا كله شيئاً . . فهما بذاتهما يظهران ويختفيان أمام كل إنسان ، ويصعدان وينحدران أمام كل بصر . وهذه الحركة الدائبة التى لاتفتر ولاتختل حركة مشهودة لايحتاج تدبرها إلى علم وحساب ! ومن ثم فهى آية معروضة فى صفحة الكون لجميع العقول وجميع الأجيال على السواء . وقد ندرك نحن اليوم عليها الظاهر أكثر مما كان يدرك المخاطبون بهذا القرآن لأول مرة . وليس هـذا هو المهم . إنما المهم أن توحى إلينا ما كانت توحيه إليهم ، وأن تهز قلوبنا كما كانت تهز قلوبهم ، وأن تثير فينا من التدبر ورؤية يد الله المبدعة وهى تعمل فى هـذا الكون العجيب ما كانت تثير فيهم . . والحياة حياة القلوب . .

* * *

Marfat.com

وفي ظل تلك المشاهد المتنوعة العميقة الدلالة القوية السلطان يعقب بتقرير حقيقة الربوبية ، وبطلان كل ادعاء بالشرك ، وخسران عاقبته يوم القيامة :

« ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولاينبئك مثل خبير » . .

ذلكم . الذي أرسل الرياح بالسحاب ، والذي أحيا الأرض بعد موتها ، والذي خلقكم من تراب ، والذي جعلكم أزواجاً ، والذي يعلم ما تحمل كل أنثى وماتضع ، والذي يعلم مايعمر وماينقص من عمره ، والذي خلق البحرين ، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . . ذلكم هو « الله ربكم » . .

« له الملك » . . « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » . . والقطمير غلافة النواة ! وحتى هذا الغلاف الزهيد لايملكه أولئك الذين يدعونهم من دون الله !

ثم يمعن في الكشف عن حقيقة أمرهم .

« إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم » . .

فهم أصنام أو أوثان أو أشجار ، أو نجوم أو كواكب ، أو ملائكة أو جن . . وكلهم لايملكون بالفعل قطميرا . وكلهم لايسمعون لعبادهم الضالين . سواء كانوا لايسمعون أصلا ، أو لايسمعون لكلام البشر . .

« ولو سمعوا ما استجابوا لكم » . .

كالجن والملائكة . فالجن لايملكون الاستجابة . والملائكة لايستجيبون للضالين .

هذا في الحياة الدنيا . فأما يوم القيامة فيبرأون من الضلال والضالين :

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم » . .

يحدث بهذا الخبير بكل شيء . وبكل أمر . وبالدنيا والآخرة :

« ولاينبئك مثل خبير » . .

وبهذا ينتهي هذا المقطع ، وتختم هذه الجولات والمشاهد في تلك العوالم ؛ ويعود القلب البشري منها بزاد يكفيه حياته كلها لو ينتفع بالزاد . وإنه لحسب القلب البشري مقطع واحد من سورة واحدة لو كان الذي يريد هو الهدى ، ولو كان الذي يطلب هو البرهان !

Marfat.com

« يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑮ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ .

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ؛ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ .

« وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ » ㉖

مرة أخرى يرجع إلى الهتاف بالناس أن ينظروا في علاقتهم بالله ، وفي حقيقة أنفسهم ؛ ويرجع إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتسلية عما يلقى ، والتسرية عما يجد من إعراض وضلال ـ كالشأن في المقطع الثاني من السورة ـ ويزيد هنا الإشارة إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصيل عميق كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر والظلمات والنور والظل والحرور والموت والحياة . وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبها ؛ كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبها ! ثم تنتهي الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

* * *

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » . .

Marfat.com

إن الناس فى حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة فى معرض دعوتهم إلى الهدى ، ومجاهدتهم ليخرجوا مما هم فيه من الظلمات إلى نور الله وهداه . فى حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله . وأن الله غنى عنهم كل الغنى . وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غنى عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته . وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتى بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم فى الأرض ، فإن ذلك عليه يسير ..

الناس فى حاجة إلى أن يذكروا بهذه الحقيقة ، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله ــ جل وعلا ــ يعنى بهم ، ويرسل إليهم الرسل ؛ ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور . ويركبهم الغرور فيظنون أنهم شىء عظيم على الله ! وأن هداهم وعبادتهم تزيد شيئا فى ملكه تعالى ! والله هو الغنى الحميد .

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته ، ويفيض عليهم من رحمته ، ويغمرهم بسابغ فضله ــ بإرسال رسله إليهم ، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم ، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء .. إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا رحمة منه وفضلا وكرما ومنا . لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته . لا لأن هؤلاء العباد يزيدون فى ملكه شيئا بهداهم ، أو ينقصون من ملكه شيئا بعماهم . ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال ، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يعاد ولا يستبدل .

وإن الإنسان ليدهش ويحار فى فضل الله ومنه وكرمه ، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر ، الضعيف العاجز ، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل !

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض . والأرض تابع صغير من توابع الشمس . والشمس نجم مما لا عد له ولا حصر من النجوم . والنجوم إن هى إلا نقط صغيرة ــ على ضخامتها الهائلة ــ متناثرة فى فضاء الكون الذى لا يعلم الناس حدوده . وهذا الفضاء الذى تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله !

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية .. ينشئه . ويستخلفه فى الأرض . ويهبه كل أدوات الخلافة ــ سواء فى تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له فى خلافته ــ ويضل هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه أو ينكره . فيرسل الله

Marfat.com

إليه الرسل ، رسولا بعد رسول ، وينزل على الرسل الكتب والخوارق . ويطرد فضل الله ويفيض حتى لينزل فى كتابه الأخير للبشر قصصا يحدث بها الناس ، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم ، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم ، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات ، ومن عجز وضعف ، بل إنه ـ سبحانه ـ ليحدث عن فلان وفلان بالذات ، فيقول لهذا : أنت فعلت وأنت تركت ، ويقول لذاك : هاك حلا لمشكلتك ، وهاك خلاصا من ضيقتك !

كل ذلك ، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض، التابعة الصغيرة من توابع الشمس، التائهة فى هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحس ! والله ـ سبحانه ـ هو فاطر السماوات والأرض ، وخالق هذا الوجود بما فيه ومن فيه بكلمة . بمجرد توجه الإرادة . وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجه الإرادة ..

والناس خلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته . وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران .

فهى من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية ، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة . والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر ؛ لأن الحقيقة حين تجلى أفعل فى النفس ؛ ولأنه هو الحق وبالحق نزل . فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يقنع إلا بالحق ، ولا يعرض إلا الحق ، ولا يشير بغير الحق ..

* * *

ولمسة أخرى بحقيقة أخرى . حقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردى الذى لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا . فما بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه ، فهو محاسب على عمله وحده ، كما أن كلا منهم محاسب على ما كسبت يداه ، يحمل حمله وحده ، لا يعينه أحد عليه . ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه ، وهو الكاسب وحده لا سواه ؛ والأمر كله صائر إلى الله :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » ..

« ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير » ..

Marfat.com

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه ـ في الوقت ذاته ـ عامل مطمئن ، فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ؛ فيطيش وييئس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه في النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله ـ سبحانه ـ لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فردا فردا ؛ كل على عمله. وفي حدود واجبه . ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده . فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء في الجماعة التي يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه . كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح . فالله لا يحاسب عباده بالقائمة كما أسلفنا !

والتعبير القرآني يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير في القرآن ، فتكون أعمق وأشد أثرا . يصور كل نفس حاملة حملها . فلا تحمل نفس حمل أخرى . وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئا ، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئا مما يثقلها!

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزان ! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء . واهتمام كل بحمله وثقله ، وانشغاله عن البعداء والأقرباء !

وعلى مشهد القافلة المجهدة المثقلة ، يلتفت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » ..

فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار . هؤلاء الذين يخشون ربهم ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . هؤلاء هم الذين ينتفعون بك ، ويستجيبون لك . فلا عليك ممن لا يخشى الله ولا يقيم الصلاة .

« ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » ..

لا لك . ولا لغيرك . إنما هو يتطهر لينتفع بطهره . والتطهر معنى لطيف شفاف . يشمل القلب وخوالجه ومشاعره ، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره . وهو معنى موح رفاف .

Marfat.com

« وإلى الله المصير » ..

وهو المحاسب ، والمجازى ، فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء . ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون ..

* * *

ولن يستوى عند الله الإيمان والكفر ، والخير والشر ، والهدى والضلال ؛ كما لا يستوى العمى والبصر ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والحياة والموت . وهى مختلفة الطبائع من الأساس :

« وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات » ...

وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة . كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة ..

إن الإيمان نور . نور فى القلب ونور فى الجوارح ، ونور فى الحواس . نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور . نور الله .فيرى تلك الحقائق،ويتعامل معها،ولا يخبط فى طريقه ولا يلطش فى خطواته!

والإيمان بصر . يرى . يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة . ويمضى بصاحبه فى الطريق على نور وعلى ثقة وفى اطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة فى التيه المظلم بلا دليل !

والإيمان حياة . حياة فى القلوب والمشاعر . حياة فى القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية . مثمرة . قاصدة . لا خمود فيها ولا همود . ولا عبث فيها ولا ضياع .

والكفر عمى . عمى فى طبيعة القلب . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود . وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء .

والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون فى ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تمتنع فيها الرؤية الصحيحة لشىء من الأشياء .

والكفر هاجرة . حرور . تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف ، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير . ثم تنتهى إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك !

Marfat.com

والكفر موت . موت فى الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيق ، المؤثرين فى سير الحياة !

ولكل طبيعته ولكل جزاؤه ، ولن يستوى عندالله هذا وذاك .

* * *

هنا يلتفت إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – يعزيه ويسرى عنه ، بتقرير حدود عمله وواجبه فى دعوة الله . وترك ما تبقى بعد ذلك لصاحب الأمر يفعل به ما يشاء :

« إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا . فكيف كان نكير ؟ » ..

إن الفوارق أصيلة فى طبيعة الكون وفى طبيعة النفس . واختلاف طباع الناس واختلاف استقبالهم لدعوة الله أصيل أصالة الفوارق الكونية فى البصر والعمى ، والظل والحرور ، والظلمات والنور ، والحياة والموت . ووراء ذلك كله تقدير الله وحكمته . وقدرته على ما يشاء .

وإذن فالرسول ليس إلا نذيرا . وقدرته البشرية تقف عند هذا الحد . فما هو بمسمع من فى القبور . ولا من يعيشون بقلوب ميتة فهم كأهل القبور ! والله وحده هو القادر على إسماع من يشاء ، وفق ما يشاء ، حسبما يشاء . فماذا على الرسول أن يضل من يضل ، ويعرض من يعرض متى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فسمع من شاء الله أن يسمع ، وأعرض من شاء الله أن يعرض ؟

ومن قبل قال الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ».

لقد أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا . شأنه شأن إخوانه من الرسل – صلوات الله عليهم – وهم كثير . فما من أمة إلا سبق فيها رسول :

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » . .

فإن لقى من قومه التكذيب ، فتلك هى طبيعة الأقوام فى استقبال الرسل ؛ لا عن تقصير من الرسل ، ولا عن نقص فى الدليل :

Marfat.com

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم . جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » . .

والبينات الحجج فى صورها الكثيرة ، ومنها الخوارق المعجزة التى كانوا يطلبون أو يتحداهم بها الرسول . والزبر الصحف المتفرقة بالمواعظ والنصائح والتوجيهات والتكاليف . والكتاب المنير . الأرجح أنه كتاب موسى . التوراة . وكلهم كذبوا بالبينات والزبر والكتاب المنير .

هذا كان شأن أمم كثيرة فى استقبال رسلهم وما معهم من دلائل الهدى . فالأمر إذن ليس جديدا ، وليس فريدا ، إنما هو ماض مع سنة الأولين .

وهنا يعرض على المشركين مصائر المكذبين . لعلهم يحذرون :

« ثم أخذت الذين كفروا » . .

ويسأل سؤال تعجيب وتهويل :

« فكيف كان نكير ؟ » . .

ولقد كان النكير شديدا ، وكان الأخذ تدميرا . فليحذر الماضون على سنة الأولين ، أن يصيبهم ما أصاب الأولين !

إنها لمسة قرآنية ينتهى بها هـذا المقطع . ونختم بها هذه الجولة . ثم تبدأ جولة جديدة فى واد جديد . .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ؛ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ .

Marfat.com

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ . ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ، وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا ، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

« إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ٣٨

وهذه الجولة قراءات فى كتاب الكون وفى الكتاب المنزل . قراءات فى كتاب الكون فى صحائفه المعجبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس . الثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة .. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح . . وقراءات فى الكتاب المنزل ومافيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة . وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين . ومابنتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ؛ ومشهدهم فى دار النعيم . ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم . وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور . .

* * *

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ؛ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور » . .

Marfat.com

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها . في الثمرات . وفي الجبال . وفي الناس . وفي الدواب والأنعام . لفتة تجمع في كلمات قلائل ، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذا بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان . ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لايذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » . . وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية . ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، بل إن فيها أحيانا ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها !

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . .

والجدد الطرائق والشعاب . وهنا لفتة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد .

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان . ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركا بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لاتقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد

Marfat.com

بعد ذلك متميز اللون بين بنى جنسه . بل متميز من توأمه الذى شاركه حملا واحدا فى بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل حيوان . والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء .

هذا الكتاب الكونى الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين ، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول : إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » . .

وهذه الصفحات التى قلبها فى هذا الكتاب هى بعض صفحاته ، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب . ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية . يعرفونه بآثار صنعته . ويدركونه بآثار قدرته . ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه . ومن ثم يخشونه حقا ويتقونه حقا ، ويعبدونه حقا . لا بالشعور الغامض الذى يجده القلب أمام روعة الكون . ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر . . وهذه الصفحات نموذج من الكتاب . . والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التى لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب . العلماء به علما واصلا . علما يستشعره القلب ، ويتحرك به ، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق فى ذلك الكون الجميل .

إن عنصر الجمال يبدو مقصودا قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها . هذه الألوان العجيبة فى الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح . ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هى القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار . وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! . . والجمال فى الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه . لأداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان . وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال .

الجمال عنصر مقصود قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن ثم هذه اللفتات فى كتاب الله المنزل إلى الجمال فى كتاب الله المعروض .

Marfat.com

« إن الله عزيز غفور » . .

عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء . غفور يتدارك بمغفرته من يقصرون في خشيته ، وهم يرون بدائع صنعته .

* * *

ومن كتاب الكون ينتقل الحديث إلى الكتاب المنزل ، والذين يتلونه ، ومايرجون من تلاوته ، وما ينتظرهم من جزاء :

« إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيـة ، يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . إنه غفور شكور » . .

وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت . تعني تلاوته عن تدبر ، ينتهي إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعـد ذلك وسلوك . ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سرا وعلانية من رزق الله . ثم رجاؤهم بكل هذا « تجارة لن تبور » . . فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون . ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح . يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة ؛ ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة .. تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم ، وزيادتهم من فضل الله .. « إنه غفور شكور » .. يغفر التقصير ويشكر الأداء . وشكره ــ تعالى ــ كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضى وحسن الجزاء . ولـكن التعبير يوحي للبشر بشكر النعم . تشبها واستحياء . فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء ؟!

* * *

ثم إشارة إلى طبيعة الـكتاب ، وما فيـه من الحق ، تمهيداً للحديث عن ورثة هـذا الـكتاب :

« والذي أوحينا إليك من الـكتاب هو الحق ، مصدقا لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير » . . .

ودلائل الحق في هـذا الـكتاب واضحة في صلبه ؛ فهو الترجمة الصحيحة لهذا الـكون في حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة والـكون هو الصفحة الصامتة . وهو مصدق لما قبله من

Marfat.com

الكتب الصادرة من مصدره . والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه . ومنزله نزله للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم : « إن الله بعباده لخبير بصير » ..

هذا هو الكتاب فى ذاته . وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاها لهذه الوراثة ، كما يقول هنا فى كتابه :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ..

وهى كلمات جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله ؛ كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة . وهى تبعة ضخمة ذات تكاليف ، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟

إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة ؛ ثم أكرمها بفضله فى الجزاء حتى لمن أساء :

« فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » ..

فالفريق الأول ـ ولعله ذكر أولا لأنه الأكثر عددا ـ « ظالم لنفسه » تربى سيئاته فى العمل على حسناته . والفريق الثانى وسط « مقتصد » تتعادل سيئاته وحسناته . والفريق الثالث «سابق بالخيرات بإذن الله » ، تربى حسناته على سيئاته .. ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعا . فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف فى الآيات التالية . على تفاوت فى الدرجات .

ولا ندخل هنا فى تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه فى هذا الموضع من كرامة هذه الأمة باصطفائها ، وكرم الله سبحانه فى جزائها . فهذا هو الظل الذى تلقيه النصوص هنا ، وهى النهاية التى تنتهى إليها هذه الأمة جميعا ـ بفضل الله ـ ونطوى ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر فى علم الله .

نطوى هذا الجزاء المبدئى لنخلص إلى ما قدره الله لهذه الأمة بصنوفها الثلاثة من حسن الجزاء :

« ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . إن ربنا لغفور شكور .

Marfat.com

الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » ..

إن المشهد (١) يتكشف عن نعيم مادى ملموس ، ونعيم نفسى محسوس . فهم « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .. وذلك بعض المتاع ذى المظهر المادى، الذى يلبي بعض رغائب النفوس . وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن وذلك الاطمئنان : « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » . . والدنيا بما فيها من قلق على المصير ، ومعاناة للأمور تعد حزنا بالقياس إلى هذا النعيم المقيم . والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير . « إن ربنا لغفورشكور » . . غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها . « الذى أحلنا دار المقامة » . . . للإقامة والاستقرار « من فضله » فما لنا عليه من حق ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء . « لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » . . بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان .

فالجو كله يسر وراحة ونعيم . والألفاظ مختارة لتنسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحانى الرحيم . حتى « الحزن » لا يتكأ عليه بالسكون الجازم . بل يقال « الحزَن » بالتسهيل والتخفيف . والجنة « دار المقامة » . والنصب واللغوب لا يمسانهم مجرد مساس . والإيقاع الموسيقى للتعبير كله هادئ ناعم رتيب .

ثم نلتفت إلى الجانب الآخر . فنرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال :

« والذين كفروا لهم نار جهنم ، لايقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها » ..

فلا هذه ولا تلك . حتى الرحمة بالموت لا تنال !

« كذلك نجزى كل كفور » . .

ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين فى جهنم :

« وهم يصطرخون فيها » ..

وجرس اللفظ نفسه يلقى فى الحس هذه المعانى جميعا . . فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول . إنه يقول:

---

(١) عن كتاب : مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠٠ ، ١٠١ .

Marfat.com

ثمورا . وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الداثرة ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية .. ثم الختام للوحى للموقظ الرهيب : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » . وفضل الله العظيم فى إمهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر للبيد . .

* * *

« هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض . فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .

إن تتابع الأجيال فى الأرض ، وذهاب جيل ومجىء جيل ، ووراثة هذا لذاك ، وانتهاء دولة وقيام دولة ، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة . وهـذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور .. إن التفكير فى هذه الحركة الدائبة خليق أن يجدّ للقلب عبرة وعظة ، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعـد حين غابرين ، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم ، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم . وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التى تدير الأعمار ، وتقلب الصولجان، وتديل الدول ، وتورث الملك ، وتجعل من الجيل خليفة لجيل . وكل شىء يمضى وينتهى ويزول ، والله وحده هو الباقى الدائم الذى لا يزول ولا يحول .

ومن كان شأنه أن ينتهى ويمضى ، فلا يخلد ولا يبقى . من كان شأنه أنه سائح فى رحلة ذات أجل ؟ وأن يعقبه من بعـده ليرى ماذا ترك وماذا عمل ، وأن يصير فى النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل . من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل ، ويترك وراءه الذكر الجميل ، ويقدم بين يديه ما ينفعه فى مثواه الأخير .

هـذه بعض الخواطر التى تساور الخاطر ، حين يوضع أمامه مشهد الدثور والظهور ، والطلوع والأفول ، والدول الدائلة ، والحياة الزائلة ، والوراثة الدائبة جيلا بعد جيل :

« هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » . .

وفى ظل هذا المشهد المؤثر للتتابع للناظر ، يذكرهم بفردية التبعة ، فلا يحمل أحد عن أحد شيئا ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئا ؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال ، وعاقبته الخاسرة فى نهاية المطاف :

Marfat.com

« فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .

والمقت أشد البغض . ومن يمقته ربه فأى خسران ينتظره ؟ وهذا المقت فى ذاته خسران يفوق كل خسران ؟ !

* * *

والجولة الثانية فى السماوات والأرض ، لتقصى أى أثر أو أى خبر لشركائهم الذين يدعونهم من دون الله ، والسماوات والأرض لاتحس لهم أثرا ، ولا تعرف عنهم خبرا :

« قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا » .

والحجة واضحة والدليل بين . فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها . هذه هى مشهودة منظورة . أى جزء فيها أو أى شئ يمكن أن يدعى مدع أن أحدا ـ غير الله ـ خلقه وأنشأه؟ إن كل شئ يصرخ فى وجه هذه الدعوى لوجرؤ عليها مدع . وكل شئ يهتف بأن الذى أبدعه هو الله ؛ وهو يحمل آثار الصنعة التى لا يدعيها مدع ، لأنه لا تشبهها صنعة ، مما يعمل العاجزون أبناء الفناء !

« أم لهم شرك فى السماوات ؟ » . .

ولا هذه من باب أولى ! فما يجرؤ أحد على أن يزعم لهذه الآلهة المدعاة مشاركة فى خلق السماوات ، ولا مشاركة فى ملكية السماوات . كائنة ماكانت . حتى الذين كانوا يشركون الجن أو الملائكة .. فقصارى ما كانوا يزعمون أن يستعينوا بالشياطين على إبلاغهم خبر السماء . أو يستشفعوا بالملائكة عند الله . ولم يرتق ادعاؤهم يوما إلى الزعم بأن لهم شركا فى السماء !

« أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟ » . .

وحتى هذه الدرجة ـ درجة أن يكون الله قد آتى هؤلاء الشركاء كتابا فهم مستيقنون منه ، واثقون مما فيه ـ لم يبلغها أولئك الشركاء المزعومون . . والنص يحتمل أن يكون هذا السؤال الإنكارى موجها إلى المشركين أنفسهم ـ لا إلى الشركاء ـ فإن إصرارهم على

Marfat.com

شركهم قد يوحى بأنهم يستمدون عقيدتهم هذه من كتاب أوتوه من الله فهم على بينة منه وبرهان . وليس هذا صحيحاً ولا يمكن أن يدعوه . وعلى هذا المعنى يكون هناك إيحاء بأن أمر العقيدة إنما يتلقى من كتاب من الله بين . وأن هذا هو المصدر الوحيد الوثيق . وليس لهم من هذا شئ يدعونه ؛ بينما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد جاءهم بكتاب من عند الله بين . فما لهم يعرضون عنه ، وهو السبيل الوحيد لاستمداد العقيدة ؟ !

« بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا » . .

والظالمون يعد بعضهم بعضاً أن طريقتهم هى المثلى ؛ وأنهم هم المنتصرون فى النهاية . وإن هم إلا مخدوعون مغروروون ، يغر بعضهم بعضا ، ويعيشون فى هـذا الغرور الذى لا يجدى شيئا . .

* * *

والجولة الثالثة ـ بعد نفى أن يكون للشركاء ذكر ولا خبر فى السماوات ولا فى الأرض ـ تكشف عن يد الله القوية الجبارة تمسك بالسماوات والأرض وتحفظهما وتدبر أمرهما بلا شريك :

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده. إنه كان حليما غفورا » . .

ونظرة إلى السماوات والأرض ؛ وإلى هذه الأجرام التى لا تحصى منتثرة فى ذلك الفضاء الذى لا تعلم له حدود . وكلها قائمة فى مواضعها ، تدور فى أفلاكها محافظة على مداراتها ، لا تختل ، ولا تخرج عنها ، ولا تبطىء أو تسرع فى دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ، ولا تشد بأمراس (١) ، ولا تستند على شيء من هنا أو من هناك . . نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفيـة القاهرة القادرة التى تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول .

ولئن زالت السماوات والأرض عن مواضعها ، واختلت وتناثرت بددا ، فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبدا . وذلك هو الموعد الذى ضربه القرآن كثيراً لنهاية هذا العالم .

(١) الأمراس : الحبال المتينة .

Marfat.com

حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر ؛ ويذهب كل شيء في هذا الفضاء لايمسك أحد زمامه .

وهذا هو الوعد المضروب للحساب والجزاء على ماكان فى الحياة الدنيا . والانتهاء إلى العالم الآخر ، الذى يختلف فى طبيعته عن عالم الأرض اختلافا كاملا .

ومن ثم يعقب على إمساك السماوات والأرض أن تزولا بقوله :

« إنه كان حليما غفورا » . .

« حليما » يمهل الناس ، ولا ينهى هذا العالم بهم ، ولا يأخذ بنواصيهم إلى الحساب والجزاء إلا فى الأجل المعلوم . ويدع لهم الفرصة للتوبة والعمل والاستعداد . « غفورا » لا يؤاخذ الناس بكل ما اجترموا ، بل يتجاوز عن كثير من سيئاتهم ويغفرها متى علم فيهم خيرا . وهو تعقيب موح ينبه الغافلين لاقتناص الفرصة قبل أن تذهب فلا تعود .

* * *

والجولة الرابعة مع القوم وما عاهدوا الله عليه، ثم ما انتهوا بعد ذلك إليه من نقض للعهد ، وفساد فى الأرض . وتحذير لهم من سنة الله التى لا تتخلف ، ولا تبديل فيها ولا تحويل :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم . فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً فى الأرض ومكر السيء ـ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ـ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . .

ولقد كان العرب يرون اليهود أهل كتاب يجاورونهم فى الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم ما يرون ؛ وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم رسلهم ، وإعراضهم عن الحق الذى جاءوهم به . وكانوا إذ ذاك ينحون على اليهود ، ويقسمون بالله حق ما يدعون مجالا للتشديد فى القسم : « لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم » . . يعنون اليهود . يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون

ذلك كان حالهم وتلك كانت أيمانهم . . يعرضها كأنما يدعو المستمعين ليشهدوا على ما كان

Marfat.com

من هؤلاء القوم فى جاهليتهم . ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك حينما حقق الله أمنيتهم ، وأرسل فيهم نذيرا :

« فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء ! » . .

وإنه لقبيح بمن كانوا يقسمون هذه الأيمان المشددة أن يكون هذا مسلكهم : استكبارا فى الأرض ومكر السيء . والقرآن يكشفهم هذا الكشف ، ويسجل عليهم هذا المسلك . ثم يضيف إلى هذه المواجهة الأدبية المزرية بهم ، تهديد كل من يسلك هذا المسلك الزرى :

« ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . .

فما يصيب مكرهم السيء أحداً إلا أنفسهم ؛ وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم .

وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم . وإلا أن تمضى سنة الله الثابتة فى طريقها الذى لا يحيد :

« ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » . .

* * *

والأمور لا تمضى فى الناس جزافا ؛ والحياة لا تجرى فى الأرض عبثا ؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق ، لا تتبدل ولا تتحول . والقرآن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلمها للناس ، كى لا ينظروا الأحداث فرادى ، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة ، محصورين فى فترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة ، وسنن الوجود ، فيوجههم دائما إلى ثبات السنن واطراد النواميس . ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ؛ ودلالة ذلك الماضى على ثبات السنن واطراد النواميس .

وهذه الجولة الخامسة نموذج من نماذج هذا التوجيه بعد تقرير الحقيقة الكلية من أن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول :

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ــ وكانوا أشد منهم قوة ــ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض . إنه كان عليما قديرا » .

والسير فى الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ ؛ والوقوف على مصارع الغابرين ، وتأمل

Marfat.com

ماكانوا فيه وماصاروا إليـه . . كل أولئك خليق بأن تستقر فى القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى . .

ومن ثم هـذه التوجيهات المكررة فى القرآن للسير فى الأرض والوقوف على مصارع الغابرين ، وآثار الذاهبين . وإيقاظ القلوب من الغفلة التى تسدر فيها ، فلا تقف . وإذا وقفت لاتحس . وإذا أحست لاتعتبر . وينشأ عن هـذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة . وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الـكلية . وهى الميزة التى تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم ، الذى يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات ؛ لارابط لهـا ، ولاقاعدة تحكمها . والجنس البشرى كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس .

وأمام هذه الوقفة التى يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم ـ وكانوا أشد منهم قوة ـ فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم . أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الـكبرى . القوة التى لايغلبها شىء ولايعجزها شىء ؛ والتى أخذت الغابرين وهى قادرة على أخذهم كالأولين :

« وماكان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض » . .

ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض أسانيدها :

« إنه كان عليما قديرا » . .

يحيط علمه بكل شىء فى السماوات والأرض ؛ وتقوم قدرته إلى جانب علمه . فلا يند عن علمـه شىء ، ولايقف لقدرته شىء . ومن ثم لايعجزه شىء فى السماوات ولافى الأرض . ولامهرب من قدرته ولااستخفاء من علمه : « إنه كان عليما قديرا » . .

* * *

وأخيرا يجىء ختام السورة ، يكشف عن حلم الله ورحمتـه إلى جانب قوته وقدرته ؛ ويؤكد أن إمهال الناس عن حلم وعن رحمـة ، لايؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية :

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة . ولـكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » . .

إن ما يرتـكبه الناس من كفر لنعمة الله ، ومن شر فى الأرض وفساد ، ومن ظلم

Marfat.com

فى الأرض وطغيان . إن هذا كله لفظيع شنيع . ولو يؤاخذ الله الناس به ، لتجاوزهم - لضخامته وشناعته وبشاعته - إلى كل حى على ظهر هذه الأرض . ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة لحياة إطلاقا . لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخرى !

والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة .

غير أن الله حليم لا يعجل على الناس :

« ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » ..

يؤخرهم أفرادا إلى أجلهم الفردى حتى تنقضى أعمارهم فى الدنيا . ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم فى الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر . ويؤخرهم جنسا إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجىء الساعة الكبرى . ويفسح فى الفرصة لعلهم يحسنون صنعا .

« فإذا جاء أجلهم » ..

وانتهى وقت العمل والكسب ، وحان وقت الحساب والجزاء ، فإن الله لن يظلمهم شيئا :

« فإن الله كان بعباده بصيرا » ..

وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم ، لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة .

* * *

هذا هو الإيقاع الأخير فى السورة التى بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض . « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » يحملون رسالة السماء إلى الأرض . وما فيها من تبشير وإنذار فإما إلى جنة وإما إلى نار ..

وبين البدء والختام تلك الجولات العظام فى تلك العوالم التى طوفت بها السورة . وهذه نهاية المطاف . ونهاية الحياة . ونهاية الإنسان ..

Marfat.com

فهرس المجلد السادس

في ظلال القرآن

السورة		مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة المؤمنون مدنية وآياتها ١١٨			٥ – ٥١	الثامن عشر
تفسير الآيات :	١ – ٢٢	قد افلح المؤمنون. الذين هم . . .	٥ – ٢١	
» » :	٢٣ – ٥٢	ولقد ارسلنا نوحًا إلى قومه	٢٢	
» » :	٥٣ – ٩٨	فتقطعوا امرهم بينهم زبرًا	٣٢ – ٤٦	
» » :	٩٩ – ١١٨	حتى إذا جاء احدهم الموت قال. .	٤٧ – ٥١	
سورة النور مدنية وآياتها ٦٤			٥٣ – ١٢٨	
تفسير الآيات :	١ – ٢٦	سورة انزلناها، وفرضناها	٥٣	
» » :	٢٧ – ٣٤	يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا . . .	٨٥	
» » :	٣٥ – ٤٥	الله نور السموات والأرض	١٠٢	
» » :	٤٦ – ٥٧	لقد انزلنا آيات مبينات	١١٢	
» » :	٥٨ – ٦٤	يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم . . .	١٢١ – ١٢٨	
سورة الفرقان مكية وآياتها ٧٧			١٣١ – ١٨٨	التاسع عشر
تفسير الآيات :	١ – ٢٠	تبارك الذي نزّل الفرقان على . . .	١٣١	
» » :	٢١ – ٤٤	وقال الذين لا يرجون لقاءنا. . . .	١٥٠	
» » :	٤٥ – ٦٢	الم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ . . .	١٦٦ – ١٨٠	
» » :	٦٣ – ٧٧	وعباد الرحمن الذين يمشون . . .	١٨١ – ١٨٨	
سورة الشعراء مكية وآياتها ٢٢٧			١٨٩ – ٢٤٨	
تفسير الآيات :	١ – ٩	طسم. تلك آيات الكتاب	١٨٩ – ١٩٣	
» » :	١٠ – ٦٨	وإذ نادى ربك موسى	١٩٤	
» » :	٦٩ – ١٠٤	واتل عليهم نبأ ابراهيم	٢١٤	
» » :	١٠٥ – ١٢٢	كذبت قوم نوح المرسلين	٢٢٣	
» » :	١٢٣ – ١٤٠	كذبت عاد المرسلين	٢٢٧	

Marfat.com

السورة		مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
» » :	١٤١ – ١٥٩	كذبت ثمود المرسلين	٢٣٠	
» » :	١٦٠ – ١٧٥	كذبت قوم لوط المرسلين	٢٣٣	
» » :	١٧٦ – ١٩١	كذب اصحاب الايكة المرسلين ..	٢٣٦	
» » :	١٩٢ – ٢٢٧	وإنه لتزيل رب العالمين	٢٣٨ – ٢٤٨	
سورة النمل مكية وآياتها ٩٣			٢٤٩ – ٣١٣	
تفسير الآيات :	١ – ٦	طس تلك آيات القرآن	٢٤٩	
» » :	٧ – ١٤	إذ قال موسى لأهله	٢٥٤ – ٢٥٨	
» » :	١٥ – ٤٤	ولقد آتينا داود وسليمان علمًا ...	٢٥٩ – ٢٧٧	
» » :	٤٥ – ٥٣	ولقد ارسلنا إلى ثمود اخاهم ...	٢٧٧	
» » :	٥٤ – ٥٨	ولوطا إذ قال لقومه	٢٨٢ – ٢٨٤	
» » :	٥٩ – ٩٣	قل الحمد لله وسلام على	٢٨٧ – ٣١٣	
سورة القصص مكية وآياتها ٨٨			٣١٤ – ٣٩٢	العشرون
تفسير الآيات :	١ – ٤٣	طسم. تلك آيات الكتاب	٣١٤	
» » :	٤٤ – ٧٥	وماكنت بجانب الغربي إذ قضينا ..	٣٥١	
» » :	٧٦ – ٨٤	إن قارون كان من قوم موسى ...	٣٧١	
» » :	٨٥ – ٨٨	إن الذي فرض عليك القرآن لرادك .	٣٧٨ – ٣٨٢	
سورة العنكبوت مكية وآياتها ٦٩			٣٨٣ – ٤٣١	
تفسير الآيات :	١ – ١٣	الم. احسب الناس أن يتركوا ...	٣٨٣	
» » :	١٤ – ٤٥	ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه	٣٩٤ – ٤١٣	
» » :	٤٦ – ٦٩	ولا تجادلوا اهل الكتاب	٤١٧ – ٤٣١	الحادي والعش
سورة الروم مكية وآياتها ٦٠			٤٣٢ – ٤٦٩	
تفسير الآيات :	١ – ٣٢	الم. غلبت الروم في ادنى	٤٣٢	
» » :	٣٣ – ٦٠	وإذا مس الناس ضر دعوا	٤٥٤ – ٤٦٩	
سورة لقمان مكية وآياتها ٣٤			٤٧٠ – ٥٠١	
تفسير الآيات :	١ – ١٩	الم. تلك آيات الكتاب الحكيم ..	٤٧٠	
» » :	٢٠ – ٣٤	ألم تروا أن الله سخر لكم	٤٨٨ – ٥٠١	

Marfat.com